مذكرات

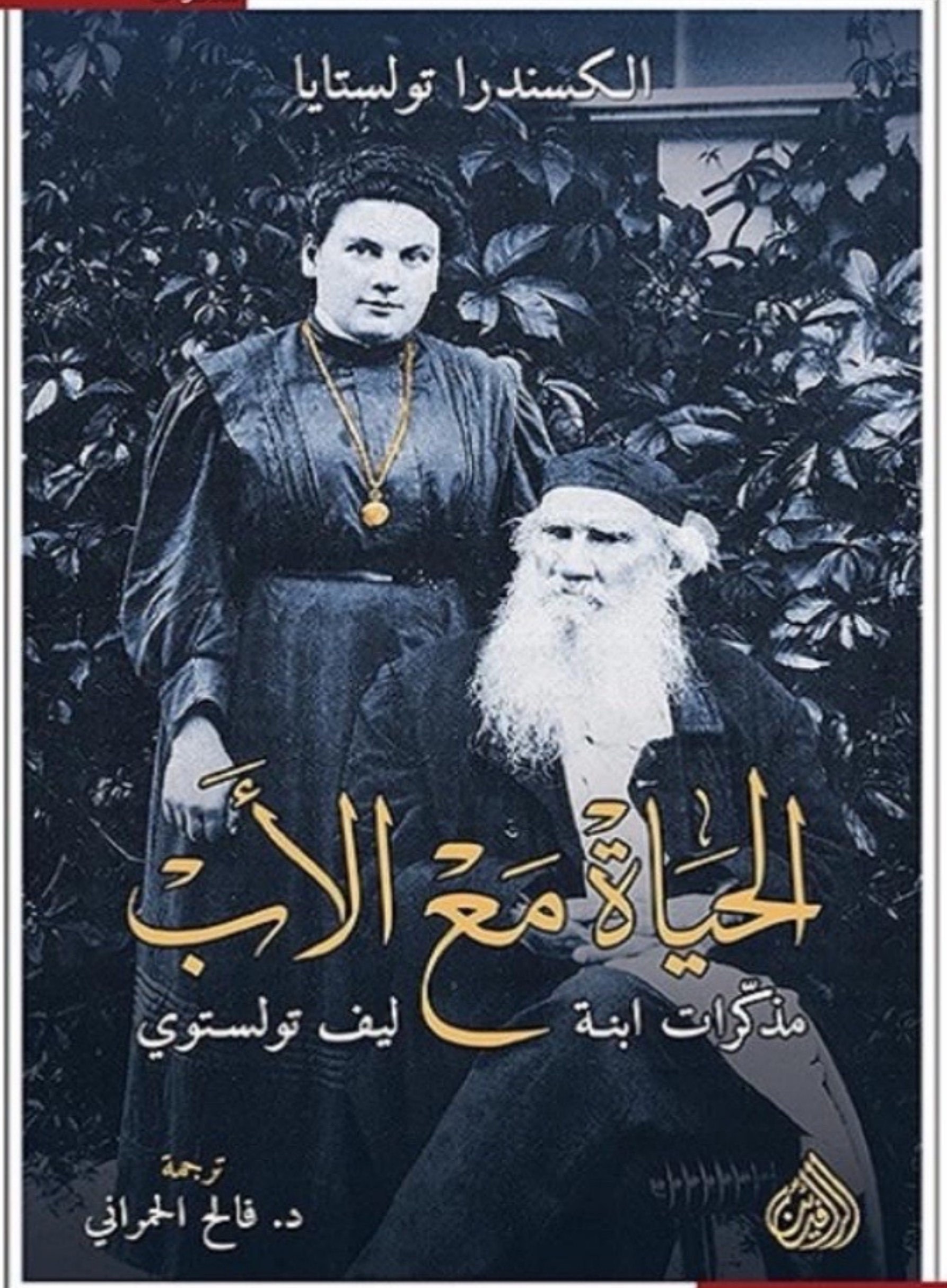
الكسندرا تولستايا
الحياة مع الأب
مذكّرات ابنة ليف تولستوي
ترجمة
د. فالح الحمراني

الحياة مع الأب

«مذكرات ابنة ليف تولستوي»

الكسندرا تولستايا

ترجمة: د. فالح الحمراني

العنوان بالأصل:

Жизнь с Отцом

By Александра Толстая

العنوان بالانكليزي:

Life With The Father

By Alexandra Tolstaya

Translated by Faleh Al-Hamrani

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2021 (1000 نسخة)

This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2021

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 43 - 4

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

لبنان ــ بيروت / الحمرا
تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+
بغداد ــ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.
ISBN: 978 - 9922 - 643 - 43 - 4

الكسندرا تولستايا

الحياة مع الأب

مذكّرات ابنة ليف تولستوي

ترجمة

د. فالح الحمراني

دار الرافدين
www.daralrafidain.com

كلمة لابد منها

د. فالح الحمراني

هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ العربي هو عن الأديب والمفكر الروسي الكبير ليف تولستوي(1828 ـ 1910)، فهو الشخصية المحورية فيه، وتدور الشخصيات الأخرى والأحداث الصغيرة والكبرى منها حوله، كما تدور الكواكب والأجرام حول الشمس. في الوقت نفسه هو ليس عنه وحسب، فهناك أصداء العصر وأحداثه الكبرى وشخصياته المرموقة، وهناك صوت الفلاحين والجماهير الغفيرة من مختلف الشرائح والطوائف الدينية والقومية، ممن يستغيثون بتولستوي من جور نظام القيصرية والقنانة، وفيه أيضا تأملات الفلاسفة والأدباء وجدلهم، وردودهم على الأسئلة التي شغلت بال تولستوي، عن معنى الحياة، ورسالة الإنسان، وماهية الدين الحقيقي، وادراك الإنسان له، وبالتالي موقف الإنسان من عصره، ومسؤوليته عنه.

ان مؤلفة هذا الكتاب هي الابنة الصغرى لليف تولستوي، الكسندرا تولستايا التي ولدت في ضيعة ياسنايا بوليانا عام 1884 وعاشت إلى جانب ابيها خمسة وعشرين عاما وحتى يوم وفاته، وكانت من اكثر المقربين اليه، ليس فقط بعلاقات الرحم، وانما بالروح وعمق فهم ابداعاته الادبية والفكرية، وشاطرته افكاره ومعتقداته من صميم وجدانها. تتابع في مذكراتها نمو هذه العلاقات ولاسيما في السنوات الأخيرة من عمر الاديب، حينما كان يمر بأزمة روحية وعائلية، وحينما كان بحاجة الى الحب والفهم.

انه كتاب مذكرات حية ومثيرة للاهتمام تصوّر بشكل موثوق حياة الأسرة والعالم المحيط فيها، وتكشف عن العلاقات المعقدة داخل الأسرة، إبان السنوات الأخيرة من حياة الكاتب العظيم، حينما قرر تولستوي التخلي عن حقوقه كمؤلف ووضع أعماله مجانا تحت التصرف العام، فيما رفضت زوجته صوفيا اندريفنا هذا الخيار، وصارعت من

اجل ان تكون حقوق الطبع باسمها، لأنها مورد «رزق العائلة»، حسب قولها، ووقفت الابنة الصغرى، المقربة من أبيها، في هذا النزاع الدرامي الى جانب والدها، ولثقته بها منحها حق التصرف باعماله بعد رحيله لتحقيق رغبته، وكشف لها بدقة تفاصيل سر مغادرته ياسنايا بوليانا، واحتضر امام عينيها...

ان الصفحات التي تحظى باهتمامنا على وجه الخصوص في هذه المذكرات، هي تلك التي تتحدث فيها عن ابيها وعن نمط حياته، عن تولستوي الانسان، في حياته اليومية وهو يعكف على العمل والانتاج، والتعامل مع اقاربه ومع الاصدقاء ومع عامة الناس، وبالخلاف عن العديد من المذكرات فالكسندرا لفوففنا تصور لنا تولستوي من دون رتوش، انسانا دنيويا، ورجل عمل، مرحا ويحب الحياة. يلوح تولستوي من حكايات ابنته الصغرى ليس مفكرا عميقا واديبا عبقريا وحسب، ولكن عند الحاجة يبتكر الالعاب المسلية، وينخرط فيها، ويؤلف الاغاني الخفيفة، ويرقص الرقصات الشعبية، ولم يكن غريباً عليه أي فعل او نشاط انساني، وتولستوي في الحياة العادية شخص منفتح، روحاني، لبق المعاملة، يخلق حول نفسه جوا دافئا وديا.

تروي الكسندرا في مذكراتها عن حياة وعمل ليف نيكولايفيتش تولستوي في الخمس وعشرين سنة الأخيرة من عمره أي المرحلة الثانية من حياة تولستوي، التي ظهر فيها مفكرا وداعية للإخوة الانسانية، وعدم مقاومة العنف بالعنف، ونشر فكره عن مفهومه للدين الحق والعدالة. هي الفترة التي حظي خلالها بالاعتراف العالمي بعبقريته، كاديب ومصلح اجتماعي، وتقدّم الكسندرا صورًا معبرة للشخصيات التي تواصلت مع ليف تولستوي، وتعرض أنشطته الاجتماعية على نطاق واسع، وتستكمل ذكريات الابنة الشخصية بمذكرات الأقارب والأصدقاء والوثائق والتقييمات النقدية للكاتب العظيم.

تطوف بنا الكسندر في جولة واسعة جغرافية في روسيا بغاباتها المترامية وجبالها وطبيعتها الخلابة، بالدرجة الأولى في المناطق ذات الصلة بتولستوي، وخاصة ضيعة العائلة العريقة في ياسنايا بوليانا

التي تمثل اليوم بحدائقها الواسعة وخمائلها وبساتينها، ومواردها المائية، ومركزها منزل تولستوي ـ المتحف، واحدة من اهم المعالم الأثرية ـ الثقافية الروسية، التي يزورها سنويا الآلاف من السُوّاح، فضلا عن المحافل الثقافية والعروض الفنية هناك. فضلا عن إنها تأتي على ذكر ضياع ومنازل لها علاقة بتولستوي، ما زالت قائمة إلى يومنا هذا، وتحولت الى متاحف ومراكز ثقافية مثل ضيعة بيرجوفو ونيكولسكويه ـ فيازيمسكويه في إقليم تولا ومنزل تولستوي ـ المتحف في خاموفنيكي في موسكو وغيرها. كما تعرض الكسندرا الأحداث التاريخية التي وجدت صدى لها لدى تولستوي مثل ثورة 1905 والحرب الروسية ـ اليابانية، أو شارك فيها. فهي على هذه الأساس مذكرات تنطوي على بعد تربوي ومعرفي. كما يمتاز قلم الكسندرا بتحليل دقيق للإشخاص الذين يحيطون بها، وللمشاعر والانفعالات البشرية، كما تتميز مذكراتها، كما يوميات أبيها الشهيرة، بالصراحة والصدق، ولا تتردد في جلد الذات ونقدها، وتصوير لحظات الضعف والفشل التي واجهتها.

ستأتي الكسندرا كثيرا على ذكر أخواتها وإخوانها، ولتسهيل فهم نص المذكرات لابد من الإشارة إلى ان لدى تولستوي ثمانية أبناء، ثلاث بنات وخمسة من الرجال، كما فارق الحياة في مرحلة الطفولة اثنان من الابناء إيفان (ايفانتشكا) واليكسي (اليوشا)، وغالبا ما تذكر أسماء الأبناء بصيغة التدليل والتحبب السائرة في التعامل بين الأقارب: فالابن الاكبر سيرجي هو سيريوجا وإليا إلوشا وميخائل هو ميشا، والابن الذي منح اسم والده ليف هو ليوفا او ليوفتشكا كما تولستوي الأب نفسه...والابنة الأكبر هي تتيانا وتانيا والمتوسطة ماريا هي ماشا، والكسندرا هي ساشا، والأم صوفيا هي سونيا.

ألكسندرا لفوفنا تولستايا. ولدت في 18 يونيو 1884 في ياسنايا بوليانا. وتلقت تعليمًا جيدًا في المنزل. في عام 1901، شرعت الكسندرا في «خدمة» أبيها وأصبحت مساعدته: بعد أن أتقنت الطباعة والاختزال، وتولت نسخ كتاباته، وفرز البريد، والرد نيابة عنه على الكثير من الرسائل. هي الابنة الصغرى الوحيدة من أقاربه، التي كانت على

علم بسر «رحيله»، وساعدت على جناح السرعة ليلا في 28 أكتوبر 1910 بجمع حاجته للسفر، وعرفت بمكان وجوده، وبناءً على دعوته ذهبت خلفه إلى دير شاموردينو حيث كانت تقيم إخته ماريا نيكولايفنا «ماشا»، ومعه قطعت الطريق إلى محطة أستابوفو حيت تعرض لالتهاب رؤي أدى لوفاته.

خلال الحرب العالمية الأولى تطوعت تولستايا كأخت رحمة.، وحصلت على ثلاث أوسمة من رتبة القديس جورج. عادت في ديسمبر 1917 إلى ياسنايا بوليانا وشرعت مع شقيقها الأكبر سيرجي ومجموعة صغيرة من العلماء بالتحضير لإصدار أول مجموعة كاملة لإعماله. في مارس 1920، ألقي القبض عليها في قضية المنظمة السياسية «المركز التكتيكي» المعارض للثورة البلشفية، وفي أغسطس 1920، حكمت عليها المحكمة الثورية العليا بالسجن ثلاث سنوات في معسكر اعتقال في دير نوفوسباسكي في موسكو، وبفضل جهود الفلاحين في ياسنايا بوليانا، والعفو الذي جاء في الوقت المناسب بعد كتابتها رسالة لزعيم الثورة فلاديمير لينين، أطلق سراح ألكسندرا لفوفنا من دير نوفوسباسكي في صيف عام 1921 وعادت لواجبها الرئيسي والمقدس ـ الحفاظ على ياسنايا بوليانا. عملت ألكسندرا تولستايا قيّمة على متحف ياسنايا بوليانا، ومنذ عام 1925 كانت أيضا مديرة لمتحف تولستوي في خاموفنيكي بموسكو القائم لحد يومنا هذا. على الرغم من العديد من الصعوبات التي جابهتها في السنوات الأولى من ثورة أكتوبر 1917 فقد تيسر بجهودها تنفيذ البرنامج المخطط له: ترميم المنزل ـ المتحف، وتشغيل محطة العرض التجريبية، وافتتاح مدرسة تذكارية، وتنظيم الجولات السياحية في ربوع الضيعة، وألقاء المحاضرات، وتنظيم تعليم الحرف اليدوية وتدريس أطفال الفلاحين.
عندما استقر حكم البلاشفة في روسيا، وتغلغل في جميع جوانب حياة البلاد، تضاعفت الصعوبات أمام تولستويا في الحفاظ على ياسنايا بوليانا بعيدة من المؤثرات الأيديولوجية خاصة التي تتعارض ومُثل وفكر تولستوي، وتولى الشئون الثقافية في المنطقة أشخاص لا صلة لهم بالثقافة، فقررت مغادرة وطنها في السنة السابعة والأربعين من عمرها.

وبعدما امضت عدة سنوات في اليابان، رفضت العودة إلى الاتحاد السوفيتي، واختارت المنفى.

ثم عكفت على تنفيذ برنامج واسعة في الخارج تتعلق بالتعريف بالتراث والأدبي وفكر والدها، ودراسة أدبه وأصدرت عملها الكبير «الأب ـ حياة تولستوي» وفي السنوات التي أعقبت نشر هذا العمل الرئيسي، نشرت ألكسندرا لفوفنا أحيانًا مقالات في مجلات المهاجرين الروس، كما لو كانت مكملة لإعمالها على سبيل المثال، «الأب يفهم كل شيء دائمًا»، «عن فرحة الموت»، إلخ.

تم الكشف عن الموهبة الأدبية لألكسندرا تولستوي بكل أصالتها في فن كتابة المذكرات. فقد بدأته في موسكو، بعد أن نشرت مقالاً بعنوان «عن رحيل وموت ليف تولستوي»، وعادت له خلال المنفى، وهيمنت قصص الماضي على كتاباتها. نتيجة لذلك، ظهرت سلسلة المذكرات الرائعة من خمسة أجزاء مستقلة، التقط كل منها بالترتيب الزمني أجزاءً من سيرتها الذاتية. انتهى كتاب «الابنة» في عام 1939 وهي الفترة التي تأسست خلالها في الخارج مؤسسة تولستوي الخيرية، وجربت أيضًا الكتابة الروائية: فقد نشرت في عام 1942، في ثلاثة أعداد في مجلة «نيو جورنال» نيويورك روايتها «ضباب ما قبل الفجر»، ولم تستمر في نشرها بالكامل، وظل نصها الكامل غير معروف.

وفي السنوات اللاحقة، ساعدت المؤسسة العديد من المهاجرين الروس الذين هاجروا من الإتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الثانية، بما ذلك الكاتب الروسي/ الأمريكي الشهير فلاديمير نابوكوف على الاقامة في الولايات المتحدة في عام 1942. ترأست الكسندرا تولستايا في عام 1952 المجلس العام لدار تشيخوف للنشر التي تم إنشاؤها في نيويورك.

وعلى خلفية نشاطها الثقافي والاجتماعي ومعارضتها الشمولية في الاتحاد السوفيتي، اعلنت الحكومة ألكسندرا تولستايا معادية للنظام السوفياتي، وقررت ازالة صورها الفوتوغرافية والأفلام الإخبارية عنها،

وحظرت ذكر اسمها في التقارير والمذكرات وقصص الرحلات ومعارض المتاحف.

وعشية الاحتفال بالذكرى السنوية الـ 150 لميلاد تولستوي في عام 1979 بعثت برسالة إلى متحف ياسنايا بوليانيا كتبت فيها: «من الصعب علي في هذه الأيام الغالية ألا أكون معكم، مع شعبي، على أرض روسية... أنا لم أفارقكم روحيا أبدًا».

توفيت في 26 سبتمبر 1979 في فالي كوتيدج بنيويورك عن عمر يناهز خمسة وتسعين عامًا.

حظيت الأنشطة الإنسانية العامة لتولستويا بتقدير الكونغرس الأمريكي، الذي اتخذ قرارًا في 9 يونيو 1979 بانتخابها في ما يسمى ب «غرفة الشهرة».

إبنــة أبيـها

سوسانا روزانوفا(1)

(1) سوسانا روزانوفا (1915 ـ 2002) ـ ناقدة وباحثة في الأدب السوفيتي والروسي. من أعمالها «تولستوي وبوشكين»، «تولستوي وهيرتسين».

كان عام 1884 من أكثر السنوات دراماتيكية في حياة تولستوي العظيم. وصلت معاناته من أجل المعوزين والفقراء والجياع إلى أقصى حد. تعذب وعانى وتألم من إدراكه بأنه وعلى خلاف إيمانه، ومُثله العليا، استمر في العيش كسيّد. في الوقت نفسه، أصبح الاغتراب عن زوجته وأطفاله ورفضه لسلوكهم اليومي كعلية قوم، ودنيويين وخاملين، أكثر وضوحًا. تتضمن مذكرات الكاتب على العديد من سطور الإدانة المريرة، وجلد الذات، والاعتراف بأن وضعه غدا لا يُطاق. «إن الوضع صعب للغاية في الأسرة»، وكما أشار في مذكراته في 4 أبريل / نيسان، 1884. «اعتبر كل أفراحهم، والاختبار، والنجاحات الدنيوية، والموسيقى، والجو العائلي، والمشتريات، تعاسة وشراً لهم ولا أستطيع أن أبوح لهم بهذا... وكيف لا يرون أنني لا أعاني وحسب، بل وحُرمت من حياتي على مدى ثلاث سنوات بالفعل». في اليوم التالي كتب مرة أخرى: «طيلة فترة الغداء، لا شيء باستثناء الاحاديث عن المشتريات، والاستياء من أولئك الذين يخدموننا. إن الوضع يزداد صعوبة». وبدا له أنه «المجنون الوحيد... في دار المجانين». لم يعد يحتمل، اخذ في ليلة 17 ـ 18 يونيو/ حزيران، حقيبته، وبارح الضيعة من أجل «الرحيل نهائياً» عن العائلة. بيد أنه عاد من «منتصف الطريق»، لأنه كان لا بد أن يولد المولود الثاني عشر. «بدأ المخاض ـ إنّ أكثر اللحظات بهجة وسعادة في الأسرة مرت كشيء غير ضروري وصعب»، وبخَ تولستوي نفسه. في صباح يوم 18 يونيو 1884، ولدَت في عائلة تولستوي فتاة سُميت ألكسندرا.

لم يعرف تولستوي حينها أن هذه الفتاة التي استقبل والداها المنشغلان بأنفسهما بمشاكل شخصية معقدة، ولادتها بوجوم، ومن دون ودّ، ستأخذ مكانًا كبيرًا في حياته وقلبه، وستفهمه وتسمعه، وتتشبع بآرائه الدينية والأخلاقية الديمقراطية، وإن حبها المخلص الذي شملته به سينير له سنوات الغروب. لم يكن تولستوي يعرف حينها أنه ستتشكَّلُ من هذا الطفلة شخصية شاملة، نشطة، حرة داخليًا، ترفض العيش في الكذب، وذات طبع متمرد. لم يكن يعلم حينها أن أمام هذه الفتاة طريقا شائكا، وأن الحرب ستحرقها، ويتعين عليها المرور عبر السجون والمعتقلات، وينتظرها النفي والافتراق عن روسيا وعن ياسنايا بوليانا(2) التي تحولت بجهودها إلى نصب تذكاري لوالدها. لم يكن يعلم حينها أنها ستمر بكرامة وبشرف دون النيل من اسم والدها العبقري، في هذا الطريق الوعر المحفوف بالمحن القاسية، والذي تطلب منها قوة روحية وجسدية وشجاعة زائدة. لم يكن يعلم حينها أن ابنته كانت صاحبة موهبة أدبية، وأنها باتباع نصيحته بكتابة «يوميات، عن الانطباعات، وعن الأفكار، والأهم ـ الأفكار والمشاعر التي تخطر على البال»، سيخلق راوية مذكرات، ذات أسلوب سردي رفيع المستوى.

(2) ضيعة ليف تولستوي ولد ودفن فيها، تحولت منذ 1920 الى متحف تولستوي ومركز ثقافي وتعليمي.

حينها، في ذلك اليوم من أيام يونيو/ حزيران الدافئة، كان كل هذا بعيدًا من التفكير. نشأت ابنة تولستوي الصغرى في عائلة كثيرة العدد لها اهتمامات وأذواق مختلفة، وغير منسجمة، ومختلفة عن تلك الأسرة التي أمضى فيها «الأبناء الأكبر سنًا» طفولتهم وباكر شبابهم، فقد «وضِع فيهم» الكثير من الحب والعناية. كان كل شيء مختلفًا مع ساشا. في البداية، تم «استدعاء مرضعة لإطعام المولودة» الجديدة، ومن ثم سلموها لرعاية مربية عجوز، وغالبًا ما جرى تغيير المربيات والمعلمات. كانت صوفيا أندريفنا(3) مسؤولة عن تعليم ابنتها، ودعت إليها أفضل المعلمين، لكنها في الوقت نفسه لم تغمر ساشا بـ «المودة والحنان»، ولم

تتعمق في عالم مشاعرها، وأبعدتها عن نفسها، وغالبًا ما كانت تشعر بالضيق والإهانة والإذلال. ردت الفتاة على ذلك بوقاحة وعناد وعصيان.

(3) صوفيا اندرفنا زوجة ليف تولستوي

من يدري ما كانت ستكون عليه ساشا في نهاية المطاف مع العقد المكبوتة، والقسوة، والشعور بشكل من أشكال مِن الدونية، لو لم يكن بقربها الأب ـ الحساس، واللبق، الذي عثر على وسيلة لفهمها والدخول لروحها. في البداية، لم يلاحظ الفتاة تماما، بدأ يقربها منه فقط عندما شبت وعبرت مرحلة الطفولة. كانت المحادثات على انفراد، والجادة، وذات المغزى بين الأبنة وأبيها تجري اكثر فاكثر على قدر ما كبرت الابنة، وساعد تأثيره على تلطيف ساشا لطبعها. تلك الأحاديث «الطيبة» التي أجراها الكاتب مع ابنته، في مرحلة تحولها من مراهقة إلى شخصية ناضجة ومستقلة، شفت روحها الجريحة، وزرعت فيها بذور الخير والإيمان بمُثله المسيحية الإنسانية، والاستعداد لخدمة الناس، والرحمة. سمعتْ عدة مرات من والدها: «أنا بحاجة إلى حبك». وقد حصل عليه بالكامل. ليس من قبيل المصادفة أن الابنة الصغرى، كانت الوحيدة من بين أقاربه، التي عرفت بسر «مغادرته»(4) ضيعة ياسنايا بوليانا، وساعدت في الاستعدادات المستعجلة في ليل يوم 28 أكتوبر/ تشرين الأول 1910، وعرفت بمكان وجوده، وبناءً على طلبه، ذهبت إلى دير «شاموردينو» وقطعت الطريق حتى محطة «أستابوف» حيث لقى حتفه. طوال أيام وليالٍ من مرض والدها المميت كانت ساشا بالقرب منه، تعتني به، وانتقلت من الأمل إلى اليأس، وحاولت بكل طريقة ممكنة منع النتيجة المميتة. إن فقدان من كان صديقًا كبيرا، ومعلمًا ومرشدا، كان بالنسبة لها كارثة كبيرة، كما لو أنهارت الأرض تحت قدميها.

(4) تكرس الكسندرا تولستايا الفصول الأخيرة من الكتاب الأخيرة من الكتاب لأشهر الأخيرة من حياة أبيها، ومغادرته الخفية من منزله، ومرضه في الطريق، وتوقفه للعلاج في

محطة قطار «استابوف»، حيث ساءت صحته، ووافاه الأجل هناك. (المترجم)

جعلت الكارثة الوطنية الكسندرا تولستايا تخرج من الدراما الشخصية التي حلت بها. فقد اندلعت الحرب العالمية الأولى، وأدركت ألكسندرا لفوفنا أن مكانها هو المكان حيث تُراق الدماء، وحيث يعاني البشر. فسرت خيارها بالالتحاق بجبهة القتال على النحو التالي: «لم يكن من المعقول أن أجلس في المنزل مكتوفة الأيدي... لم أستطع الجلوس في المنزل، كان علي أن أشارك الآخرين في النكبة العامة»، «قررتُ أن أصبح أخت رحمة»

إن سيرة ألكسندرا لفوفنا العسكرية مدهشة وخيالية، فقد تميزت بالشجاعة وصلابة الإرادة المشبعة بالنزعة العميقة للرحمة، خاصة تجاه الرتب الدنيا.

عادت ألكسندرا لفوفنا في ديسمبر 1917 إلى ياسنايا بوليانا بوسامي «سانت جورج»، وانفتح على الفور أمام ابنة تولستوي مجال واسع من النشاط مليء بالمعنى النبيل، واختفى «الفراغ الهائل» الذي عذبها مؤخراً. وقامت في عام 1911، مع تشيرتكوف(5) بنشر طبعة من ثلاثة مجلدات من «الأعمال الأدبية غير المنشورة، التي تركها ليف تولستوي بعد وفاته»، ووفقًا لرغبة والدها، اشترت بعوائدها أرض ياسنايا بوليانا وأعطتها للفلاحين. والآن، عند عودتها، ألهم ظهور الأنصار حولها فكرة إعداد ونشر أول وأكمل مجموعة جادة لأعماله، وكرست نفسها بالكامل لتخليد ذكرى والدها.

(5) فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف (1854 ـ 9 ـ 1936) ـ اقرب أصدقاء ومساعدي ليف تولستوي وصاحب الدور الكبير في أنشطته في السنوات الأخيرة من حياته ومروّج فكره، وناشر أعماله، وزعيم التولستوية كحركة اجتماعية،

خلق الإعجاب بالعبقرية الوطنية لروسيا، معجزة: في ظل البرد والجوع والدمار ورعود الحرب الأهلية، تخطت مجموعة صغيرة من علماء الأدب واللغة: الكسي جروزينسكي والكسي شاخموتوف، وميستسلاف نيقولاي تسيافلوفسكي، ونيقولاي بيكسانوف، وسيرغي تولستوي، والكسندرا تولستوي، ورجل القانون نيقولاي دافيدوف و«السيدات المتواضعات»، اللواتي يعشن في الماضي، عتبة الغرفة المخصصة لهم في متحف روميانتسيف، وقاموا بتفكيك، وتنظيم، وتحقيق، مخطوطات الكاتب، التي تم طيها عشوائيًا في صناديق. «لم يتم تدفئة المتحف (كما نقرأ في مذكرات ألكسندرا لفوفنا) «انفجرت أنابيب المياه، كما جرى في كل مكان بموسكو. وعملنا ونحن في معاطف الفرو، وأحذية اللباد، وقفازات محبوكة... وعلى الرغم من هذه الظروف الفظيعة من البرد في مبنى حجري غير مدفأ ذي جدران تجمدت تماما، اكثر شدة من البرد في العراء، وعلى الرغم من هذه الظروف الفظيعة نسينا البرد والجوع، وقرأنا مقاطع جديدة من... «الحرب والسلام»... وفرحنا مثل الأطفال عندما تمكنا من فك الكلمات الصعبة... لقد ولع الجميع على الإطلاق بالعمل. قام سيرجي لفوفيتش وشقيقته بتحقيق نصوص اليوميات، وقراءتها عددا لا يحصى من المرات، وعثرنا على المزيد والمزيد من الأخطاء». الكل عمل بإيثار، وبلا مبالاة بالصعوبات، وبنكران الذات، في حماسة واحدة. وتم استخدام جميع قوائم الجرد التي تم تجميعها، ووضع الأرشيف المنظم، والنصوص المصححة من أخطاء النسخ في إعداد الأعمال الكاملة الأساسية لتولستوي المكونة من تسعين مجلدًا.

ألقي القبض على الكسندرا لفوفنا في مارس 1920، ارتباطا بقضية المنظمة السياسية «المركز التكتيكي»(6)، وتم استجوابها من قبل محقق اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا لمكافحة الثورة المضادة المعروف ياكوف أغرانوف. تصرفت ألكسندرا لفوفنا بتحد، ولم ترد على الأسئلة، وبعد شهرين أطلق سراحها بانتظار المحاكمة. وإذ أن لم تحصل اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا لمكافحة الثورة المضادة في هذه الأثناء على أي دليل على إدانة ابنة تولستوي، تقدمت إلى أعلى هيئة سياسية في

البلاد بطلب ترخيص لاعتقالها. في 15 مايو 1920، في اجتماع للمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، حضره فلاديمير لينين، وليف تروتسكي، ويوسف ستالين، وليف كامينيف، يفجيني بريوبراجينسكي، وميخائيل كالينين، ودعي له نيكولاي كريلينكو وياكوف أغرانوف الذي قدم تقريرًا موجزًا، تقرر «إنهاء قضية الكسندرا لفوفنا تولستوي في موعد لا يتجاوز أسبوع. وإبلاغ المكتب التنظيمي للجنة المركزية بالنتائج». وفعلا بعد أسبوع، في 22 مايو، تم النظر مرة أخرى في قضية «المركز التكتيكي» في اجتماع للمكتب السياسي بمشاركة لينين وتروتسكي وستالين وبريوبرجزينسكي ونيقولاي بوخارين. وقدم التقرير كامينيف. ثم صدر قرار: «الموافقة على القائمة التي قرأها الرفيق كامينيف». وتم إدراج اسم الكسندرا لفوفنا بين المتهمين. وفي أغسطس 1920، حكمت عليها المحكمة الثورية العليا بالسجن ثلاث سنوات في معسكر اعتقال في «دير نوفوسباسكي» في موسكو. كانت تهمة ابنة تولستوي تتمثل فقط في أنها وفرت شقة للاجتماعات، التي لم تعرف شيئًا عن موضوعها، ووضعت سماور الشاي للمشاركين فيها، وبسبب هذه «الجريمة» سلبوا حريتها، وحكموا عليها بالتوقف عن العمل على مخطوطات أبيها، والحياة التي لا تحتمل في السجن، والإذلال والشتائم. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى حالة اليأس، قامت أسيرة معسكر «دير نوفوسباسكي» وعلى أمل الخلاص، بصياغة مسودة رسالة إلى فلاديمير لينين، المحفوظة في أرشيفها.

(6) المركز التكتيكي ـ اتحاد أحزاب ومنظمات سرية مناهضة للبلشفية، نشأت في موسكو في أبريل 1919 بهدف تنسيق عمل مختلف الجماعات المناهضة للسوفييت.

«فلاديمير إيليتش المحترم!» كتبت في التماسها. «لقد ترددت لفترة طويلة قبل أن أكتب إليكم. لكنني أثق بكم أنكم، وأثق أنكم ستفهمونني ولن تدينوني. لا أستطيع أن استسلم لفكرة أنني مواطنة روسيا الحرة، مسجونة في أربعة جدران كعضو خطير، وضار في المجتمع، في الوقت الذي ثمة حاجة للناس ـ العاملين، الجميع من دون استثناء، وينبغي

علي أن أعيش كطفيلي في بلد. ولماذا؟. لقد شجب والدي الذي ألتزم بآرائه علانيةً الحكومة القيصرية، ومع ذلك بقي حراً حتى ذلك الحين، وبقدر ما ثمة هناك مَن يهتم بآرائي، فانا لا أخفي حقيقة أنني لست مؤيدة للبلشفية، وعبرت عن آرائي بشكل علني ومباشر في المحكمة، لكنني لم أعمل ولم أعارض بشكل فعال الحكومة السوفيتية، ولم أمارس السياسة ولم أكن عضوة في أي حزب كان. فما الذي يمنح الحكومة السوفيتية الحق في حبسي بين أربعة جدران مثل حيوان ضار، مما يحرمني من فرصة العمل مع الناس، ومن أجل الشعب الذي هو أعز ما لدي؟ هل إن واقع عقد اجتماعات قبل عامين في شقتي، لم أكن أعرف أسماءها وأغراضها، تعطي هذا الحق؟ لقد اكتشفت أثناء الاستجواب فقط أن هذه كانت اجتماعات للمركز التكتيكي. فلاديمير إيليتش! إذا كنتُ ضارة لروسيا، فأبعدوني إلى الخارج. وإذا كنتُ ضارة حتى هناك، وإذا كان هناك اعتراف بحق شخص ما، في إزهاق روح آخر، فأعدموني رميا بالرصاص كعضو ضار في الجمهورية السوفيتية. لكن لا ترغموني على أن أعيش حياة طفيلي، محبوسة في أربعة جدران مع عاهرات، ولصوص، وقطا ع طرق. أكرر، لأنني أثق بكم وأشعر أنكم ستصدقوني، وتفهمون أن خطورة وضعي لا تكمن في أنني أعيش في قفص، وأتغذى على الغُسالة، ولا حتى لأنني محرومة من الحرية الخارجية. إن خطورة موقفي، بشكل أساسي، هي أنني لم اعد موضِع ثقة، أي فقدان فرصة للعمل. إذا قرأتم رسالتي، على كل حال، فسأقدم لكم تفاصيل قضيتي. حكمت عليّ المحكمة العسكرية في 26 أغسطس / آب بالسجن ثلاث سنوات في معسكر «دير نوفوسباسك» في قضية «المركز التكتيكي»، ورفضت المحكمة العليا مرتين، لي بأي عفو، وانعقد آخر اجتماع للمحكمة العليا في 6 ديسمبر / كانون الأول من العام الحالي».

من غير المعروف ما إذا قد تم إرسال هذه الرسالة التي تدهش بقوة الروح، وبالوعي الذاتي المتعالي، وبالإصالة وصلابة العود، إلى فلاديمير لينين وقد أعيدت كتابتها، وكذلك الرسالة المؤرخة في 6 ديسمبر/ كانون الثاني 1920 التي أرسلت إلى اللجنة التنفيذية المركزية

لعموم روسيا التي طلبت فيها إعادة النظر في الحكم، والعفو عنها. ومع ذلك، وبفضل جهود الفلاحين في ياسنايا بوليانا، وكذلك وصول قرار العفو في الوقت المناسب، بارحت ألكسندرا لفوفنا معسكر «دير نوفوسباسكي» في صيف عام 1921 وحال أطلاق سراحها، انهمكت في واجبها الرئيسي والمقدس ـ صيانة ياسنايا بوليانا، كما تركها الأديب والمفكر العظيم، وتحويلها إلى أثر تذكاري وطني وثقافي ومركز تعليمي.

لم تواجه الكسندرا تولستايا حتى ذلك الحين عقبات لا يمكن التغلب عليها على هذا الطريق، بل تلقت دعمًا من موسكو من أناتولي لوناتشارسكي، ومن موظفي مفوضية الشعب للتعليم، وخاصة من ميخائيل كالينين، الذين توجهت إليهم مرارًا وتكرارًا في شؤونها الرسمية وتقديم طلبات المعتقلين والمدانين، ونفذت مهامها كقيّم على ياسنايا بوليانا ومنذ عام 1925، أصبحت مدير متحف تولستوي، وعملت بجد وشعور عال بالمسؤولية، ولم تدخر جهودها. وعلى الرغم من الكثير من الصعوبات، تمكنت من تنفيذ البرنامج المخطط له حيث تم ترميم المنزل ـ المتحف، وتشغيل محطة العروض التجريبية، وافتتحت المدرسة، وأجريت جولات سياحية للزوار، وألقيت محاضرات، وتم تعليم الحِرَف اليدوية بعناية لأطفال الفلاحين وتنويرهم.

قرب نهاية العشرينيات من القرن الماضي، غامت السماء بالسحب المهددة بشكل بكثافة اشد، واشتد تدخل الحكومة في الحياة اليومية لملكية تولستوي، وعرقل المسؤولون المحليون، وأغلبهم من غير المتعلمين، وغير الأكفاء، بكل طريقة ممكنة مهمة «القيّم». كانت ابنة تولستوي منهكة من المجابهة معهم، ومن الرحلات المتكررة إلى موسكو لتقديم الشكاوى والمتاعب والأدلة على صحة موقفها. اعترفت ألكسندرا لفوفنا في رسالة مؤرخة 18 ديسمبر 1928 من ياسنايا بوليانا إلى صديقة الطفولة، تولستوي ـ بوبوفا بقولها «إننا نعيش بصعوبة بالغة»، والأمر يتطلب الكثير من الجهد لمواصلة العمل. الشيء الرئيسي هو ضحالة ثقافة هؤلاء المسؤولين الذي يتمتعون هنا بقوة كبيرة. كل ما هو مثقف

إلى حد ما ـ ذهب إلى المركز، فما تبقى لدينا؟». بعد مرور بعض الوقت، أخبرت نفس تولستايا ـ بوبوفا عن ما يكدرها: «سأغادر المحطة. سأبقى في المتحف لفترة، لكنني لا أعرف كم من الوقت. لا أستطيع العمل. الأهم من ذلك كله، أريد الحرية. دعني أعيش في فقر، وبحقيبة على الظهر، لكن اعطني الحرية فقط. أنا اعمل كثيرا ولديّ خطط كبرى غير مرتبطة بالخدمة، بل بأعمالي الشخصية».

ظهر شبح الحرية المرغوبة أمامها فجأة، عندما جاءت دعوة من اليابان لإلقاء محاضرات حول تولستوي، والتي قبلتها ألكسندرا لفوفنا بعد منحها الإجازة والإذن الرسمي.

غادرت ابنة الكاتب الوطن الأم بحماسة كبيرة، ولم تتخل بعد عن فكرة أن تجد نفسها في ياسنايا بوليانا مرة أخرى.

في كل من اليابان وأمريكا، كرست ألكسندرا لفوفنا الكثير من الوقت لإلقاء محاضرات حول تولستوي، وحياته، «الرحيل والموت»، ونظرته للعالم، وكذلك عن وطنها الذي طالت معاناته، والمحاصر في القبضة الحديدية للديكتاتورية الستالينية الاستبدادية، حول مأساته الوطنية... حاضرت في المدن والبلدات، في الكليات والجامعات، أمام المثقفين والعاملين، وكبار السن والشباب. بيد أنها فضلت العيش في ياسنايا بوليانا، بشكل متواضع «بسيط»، بعيدًا من المدن الكبيرة، في مزارع تشبه ساحة الفلاحين، في الطبيعة، وأن تقوم بعمل فلاحي شاق.

ظل وجود المواطنة الأجنبية على مدى سنوات تقريبًا من دون تغيير، باستثناء أنه كان عليها الانتقال من مزرعة إلى أخرى، ولكن في ربيع عام 1939، وفقًا لاعترافها، «بدأت مرحلة جديدة مهمة جدًا»: بمبادرة من مجموعة من المهاجرين (من بينهم ـ الكونتيسة صوفيا بانينا، والموسيقار سيرغي رخمانينوف) تشكلت «لجنة مساعدة جميع الروس المحتاجين إليها»، سميت باسم ليف تولستوي «مؤسسة تولستوي». وبعد أن ترأستها، شرعت ابنة الكاتب مرة أخرى في طريق الخدمة النبيلة للرحمة والخير، وسهلت بكل طريقة ممكنة مصير ما يسمى

بالموجة الأولى من المهاجرين الذين وجدوا أنفسهم في الخارج في أوائل سنوات ما بعد الثورة، والذين، في الغالب، كانوا في أمس الحاجة إلى عمل دائم أو مأوى. أنجزت ألكسندرا لفوفنا هذه المهمة بطاقتها المميزة وشغفها. وتم بناء قسم داخلي للمسنين، ومستشفى للمصابين بأمراض مزمنة، ودار للأيتام، وكنيسة، ومكتبة على قطعة أرض تم التبرع بها في مقاطعة روكلاند، بالقرب من نيويورك. تم افتتاح فروع للمؤسسة في أوروبا الغربية، وفي الشرق الأوسط، وجنوب إفريقيا. في كل مكان، وجد المهاجرون الروس الملاذ والرعاية الطبية والسلام والحنو الصادق.

كما أبدت المؤسسة تعاطفها مع سجناء القرن العشرين، والمواطنين الذين ساقهم الجيش النازي قسراً من بلادهم ولأسباب مختلفة لم يعودوا إلى مدنهم وقراهم. اكتسبت الأنشطة الخيرية لـ «الصندوق»، والتي لعبت فيها ألكسندرا لفوفنا دورًا رائدًا، وشهرة واسعة وتقديرًا. وعلى هذا النحو، أشار رئيس الولايات المتحدة جي ترومان في عام 1946 إلى الدور الإنساني لأنشطة ألكسندرا تولستويا في الحرب العالمية الثانية. في 9 يونيو 1979، ضمها كونغرس الروس الأمريكيين إلى غرفة المشاهير(7). في عام 1979، في يوم عيد ميلادها الخامس والتسعين، تلقت برقية من الأديب الروسي الحائز على جائزة نوبل الكسندر سولجيتسين، هي التي كانت تحظى باحترامه الكبير: «لو كان ليف تولستوي على قيد الحياة كان سعيدًا بحجم عملكم وتوجهاته».

(7) تم تأسيس غرفة المشاهير الروسية الأمريكية من قبل كونغرس الأمريكيين الروس في عام 1978 لتكريم المواطنين الأمريكيين البارزين من أصل روسي لمساهماتهم في العلوم والتكنولوجيا والأدب والفن ومجالات أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية..

اتخذت الحكومة السوفياتية في سنوات ما بعد الحرب موقفا مستهجنا بشدة من التزامات «الصندوق» الطوعية، ومن رئيسته على وجه

الخصوص، وشنت في خريف عام 1948 حملة افتراءات ضد ألكسندرا لفوفنا على صفحات وسائل الإعلام المركزية، بتلميحات قذرة واتهامات بصلات مع وكالة المخابرات المركزية، والتجسس، والخيانة، وأُطلقت على مؤسسة تولستوي اسم «عش اللصوصية». ومُنع ذكر اسمها في المطبوعات، ومررت بصعوبة مجلدات الأعمال الكاملة ليو تولستوي، حيث نُشرت رسائله إليها. لكنها لم تستطع أن تتكيف للحياة في بلاد أجنبية، وكانت تشعر بالحنين إلى الوطن لروسيا، وبياسنايا بوليانا.

عندما تلقت في عام 1978 دعوة للمشاركة في الاحتفال بالذكرى السنوية الـ 150 لميلاد ليو تولستوي، كانت ألكسندرا لفوفنا مريضة وطريحة الفراش. «لا أستطيع أن أنقل مدى شقائي لأني لا استطيع أن أكون معكم في هذه الأيام الهامة التي لا تمحى كل دقيقة منها من ذاكرتي وخاصة وأنني بعيد عن عزيزتي ياسنايا بوليانا، عن وطني روسيا، عن الشعب الروسي القريب مني. ـ اعترفت في رسالة الرد بتاريخ 29 مارس 1978 ـ من الصعب بالنسبة لي في هذه الأيام الثمينة أن لا أكون معكم، مع شعبي، على الأراضي الروسية. ذهنيا، أنا لم أفارقكم أبدًا».

تعبر هذه الرسالة إلى أبناء وطنها عن ألم ودراما شخص روسي أصيل، كان مرتبطًا بعلاقات قلبية مع وطنه وشعبه، وأجبرته ظروف تاريخية قاسية على قضاء عقود في المنفى، في عالم أجنبي، قدر عاليا بحق مهمتها كمفوضة للأدب الوطني.

توفيت الكسندرا لفوفنا تولستايا في 26 سبتمبر 1979.

أشاد الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ببرقية تعزيته في الكسندرا تولستايا قائلا: «لقد شعرنا بالحزن أنا وروزالين عندما علمنا بوفاة ألكسندرا تولستويا، وبرحيلها انقطع أحد آخر الخيوط الحية التي كانت تربطنا بالقرن العظيم للثقافة الروسية. لا أفكر فقط في جهودها بتقديم إرث والدها الأدبي إلينا، ولكن أيضًا في ذلك النصب الأبدي الذي

أقامته لنفسها، بعد أن أنشأت «مؤسسة تولستوي» منذ حوالي أربعين عامًا.

إن الآلاف الذين أحسنت لهم بمساعدتها، وبدأوا حياة جديدة في هذا البلد كأشخاص أحرار، سوف يتذكرون دائمًا ألكسندرا تولستايا».

إن تراثها الأدبي سيكون أيضا «أثرا تذكاريا» لها.

ومن بين «الخطط الفخمة» التي نفذتها ألكسندرا لفوفنا في الخارج، أولاً وقبل كل شيء، كتابها «الأب. حياة تولستوي». هذا السرد الوثائقي، الهادف والرائع، الذي أتاح للقارئ الأجنبي لأول مرة أن يتعرف بشكل كامل ومفصل على تاريخ حياة العبقري الروسي، وولادة كتبه العظيمة، وأعماله الإنسانية، وخطبه الشجاعة ضد الحكومة القيصرية، وتقلبات روحه، والعلاقات مع أفراد الأسرة، والمعاصرين. حظي الكتاب بنجاح كبير، وتُرجم إلى الدنماركية والإسبانية والفنلندية والفرنسية والسويدية واليابانية. وتحققت رغبة المؤلف في «تقديم» ليو تولستوي إلى شعوب أوروبا وأمريكا لتقريبهم منه.

في السنوات التي أعقبت نشر هذا العمل الكبير، نشرت ألكسندرا لفوفنا أحيانًا مقالات على صفحات مجلات المهاجرين، كما لو كانت مكملة له، على سبيل المثال: «الأب دائمًا يفهم كل شيء» في مجلة «البعث»، و«عن فرحة الموت» في مجلة» الحياة الجديدة»، إلخ، بمثابة لمسات جديدة على صورة الأب.

تم الكشف بشكل كامل عن الموهبة الأدبية لألكسندرا تولستويا، وبكل خصوصيتها في المذكرات كنوع أدبي، ودبج قلمها سلسلة مذكرات رائعة من خمسة أجزاء مستقلة، التقط كل منها بالترتيب الزمني مراحل من سيرتها الذاتية.

الجزء الأول ـ «من الذكريات» ـ مصنف ساطع وممتع. يتم فيه بحيوية وبقوة تعبيرية كبيرة استرجاع الحياة اليومية لعائلة تولستوي، على مدى ربع قرن، بسرائها وضرائها، بأحزانها وأفراحها، بأيام العمل الروتينية

والأعياد، بعاديتها وأجواءها الخاصة. في هذه المذكرات الكثير من الشخصيات: الإخوة والأخوات، والأقارب والأصدقاء، والخدم والزوار، وبالطبع، الأم والأب، وتم تصويرهم بأصالتهم الفردية، بطبائعهم الخاصة، ونمط سلوكهم، ولغتهم. وفي نهاية المطاف، هذه مذكرات شخصية، عن طفولتها غير المريحة، وفترة سن رشدها وشبابها المضطربة، وقصة التقارب مع الأب الذي أحبته الابنة ساشا أكثر من أي شخص آخر في العالم، وبلغت ذروته في بصيرتها الروحية. الجزء الأول من السلسلة (أبي تولستوي) هو الجزء الوحيد الذي تم تسليط الضوء فيه على حضور ليف تولستوي الذي تم رفعه عاليا فوق تلك الشخصيات البحتة، التي تبحث عن الإرادة والحقيقة فقط لأنفسها. هذا هو السبب في اعتزاز ألكسندرا لفوفنا بهذا الجزء من سلسلة «من الذكريات» (في الطبعة الأمريكية ظهر بعنوان: «الحياة مع الأب»(8)، وفي نسختنا الروسية قررنا الاحتفاظ بهذا الاسم) وعلقت أهمية كبيرة عليها. وفي رسالة بتاريخ 19 أبريل 1930 إلى تولستويا ـ بوبوفا كتبت: «بعد كل شيء، هذا الكتاب الذي أكتبه ليس أمرا هينا، سيبقى بعدي.

(8) في الطبعة العربية حافظنا أيضاً على العنوان نفسه، لأنه كما نرى اكثر دقة وانسجاما مع النص.

لم يكن من السهل علي رواية الماضي، مع اختلاج مشاعري المعقدة. كنت أخشى من الاتهامات بالتحيّز، ورسم صورة مفرطة السلبية لوالدتي. أنا حزينة، لأنني أكتب عن أبي وأتذكر كيف أحببنا بعضنا البعض في العام الأخير من حياته، أكتب وأبكي حتى أن عيني غامت تماما، ولم أعد أستطيع الكتابة».

تتضمن الأجزاء الأربعة اللاحقة من السلسة: «من الماضي. الجبهتان القوقازية، والغربية» و«شعاع في الظلام»، «بلاد اليابان الساحرة» و«الخطوات الأولى في أمريكا» والتي جمعت لاحقًا كتاب «الابنة»، وهو نص مختلف تمامًا: هنا محور القصة ألكسندرا لفوفنا نفسها، تتحدث عن تقلبات مصيرها، وعن رحلتها وعن نفسها وعن الوقت.

تتمتع ألكسندرا تولستوي برؤية ثاقبة، وملاحظة مذهلة، وإدراك موضوعي غير متحيز، والقدرة على نقل واقع غير معروف لها تماما في مجموعة متنوعة من الألوان، مع نكهتها الخاصة، وفي نفس الوقت متعددة الأوجه.

إن مذكرات ألكسندرا لفوفنا، في جوهرها، بالطبع، هي عمل أدبي لسيرة ذاتية: فهي لا تظهر هنا كمؤرخة لأحداث، أو مسجلة للحقائق، ولكن كشخصية فعالة، وتفكير وعاطفة، مع جدلية الروح، واستيعاب حياتها وحياة من حولها ليس بشكل مجزأ، ولكن كبنية شاملة، في سياق العصر. الكاتبة لها أسلوبها الأصيل، وجمالياته الخاصة، والذي يتم التعبير عن جوهره في عنوان أحلك كتاب لها «شعاع في الظلمة». إنها تعكس مفهوم الشخصية الموروث من أبيها الفنان العظيم، التي اتصفت منذ البداية ولا بد بالطيبة والخير والقادرة على أن تُبعث أخلاقياً وتتأنسن حتى في وسط «الظلام».

قال ليف تولستوي، وهو مصدوم لموت المفاجئ ابنه فانيشكا البالغ من العمر سبع سنوات، والذي تمتع بموهبة نادرة: «اعتقدت أن فانيشكا، سيكون أحد أبنائي اللذين سيواصلون قضيتي في الحياة الدنيا».
ولكن ابنته ساشا واصلت «قضيته في الحياة الدنيا» بكل ما أوتيت من قوة وقدرات، وكانت وفية لتعاليم ابيها، بكراهية الكذب والظلم وانعدام المساواة والقمع الحكومي، وفي حب الحرية اليومية والروحية، والمعذبين والمضطهدين، وحب روسيا.

كيف ولدتُ

لم تكن لدي دروس في يوم الأحد. أرمي على نفسي الرداء وأضع قدميّ في حذاء دافئ، وأركض إلى المربية. الغرفة حارة جدًا. كان هناك سماور نحاسي صغير يغلي على الطاولة، ومصباح مشتعل في الزاوية أمام الأيقونات. لكني أشعر بالنعاس البارد وأستمتع بشرب الشاي الساخن.

ـ هل تريدين مربىً؟ تسألني المربية.

ـ لا، لا أريد، من الأفضل أن تروي لي شيئا ما!

ـ حسنا، ماذا أروي لك؟!

كان صوت المربية خشناً وحادّا، لكنني ضيْفتها، وهي سعيدة بي وتحاول التحدث معي بنبرة لطيفة:

ـ ليس ثمة ما أرويه لكِ.

ـ حسنًا، مربيتي، عزيزتي، حول اليوشا.

المربية تأخذ نفسا عميقا، وتقول وهي ترسم إشارة الصليب.

ـ اليوشا(9) كان ملاكاً، ملكوت السماوات له، كان طفلاً مذهلاً... عيناه ذكيتان وواضحتان... أوه لا أريد أن أتذكر. كل هؤلاء النساء الإنجليزيات... (لم تستطع المربية تحمّل بون والمربيات الأخريات، ودائما ما كانت تغار منهن جميعًا). هواء، هواء! ـ تشد المربية على صدرها وتصوّر كيف تختنق المربيات الإنجليزيات ـ لقد أربكن الكونتيسة(10) وحسب... هبت الريح باردة، مباشرة علينا، هل هذا ممكن؟ لذا أصيب الطفل بنزلة برد. لقد عاش الناس، عاشوا بدون هواء، عاشوا حتى مائة عام... وعندما مات أليوشا، كنتِ صغيرة جدًا حمقاء.

تضحكين، وتبتهجين، وتعتقدين بأنه دمية... وهو يرقد في التابوت، كما لو كان على قيد الحياة...

(9) اليوشا وفانكا ابنا تولستوي ماتا في طفولتهما

(10) الكونتسية هي صوفيا اندريفينا زوجة ليف تولستوي

تشهق المربية، وتسحب منديلًا من جيب تنورتها الشيت ذات الثنايا وتمسح عينيها المحمرّتين.

ـ حسبكِ، لقد أثرتِ حزني.

تنهض وتصبّ لنفسها كوباً من الشاي. كوبها كبير أزرق اللون مكتوب عليه «يوم ملاك سعيد».

ـ من الأفضل أن تشربي الشاي.

تشرب المربية بصمت الشاي من الصحن الذي تصاعد منه البخار، وتنفخ وتبتلع بصوت عالٍ. لا تعجبني قصة اليوشا، تبعث فيّ الحزن والخجل لأني كنت أضحك عندما مات اليوشا.

ـ كلٌّ بمشيئة الرب. لم يدع الرب أخويكِ أليوشا وفانكا يعيشان، بينما ها أنتِ كبرت، على الرغم ان امك لم ترغب بوضعكِ.

ـ كيف لم ترغب بوضعي، أخبريني، يا مربيتي!

ـ لقد سئمتُ منكِ، أنتِ تريدين معرفة كل شيء.

ـ حسنا، مربيتي، من فضلك!

تنهي المربية الشاي وتحوّل الكوب إلى صحن وتمسح فمها بفوطة:

ـ إذن، الكونتيسة لم ترد أن تلدكِ، وهذا كل شيء. (بدافع الاحترام، كان المربية تتحدث عن أمي بصيغة «هم».) أتذكر ان مشاكل كبيرة في هذا

الوقت كانت بين الكونتيسة والكونت(11). كانت الكونتيسة تبكي طوال الوقت، اما الكونت فقد كان جدياً للغاية، وحدث أنه يمر، معقود الحواجب وحتى مرعباً. وكانوا يجلسون بمفردهم في المكتب أو يذهبون إلى مكان ما، لقد غابوا لفترة طويلة. والكونتيسة تبكي طيلة الوقت. ثم اكتشفت الكونتيسة أنها حامل. وتصرخ: ـ ليوفوتشكا(12) لا أريد، لا أريد أن أنجب، تريد أن تتركنا، وترحل!» والكونت طيلة الوقت يقنعها. بالطبع، أنا كنت هناك مع الصغار، أسمع كل شيء. إن السادة يعتقدون أننا لا نفهم شيئا، لكننا كنا نعرف كل شيء كما هو في الواقع، مَن تشاجرَ مع مَن ومَن وقع في حب مَن... ومن ثم سافرت (بصيغة الجمع احتراماً) صوفيا اندريفنا إلى مدينة تولا القريبة، إلى القابلة لإجراء عملية إجهاض، والقابلة تقول لها: «كلا، كونتيسة، بوسعي بكل سرور ان أقوم بذلك لأخرى، ولكن لن أقوم بذلك لكم حتى لو جعلتم مني غنية، ستحدث مصيبة. سافرت، سافرت الكونتيسة إلى تولا، ولم تسفر أسفارها عن أي شيء، وجربت كل طرق الإسقاط: غمست أقدامها في الماء، واستحمت في حمام حار جدا من المستحيل تحمله، وحدث أنها صعدت إلى الخزانة ذات الأدراج، وقفزت من هناك، حتى يتملكنا الرعب! «ما الذي تفعلوه، أقول، لصوفيا أندريفنا، يا ترى هل هذا ممكن، يمكن أن تدمروا حياتكم بهذه الطريقة.» تقول: «لا أريد ان أنجب، لم يعد الكونت يحبني، يريد ان يرحل ويتركنا!» واستمرت تقفز وتقفز. حسنًا، لم يساعد شيء ـ لقد وضعَت.

(11) ليف تولستوي

(12) الاسم المصغر المحبب لاسم ليف

الحزن يعصر قلبي، واشعرُ بدغدغة في انفي، بيد أن المربية لا تلاحظ ذلك، وتواصل حكايتها:

ـ ولكنك تولدين، والكونت غير موجود! ولم يعد، والكونتيسة تبكي. جاء ليلا، وقد ولدتِ وتصالحا. ولدتِ بصحة جيدة، كبيرة ذات شعر أسود،

وعينين ـ لا يمكن معرفة طبيعتهما، ولكنها عيون كبيرة، ويبتهج كل من في المنزل من أنها فتاة: منذ فترة طويلة لم تولد فتاة، جميعهم أولاد.

يخفت السماور في غرفة المربية، ومن ثم يصدر ضوضاء مرة أخرى، وتنهض المربية وتغطيه بالغطاء. تنشرح روحي قليلا. أشعر بالسعادة، لان الجميع فرحوا بظهوري للوجود، وانتظر مواصلة القصة، بفارغ الصبر.

ـ حسنًا، يا مربيتي، وما بعد ذلك؟

ـ لا شيء.

ـ كيف لا شيء؟ اروي لي: ما بعد ذلك؟

تجلس المربية مرة أخرى وتبدأ في رفع الأطباق.

ـ بعد ذلك! لم ترغب الكونتيسة في إطعامك. كانت تشعر بالاشمئزاز من كل شيء. استؤنفت المشاكل مع الكونت. لقد كان غريب الأطوار في سلوكه في ذلك الوقت. فمرة يذهب للعمل في الحقل مع الفلاحين من الصباح حتى المساء، وأخرى يصلح الأحذية أو حتى يريد ان يعطي كل ممتلكاته، وبالطبع لم يعجب هذا الكونتيسة. لقد عاشوا وعاشوا وكسبوا المال، ومرة أخرى أطفال صغار... ولكن الكونتيسة، ونكاية بالكونت، وإذ كانت تعرف انه لا يحب هذا، استدعت لكِ مربية، كانت امرأة تتمتع بصحة جيدة وسمينة.

شعرت في نبرة المربية بالضغينة، وانتابني حزن غير محدود. أحاول ان أمسح دموعي بهدوء.

ـ هذا ما لم أتوقعه! ـ تقول المربية بغضب ـ ما هذا؟ لو عرفت انك بَكّاءّة الى هذا الحد، لما رويت لك أي شيء، بأي ثمن كان!

عائلتنا

في الصيف كنا نعيش في ياسنايا بوليانا(13)، وفي بداية شهر سبتمبر/ أيلول ننتقل إلى موسكو، حيث يدرس الأطفال. التحق الإخوة بالمدرسة الثانوية، وكانت لدي معلمة إنجليزية، ودرستُ في المنزل.

(13) ياسنايا بوليانا (الغابة الرائعة) هي موطن ليف تولستوي، تقع على بعد مئتي كلم من موسكو.

يبقى الأب والأخوات الأكبر سناً في ياسنايا بوليانا حتى أواخر الخريف، ويغادرونها أحيانًا في أوائل الربيع، على الرغم من أن الأم لم ترغب في فراقهم، وأَكدتْ أن الأب سيمرض بالتأكيد من دون رعايتها، ومن دون طباخ وطعام جيد، ولن تتمكن الأختان من الاعتناء به كما تعتني به هي، وأنهما تعيشان في قذارة، ومن دون خدم ترتكبان الكثير من الحماقات.

أتذكر أن والدي كان يعاني باستمرار من آلام في المعدة. مرة يُصاب بالإمساك، وأخرى بعسر الهضم، وخصوصاً بحرقة في المعدة، ووضع له الأطباء مختلف الوصفات: الصودا، والفحم المسحوق، والمغنيسيا والمياه المعدنية المختلفة، لكنها لم تساعده في شيء. وفي بعض الأحيان كان والدي يعاني من آلام في الكبد، لكنني لا أتذكر تعرضه لنوبات حادة. قالت والدتي إنه كان في السابق يعانى من آلام شديدة، وفي بعض الأحيان كانت تستيقظ على صراخه الرهيب. ذات مرة، هرعت إلى القاعة، ورأت أن والدي يتدحرج على الأرض في عذاب رهيب.
اهتمت أمي دائمًا بأن يكون الطعام لوالدي خفيفاً، وبالغت في قضية الطعام.

كان الطاهي سيميون نيكولايفيتش يأتي إليها في كل مساء، وناقشا معا قائمة الطعام لفترة طويلة. كانت هناك أربعة أطباق للغداء: حساء لحم للجميع، وحساء نباتي لليف نيقولايفتش وللأخوات. وإذا كان الطبق الثالث من الخضار، فالثاني شيء مغذٍ أكثر ـ فطائر الأرز أو المعكرونة

بالجبن، والحلويات أيضا حسب حالة معدة ليف نقولايفتش وللصغار: جيلي مع حليب اللوز، وعصير الثمار، وأنابيب بالكريمة أو الفطائر مع المربى.

وإذا ما شعر ليف نيقولايفتش لسبب ما بالضعف، فتقوم أمي وسيميون نيكولايفيتش سراً، مثل المتآمرين، بإضافة القليل من مرق اللحم إلى حساء الفطر، وحينما تكون مشغولة، يضع سيميون نيكولايفيتش على مكتبها قائمة في دفتر طويل صنعه بنفسه. هنا، بالإضافة إلى السجلات اليومية لوجبات الغداء ووجبات الإفطار، كانت ملاحظات على سبيل: «فانيا يعاني من آلام في البطن، اعمل له شرحات الدجاج والمرق»، «اطبخْ على الإفطار من أجل ليف نيكولايفيتش عصيدة «سمولينسك» خفيفة على حساء الفطر، فقد اشتكى شيئًا من بعض آلام المعدة»، «لغداء الضيوف، اشترِ طيور طيهوج البندق والتوت البري في سوق «أخوتني رياد» وابحثْ عن قرنبيط أو كرنب بروكسل جيد».

فهِم الطباخ سيميون نيكولايفيتش والدتي تمامًا، وتم إتقان فن المطبخ. كل ليلة قبل النوم تفكر أمي بمحبة مَن تطعِم وبأيّ طعام. في هذا يكمن فرحها وفخرها.

حاول والدي تقليل احتياجاته إلى الحد الأدنى، ولم يكن بحاجة إلى أي طهاة أو خدم. بعد أن يهرب بمفرده مع شقيقاتي إلى ياسنايا بوليانا، كان يستمتع بحريته مستفيدًا من خدمات امرأة قروية لم تكن لديها أي فكرة عن الطهي، إذ قطعت رؤوس الهليون، ولكنها لم تخلط مرق اللحم مع حساء الفطر.

أتذكر أنها كانت امرأة قذرة وغبية، أنيسيا، والتي تميزت فيما بعد في القرية بسرقة الأغنام من الفلاحين. قبضوا عليها، وبعد تفتيش قبو منزلها، وجدوا لديها العديد من ذيول ورؤوس الأغنام. لم يرفع عليها الفلاحون دعوى للقضاء، بل تعاملوا معها بأنفسهم: علقوا عليها الرؤوس والذيول وقادوها عبر القرية. ضربت النساء لها بالمناجل، وشتمها الرجال، وزعق لها الأطفال «أوليو ـ ليو».

كانت طاهية لوالدي وأخواتي. روت الأخوات أن والدي ذات يوم نادى عليها وهي تسير بجوار المطبخ:

ـ أنيسيا، أنيسيا!

ـ ماذا يا ليف نيكولايفيتش؟

ـ هل تعرفين أنك تشبهين سميراميس...

صرخت أنيسيا بسعادة:

ـ غير ممكن!..

منذ ذلك اليوم، لقبوها بسميراميس.

كنت لا أزال صغيرة في ذلك الوقت، لم أفهم سوى القليل، لكن بدا لي أن والدي وأخواتي الذين غادروا إلى ياسنايا كانوا يستمتعون مثل أطفال المدارس، ويجدون أنفسهم دون إشراف من كبار السن. لقد كتبوا رسائل مرحة، وعندما اجتمعت العائلة أخيرًا، سمعنا الكثير من قصصهم عن إقامتهم في ياسنايا بوليانا. أتذكر قصة عن كيف جاءت عمتي تاتيانا أندريفنا لزيارتهم. أطعموها طعامًا نباتيًا كانت تكرهه.

وذات مرة أحضر الأب والأخوات دجاجة حية لتناول العشاء، وربطوها في أرجل الكرسي حيث كان من المفترض أن تجلس العمة، ووضعوا عند طقم صحونها سكينًا كبيرة.

لم تفهم العمة سبب القيام بكل هذا.

قال لها والدي:

ـ أردتِ دجاجة، وليس لدينا من يجرؤ على ذبحها، لذلكِ أعددنا كل شيء لك...

كانت الأم تؤمن بضرورة تعليم الأطفال، لهذا عشنا في موسكو. يعتقد الأب أنه لا ينبغي إجبار الأطفال على الدراسة، بل يجب تربيتهم في حياة عملية بسيطة، نظرًا لأن الأطفال أنفسهم لو رغبوا باكتساب المعرفة، فسيكون بميسورهم القيام ذلك. لقد تم إنفاق الكثير من الأموال على المعلمين والمؤسسات التعليمية، ولكن لم يرغب أحد في الدراسة.

شعر الأطفال بالاختلاف بين والديهم وأخذوا بشكل لا إرادي من كل واحد منهما ما كان مفهوما لهم وما أعجبهم أكثر. تجاهلنا ان والدي اعتبر التعليم ضروريًا لكل شخص، وحاول هو نفسه رفد معرفته حتى نهاية أيامه، والتقطنا منه فقط أنه كان ضد التعلم، وأُعجبنا بحديث أمنا عن ضرورة وجود الكثير من المال من أجل ارتداء ملابس جيدة، والحفاظ على الخيول، وترتيب حفلات استقبال ورقص، وتناول الطعام اللذيذ، لكن مطالبها بالعمل والتخرج كانت غير سارة لنا. لم نفكر في كل هذا، بل عشنا على نحو أبسط وأسهل.

لكن بالنسبة لبعضنا كان التعلم سهلاً. كان ميشا(14) ولدًا موهوبًا بشكل استثنائي، لقد أحبته تانيا(15) كثيرًا وأخبرتني عنه. ذات مرة ذهبت تانيا معه، وهو ما يزال صغيرا جدًا، إلى محطة ياسينكي. سقط ميشا من الزلاجة، ولابد أنه انكدم أو تعرض لرضوض، لكنه لم يقل شيئًا. فوجئت تانيا أنه كان مستلقيًا بلا حراك في الثلج وقالت له: «ميش، انهض!» ويرد عليها ـ «لا، سأستلقي». كانت تانيا خائفة: «ربما تعرضت لكدمات ورضوض؟» ويرد عليها ـ «لا، سأستلقي!» لذلك فقد رحنا منذ ذلك الحين، عندما يحدث أن يكدم أحدهم نفسه ويخاف التباكي نقول له: «سأستلقي».

(14) تصغير وتدليل لاسم ميخائيل (1879 ـ 1944). هاجر من روسيا في عام 1920 وعاش في تركيا ويوغوسلافيا وفرنسا والمغرب. وتوفي في 19 أكتوبر 1944 في المغرب

(15) اكبر أولاد ليف تولستوي تاتيانا (1864 ـ 1950). تزوجت عام 1899 من ميخائيل سوكوتين. في 1917 ـ 1923 كانت

القيم على متحف ياسنايا بوليانا. في عام 1925 هاجرت مع ابنتها.

عندما كان ميشا بالكاد يعرف القراءة والكتابة، شخبطَ على قطعة من الورق: «يجب أن تكون طيباً» ـ وحمل الورقة في جيبه.

في كثير من الأحيان يبتسم الأب بوداعة عندما يغضب شخص ما ويقول له: «يجب أن تكون طيباً!»

كان ميشا الأكثر موهبة موسيقية في عائلتنا، ومهما كان اللحن الذي يسمعه، كان يجلس على البيانو أو يأخذ الغيتار أوالبالاليكا، ويعزفه على الفور. درس الكمان لفترة، وخطى خطوات كبيرة، وكانت أمي سعيدة وفخورة به، لكنه سرعان ما ترك اهتمامه بالموسيقى.

أتذكر أن فيودر شاليابين(16) غنى لأول مرة في منزلنا بموسكو. لم يُعجب الأب بما غناه: «أغنية البرغوث»، «غرينادیان». اقترح شاليابين أن يغني أغنية «الليل»، لكن الشاب عازف البيانو الذي رافقه لم يستطع عزف الأغنية بدون نوطة. ذهب ميشا بخجل إلى البيانو وعزف اللحن، وفي غضون بضع دقائق كان شاليابين يغني بالفعل بمرافقته المبتذلة إلى حد ما، ولكنها صحيحة تمامًا.

(16) فيودور شاليابين (1873 ـ 1938) من أشهر فناني الأوبرا الروس في العالم في القرن العشرين.

لم يرغب ميشا في الدراسة وترك المدرسة الثانوية نهائيا. هددوا بطرده إذا تأخر عن الدروس ولو مرة واحدة. كانت أمي في حالة من اليأس وقامت بتوبيخه ولومه، ولكن لم يساعد ذلك في شيء. عاد ميشا متأخرًا مرة أخرى، ولم يرغب صباحاً في الاستيقاظ، على الرغم من أن الخادم قد أيقظه عدة مرات.

ما العمل؟ سكبتُ إبريقًا كاملاً من الماء المثلج، وتسللت على رؤوس أصابع قدمي إلى سرير ميشا، وصببت الجرة بأكملها على رأسه. ظهر

على الفور رأس مبلل خشن من تحت البطانية، وزاغت عيون رمادية نائمة بشراسة. قفز ميشا وركض ورائي. وركضت في الممر، وميشا اتبعني. ركضت من خلال البوابة إلى الشارع، وعاد ميشا إلى رشده، وركض إلى المنزل، وارتدى ملابسه وذهب إلى المدرسة الثانوية. لفترة طويلة حاولت ان لا أكون في مجال نظره. كانت لدى ميشا قبضة حديدية، وقد تعارك بشكل مؤلم للغاية.

لم يدرس أندريه(17) أيضًا. كانت أمي تعتقد أن من الصعب الدراسة عليه، لأنه كان يعاني من التهاب في الدماغ في طفولته. لقد أشفقت عليه وأحبته أكثر من غيره، وقبل ولادة فانيشكا(18)، كان يعتبر المفضل، وربما كان أبي يعامله أيضًا أفضل من غيره، للطفه وحساسية قلبه.

(17) أندريه (1877 ـ 1916)، مسؤول عن المهام الخاصة في عهد حاكم تولا. شارك في الحرب الروسية اليابانية. توفي في بتروغراد من تسمم الدم العام. ابنته صوفيا تولستايا ـ يسينين، آخر زوجة للشاعر المشهور سيرجي يسينين.

(18) اسم التصغير والتدليل لإيفان (1888 ـ 1895).

انتقلت من مربيتي إلى المربيات الإنجليزيات، اللواتي علمتني التحدث باللغة الإنجليزية والاغتسال بالماء البارد، ومن ثم إلى المربيات المحليات. كن يتغيرن باستمرار، لم أكن أحبهن، وحاولت أن أعاكسهن، وقد استمتعن بتعذيبي. كانت امي تصُفعني وتعاقبني وتجرني من ضفيرتي، لكن ذلك لم يساعدني. في المكتب الذي أبحث فيه عن مربية، كانت لدي بالفعل سمعة خاصة: «آه، ساشا تولستويا الصغيرة، كلا، اشكركم!»

أحببت سيدة إنجليزية واحدة، عاشت معنا خلال أشهر الصيف لمدة سبع أو ثماني سنوات، الآنسة ويلش. لكن سأتحدث عنها لاحقًا.

قررت والدتي أن تعدني لأداء الامتحان بمساعدة معلمة منزلية تخدم في إدارة التعليم للمنطقة، وإلى جانب ذلك، درسوني منذ سن العاشرة اللغات: الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، وكذلك الموسيقى، والرسم. وكنت أدرس كل يوم من الساعة التاسعة إلى الظهر، ثم كانت هناك استراحة لتناول الإفطار والنزهة، وثم من الثانية إلى السادسة. وفي المساء بعد الغداء أعددت دروسي، ولم أتمكن من هضم هذا الكم من المعرفة، ودرست بشكل سيء.

اكثر الساعات غبطة ومسرة في حياتي، هي الساعات التي كنت أمضيها في الحديقة. كم بدت لي هذه الحديقة مظللة وضخمة! ولاحت الممرات المليئة بالشجيرات وكأنها غابات لا يمكن اختراقها، وكانت أشجار التفاح والكمثرى حائطا ساترا، وبدت الممرات بلا نهاية، وكانت التلة مرتفعة ومنيعة، والعريشة المليئة بالشجيرات، وقد زُينت جدرانها من الداخل بملصقات تصوّر فرسان يركضون على الخيول، فقد بدت لي غامضً وبديعة. والآن، عندما أزور هذه الحديقة، أود استحضار انطباعات الطفولة، لكن الممرات المجاورة للسور العالي تبدو وكأنها قد نُتفت ومثيرة للشفقة، والشجيرات القريبة من الطريق قد أصبحت بالضبط قليلة الكثافة، وأتسلق في خطوتين التلة التي زالت قشرتها، ولا أجد البستان. ربما في الطفولة، عوّض الخيال عن أوجه القصور، أو ربما تقلصت كثافة الحديقة حقًا؟.. لكنها الآن عزيزة جدًا على قلبي. بالإضافة إلى الحديقة، كان المنزل في منطقة «خاموفنيك» بموسكو أيضًا ذا فناء كبير محاطٍ بسور، ومرافق خدمات مختلفة. لقد جئنا إلى موسكو بمزرعة كاملة: زوجين من الخيول المتنقلة مع الحوذي العجوز يميليانيتش، وبقرة، وعربة من القش والشوفان، وبراميل ضخمة من الخيار المخلل، ومخلل الملفوف، ومخزوناً كبيراً من المربى. ذات مرة تم جلب حصان والدي الفتي حتّى. أتذكر كيف كان الصبي يرعى في الحديقة، وبدلاً من ان ادرس، رحت أراقبه من خلال النافذة وهو يطارد سنجاباً.

تحتل البقرة أول سقيفة من الشارع، ثم تأتي الخيول، وسقيفة للحافلات، بينما كانت آخر سقيفة مشغولة بالكتب، وهنا ألقي عدد كبير من أعمال والدي التي نشرتها وباعتها أمي. عاشت الأسرة بأكملها على موارد هذه الكتب، لأن الكتب تدرّ دخلاً سنويًا يبلغ حوالي عشرين ألف روبل.

عاش الوكيل ماتفي نيكيتيش رومياننتسيف في أحد المباني الملحقة ـ وكان مسؤولاً عن تجارة الكتب. كان رجلاً سميناً بلحية كثيفة وبطن كبير مع ضيق شديد في التنفس. ارتدى ماتفي نيكيتيش بوقار زوجًا أسود مع سترة لامعة، تدلت عليها سلسلة فضية ضخمة، ومشى وبطنه إلى الأمام، وبدا لنا إنه رجل مهيب. كانت زوجته امرأة سمينة منتفخة من الدهون، لا أستطيع أن أتخيل غير أنها جالسة أمام المنزل على كرسي وبنظرة باهتة تكسر بزر عباد الشمس.

عند مخرج الشارع، كانت هناك كشك يعيش فيها البواب والحارس. أدى ممر خشبي إلى مطبخ على الجانب الآخر من المنزل. كانت هناك أيضًا غرفة طعام لـ «العوام» وخزانة صغيرة يعيش فيها الطباخ سيميون نيكولايفيتش.

كان المنزل قديمًا(19). قالت والدتي في ذلك الوقت إن له أكثر من مائة عام. أصرت على أنه كان غير مريح، وأن بوسع ليوفوتشكا فقط التفكير بشراء منزل في مثل هذا الحي غير الأرستقراطي، حيث توجد الورش والمصانع في كل مكان، وإنه لم يكن مناسبًا لإقامة حفلات الاستقبال. عندما كنت طفلة بدا لي أنه لا يوجد مثلُ المنزل في منطقة خوموفنيك ولن يكون هذا مثله منزلاً جميلاً ومريحاً. بالطبع، نحن الأطفال أولينا القليل من الاهتمام لمظهره الخارجي، لكنني أتذكر جيدًا أنه عندما قررت والدتي تجديده، وتحول المنزل البني الباهت فجأة إلى اللون الوردي مع درف نوافذ فستقية اللون، ساورنا شعور بالاستياء منه. لقد أصبح مقرفاً مثل امرأة عجوز متصابية!

(19) ما زال هذا المبنى قائما في موسكو. وكان قد تحول بقرار من الزعيم السوفياتي فلاديمير لينين في عام 1921 الى متحف ليف نيكولايفيتش تولستوي في خاموفنيك. هو متحف مخصص لحياة وعمل الكاتب ليو تولستوي. (المترجم).

ويا لها من غرف رائعة، وأي ممرات، وسلالم صغيرة وكبيرة، وخزائن جدارية!

كنا نعيش في الطابق السفلي. وكان يضم غرفة الطعام، وغرفة نوم الوالدين، وغرفة تانيا، وغرفة الأولاد والأطفال، وغرفتي، وغرفة المربية.

في الطابق العلوي كانت غرفة الحفلات، وقاعة مدخل صغيرة، رتبت منها تانيا ذات الذوق الرفيع غرفة استقبال، حيث يجلس الشباب عادة، وقاعة ثانية، وغرفتي ضيوف كبيرة وصغيرة. بدت لي هذه الغرف غير مريحة. الشيء الجيد الوحيد هو أريكة كبيرة في غرفة الضيوف، واسعة ومنخفضة، وكانت مناسبة لتتشقلب. المكان المريح اكثر في القاعة هو جلد الدب الذي يرقد تحت البيانو، ويحدث أن يكون شخص ما يعزف على البيانو ـ العم كوستا أو الأخ سيريوجا(20) أو أمي، فيما أنا مستلقية على الجلد، وأضع رأسي كيفما اتفق على رأس الوحش، واستمع للموسيقى. كان هذا الجلد من نفس الدب الذي كاد يقتل والدي أثناء الصيد.

(20) هو اسم التدليل لأكبر أولاد ليف تولستوي، سيرجي (1863 ـ 1947)، ملحن، وعالم موسيقى. وهو الوحيد من أبناء الكاتب الذين نجوا من ثورة أكتوبر ولم يهاجروا. (المترجم).

أدى درجان صغيران من غرف الحفلات إلى الممر ـ أحدهما من القاعة، والآخر من غرفة الضيوف الصغيرة، وكانت الغرفة الأولى في الممر هي غرفة ماكنة ـ منخفضة، وذات نوافذ صغيرة. علاوة على ذلك، كانت هناك غرف مدبرة المنزل، والخياطة، والخدم، وفي النهاية، في زاوية

المنزل، بعيدًا من أي شخص آخر، كانت هناك غرفتان صغيرتان بسقوف منخفضة للغاية، إنها غرف أبي ـ مدخل يحتوي على خزانة من خشب الجوز فصلت حوض الغسيل، وعلى اليمين كان مكتبه ـ وهو أقدس الأقداس في تصورنا الطفولي.

كانت غرف الأخوات مختلفة تمامًا.

غرفة تانيا ـ في الطابق السفلي حيث كانت تنام، وغرفتها الصغيرة للاستقبال في الطابق العلوي ـ مؤثثة بذوق رائع. كانت توجدُ وثيرة ومريحة، وأرائك، ومفارش مائدة غير عادية مصنوعة يدويًا ، ولوحات، وألبومات وصور لا حصر لها للعائلة والأصدقاء ـ كل هذا كان مبعثرًا ، وإن كان في حالة فوضى، ولكن بذوق.

لم يكن هناك شيء غير ضروري في غرفة الآلة. كراسي صلبة وبسيطة وطاولة وسرير صلب بدون حشية ـ كل شيء يعطي الانطباع بالتقشف والنظافة.

أحببت الذهاب إلى غرفة تانيا، وكانت هناك العديد من اللوحات المثيرة للاهتمام، وفي فنجان كبير كانت أعمال يدوية وغالبًا ما كان خليط من المكسرات. كان الذهاب إلى غرفة ماشا(21) مخيفًا تقريبًا مثل الذهاب إلى مكتب والدي. كل شيء هنا صارم وعابس، وتفوح رائحة أدوية.

(21) اسم التدليل لابنة ليف تولستوي ماريا (1871 ـ 1906). تزوجت في عام 1897 من نيكولاي ليونيدوفيتش أوبوليينسكي (1872 ـ 1934).

كانت الأخوات أنفسهن مختلفات تمامًا.

فضل جميع أفراد الأسرة تانيا، وكانت أمي تحب تانيا أكثر بكثير من حبها لماشا. كانتا دائمًا تسافران معًا، وتتذكران بحيوية دائمًا هذه الفترة من حياتنا. لكن الحب للوالدة لم يمنع تانيا التقرب من الوالد ومشاطرته آرائه. لم تنحز أبدًا بحدة لأحد الوالدين، وحاولت طوال

حياتها أن تكون رابطًا بين والديها. كان الأطفال يحبون تانيا لأنها غالبًا ما كانت تلعب مهم، واحبّها الأخوة الكبار الذين كانت ترتبط بهم بعلاقات صداقة. كانت تانيا مرحة ومبهجة ذات شعر بني مجعد، وعيون بنية حيوية، وأنف قصير كأنه مقطوع: كانت تانيا جذابة حقًا. كانت تعرف اللغات جيدًا، ودرست في مدرسة الرسم، وتحدث أليا ريبين(22). وفنانون آخرين عن قدراتها العظيمة، واعتبرت تانيا الأذكى والأكثر تعليما في العائلة.

(22) إيليا ريبين (1840 ـ 1930) رسام ونحات روسي، يُعدّ أحد أعظم رسامي التيار الواقعي الروسي في القرن التاسع عشر.

عندما أتذكر ماشا، تصبح روحي بهيجة ونيرة. كانت تشبه الوالد في كل مظهرها، على الرغم من انه لو قمنا بتفكيك ملامح وجهها، سنجد انها تشبه الأب فقط بالعيون الرمادية اليقِظة والعميقة والجبهة العالية.

... كانت رقيقة، ورشيقة، وماهرة للغاية ـ كل شيء وفّقَ في يديها الدميمتين بعض الشيء. كان وجه ماشا جادًا ومركّزًا، وبدا أنها كانت تستمع بالضبط لما كان يحدث بداخلها. لقد أحبها الجميع، كانت ودودة وحساسة: تجد لكل من تقابله كلمة رقيقة وبشوشة، وهذا لم يكن مصطنعا، ولكن طبيعيا، كما لو أنها شعرت على أي وتر ينبغي الضغط من أجل أن يكون صدى للصوت. وصف الجميع ماشا بالقبيحة ـ فمها الكبير يشبه فم الأم، وكانت أسنانها سيئة، وأنفها كبير قليلاً، لكن كيانها ككل بدا لي حلوًا وجذابًا.

أحب الأب كلتيهما. وبقدر ما استطعت أن أرى، كانتا تغاران من بعضهم البعض. اعتقد كل منهما أنه يحب الأخرى أكثر...

لم يعش الإخوة الأكبر معنا أبدًا. احتلوا مكانًا صغيرًا جدًا في ذكريات طفولتي حيث مرت حياتنا كلها من دونهم. عندما كبرت، انتقل أخي الأكبر سيرجي إلى ملكية عائلة تولستوي المسماة نيكولسكوي ـ

فيازيمسكوي في مقاطعة تولا، والتي ورثها باعتباره الابن الأكبر في العائلة.

كنت دائمًا أخاف قليلاً من سيريوجا، بدا جادًا جدًا ومهيبا بالنسبة لي. تخرج من الجامعة، وكان موسيقيا. بالنسبة للأشخاص الذين يعرفونه قليلاً، بدا (ولا يزال يبدو) غاضبًا وغير قابل للمعاشرة. لكن بمجرد أن تعرفه بشكل أفضل، سترى حالا أنه تحت العبوس الخارجي، والتململ، وأحيانًا الفظاظة، هناك طيبة كبيرة ولطف حتى ـ بغض النظر عن مدى ضآلة ذلك مع مظهره ـ خجل كبير. عندما كنت صغيرةً جداً، كان يناديني بعبارة«أختي الوحيدة»، التي كنتُ فخورةً بها. إن الإعراب عن الرقة والتحبب غير مقبول في عائلتنا، وإذا نادى شخص آخر باسم التدليل والتحبب، فعادة ما يتم الاستهزاء به بشدة: «يا لها من عاطفة!» ـ أو: «أي رقة!»

كون أن أخي الأكبر دعاني بأخته الوحيدة كان كثيرًا للغاية، وقبِلتها على هذا النحو وقدّرتها.

لابد ان أخي وحتى الآن، لا يعرف مدى الانطباع القوي الذي تركته موسيقاه عليّ. عندما كنت صغيرة جدا، لم أستطع النوم في المساء، وانا استمع إلى عزفه. تعلمت منه أن أفهم وأقدّر شوبان، وبيتهوفن، وجريج، ولفترة طويلة، وبغضّ النظر عن الموسيقيين الذين استمعت إليهم، بدا لي أنه لا يمكن لأحد العزف أفضل من أخي سيرجي.

إيليا في ذاكرتي لم يعيش معنا على الإطلاق. بالكاد أتذكر كيف تزوج، وذلك فقط لأنهم لم يأخذوني إلى حفل الزفاف، وقد كنت مستاءة بشدة.

إيليا أشبه بأبيه فهو كبير، عريض الكتفين، ذو لحية بنية فاتحة عريضة، منحنٍ قليلاً، وأنف واسع وعينين رمادية، وحاجبين أشعثين. كان يعيش في قرية في نفس مقاطعة تولا، ليست بعيدة عن شقيقه سيرجي.

عاش الأخ ليف(23) معنا أكثر من غيره، وتزوج لاحقًا من ابنة الطبيب السويدي الشهير فيسترلوند. أسود، بلحية شقراء صغيرة، وأنف كبير

محدب، وفم كبير، وعينين سوداوين، كان ليف يشبه والدته أكثر من والده. كان مريضا في كثير من الأحيان، وأمي تقلق عليه. لم يتخرج من الجامعة وغيّر هواياته باستمرار: أصبح من أتباع والده، نباتيًا صارمًا، ثم على العكس من ذلك، فقد تمرد على أفكار أبيه بنفس الحماسة، وكان هناك وقت بشّر فيه بالعفة الكاملة والعزوبة، وبعد ذلك، عندما تزوج، تحدّث بنفس القناعة عن ضرورة الزواج المبكر للجميع، وكتَب، وفي وقت ما جذبت أعماله الانتباه في العالم الأدبي، ولكن ليس بعبقريتها، بل بجدالاته مع والده: «مقدمة شوبان» بدلاً «من كروتزر سوناتا»، «ياشا بولياكوفً بدلاً من «الطفولة» و«المراهقة»، وإلخ

(23) ليف (1869 ـ 1945) كاتب ونحات. منذ عام 1918، في المهجر ـ في فرنسا وإيطاليا ثم في السويد.

يبدو أن الناشر والكاتب سوفورين قد أطلق عليه لقب «تيجر تيجورفتش»(24).

(24) اطلق الناقد بورمين لقب «نمر غبن النمر» الذي يعني «المتنمر» على نجل ليف تولستوي «ليف» لوقوفه ضد أبيه.

كانت لدينا عائلة كبيرة ومتنوعة. الأم، مثل الدجاجة، تنشر جناحيها، وتحاول أن تجمع حولها أفراخها. لكن تدريجيًا ذهب الجميع من تحت تأثيرها، وسعى الأبناء العيش في حياة مستقلة، وحذت البنات حذو الأب.

عزاء أمي الوحيد كان فانيشكا: لقد ركزت عليه طوال حياتها.

شعوري بالوحدة

شعر كل من في المنزل بالكرب والحزن لوفاة إيفانتشكا(25)، كانت أمي اكثر الجميع حزناً. بكت، وتحركت بسرعة، ولم تجد الراحة لنفسها. زارت الكنائس، وصلّت، واعترفت، وتلقّت القربان، ثم ذهبت إلى قبري فانيشكا وأليوشا ـ الراقدين في مقبرة صغيرة هادئة في حقل، وتتكون من عدة تلال وآثار متواضعة. كان الجو هادئًا هنا، فزقزقت الطيور. زرعنا الزهور والأشجار. أتذكر جيدًا شخصية والدتي المهيبة وهي في حداد، بخِمار أسود طويل على رأسها، وهي منحنية فوق تلة للقبر صغيرة لا تزال حديثة. ارتجفت شفاهها وهمست بشيء ما، وتدفقت الدموع من العيون الساحرة قصيرة النظر... وكلفّت أمي الفلاح كومولوف، الذي كان يسكن بالقرب من المقبرة في قرية نيكولسك برعاية القبور. كانت تحب التحدث معه ومع زوجته ـ تركت كلماتهم البسيطة الخشنة تأثيرا جيدًا على روحها المعذبة.

(25) اسم التدليل لإيفان اصغر أبناء ليف تولستوي

اندهش الجميع من وداعة الأم. لقد ولدت من جديد بالتأكيد ـ غدت لطيفة مع الجميع، ولم تغضب على أي شخص، لكنها كانت تنتحب فقط. وكان عزاء الأب في حزنه بأن المحنة ستلهيها عن كل شيء خارجي، عن صخب العالم، وتوقظ اهتمامات الروحية فيها، التي لن تنير حياتها فحسب، بل ستقربها أيضًا(26).

(26) جاء في رسالة كتبها أبي الى صديقه عرابي أ.أ تولستوي «قال الكاهن فالنيتن، الذي اعترفت صوفيا اندريفينا له امس، وهو رجل ذكي جدا،: حسنا يا صوفيا، إن الأم التي تفقد أبناءها تتوجه في بداية الأمر إلى الرب، ولكن من ثم تعود إلى المشاغل الدنيوية، وتبتعد ثانية عن الرب، وحذّرها من ذلك. واعتقد ان هذا لن يحدث لها» (رسالة مؤرخة31 مارس/ آذار عام 1895).

أنا أيضًا حزنت بطريقتي الخاصة. كم مرة شعرت بالرغبة للذهاب إلى أمي، لأداعبها، وأبكي معها، لكنني لم أجرؤ...

غالبًا ما التقيت بناديا وأمضينا ساعات نتحدث عن فانيشكا، ونتذكر كلماته، ونبحث عن كل ما يُذكر به. لاحظنا ذات مرة في معرض تريتياكوف في لوحة فاسنيتسوف «بعد المعركة»، المحارب الشاب المقتول في المقدمة. ذكّرنا هذا الصبي ذو الشعر المجعد الخفيف والوجه الحنون بفانيشكا، ونظرنا إليه لفترة طويلة دون انقطاع.

صحبتني والدة صديقتي ناديا، التي تفاعلت بودّ مع حزننا، في الربيع نفسه، إلى ضيعتها بالقرب من موسكو. كان هناك الكثير من الفتيات والفتيان، لكنني شعرت بعدم الارتياح معهم وبدا لي أنهم كانوا يتجنبونني، فقد كنت خجولة للغاية، وانطوي على نفسي، بمجرد ما أشعر بأدنى قدر من الاغتراب. كنت اشعر بالراحة فقط مع ناديا. أتذكر هنا أننا قررنا معها كتابة رواية. كان على كل منا كتابة فصل وقراءته بصوتٍ عالٍ. لكن عندما سمعت عمل ناديا، الذي بدأ بمحادثات قصيرة تتخللها عبارات فرنسية، بدا لي أنه رائع وبديع، لدرجة أنني لم أجرؤ على أن أقرأ لها بداية روايتي، حيث «يعود رجل مخمور إلى منزله في عاصفة ثلجية شتوية على حصان متهالك».

كنت سعيدة عندما جاءت أمي من أجلي. أفسد الرحلة أيضًا حدوث شيء لرأسي. لقد شعرت بحكة لدرجة أنني مزقته حتى تفصد الدم، وتشكل في مؤخرة الرأس جرح دائم النداوة. وأخيرا لاحظتني المربية وتساءلت:

ـ لماذا تحكين نفسك هكذا؟! دعيني أرى.

أخذت رأسي في حجرها، وبدأت تعبث بشعري.

ـ أيها الرب يسوع المسيح، لماذا رأسك كله قمل!

وبدون تردد، أمسكت المربية بقطعة قماش، ونقعتها بالكيروسين، ودهنت رأسي بالكامل. وعالجت الجرح بشدة لدرجة أنني كدت أصرخ من الألم. كانت المربية محرجة لأنها، وبسبب حزنها أهملت العناية بي. لقد عانيتُ أنا أيضا. ان هذا الحدث، الذي كما لو أنه عديم الأهمية، انطبع في ذاكرتي بألم حاد.

تدريجيًا، عاد كل شيء إلى مجراه الطبيعي، مع فارق وحيد، إذ لم يعد بيننا ايفانيتشكا المخلوق الصغير المحبوب الذي أضاء حياتنا وألهمها، وأمي تتحرك بسرعة، ساعية للعثور على اهتمامات جديدة.

كرّست لي الكثير من الوقت: اهتمت بأن يكون لدي معلمين ومربيات جيدين، وإذا مرضتُ، دعَت الأطباء لفحصي، وحاولتْ تطوير قدراتي الموسيقية، وصحبتني معها إلى الحفلات الموسيقية، وجعلتني أقرأ بصوت عالٍ أعمال موليير وكورنيل وراسينٍ. لكني لم أستطع ان أكون بديلاً عن ايفانيشكا لها، ولم تستطع أمي منحي المودة والحنان، وهذا ما افتقدته كثيرًا... وعندما حاولت بخجل التقرب منها، لم تفهمني.

ـ ما بكِ يا ساشا(27)؟

(27) ساشا اسم التدليل والتحبب لاسم الكسندرا

سألتني بدهشة، لدرجة أنني نكصت على الفور. لم أعرف ماذا تريد مني، ولماذا أنا أكثر من الآخرين عرضة للتوبيخ. على كوب مكسور، أم على كذبة، أم على درس تعلمته بشكل سيء؟ لقد عرفتُ من خلال التجربة أنه يمكنني التعرض للتوبيخ على حد السواء، على كل شيء، وحرصت على إخفاء تصرفاتي عن والدتي.

أتذكر هذه الحادثة. ألبسوني فستانا قطنياً جديداً. لم يعجبني: لقد أثارت استيائي ستة أزرار صدفية ضخمة للزينة، معلقة بطريقة غير مناسبة في المقدمة. هرعت إلى الحديقة، ونسيت حلتي الجديدة، فلعبت بولع مع الأولاد لعبة الغميضة، وفجأة انزلقت وسقطت في الوحل، وركضت إلى المربية. عندما رأتني المربية بهذا المظهر راحت توبخني،

وهزت رأسها، وبدأت تناقش عن أن لا تعرف الكونتيسة بذلك. وفجأة انفتح الباب ودخلت أمي. أسرعت للاختباء خلف الطاولة، لكن أمي رأت الفستان، وأمسكت بي من رأسي وبدأت تسحبني، وكما أتذكر الآن، شعرت بألم صارخ، في جذور شعري، وخاصة في مؤخرة رأسي.

ـ أوه، أيتها الفتاة الدنيئة! (دائما ما وصفتني أمي في مثل هذه المناسبات بالفتاة الدنيئة) كيف تجرئين على التعامل على هذا النحو مع الأشياء الجديدة؟!

لقد كانت هناك حالات من قبل عندما سحبتني أمي من شعري أو صفعتني، لكن لسبب ما لم تترك انطباعًا قويًا عليّ كما فعلت هذه المرة. طفر شيء في حلقي، مما جعلني أتنفس بصعوبة، شيء ما مظلم، مروع. لم تكن هناك دموع. جلست في زاوية مظلمة في العريشة، وتذكرت كل شيء هنا: موت فانيشكا، وشعوري بالوحدة، وكل الإهانات والمظالم الباطلة التي تعرضت لها من قبل كبار السن. وقررت «سوف أُغرق نفسي في نهر موسكو»، وبعد أن قفزت من العريشة، ركضت عبر البوابة أسفل الممر المؤدي إلى النهر. وكان الوحل رهيبًا، وكانت قدمي مبتلة. «كيف أنا بدون الكالوشات(28)؟ ـ ومض فجأة في رأسي. ـ «سوف أُعاقب!» سارت الأفكار في اتجاه مختلف، وفجأة لاحظت وجود المارة، بعضهم نظر إليّ باستغراب. وقفلت راجعة إلى المنزل.

(28) الكلوش هو حذاء فوقاني يلبس فوق الحذاء العادي للدفء أو لمنع البلل أو الطين.

خلال هذه السنوات، عندما كان عمري أحد ـ أو اثني عشر عامًا، لم تمنحني الأفكار الثقيلة السكينة. وعلى ما يبدو، إنها تشكلت بطريقة ما، وكان العقل يبحث عن تفسيرات لشعوري بالوحدة التي تعذبني، وأخيراً توصلت إلى اكتشاف وسارعت لمشاركته مع صديقتي.

ـ تعرفين يا ناديا ـ أبلغتها بسرية ـ أنا طفلة بالتبني!

ـ ما تقولين؟ ـ صاحت نادية برعب ـ لماذا تظنين ذلك؟

ـ الدلائل تشير إلى ذلك، أن فانيشكا كان بالفعل ابنًا حقيقيًا، لكنني لم أكن كذلك. عندما كنت صغيرة جدًا، قال لي كبار السن بالصدفة شيئًا كان لا ينبغي ان يبوحوا لي به، هو أنني ابنة مالك أرض مجنون. ثم قالوا إن هذا ليس صحيحًا، لكنني الآن أعرف أنه كذلك.

سألتني نادية، وهي تشعر بالشفقة عليّ، لكنها في الوقت نفسه انجرفت إلى الرومانسية في هذه القصة.

ـ ربما أنت مخطئة؟

وواصلتُ:

ـ ولكن هناك شيء آخر، إن أمي قالت مرات عديدة: أن فانيشكا يشبه أبي، وتانيا وليوفا يشبهانني، وساشا لا تشبه أي شخص آخر.

اضطربت ناديا. ولم تحسن ان تبقى من دون فعل، على الرغم من أنها أعطتني كلمتها بالتزام الصمت، وقررت أن الأمر مهم جدًا، لدرجة أن لها الحق في نقض كلمتها والتحدث مع أخي ميشا حول الموضوع. عقب عدة أيام، عندما كنت أنا وميشا عائدين من ناديا، قال إنه لا بدّ من أن يتحدث معي. وفاجأني هذا. غالبًا ما كان ميشا يضربني، لكنه نادراً ما كان يتحدث معي، لا سيما بصوت لطيف، لم يحب ميشا التحدث كثيرًا، لكن نبرته الصبيانية الواثقة أثّرت عليّ أكثر من أي قناعات أخرى. قال لي:

ـ لقد اختلقتِ كل هذا الهراء بأنك لستِ ابنة أبي وأمي؟؛ أعرف تماما. أنتزعيه من رأسك وسأل مبتسما بمودة:

ـ من أين حصلتِ على هذا؟

لكنني لم أرغب في الرد. وهل سأكون قادرة على إخباره كيف تطورت هذه القصة السخيفة في مخيلتي الطفولية؟ خلال هذا الوقت الصعب، أمضت الأخت تانيا معي الكثير من الوقت. منذ الطفولة المبكرة، عندما

أسميت أختي بأمي، احتفظت بشعور خاص تجاهها. فضلا عن ذلك إنها أعجبتني بانشراح صدرها، وبهجتها وحيويتها، وإنها تمكنت بطريقة ما من أن تستميلني، ولم أخفْ منها، ولم أكذب عليها أبدًا، ولم أشعر بخفة الروح فقط عندما كانت معي، ولكن أيضًا ببهجة. أخذتني إلى معارض اللوحات، وإلى حديقة الحيوان، وأحيانًا كانت تذهب معي إلى دروس الأطفال الصباحية والمسائية بدلاً من والدتي، ودائمًا كان الشباب يدورون حول تانيا، واطلعوها على أسرارهم، وحاولت مساعدة الجميع ـ لقد أحبها الجميع. وحينما مرض ليوفا ـ أخذته تانيا إلى الأطباء، وحاولت تحسين مزاجه، وشجّعته، وحينما كان يتعين تزويج أحدى القريبات ـ تنكبّ تانيا على خياطة فستان الزفاف.

أتذكر مشكلة وقعت لي مع هذا الفستان بالذات. تسكعتُ في أرجاء المنزل، ودخلت غرفة الفتيات، ورأيت فستانًا أبيض على المنضدة، وبجانبه مكواة ساخنة. أخذته وطفقت في كيّه. فاح شياط، وبقي أثر أصفر على القماش. داهمني الخوف الشديد، وهرعت إلى تانيا، لكنها لم تردّ بأي شيء، حتى لم توبخني!

مرة أخرى أتذكر، كنا نحن الأطفال نحاول القيام بأعمال شريرة وسيئة. وتلاحظ تانيا ذلك في الوقت المناسب. لقد كانت تثنينا على الفور عن القيام بذلك بهدوء شديد، ودون أن تغضب وتشرح بحكمة كل شيء...

رأيت من ماشا، ما لا يقلّ من المودة واللطف. أتذكر أنني عانيت ذات مرة بشكل رهيب من تقرحات في أذني. كان في الأذن الوسطى خرّاج كثير وخطير. تبعتني ماشا. لا أحد يستطيع رعاية المرضى كما فعلَت. كانت ماهرة للغاية في وضع الكمادات، وتتحرك بهدوء في الغرفة، وتخلق المزاج الراقي! عانيت لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. لقد كان ألمًا رهيبًا. بدا أن الرأس يتصدع. جلستُ طوال الليل معصوبة بالضمادات، متأرجحة على الوسائد من الألم والتذمر، وجلست ماشا معي، عانقتني، أملت رأسي على صدرها، وشعرت بتحسن.

أتذكر أن خرّاجًا كبيرًا قد اخترق وملأ الوسادة بأكملها بالصديد، ونمتُ بانشراح. وعندما استيقظت، رأيت ماشا تقرأ بجوار النافذة. جاءت إلى السرير وابتسمت بسعادة، وضعت حزمة ثقيلة على بطانيتي. لقد كانت أحذية تزلج جميلة مطلية بالنيكل لم أجرؤ حتى على الحلم بها. كنت أعلم أن الزلاجات باهظة الثمن، وكنت أعرف أن ليس لدى ماشا نقود.

كنت لسنوات عديدة أتزلج على هذه الزلاجات، وفي كل مرة أخذتها في يدي للمسح والتشحيم، تذكرت أختي بعاطفة رقيقة.

قرأت ذات مرة رواية «الفارس مقطوع الرأس» لـ ماين ريد. كان الحدث مثيرًا: لم أستطع أن انتزع نفسي عن الرواية، وأفكر برعب أنهم سيذهبون بي قريبًا إلى الفراش ولن أعرف النهاية حتى الغد. في المساء أعددت القليل من بقايا الشموع، وواصلت القراءة في الفراش ممسكةً شمعة في يدي. سمعت أن شخصًا ما دلف إلى الغرفة فقط، وعندما اقتربت أختي ماشا إلى السرير، نفخت على بقايا الشمعة بشكل غريزي. غضبت ماشا مني.

ـ عار عليك، لا تقومين فقط بما هو محظور عليكِ، بل تريدين أيضًا أن تخفيه، أنت تكذبين.

تحدثت ماشا بفظاظة، وقسوة، وذهبت، وغلقت الباب وراءها.

«لماذا هي غاضبة؟» ـ فكرتُ ـ وشعرت بالأسى لأنني لن أعرف اليوم من هو هذا الفارس، وانتقلت أفكاري إلى المروج، وتراءت لي الخيول البرية. وغفوت.

ـ ساشا، هل أنت نائمة؟ ـ كانت ماشا جالسة على سريري.

وقالت:

ـ سامحيني. هل تعرفين، اعتقد أنني كنت مخطئة. بما أنك تخافين مني، فهذا يعني أنني أعطيتك سببًا لذلك، كنت قاسية معكِ...

وفجأة تلاشى الغضب والمرارة، وحل محلهما الفرح والندم. وشعرت بالخجل لأنني أردت خداع ماشا، ومن سعادتي أنها كانت لطيفة للغاية، وغفرت لي.

وهمستُ من خلال الدموع، وضربتُ على رأسي:

ـ لن أفعل، لن أفعل بعد الآن

ورغم أن الغرفة كانت مظلمة، عرفتُ أن عينيها كانت خضلة بالدموع، وكان وجهها يلمع بلطف.

تعرضت ماشا أيضا للكثير من الصعوبات في طفولتها، كما تعرضتُ في طفولتي. روت لي كيف نشأت مع ليوفا، وكان الفرق في عمرهما سنة واحد، وكيف أن أمي منحته كل المودة والرعاية والحنان، وشعرت ماشا النحيفة والقبيحة بالوحدة والإساءة. لقد تأثرت بشدة بقصة لأختي مفادها أن أمي أجبرتها وليوفا على خياطة أكياس، ووعدت بدفع عشرة كوبيك عن كل كيس، ولم تكن لديهما نقود، وبدا أن العشرة كوبيك كانت ثروة كاملة. بذلت ماشا قصارى جهدها وخيطتها بعناية، وخاط ليوفا بلا اكتراث. وبعد إتمام العمل أعطت أمي لليوفا النقود الموعودة، بينما نسيت ماشا. راحت ماشا تبكي، لكنها كانت تخشى تذكير والدتها. عندما أصبحت ماشا راشدة، انفصلت بشكل طبيعي عن والدتها. كانتا شخصين مختلفتين تمامًا، مثل الغريبات. لم تكن أفعالها وأفكارها ومشاعرها مناسبة لأمي. أدانت أمي ماشا على كل شيء: من تخليها عن جزء من ممتلكاتها، وبساطة حياتها، إلى ممارستها الطب. وفضلا عن كل هذا كانت أمي تغار على الأب من ماشا. اتفق ان ماشا غدت اقرب للاب من الجميع. لم تكن فقط ضرورية له في عمله وفي العلاقات مع الناس، بل أعطت والدها الكثير من المودة العاطفية والفرح، فهمته من دون كلام. وما أن ينظر إليها وحسب، حتى تعرف ما يريد قوله بحساسيتها المعتادة.

كان أصدقاء الأب: ماريا ألكساندروفنا شميدت، وجوربونوف، وبيريوكوف والعديد من الآخرين أصدقاءً لها. استقبلت الوافدين الجدد لوالدها بحرارة وشجّعتهم. لقد أحبوها وشعروا بالراحة معها.

أتذكر حادثة واحدة أخبرتني عنها ماشا في وقت لاحق. جاء أحد المريدين(29) لرؤية الأب واعترف لأبيها أنه مصاب بمرض الزهري. وذات مرة، أثناء حديثه مع الوالد، قام الضيف بصب الماء لنفسه من الدورق وشربه، وطلبت منه ماشا أن يعطيها إياه، راغبة في أن تصب لنفسها في كوب آخر. قام مريد تولستوي، من دون تردد، بصبّ الماء في كأسه وسلمه لأختي، وماشا، التي كانت على علم بمرض الضيف، ترددت لبرهة، (شاهدها والدها) وشربت الماء. استاء الأب من ذلك. واستدعى ضيفًه إلى مكتبه ووبخه، وقال له غاضبًا: «كيف يمكنك تعريض الفتاة للخطر، وأن تعرف أن لديك مثل هذا المرض الرهيب!»

(29) هكذا تسمي تولستايا أتباع ليف تولستوي الذين التزموا بخطبه وتعاليمه.

كثيرا ما وقعت ماشا في الحب. كنت لا أزال صغيرة جدًا عندما كانت على علاقة غرامية مع Z.، وكان معلم الدروس الخاصة نفسه مولعًا بها. وذات مرة عدنا في وقت متأخر من الليل من عند الجيران. وعندما جلس الجميع على كلا الجانبين في العربة، كان مكاني في وسطهم، وكنت على وشك النوم عندما سمعت فجأة محادثة ممتعة.

تحدث Z عن حبه لماشا، وردت عليه ماشا بشي ما.

لا اعرف بنفسي لما غضبتُ. وحينما تحدثت مع أختي في اليوم التالي ـ كنت مستاءة منها.

ـ لماذا أنت غاضبة، ما خطبك يا ساشا؟

تمتمت:

ـ لا شيء.

ثم لم أستطع المقاومة وأضفتُ بشكل متقلب: ـ لماذا قال Z. الليلة الماضية أنه يحبك، إيه؟

شعرت ماشا بالحرج. لكن سرعان ما انتهت هذه الرواية، مثل العديد من الروايات الأخرى. استعدّت ماشا أيضًا للزواج من بيريوكوف، ليس لشغفها به، كما فهمتُ بعد ذلك من المحادثة، ولكن لفكر وتعاليم تولستوي التي كان يجسدها بشخصه، كأحلام حياة عمل مسيحية.

ثم شغفت ماشا بالشاب R. ذي العيون السوداء الجميلة اللامعة، وتحدث R. وهو يهز قليلاً عن مُثله في الحياة: «الغجر، والصيد، والطب: أخوات شقيقات!» كان طبيبا.

رأى الأب كيف كان معجبو ماشا أدنى منها في الصفات الروحية، وكان يتألم، كان يخاف عليها، ربما كان يشعر بالغيرة...

لاح أن الشقيقتين استوعبتا على حد السواء آراء الأب، ولكن إذا سُئِلت حينها عن من هي «المريدة» الأكثر تجسيدا لتعالم تولستوي تانيا أم ماشا، فلن أتردد في القول: بالطبع، ماشا.

عندما ذهبت ماشا إلى حشّ الأعشاب، وهي ترتدي فستانًا بسيطًا من قماش الشنتز ومعصوبة بوشاح، وقد القت جرافة على كتفها، بدا كما لو يجب ان تكون على هذا النحو. تبادلت الأحاديث مع نساء الفلاحين والقرويات، وكأنها عاشت معهن لمدة قرن، ونسين أنها كانت كونتيسة، وسيدة شابة، وشاطرنها أسرارهن الخاصة: مَن خانها زوجها، ومَن لديها حمل غير موفق، أو طفل مريض. جئن إليها لتلقي العلاج، وأعطتهن الأدوية، ونصحتهن بما يجب عمله، وذهبت بنفسها إلى القرية، ورعت المرضى، وساعدت في الولادة. لقد أحبتها النساء.

ذات مرة أثناء نشوب حريق، وكما كان يحدث دائمًا، هربت القرية بأسرها، ووقف الفلاحون بهدوء وهم يدخنون المخوركا(30)، جاءت

ماشا راكضة، ونهرت الفلاحين، وأجبرت الجميع على سحب الماء بالدلاء من البئر، وهي نفسها غاصت في الماء حتى ركبتها، على الرغم من أنها لم تكن بصحة جيدة، وسحبت الماء. لقد دفعت ماشا ثمناً باهظاً لهذه الحادثة: لقد عانت من مرض نسائي طوال حياتها، وربما نتيجة لذلك، عندما تزوجت، لم تنجب طفلاً واحداً حيا.

(30) تبغ ورق مفروم (المترجم)

كانت تانيا أكثر صعوبة في «المخالطة». إنها مرحة، ومتألقة، وغنجة، وكانت ترتدي ملابسَ جميلة، وأحبت كل شيء جميل ناسبتها لوحة ألوان الرسام والدهانات، أكثر بكثير من الجرافة والمذراة.

ذات مرة، في ياسنايا بوليانا، رتبت الأخوات لأنفسهن مغسلة في الطابق السفلي، في الجناح الخارجي، معتقدات أن من الخطيئة إجبار الآخرين على غسل البياضات الشخصية المتسخة. كان هناك الكثير من الحديث بشأن طريقة عصر الغسيل ـ باتجاه النفس أو على العكس، وحلمن بشراء غسالات وعصارات وبعض الآلات الأخرى، لكنهن حتى الآن عملن بأيديهن، وغسلن حتى تنزف اليد. كانت كلتا الشقيقتين ماهرتين، لكن بدا لي أنه لم يتيسر لتانيا، عن غير قصد، القيامُ بالغسيل بإصالة، لكن ماشا قامت به على أكمل وجه. أتذكر كيف كانت ماشا على وجه الخصوص تشطف الغسيل بمهارة ملموسة، تمامًا مثل ربة بيت من العامة أو فلاحة. حافية القدمين، بذراعيها الملفوفين إلى المرفق، مع تنورة مطوية على الجانبين، تنحني من الطوافة، وتشطف الكتان بحركات واسعة كاسحة، تطوي وتضرب الكتان المبلل بضربة واحدة من اللفافة، وتضغط الماء مع الضربة القوية الثانية وهاتان الضربتان ـ إحداهما صمّاء والآخرى حادة ـ يتردد صداهما بصوت عالٍ عبر البركة: تا ـ تام تا ـ تام.

أتذكر أن تانيا كانت تحاول مساعدة «المريد» E.P. الذي تبعها ذهابا وايابا بشكل كئيب، من غرفة الغسيل إلى البركة، وتبعها بعيون مُحبّة ومقرفة مثل عيون الكبش...

غالبًا ما ذهبت تانيا إلى مكان ما: مرة إلى صديقاتها ـ أولسوفييف، بمفردها أو مع الأب، أو إلى الخارج، مع ميشا إلى السويد. إلى جانب ذلك، كان لديها عملها الخاص. كانت الشقيقتان مشغولتين بكتابة الرسائل لأبيهما، ولكل منهما حياتها الخاصة ومصالحها الخاصة ولم تستطيعا منحي الكثير من الوقت. وبعد ذلك، سرعان ما تزوجتا، في وقت قريب جدًا بالنسبة لنا جميعًا... وأخيرًا، حالفني الحظ، لم أعد وحدي: بدلاً من السيدة ديترا الغاضبة والعصبية، التي تمّ فصلها لأنها شقت ذراعي حتى الدم بمسطرة، حلت مكانها الآنسة ويلش، وهي امرأة صغيرة ووديعة، في منتصف العمر، بعيون بنية لطيفة. في البداية حاولتُ مضايقتها وأن أسومها العذاب كباقي المربيات، ولكن لم ينجح الأمر فتعلقتُ بها. إذا لم أدرس جيدًا أو قمت بخلط درجات السلم الموسيقي عن عمد، كانت تقول لي: «أنت في مزاج سيء اليوم، حسنًا، لن ندرس» ـ وغادرت. ثم أصبحتُ مُحبطة، وركضتُ وراءها. تبين أن بابها مُقفل. استلقيت على بطني تحت الباب وبدأت في النحيب: «ميسينكا، فيلسنكا، حبيبتي، عزيزتي، من فضلك، دعيني أدخل». وإذا لم يساعد ذلك، صعدت من الباب الخلفي إلى السطح ثم إلى نافذتها. عند رؤيتي، كانت الآنسة ويلش خائفة في البداية، ثم غاضبة وبدأت أخيرًا في الضحك. وهذا كل كنت ما احتاجه. هرعت لتقبيلها، وعاد السلام، ولبعض الوقت كنت أقوم بضبط السلم الموسيقية بضمير حي.

أصبحت الآنسة ويلش متعلقة بي، وأنا أحببتها، لكن المصيبة كانت في أنها لم تستطع البقاء معي في الشتاء، حيث كانت لديها مدرستها الموسيقية الصغيرة الخاصة في موسكو. استدعوا لي في الشتاء، مرة أخرى، سيدة فرنسية كنت أتقاتل معها دائمًا.

درستُ على مضض وعلى نحو سيء، كان اهتمامي الرئيسي منصباً على الخيول والألعاب والرياضة. لم تكن الفتيات اللواتي نشأت معهن من سِنّي، سواء في منزلنا أو في ضيعتنا الأخرى في كوزمينسك، لذلك لا عجب أنني أمضيت معظم وقتي مع الأولاد. لقد تطورت أمامي مهارتهم، واستمتعت بألعابهم، حيث بات بميسوري الركوب الخيول من دون سرج، وتسلق الأشجار، وإطلاق النار من بندقية «مونت كريستو» الرياضية. كنت أشعر بالملل حينما ابقى لوحدي، وجهدت لمواكبة إخوتي وعدم التأخر عنهم. حذرني الأخ ميشا: «لا تلعبي معنا، ستبكين لاحقًا». لكنني لعبت، وصبرت عندما ضربني رفاق ميشا من مدرسة «بوليفانوف». كانت هناك لعبة تسمى «عند الحائط»، عنيفة بشكل خاص. يقف الخاسر عند الحائط، ويضربونه بكرة سوداء صلبة، وغالبًا ما تركت كدمات على ظهري، لكنني كنت أصك أسناني، وأظل صامتة لا أظهر أنني كنت أشعر بالألم. كان كارتسيف، وهو فتى يتمتع بصحة جيدة وممتلئ الجسم، ولا بدّ أنه من سلالة تجار، يرمي الكرة على ظهري بشراسة خاصة. صبي واحدٌ لم يضربني، بعيون حالمة جميلة، تميّز عن الآخرين بطبيعته الأنثوية التي طغت على كل صفاته، وبأنه كان يرتدي بلوزة مخملية بياقة بيضاء، بدلا من الزي الرسمي لمدرسة بوليفانوف الثانوية والمكونً من سترة قماش سوداء مربوطة بحزام. لقد أحببت هذا الفتى الوديع، إنه بوريا بوجاييف(31).

(31) بوريا بوجايف: هو الاسم الحقيقي لاندريه بيلي (1880 ـ 1938) الكاتب والشاعر والناقد وكاتب المذكرات وخبير الشعر الروسي، ومن الشخصيات البارزة في المدرسة الرمزية الروسية والحداثة بشكل عام. كان زميل ميشا تولستوي في المدرسة الثانوية، ووصف بيلي سنوات الدراسة في كتابة» في مطلع عصرين».

كان التزحلق على الجليد في فصل الشتاء هو المتعة الكبرى، وتم تنظيف ساحة صغيرة أمام المنزل وجبل خشبي، ورشها بالماء. وكان لا بد من رش عدة براميل من الماء لتشكيل سطح جليدي أملس، ونادرًا ما تم استئجار شخص ما لهذا العمل. كلما سنحت الفرصة، كنت اذهب إلى الحديقة لأحمل الماء وأرشّه في ساحة التزحلق. تبللتُ حتى العظام، وكانت ملابسي مشبعة بالماء الذي تجمد خلال تقطره، ورنت ملابسي، ولم تنثني.

وأحيانًا عندما أستيقظ في الصباح، ويفتح الخادم من الخارج الدُرف، أنظر من النافذة وأرى أبي يسحب برميلاً من الماء إلى حلبة التزلج. كان الصقيع قد كسى لحيته، ووجهه متورد، والبخار يتدفق من فمه. يسير بهدوء، ويرفع البرميل للأعلى من الأسفل بدون تسرع ويقلبه، وينساب الماء بسرعة على السطح الأملس، فينشره الأب بسرعة بمهارة، ويضع البرميل على الزلاجة ويأخذه بعيدًا.

كان البئر في مؤخرة الحديقة، وقام كشك صغير على مضخة ماء يدوية بدائية. وعندما تم ضخ المياه، صرّ الكشك كله وتمايل. في الشتاء، كان أبي يوميا يجلب الماء. يقوم بشد البرميل في الزلاجة، ويذهب به إلى البئر، ويحلّه، ويضخ الماء. أتذكر جيدًا قامته المتوترة المائلة إلى الأمام وهو في معطف من جلد الغنم وحذاء من اللباد. كان البرميل ثقيلًا فيسحبه بصعوبة، والطريق ضيقة ومتعرجة، وغالبًا ما كانت الزلاجات عند الانعطاف تنزلق إلى الجانب في الثلج، وكان أبي يشد الحبل المتجمد على صدره، وتستقيم الزلاجة، ويتناثر الماء الصافي المزرق على الثلج من الاهتزاز.

كان التعب يعتري أبي من انعدام الحركة، ومن دون القيام بعمل بدني، وهو الأمر الذي كان اعتاده في القرية. فهناك دائمًا ما كان يؤدي عملا ما: ينشر الخشب أو يعمل في الحقل، ويمشي كثيرًا. في موسكو، كان يشعر بالضيق والملل، حتى أنه بدأ يتعلم ركوب الدراجة حتى ساحة «المانيج» قرب الكرملين. كانت الدراجات في ذلك الوقت ذات إطارات بسيطة غير هوائية، ولا توجد عجلات حرة. ذات مرة أضحكَنا بحكايته.

لقد تعلم للتو أن يحافظ على توازنه، وما زال مقود القيادة لا يطيعه، وذهب، وهو يتأرجح من جانب إلى آخر، وركّز كل قوته حتى لا يسقط، عندما رأى فجأة سيدة تسير باتجاهه، وبدت أيضًا وكأنها تشعر بعدم الثقة بنفسها. فكّر أبي بذاته: «فقط أن لا اصطدم بها، فقط ان لا اصطدم بها»، لكنه أدرك برعب أنه لا يستطيع استدارة مقود القيادة. وقال: «إنه شيء غريب، كل أفكاري كانت متجهة نحو السيدة، وكان لدي شعور بأنني منجذب إليها. وبالطبع، اصطدمنا وسقط كلانا».

أتذكر هذه الفترة في موسكو أفضل من ياسنايا بوليانا. ربما لأننا قضينا معظم العام هنا، أو ربما كانت الحياة في القرية خالية من المشاغل. كان في موسكو مدرسون ومدرسات، وتم توزيع الوقت بشكل صارم، وكان الترفيه أكثر تنوعًا: حفلات رقص، ومسارح، وحفلات موسيقية، وفي الربيع سوق الفطر، وفي وقت الصيام: الكنيسة، والفطور بعد الصيام، والصفصاف، وعيد الفصح. أخذتني أمي في بعض الأحيان إلى السوق في موسم التنزيلات التي كانت تشغف بها كثيرًا. ذهبنا إلى المحل التجاري الشهير حينها «ميورو وميريليزو»، واشترينا بقايا الأقمشة والدانتيل. ذات مرة فاجأنا أبي بالقول:

ـ اليوم كنت في «ميورو وميريليزو»! قضيت أكثر من ساعتين بالقرب من مسرح البولشوي أتطلع لما حولي. لاحظت إنه إذا كان على متن العربة القادمة للمسرح سيدتان، يقفز البواب، ويفتح الباب، ويساعد السيدة على النزول. وإذا كان هناك سيدة واحدة، يفتح الباب بوقار فقط، وإذا كان المرء في عربة أجرة، فلا يوليها اهتماما.

كان السبت في منزلنا يوم استقبال الزوار. بين الإفطار والغداء، تأتي السيدات لزيارتنا في عرباتهن الخاصة. ورافق خادم، يرتدي بدلة فراك، الضيوف إلى الطابق العلوي، إلى غرفة الضيوف حيث أمي تقوم باستقبالهن. اجتمع عدد كبير من الضيوف في المساء، معظمهم من الشباب، أصدقاء ومعارف أختي تانيا، ورفاق أخوتي، وغالبا ما جعلتني أمي اجلس عند السماور، وأصب الشاي. كنت اشعر بالحرج وحاولت التسلل بعيدا، واحيانا كان الشباب يجلسون على مدرجات

السلم، بالقرب من غرفة تانيا، ويسحب احدهم غيتاره، ويغنون أغاني الغجر.

في بعض الأحيان في ذروة الأمسية، اصطحب الخادم، وهو يحاول المرور بشكل خفي قدر الإمكان، أحد «الظلاميين»(32) إلى مكتب أبي. وقد بانت على قامة الزائر المنكمشة والمنحنية وفي النظرة المرتبكة العابسة التي ألقاها على الضيوف، الحيرةُ والارتباك.

(32) تسمى تولستايا أتباع تولستوي الذين التزموا بتعاليمه ب «الظلاميين»

قال له الخادم، كما لو انه يلاحظ تسرع الزائر المرتبك وحيرته:

ـ تفضلوا إلى هنا، إلى هنا يا سيدي

فتح الخادم الباب الصغير المغطى بورق الجدران، من القاعة، وأشار إلى الدرج المؤدي إلى الممر المظلم، وفسح المجال للزائر ليتقدمه.

أتذكر حفلة أزياء الأطفال عند آل «ج». كان من المفترض أن تتجمع هناك زهرة الطبقة الأرستقراطية في موسكو بأكملها، وكانوا ينتظرون وصول الدوق الأكبر سيرجي ألكساندروفيتش(33). فكرت العائلة لفترة طويلة في البدلة التي سأكون فيها في الحفلة، وشارك العم كوستيا في الاجتماع لأنه كان متمكناً أكثر من الآخرين، ويتمتع باللياقة، ويلمّ جيدا بأساليب وتقاليد علية القوم وبالأزياء هو نفسه كان يرتدي بدلات رائعة، على الرغم من فقره، ويتحدث الفرنسية بامتياز، ويعزف على البيانو ببراعة، وكان رجلاً عجوزًا لطيفًا ووديعا. لقد دللنا نحن الأطفال، وغالبًا ما كان يجلب لنا ألواح «الخردل الجاف»، وكما سماها الشوكولاتة.

(33) الدوق الأكبر سيرجي ألكساندروفيتش (1857 ـ 1905) الابن الخامس للقيصر الروسي ألإسكندر الثاني، والحاكم العام حينها لموسكو. استشهد بتفجير قنبلة الإرهابي إيفان كاليايف.

تفرّسَ العم كوستيا بي فترة طويلة، وكان مرعوبًا من ذراعي الثخين وساقيّ الكبيرتين، ولم يستطع أن يبتكر بدلة من شأنها أن تخفي بشكل أفضل بدانتي وضخامتي. وبناءً على نصيحته، طلبت العائلة لي حذاءً ذهبيًا، وتنورة من الشاش الأسود اللامع، وصدّاراً من المخمل، وقبعة مثلثة الأضلاع على رأسي. لا أتذكر ما كان من المفترض أن يصوّر هذا. في يوم الحفل جاء مصفف شعر من صالون «ثيودور» ورتب لي تسريحة رمادية ضخمة من شعري، باستخدام الكثير من أحمر الشفاه والبودرة ودبابيس الشَعر التي لا تعد ولا تحصى، مما جعل رأسي يؤلمني كثيرًا. أتذكر كيف حرصتُ على تجنب الالتقاء بأبي، وسعيتُ مباشرة من غرفتي إلى الممر المظلم للدخول إلى الردهة، واختفيت على عجل في العربة، وكانت أمي ترغب في أن يرى أبي بدلتي.

عندما كانت الحفلة في ذروتها، وصل الدوق الأكبر، وأنا مع مرافقي للحفل الكونت طالب المدرسة الثانوية. رقصتُ رقصة الكارديل، وطرق أحدهم على النافذة التي كنا نجلس بالقرب منها. نظرت للوراء ورأيت أن أبي كان واقفًا وأنفه مضغوطًا على الزجاج، مرتديًا معطفًا من جلد الغنم وقبعة مستديرة، ومعه أختي ماشا. كانا يبتسمان. وفرحت للغاية عندما رأيتهما، والأهم من ذلك، كانت وجوههم لطيفة للغاية وودودة. كنت أود أن أركض إلى الفناء، لكن مرافقي تلميذ المدرسة الثانوية الذي شاركته بهجتي، ظلَّ غيرَ مبال، وقال إنه من غير المناسب الخروج إلى الفناء الآن.

ذات مرة كانت حفلة رقص في منزل صديقتي ناديا، الذي كان غير بعيد عنا، في شارع «دفيتشيه بوليه». أوصلني احد من العائلة، وتركني هناك. وخلال العشاء، جلس أشقاء ناديا بجواري، وصبّوا طيلة الوقت الشمبانيا في كأسي. كان الجو حارًا وكنت ارغب في الشراب، وقد ارتويت تماما من الشمبانيا المثلجة. عندما نهضنا عن الطاولة، شعرت أن الناس والجدران ـ وكل شيء كان يطفو في مكان ما. دخلت القاعة بصعوبة بالغة، وجلست منتظرة رقصة المازوركا. وفجأة، كما لو في الضباب، رأيت «بيلكا» كلبة أبي. وفكرتُ: «يُخيَل لي». لكنها، وهي

تقرع طوقها، تجولت حول الجميع بنظرة مرتبكة، وتشم هذا وذاك، وعثرت عليّ، هزت ذيلها الأشعث بسعادة واستلقت عند قدمي. ودخل الأب الصالة.

أتذكر شعور الرعب والعار الذي غمرني ببخار ساخن. «ماذا لو لاحظ؟» تبخرت الخمارة على الفور، واختفى الضباب.

توقف الرقص. فقد ترك ظهور والدي في الحفل مع الكلبة، مرتديًا معطفًا من جلد الغنم، انطباعًا رائعًا. أحاطت به المضيفة والضيوف. وقف وتكلم على عجل، وكأنه معتلّ الصحة، وبارح المكان.

كنا نقوم بنزهات في الربيع. ذهبنا إلى ضواحي موسكو ـ إلى منطقتي «كونتسفو» و«تساريتسنو» في جماعات كبيرة، أحيانًا في عرباتنا، مع المؤن والفواكه والحلويات. تجولنا في الغابات، وقطفنا الزهور، وركبنا القوارب، وعبرنا بأصوات عالية عن أعجابنا بالطبيعة الساحرة.

لكن بالنسبة لي لم تكن هذه المتعة الحقيقية. كان المتعة الحقيقية في المنزل، في الحديقة.

اركض واسمع ان زلاجتي تصفر بإذني بحدة، ومن جميع الجهات يركض أولاد المصانع والتعاونيات المجاورة لنا. يتجمع هناك خمسة أو ستة أشخاص. وفي الشتاء، ربطوا الزلاجات، وتزحلقوا من اعلى التلة. التلة شديدة الانحدار، والجليد صقيل، وأنا أطير ـ أتنفس بعمق: واحياناً رحنا نلعب على الجليد لعبة الغميضة والساحرة. جاء الربيع، وكان تسلق الأسوار متعتي المفضلة. كان الأمر مثيرًا بشكل خاص، لأنه ينطوي على خطر، ويستدعي السرعة والمهارة والبراعة.

كان هناك الكثير من زهور الثلج في حديقة المستوصف. قررت أنا والفتيان نقلها إلى حديقتنا. تسلقنا السياج بعد أن التقطنا سكاكين صغيرة، وتركنا عسساً في الطابق العلوي ليحذرنا من مجيء حرس المستوصف، وقفزنا نحن بإشارة إلى الأرض في حديقة المستوصف. لم نخف من المرضى، لقد عرفونا وساعدونا بأنفسهم. كنا خائفين من

الحرس وبسرعة، من دون إضاعة دقيقة، حاولنا قلع أكبر عدد ممكن من الزهور ذات البراعم الزرقاء الصغيرة وربطناها بالمناديل. أوه، كم كان الأمر مخيفًا، خاصةً عندما تنطلق صافرة من أعلى، ورفعنا رؤوسنا، رأينا الحارس يقترب. على الفور اندفع الجميع إلى السياج، وغالبًا ما كانوا يسلخون أيديهم حتى الدم، وتسلقوا إلى الجانب الآخر.

ذات مرة، بعد طلعة ناجحة، جلسنا على السياج وتناولنا الطعام. اشتريت براتبي الشهري البالغ عشرين كوبيكا عبادَ الشمس والتوت البري وشراب كفاس والحلاوة الطحينية. بغتةً رأينا حارس العيادة الطبية قادمًا من جهة حديقتنا. إلى أين سنهرب؟

صرخ بنا:

ـ يا فتيان، ألم تروا امرأة هنا؟

هدأنا على الفور.

ـ كلا، ما الأمر؟

ـ إن احدى المريضات هربت.

مسألة غريبة. لقد تحدثنا للتو مع المجانين، ولم نكن خائفين منهم، لكن هنا أصبح الأمر مخيفًا للغاية، ولم أرغب النزول من على السياج. عثروا على المريضة مختبئة في عريشة منزلنا.

عاش البروفيسور «نيكولاي ياكوفليفيتش جروت»(34) في منزل ابيض عند زاوية زقاقنا. غالبًا ما كان يأتي إلى والدي، وكانا يتحدثان بجدية في مواضيع غامضة. كان هذا مملاً. لكن كان لنيكولاي ياكوفليفيتش عائلة كبيرة ـ فتيات كثيرات، هادئات ومتواضعات، وصبي واحد اسمه آليا، مكور ووردي. كنا نعتقد في عائلتنا أن أخي أندريوشا يحب الفتاة الكبرى زينيا، القبيحة والمملة، والآخر ميشا مع ناتاشا، وأنا مع آليا. حينها ما زلت لا أفهم تمامًا ما معنى الوقوع في الحب، لكن إخوتي

أوحوا لي أن هذا ضروري جدًا، وآمنت بذلك. ذات مرة عندما وجدنا انفسنا مع آليا وحدنا خلف تلة، تبادلنا القبل، وسألني آليا: «عندما تكبرين هل ستتزوجيني؟» فأجبته «بالطبع».

(34) نيكولاي ياكوفليفيتش غروت (1852 ـ 1899) ـ فيلسوف روسي مثالي وعالم نفس وأستاذ جامعي في جامعة موسكو.

في صباح اليوم التالي، أحضر لي آليا باقة من زهور الثلج. «لقد فكرت في الكثير من البهجة: إلى أي حد آليا لطيف! وكم كان حسنا، أن الأخوين أندريوشا وميشا يفكران في الوقوع في الحب!»

غادرت إلى ياسنايا بوليانا، وبقي الأشقاء في موسكو لأداء الامتحانات. عندما جاء ميشا من موسكو، أخذني جانباً بسرية، وسلمني رسالة. كتب لي آليا رسالة بحب شديد، وذكّرني بأننا يجب أن نتزوج عندما نكبر.

قال ميشا إنه يتعين علينا توخي الحذر حتى لا تقع الرسالة بيد أحد ما، لذلك ركضت إلى الجناح «الأمريكي»، وأغلقت الباب على نفسي بالخطاف، وأعدت قراءتها، ورغم أنه كان مؤسفًا، فقد مزقتها وألقيتها بعيدًا. لم أجرؤ بالرد على رسالة آليا، فهو كتب مثل شخص كبير، بحروف صغيرة وخطّ مستقيم، وانا ما زلت اكتب بحروف كبيرة، وبأخطاء.

لابد ان تكون عائلة جروت قد انتقلت إلى مكان آخر. عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، صادفت عند بوابتنا طالبًا ورديًا صغيرًا بمعطف جديد.

وتمتم:

ـ ساشا تولستايا؟ هل هذا هي أنتِ... انتم.

ـ آليا جروت؟

وقفنا في صمت لعدة ثوانٍ قليلة، ونحن ننظر إلى بعضنا البعض، وفجأة ضحكنا وافترقنا.

في أيام الخميس كنا وأمي نذهب إلى الحفلات الموسيقية، حفلات عزف «الرباعي»، وكانت الموسيقى معقدة وصعبة، ولم أستطع فهمها بأي طريقة، وتمنيت فقط أن تنتهي بسرعة. سيأتي المعلم غدًا في الساعة العاشرة، ولم اعد الدروس، ولا بد لي من الاستيقاظ مبكرًا. لكن أمي، الذكية والحيوية، لم تنتبه إلى مللي، ولم أجرؤ على إخبارها أنني لا أريد الذهاب إلى الحفلة. ربما ستغضب وتقول: «أنتِ دائمًا على هذا النحو: غير مهتمة بأي ترفيه مفيد ونبيل، تهتمين فقط بتسلق الأسوار مع الأولاد، وبتأدية ألعاب الغرباء».

أحيانًا كنت اغفو في القاعة على صوت الموسيقى. ويترامى لي من مكان ما بعيد صوتُ كمان كئيب، وصوت التشيلو. وعندما استيقظتُ، بدا لي أن وقتًا طويلاً قد مضى، وكان من الغريب ألا يتغير أي شيء، الموسيقيون يعزفون بجدّ، والثريات تنير بروعة، والجمهور يستمع بشغف. اعتقدت أن الحفل لن ينتهي أبدًا. استمر العزف دائمًا لفترة طويلة جدًا. جلس الموسيقار سيرجي ايفانوفيتش تانييف(35)، بجوارنا وشاطرته أمي انطباعاتها عن العزف، وبعد الحفل عرضت عليه التمشي معًا إلى المنزل. إن منزلنا يبعد عن قاعة «التجمع النبيل» خمسين دقيقة سيرا على الأقدام. وكانت الساعة الثانية عشر ليلا. وأنا أرغب في النوم، أريد أن أنام بشكل فظيع، كانت عيناي تلتصقان ببعضهما البعض... وتبعتهما بصمت، وشعرت بالضيق الشديد، والدموع الغاضبة تخنقني.

(35) سيرجي إيفانوفيتش تانييف (1856 ـ 1915)، مؤلف موسيقي روسي وعازف بيانو ومعلم ومنظر موسيقى وشخصية موسيقية وشخصية عامة.

كثيرا ما زارنا الموسيقارسيرجي تانييف في هذا الوقت. كما أرى الآن وجهه اللطيف الأحمر بعيون صغيرة لامعة دائمًا، كما لو كانت ملطخة بشحم الخنزير، ومحاط بلحية صغيرة، وقوامه سمين غير ملائم، مثل جسد يخرج من الملابس، وضحكته خانقة رقيقة، تذكرنا بقوق الدجاجة الحاضنة. كان أحد أعظم الملحنين والموسيقيين في ذلك الوقت.

عاش سيرجي إيفانوفيتش في زقاق «ميورتفا» في جناح صغير مع مربيته العجوز بيلاجيا فاسيليفنا، التي كانت تسير مثل بطة، تتأرجح من جانب إلى آخر، وساقاها قد جمعتا معًا بسبب الروماتيزم. كانت ربيبة له تعبده وتعتني به، وعندما يزعجه احدهم، تتنهد وتقول: «أوه، كما تعلمون، سيرجي إيفانوفيتش متعب للغاية، طوال الصباح سجل سوناتا. لقد عزف بيتهوفن».

عامل تانييف أبي وعائلتنا بشكل جيد للغاية، وكان مُحدِثا لطيفا، وموسيقاه تمنح الجميع متعة كبيرة. وإذا جلس سيرجي إيفانوفيتش إلى البيانو، تغير تمامًا: أصبح وجهه مهيبًا ومهمًا. وعزف بشكل ممتاز، كانت ذاكرته الموسيقية مذهلة. بمجرد أن يقرأ صفحة من نوطة الموسيقى، يمكنه على الفور عزفها عن ظهر قلب.

في ذلك الوقت، حوالي عام 1895، كانت عائلتنا تتلاشى تدريجياً. بدأ الأخوة يعيشون بمفردهم. تزوج سيرجي من مانا راتشينسكايا، وهي ابنة أستاذ في أكاديمية بتروفسكي، وبعد عام تزوج ليف ابنة الطبيب السويدي فيسترلوند، وذهبت تانيا وميشا إلى السويد لحضور الاحتفال بزواجهما.

توفي صديق والدي العظيم نيكولاي نيكولايفيتش ستراخوف(36). كان من المحزن الاعتقاد بأن هذا الرجل العجوز اللطيف والوديع الذي كان دائمًا ينظر إلى والدي بودّ وإعجاب سافر، ولن يزورنا مرة أخرى.

(36) نيكولاي نيكولايفيتش ستراخوف (1828 ـ 1896.)
فيلسوف وصحفي وناقد أدبي روسي، ارتبط برابطة صداقة

قوية مع ليو تولستوي، كما كان صديقاً لـ فيودور دوستويفسكي.

أتذكر بشكل غامض رحلة إلى موسكو مع والدتي بمناسبة وفاة القيصر الإسكندر الثالث ـ شاهدنا المسيرات والمواكب. لكنني أتذكر جيدًا حادثة تسببت في الكثير من الكلام والضحك والسخط في عائلتنا.

كان على علية القوم وكبار المسؤولين في بطرسبورغ أن يحضروا مراسم تتويج القيصر نيقولاي الثاني في موسكو. كان ذلك في فصل الصيف، حيث ذهب الجميع إلى منازلهم في الضواحي أو القرية، وقرر أصحاب المنازل في موسكو اغتنام الفرصة وتأجيرها بالأثاث والأواني بسعر مرتفع.

تم وضع منزلنا تحت تصرف الأمراء، ولم يكن لديهم أدنى شك في أن عائلة تولستوي تعيش في ظروف جيدة. لكن عندما وصلوا المنزل، ودخلت الأميرة المدخل المتواضع، ورأت «كل هذا الفقر»، على حد تعبيرها، جلست في يأس على الأرض، وأجهشت في البكاء. وأخبرت زوجها أنها لن تعيش في «هذه الحفرة».

اندهشت أمي بعدم ارتياح، وضحك الشاب، وكان والدي غاضبًا، معتبراً أن منزلنا هو الرفاهية المطلقة.

من كارثة خودينكا(37) بقيت في الذاكرة فقط، كيف أن أمي روت لنا عن المسحوقين وهي تبكي. رأت كيف تم نقلهم من الميدان. وكانت الجثث مكدسة على الرفوف، وبرزت الأذرع والأرجل الزرقاء من تحت الأغطية...

(37) ـ كارثة خادينكا: وقعت في 18 مايو 1896 في ميدان خادينكا في الجزء الشمالي الغربي من موسكو اثر تدافع آلاف الناس في الميدان للحصول على الهدايا بمناسبة تتويج القيصر نيقولاي الثاني، وأسفرت عن قتل 1389 وجرح 1389 شخصا.

تحدث الجميع عن فأل سيء، وأن عهد القيصر الشاب سيكون تعسا.

حصلت المربية من مكان ما على كوب من المينا، إحدى تلك الهدايا التي تم توزيعها في خودينكا وسببت التزاحم، لكنها تنهدت قائلة:

ـ أوه، فأل سيئ! طالع سوء، لقد داسوا على عدد غفير من الناس!

في ياسنايا بوليانا. «الظلاميون»

لم تعد الخالة وتاتيانا أندريفنا وعائلتها يعيشون في ياسنايا بوليانا في الصيف، واستقر الموسيقار سيرجي إيفانوفيتش تانييف مع مربيته القديمة بيلاجيا فاسيليفنا في ما يسمى بمنزل كوزمين. قام بتأليف أوبرا «اروستيا »، وتنزه معنا، ولعب الشطرنج مع أبي، وأحيانًا طوال أمسيات كاملة استمعنا إلى شوبين وبيتهوفين وموزارت وميدلسون في أدائه الرائع.

لقد اختلقت لعبة: كانت تسمى صالة التنس. كانت لعبة التنس الكروكيه بالمطارق والكرات. وكان سيرجي إيفانوفيتش مغرمًا بهذه اللعبة البرية مثلي.

ـ أعطِ! ـ صرختُ، وأنا أدحرج الكرة على تانييف. لقد فكر، ودحرجت إليه مرة أخرى. كانت الكرة تتطاير ذهابًا وإيابًا كالمجنونة، وفي بعض الأحيان كانت تقفز في الهواء، وتدور، وأحيانًا تضرب الساقين بشكل مؤلم، وأحيانًا تنقسم إلى نصفين. دخلنا في حالة من الإثارة الرهيبة، وانفجرت المطارق من ضربات قوية. وفي أغلب الأحيان، بالإضافة إلى سيرجي إيفانوفيتش، شاركت جولي مولي وابن عمها عازف البيانو إيغومينوف في اللعبة، والذي أثار إعجابي بكونه قادرًا على الطي مثل ذراعه وخدش كعبه خلف أذنه.

زار سيرجي إيفانوفيتش تلميذه يوشا بوميرانتسيف(38). قالت أمي إنه موهوب للغاية وكتب الأوبرا، وكان بوميرانتسيف يرمش بعينيه الصغيرتين، وكأنه يعبر عن تفوقه على كل من لم يكتب الأوبرا...

(38) يوشا بوميرانتسيف ـ، قائد جوقة موسيقية وملحن. كرس العديد من الرومانسية إلى صوفيا أندريفنا تولستايا.

كان هذا الصيف ممتعا. وبالرغم من أن ماما حاولت إجباري والأخوة على الدراسة، ولكن من دون جدوى، وهرب الأولاد إلى القرية مع آلات

الأكرديون، ما جعل الأم تسقط في حالة قنوط.

لم يحظ معلمي كورسينسكي(39)، الذي سمته تانيا على الفور زاكورسينسكي، إلا بالقليل من الاحترام، خاصة بعد حكايتين مضحكتين حدثتا له.

(39) المعلم كورسينسكي هو الشاعر أ.أ.كورنسكي، مؤلف مجموعة القصائد

أتذكر أننا كنا نعود عبر حفرة الرمال(40) بالعربة من أحد النزهات. وكان الطريق شديد الانحدار هنا، يهبط الفرس منها بصعوبة.

(40) حقل رملي واسع طبيعي بالقرب من ضيعة تولستوي.

قلت

ـ ينبغي علينا النزول.

ـ لماذا؟ ـ سأل كورسينسكي.

قلت بكل ثقة:

ـ سيكون الأمر أسهل بالنسبة للفرس.

ـ ما هذا الهراء! ـ صاح المعلم. ـ كلما كان الحمل أثقل، كلما كان من السهل على الحصان النزول.

وبدأ يسخر مني. لم أكن أعرف كيف أبرهن على صحة موقفي للمعلم، لكنني أضمرتُ له ضغينة.

ذات مرة ذهب جميع البالغين وهم يمتطون ظهور الخيل، وأعطيت لكورسينسكي الفرس ميرونيكا التي كنت امتطيها دائمًا مع تانيا. أوه، كيف شعرت بالشماتة حينما بعد فترة من الوقت رمته ميرونيكا ورجعت بمفردها إلى الإسطبل بلجام ممزق، ورأيت المعلم يشق طريقه على طول

الطريق بين شجيرات الليلك. كان ملطخا بالطين، وقد انزلقت قبعته ذات الحواف الكبيرة إلى أعلى رأسه، وكان يلوح بيده اليمنى كما لو كان بجناح، وصاح بفظاظة، لسبب ما، بالفرنسية:

J'ai tombé au grand galop et je crois que j'ai le bras (41) cassé

(41) لقد وقعت، وأعتقد أن ذراعي مكسورة

هذا ما قاله: J'ai tombé ونطق الكلمات بكل الحروف الساكنة في النهاية: وحشية.

الفرس العجوزة المسكينة ميرونيخا لم تستطع حتى الجري! لقد سقط المعلم نهائياً في عيني.

قام سيرجي إيفانوفيتش بتأليف قطع موسيقية رومانسية بناءً على طلب تانيا، وسرعان ما تذكرتها وغنيتها.

والعندليب إما يبكي

أو أنه يغني!

كتب زاكورسينسكي شعرًا متأثرا بحركة الانحلال الفنية والأدبية التي تمركزت في أوروبا الغربية أواخر القرن التاسع عشر واتخذت من المبالغة والاصطناعية أيديولوجية جمالية لها.

لقد كنت في كل مكان: أركبُ على ظهور الخيل، وأسبحُ في فورونكا، وأقطف الفطر، وأمشي لمسافات طويلة إلى منطقة زاسيكا. لم أعرف التعب. كانت الرحلة الأكثر متعة في ذلك الصيف إلى تولا القريبة، مع أمي، وتانيا، وسيرجي إيفانوفيتش. مشينا خمسة عشر ميلًا على طول الطريق السريع الترابي، وتناولنا عددًا كبيرًا من الكعك الحلو في متجر المعجنات في منطقة سكفورتسوف، وذهبنا إلى حديقة الكرملين، وركبنا قاربًا وعدنا إلى المنزل بالقطار. كانت سفرة رائعة!

عادت أمي للحياة تمامًا وانتعشت، ونادراً ما تتذكر الراحل فانيشكا، وأصبحت أصغر سناً واستمرت في تلاوة الأبيات:

أوه، كيف على منحدر الحياة

نحب برقّة أكثر وبوسوسة...

وحدها ماشا لم تشارك في المتع المشتركة. تهرع طيلة الوقت إلى المرضى في القرية، وتذهب إلى الحقول للعمل، وفي أوقات فراغها كانت تستنسخ ما كتبه أبي.

أحيانًا كنت اذهب إلى ماشا بِنية قوية لمساعدتها، لكن، بالطبع، كنت أعيق العمل وحسب، وأثني المذراة، وأصعد إلى العربة، عندما كان وضع الخيول صعباً، من دوني، وبعثرت أكوام الحشيش المجفف.

لكن عندما حملت لماشا وجبة طعام خفيفة في الحقل: بيضتين مسلوقتين جيدًا، وزجاجة شراب كفاس(42)، وخياراً طازجاً، وقطعة خبز أسود وكوباً من التوت أو توت العليق الذي قطفته بنفسي، شعرت أنني أيضا كنت أقوم بعمل.

(42) كفاس هو مشروب سلافي تقليدي غير كحولي يتم تصنيعه عادة من خبز الجاودار، [1] والمعروف في العديد من دول أوروبا الشرقية وخاصة في أوكرانيا وروسيا باسم الخبز الأسود.

جلست ماشا مع النساء في مكان مظلل وأكلت. كان شعرها الأشقر المتموج عالقًا على صدغها، وكان الثوب القطني على ظهرها داكنًا بسبب العرق، وكانت تمسح وجهها المدبوغ بالنمش الصغير بمنديل.

ـ متعبة؟ لماذا أنت تعملين هنا يا ماشا؟ اذهبي إلى المنزل!

ابتسمت بحزن وكأنها تعرف شيئًا لا أستطيع فهمه. لكن تفكيري بها لم يتوقف «ما هذا؟ لماذا تعذب نفسها؟». ولم يكن لدي وقت للتفكير في

الأمر. في طريق العودة، كان من الضروري الركض إلى الأماكن التي يمكن أن ينمو فيها الفطر الأبيض وغيره بين عشية وضحاها، والذهاب إلى «كراسنايا اوليتسا» تحت الأروقة الصفراء، وإذا لم تسقط بعد، فأصعد إلى غصن منشعب حتى لا يراني الحارس، وأقوم بهزها بقوة! وفكرت بذاتي «يجب أن احتفظ للمربية الآنسة ويلش بالأصفر، إنها تحب الحلو». يدي ممزقتان، وساقاي مصابتان بكدمات، وهناك أجزاء ممزقة في ثوبي. الجيبان محشوتان وتسحبان التنورة بشكل غير مريح، دزينة تفاح، وعدد قليل من الصوان، مقلاع، وربطتُ الفطر في منديل.

بالقرب من ساحة لعبة الكروكيت، وتحت شجرة قيقب قديمة، لدي مستوع ـ عبارة عن حفرة فيها صندوق، ذات غطاء ومكسوة بالقش. أغلق الغطاء، وأرشّ عليه أغصاناً جافة من الأعلى.

بعد أن اخترت عشراً من أفضل التفاح، ركضت إلى الآنسة ويلش. أكلت الآنسة ويلش التفاح ببطء وبشهية، حيث قامت بتقشير القشرة بسكين الحلوى وقطعت الشرائح. أصيبت بالرعب عندما شاهدتني ألتهم تفاحة تلو الأخرى، ولم أترك شيئًا، لا جلداً ولا وسطاً.

قالت بهدوء:

ـ ساشا، لقد أحصيت، أنك أكلت أربع وستين تفاحة اليوم!

كنت ساذجًة وأثقً بسرعة وضحوكة جدًا. كان يمكن ان اضحك حتى تتصبب الدموع لأمر تافه، وحتى الألم في جنبي، وليس بميسوري التوقف.

قالت أمي:

ـ لدى ساشا ضحكة لا معنى لها.

ـ حسنا حسنا اضحكي! ـ قالت تانيا، وأظهرت لي إصبعًا.

بدا لي الإصبع سخيفًا جدًا، سخيفًا، لدرجة أنني ضحكت حتى سقطت.

وحاول ميشا دائمًا أن يضحكني، عندما كان فمي مليئًا بالماء أو الشاي لإثارة البهجة العامة، وكان يكفي الحديث عن عربة النقل.

منذ زمن بعيد، وقفت هذه العربة في السقيفة ونامت تدريجياً في الأرض. هي نفس العربة التي كان والداي يسافران فيها إلى موسكو. وعندما كانت رغبة في الضحك، بدأ أحد الأولاد:

ـ ماما ماما؟، يجب علينا سحب العربة!

لم تفهم أمي المزحة، وأخذت الأمر على محمل الجد، مما زاد من مرحنا.

ـ نعم، ما زلت أنسى تكليف ناظر الضيعة.

ـ ماما؟ يجب بأسرع وقت، وإلا فإنها عالقة لدرجة لا يمكن إخراجها...

نُسيت مسألة العربة، وبعد فترة بدأ ميشا مرة أخرى:

ـ ماما؟ ماما؟، يجب علينا إخراج العربة...

ـ ها ها ها ها!..

وراح بطني يؤلمني من شدة الضحك.

وأردفت أمي:

ـ ما المضحك؟ سيكون من الأفضل تذكير الناظر ليقول للعمال.

وأخيرا حدثت معجزة. تمّ سحب العربة. ووُضعَت فيها أشرطة عرضية تستخدم عند تسخير حيوانين أو أكثر لتوزيع قوة الجر بينهما، وعريشة عربة، ورفعوها، وهزوها، وتأوهت، ووضعوا عدة الخيول. والآن وقفت في

وسط الفناء، ضخمة ذات ركائز عريضة، وجرى تنجيد داخلها بقماش حريري، مرعبة في عظمتها وعدم جدواها.

ـ هل حقا ذهبت إلى موسكو؟ ـ سألتُ.

كانت هناك أقسام للأشياء في الجدران الجانبية، و«ثقب دائري» في المقعد أسفل الوسادة. في المرة الأولى التي رفعت فيها الوسادة أمام السائق، شعرت بالحرج...

في الصيف، كانت العربة تشرب المطر، وتحرقها الشمس، وفي الشتاء كانت مغطاة بالثلوج.

ـ ماما ـ قال ميشا، ـ يجب أن نبيع العربة!

ردت وأمي بطريقة عملية، لا تفهم المزحة:

ـ نعم هذا صحيح وإلا فهي تقف في منتصف الفناء تعرقل...

مرت الأشهر.

ـ ماما؟ ماما؟، يجب العربة...

ـ أوه، دعني وشأني من فضلك!

وأخيرا جاء حداد. أراه السائق العربة.

ـ فقط انظر يا للنوابض فيها...

ـ ولكن ما الفائدة منها الآن! إنها ضخمة جدا!

اشترى الحداد العربة مقابل عشرة روبل وفككها إلى إجزاء على الفور.

في ذلك الوقت كان لدينا الكثير من «الظلاميين «(اتباع تولستوي).
كانوا أشخاصًا مميزين للغاية، ليسوا مثل الآخرين ـ كئيبين، هادئين،

يتحدثون بأصوات مكتومة، صائمين أبديين، يرتدون دائمًا ملابس رثة، تفوح منها رائحة العرق والقطران والأوساخ. أمي لم أستطع تحمل «الغامضين»، وبقدر ما تستطيع، لم تسمح لهم بالدخول إلى القاعة، وتوجهوا مباشرة إلى مكتب أبي.

من بين «الظلاميين» كان هناك طارئون، وعابرون، ولكن أيضاً من ارتبط بأبي بصداقة طويلة. في 1895 ـ 1896، ليس بعيدًا عن ياسنايا بوليانا، عاش آل تشيرتكوف في منزل صغير مهمل في قرية ديمينكا. تشيرتكوف، رجل ضخم وسيم ذو أخلاق أرستقراطية، واثق بنفسه وهادئ، كنت دائمًا أخافه، لم أتخيل أن أحدًا يمكن أن يعصيه بطريقة ما. انقبض قلبي عندما عبس تشيرتكوف بحاجبيه الجميلتين المنحنيتين، وعينيه الكبيرتين الداكنتين من الغضب. كان في هذه العيون الكثير من السلطة، في هذه الجبهة الضيقة، وفي الأنف الروماني المحدودب، الكثير من القوة لدرجة أن الناس يطيعونه لا إراديًا.

شاهدت كيف كان كافة «الظلاميين» يخافونه، باستثناء المرأة العجوز شميدت فرض تشيرتكوف نفسه على اتباع تولستوي، وإذا اعترض عليه بعضهم بضعف، في محاولة لإظهار بعض الاستقلالية، كانت مثل هذه المحاولات في حضوره تثير الشفقة، ونظروا إليه بوجل، طالبين مباركته.

لم تناسب البساطة تشيرتكوف، كالملابس التي يرتديها. كانت تربض عليه بلا اتساق مثل كيس. كان الأمر غريبًا بشكل خاص عندما يرتدي بلوزة طويلة إلى أسفل الركبتين، وأحيانًا ذات لون أحمر فاتح.

قال تشيرتكوف، وهو يرى الاستغراب العام.

ـ اللون الأحمر يحمي من الشمس.

كان كلما أتى إلى المنزل، ضخما، هادئًا، وقد حمل دائمًا شيئا ما، حاولت الاختفاء. لم تضحكني حتى نكاته.

قال بصوت هادئ، وهو ينطق الكلمات بلكنة أجنبية:

ـ أتعلمون، لم تُدفن المرأة العجوز في ديمنكا منذ أسبوعين!

الجميع يصيح في رعب:

ـ ما تقولون أحقا؟ لماذا؟

أمي تشتعل غيظاً، ولا يطرأ على بالها أن تكون مزحة:

ـ يا للعار! إلى أين تنظر الشرطة؟ لماذا لم تُدفن؟

يرد تشيرتكوف:

ـ لأنها لم تمت بعد.

وفي مناسبة أخرى قال بجدية:

ـ اليوم، تقارب قطاران أثناء السير!

ـ لا يمكن! وما بعد ذلك؟

ـ لا شيء. افترقا في طرق مختلفة.

كنت أشعر بالملل من آل تشيرتكوف. عادة ما تجري بين أبي وفلاديمير جريجوريفيتش أحاديث جادة لم أفهمها، وكان ديما ابن تشيرتكوف أصغر مني بكثير، ولم أكن مهتمًّة به، وإلى جانب ذلك، لم يكن يريد أبدًا اللعب، فقد كان متقلبً المزاج، وينتحب ويلتصق بتنورات والدته.

كنت أخشى الاقتراب من عقيلة تشيرتكوف: آنا كونستانتينوفنا، لأني كنت دائمًا أخجل من جسدي الكبير الضخم والقوي، وكنت محرجة بشكل خاص من الأشخاص الضعفاء والمرضى. لم اشعر بمثل هذا الإحراج مع أي شخص مثلما مع آنا كونستانتينوفنا. يبدو أنك إذا ضربت الكرسي عن طريق الخطأ، ودفعته، فسوف تتفتت ـ لقد كانت هشة للغاية، ضعيفة للغاية. أطّر الشعر الداكن المتعرج وجهًا رقيقًا ذا عظام خد بارزة، وعيوناً كبيرة واسعة متوقدة. كانت تجلس دائمًا على

كنبة، مغطاة بالوسائد، ملفوفة في سجادة مربعة. في بعض الأحيان أخذت عيناها تعابير مؤلمة على نحو خاص. وتصرخ فجأة.

ـ إنني جائعة!

يقفز الجميع ويندفعون المطبخ. بعد بضع دقائق، ظهرت آنا غريغوريفنا، وهي إوكرانية عاشت مع آل تشيرتكوف لسنوات عديدة. أحضرت صينية مليئة بصحائف صغيرة تشبه الدمى وأطباق طعام نباتي. وعندما تاتي آنا كونستانتينوفنا إلى ياسنايا بوليانا، يتم وضع الوسائد والبطانية وصحائف الطعام في العربة، في حال شعرت بالرغبة في تناول الطعام.

في بعض الأحيان كانت آنا كونستانتينوفنا تغني، وكنت حينها أرغب في البكاء، وليس لأن الأغاني أثرت بي، لقد اقلقني صوتها الحاد، المنخفض، القوي، مع نغمات الصدر الحزينة.

ثم خلال النهار، يجري تعليق علم في مكان ظاهر. هذا يعني إن آنا كونستانتينوفنا نائمة، ويسودُ صمت تام في المنزل.

كثيرا ما زارنا آل تشيرتكوف. أحيانًا أخذنا والدي اليهم من خلال الأشجار الكثيفة، والطرق التي يعرفها فقط، وأحيانًا ذهبت مع أخواتي إليهم على ظهور الخيل. استمتعنا بالقيادة بسرعة، مفعمة بالحيوية في ملابس الفارسات، ودخلنا على آل تشيرتكوف، وفجأة، لسبب ما، أصبح الأمر محرجًا ومحرجًا. كانت اولغا شقيقة آنا كونستانتينوفنا في زيارة لآل تشيرتكوف. لقد وقعتُ في حبها حتى عندما كانت فانيشكا على قيد الحياة. لابد أنها شعرت بشعوري بالوحدة، وأكدت المشاعر الودية تجاهي من خلال تدليلي ومداعبتي. في البداية كنت خجولة، لكن بعد ذلك غدا تقبيلها لي وضغط خدها الرقيق على وجهي يعجبني. أحببت ابتسامتها الغنجة، وعينيها التي تشبه الكرز الأسود، وفستانها الإنجليزي المتواضع، وتصفيفة شعرها الأنيقة، والشامة على خدها

التي تشبه ذبابة كبيرة. استرقت نظرة خجولة إليها، محاولًة الجلوس بالقرب منها.

بعد بضع سنوات، تزوج الأخ أندريه من أولغا. كان طيلة شبابه مفرطاً في المُنادمة، يبدد الأموال على الغجر. كان الوالدان مستائين منه، لكنهما لم يستطيعا فعل أي شيء معه. وفجأة وقع في حب الجادة أولغا كونستانتينوفنا. أقسمَ الأخ أنه سيصحح سلوكه، ويغير أسلوب حياته. لقد صدقته، وآمنت بتأثيرها عليه. وبالفعل في الفترة الأولى بعد زواجه، توقف أندريه عن المنادمة، وغالبًا ما زار ياسنايا بوليانا، وتقرّب من والده. كان الجميع سعداء من أجله، لكن الأهم من ذلك كله أنني كنت الأكثر سعادة بذلك.

قرر أندريه الاستقرار في القرية وإدارة ممتلكاته ومزاولة الزراعة.
حصلنا نحن الأبناء الأصغر على ملكية العقارات في اقليم سمارة والتي اشتراها والدي في يوم ما رغبة في زيادة ثروته، مقابل سبعة روبل وخمسين ك للعشر، وقرر الاخوان بعد ان تزوجا بيع الأرض. لم أمانع. وتم بيع العقار أغلى بكثير مما كان متوقعًا، بسعر خمسة وثلاثين روبلاً عن العشور.

أودعت أمي حصتي من المال في البنك، ومنذ ذلك الحين أصبحت مستقلة، ودفعت لأمي بمئة روبل شهريًا، ودفعت إجور المعلمين والمربيات والملابس، وأنفقت على كل شيء.

اشترى أندريوشا عقارًا على بعد ثمانية عشر ميلاً من ياسنايا بوليانا، واستقر هناك. لكني سبقت الأحداث في روايتي عن الحياة مع الأب...

من الصعب أن أحدد بالضبط على أي أساس انقسم اتباع تولستوي في مخيلتي إلى حقيقي ومزيف. التولستوي الحقيقي لا يدخن ولا يأكل اللحوم ويجب عليه بالتأكيد ارتداء بلوزة، لكن هذه التعريفات لم تكن شاملة أيضًا.

ألكسندر نيكيفوروفيتش، على أي حال، لم يكن حقيقيًا.

نيكيفوروفيتش، كما دعوته، لم يأكل اللحوم، لكنه أحب الصيد. على بحيرة سينج الكبيرة بالقرب من موسكو، أمضى كل أيام العطل هناك، وروى بحماس كيف سحبته الكراكي لعدة ساعات متتالية وعندما أخرجها، تبين أنها كانت تزن ثلاثين رطلاً. وكان يدخن قليلاً، ويحشو البايب بالقطن بعناية حتى لا يسمم رئتيه بالنيكوتين.

كان ألكسندر نيكيفوروفيتش تاجرًا في موسكو، وعمل كمدير في بنك تجاري وغالبًا ما كان يزورنا. كان يعشق والدي، وكان يعبر عن مشاعره دائمًا بصخب.

كان نيكيفوروفيتش يكره رجال الدين، الذين يطلق عليهم اسم الكهنة، وشتم، وصرخ، وكان على أبي أن يوقفه في كثير من الأحيان، بخاصة في السنوات الأخيرة، عندما أصبح أكثر تسامحًا مع معتقدات الآخرين. أحبنا نيكيفوروفيتش جميعًا كأقارب. كان يأتي أحيانًا ويقبّل أبي، ويقبّل يد أمي عدة مرات، ثم يبدأ بنا. عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، شعرت بالحرج.

ـ لماذا تقبّلون ساشا هكذا؟ ـ سأل والدي ضاحكاً ملاحظاً حرَجي. ـ إنها أصبحت كبيرة بالفعل.

صاح نيكيفوروفيتش. ـ

ـ ماذا؟ هل ساشا كبيرة؟ بيد انها ستبقى دائمًا صغيرة بالنسبة لي، لقد حملتها بين ذراعي! ومرة أخرى، قبّلني على خدي بصوت عالٍ.

أثار بعض التولستويين نفوري. كان هناك أشقر، بعيون زرقاء زائغة، ولحية خفيفة، أوكراني اختلطت صورته في ذهني مع كلوبسكي. كلاهما كانا مجنونين، كلاهما وقعا في حب أختي تانيا. ما زلت أتذكر برعب أن تانيا تجري على طول ممر مظلم في منزلنا في موسكو، ويطاردها رجل أشعث مجنون ـ «ظلامي». تانيا تضحك لكني خائفة. حلمت بهذا الرجل في الليل، بدا أنه كان على وشك أن يدرك تانيا، وسيحدث شيء رهيب!

يغشى روحي الدفء عندما أتذكر الوديعة ليونيلا فومينيشنا أنينكوفا، كما لو كانت تحتضن كل من اقترب منها بعاطفة داخلية. كانت كلها ناعمة ورمادية. كان لباسها رمادياً، والبدلة التي ترتديها رمادية والشال على كتفيها رمادياً ناعماً، وشعرها وعيناها ناعمين ورماديين، وفي يديها كانت الحياكة ناعمة ورمادية أيضًا. تحدثت قليلاً وبهدوء، بلكنة جنوبية، واستمعت أكثر... كانت إبر الحياكة الخشبية تنقر بيدها بخفوت، وتهمس ليونيلا فومينيشنا بشيء ما، وتحرك شفتيها بالكامل، فإما تقوم بعدّ الحلقات، أو تكرار كلمات أبي مع نفسها من وقت لآخر، وكأنها ترغب في فهم الفكرة بشكل أفضل. كانت ترفع عينيها وتنظر إليه باهتمام من خلال نظارتها.

إذا سئلت من هو إيفان إيفانوفيتش جوربونوف، فلن أتردد في الإجابة: «وسيط»! وما هو «الوسيط»؟ «وسيط»؟ سؤال غريب! «الوسيط» هو إيفان إيفانوفيتش جوربونوف. مع صورة إيفان إيفانوفيتش، تواصلت مع أفضل الكتب الجديدة في العالم: «كيف يعيش الناس؟»، «رجلان عجوزان»، «المسيحيون الأوائل» وغيرها. كان يجلب معه دائمًا كتبًا تفوح منها رائحة طلاء، والتي كان لها سحر لا يمكن أن أفسّره. عندما يتحدث إلى أبي كان قلقًا، ولاهثاً، ونافخاً شفتيه، يتحدث بخفوت، كما لو كان يغمغم بعدم ارتياح، لكن كلماته كانت متحمسة، وعاطفية، وطفرت الدموع في عينيه الزرقاوين اللطيفتين.

من بين جميع أتباع والدي، حظيت ماريا ألكساندروفنا، أو «المرأة العجوز شميدت»، كما تسميها الأخت تانيا، بحب فائض من جميع أفراد عائلتنا.

بدت ماريا ألكساندروفنا، رقيقة، وهزيلة، ذات خدود غائرة، وأنف وذقن مدببين، وارتسم على وجهها تعبير جدي تقريبا استشهادي، وكأن نارا داخلية أضاءت ماريا ألكساندروفنا، وترك أسلوبها الجامعي، في التنهد والتأوه والتعجيب انطباعا غريبا لدى المستمع. في بعض الأحيان كان أبي يقفز ويصفق بيديه، فترد عليه:

ـ حبيبي، ليف نيكولايفيتش، كم أنا سعيدة!

أحببتُ الاستماع إلى قصصها عن الحياة في القوقاز، حيث ذهبت للعمل في الحقول مع صديقتها أولغا أليكساندروفنا. تركت المعهد عندما ولعت بآراء أبي، وقررت تغيير حياتها. تركت قصة الدب التي روتها بشكل خاص انطباعًا قويًا علي.

قالت ماريا ألكساندروفنا: «أنا أعمل، وفجأة، يا حبيبتي، أرفع رأسي، وإذا بدب يجلس على الشجرة ويأكل المشمش. أوه، يا عزيزتي، لقد متُ للتو!

أتذكر أيضًا القصة التالية:

ـ وفيما، يا حبيبتي،، كنا عائدتين أنا وأولجا أليكساندروفنا من القوقاز، وكانت معنا نقود. مغرية، مغرية، يا عزيزتي، ومقرفة هذه النقود! وما رأيك؟ نشلوا منا جميع هذه النقود، نشلوا! والرب ينظر لهم! أنهت ماريا اليكسندروفنا حكايتها بابتهاج.

أتذكر عندما كانت ماريا الكسندروفنا قد روت ذات مرة هذه القصة بحضور ابنة عمتي فيرتشكا ناغورنوفا، التي تميزت بشرود الذهن، وعدم الانتباه بشكل فظيع، ودائما ما كان يختفي منها كل شيء، ولم تدّخر أي شيء.

قالت بحزن:

ـ آه، ماريا الكسندروفنا، الرب لا يرفع عينيه عني!

روت أمي: عندما نشر أبي «الحرب والسلام» أعطى لكل واحدة من بنات أخته عشرة آلاف روبل. دست فيريشكا ورقة الشيك في مكان ما ونسيتها. وذات مرة ذهبت أمي لزيارتها، ورأت أن الزجاج المكسور مغلق بشيء غريب. ونظرت له عن كثب، وعرفت إن هذه الورقة هي شيك العشرة آلاف روبل.

غير مفهوم

قليلا ما كنت احظى بالتدليل في العائلةً، إلا أنني كنت ممتنة للغاية لكل من يتعامل معي بقليل من اللطف، وكنت أرد عليه بحب صادق. في أغلب الأحيان انتابتني دفقات من الرقة تجاه أخواتي، لكنني لم أحسن التعبير عنها. لم يشكا بانهما يستطيعان بالرقة واللطف نيل كل ما تطلباه مني، في حين على العكس من ذلك كانت الشدة والقسوة دوما تخيفني، وتجعلني انطوي، وأتحجر، وأتصلب في الداخل. اعتبروني عنيدة، وفي الواقع لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. اختلط لدي الخجل والاستياء الناجم عن وخز الكبرياء المتكرر بالعناد.

كانت تأتي لي المعلمة الكسندرا كونستانتينوفنا. كانت لطيفة وطيبة وخجولة للغاية، وهو ما جذبني إليها على وجه الخصوص، واحمرّت خجلاً مثلي تمامًا. أعجبني مظهرها: شعرها الأشقر كان ذهبيًا منسدلا إلى اسفل الخصر، وعيناها الزرقاوان اللامعتان بحنان، وفي كثير من الأحيان، عندما شرحت لي قواعد النحو أو التاريخ، كنت استرق النظر إليها. أحببتها، كنت انتظر وصولها بقلق، أردت أن أعبر لها بطريقة ما عن مشاعري، فجئت لها بالزهور من الحديقة، ورافقتها مودعة بعد انتهاء الدروس حتى العربة.

كنت احفظ عن ظهر قلب تقريبًا الصفحتين أو الثلاث من كتاب التاريخ لدميترى ايلوڤايسكى، التي طلبت مني دراستها كواجب، وعندما تأتي، طفقت أتحدث بجرأة. ولكن بمجرد أن أتلعثم، أو ألاحظ ابتسامة على وجه ألكسندرا كونستانتينوفنا، أشعر بالحرج، وألوذ بالصمت.

ـ حسنا، استمري!

شعرت بالحمى تسري في جسدي، ولم يعد بميسوري نطق كلمة واحدة. حاولت ألكسندرا كونستانتينوفنا أن تذكرني بالدرس معتقدة أنني لا أعرفه، ولقنتني، وحاولت أن تفعل ذلك بصرامة، وكنت صامتة. عندما غادرت، ألقيت بنفسي على السرير وبكيت بمرارة.

لم تستطع ألكسندرا كونستانتينوفنا تحمل رائحة العطور، لأنها تشعر بوجع الرأس منها. وأنا أيضًا احتقرت العطور، لأنني عمومًا كنت أحتقر كل أنواع الإكسسوارات في غرفة ملابس السيدات، لقد أحببت السكاكين، والمناشير، والمحامل، أكثر من ذلك بكثير.

أتذكر كم كنت أتألم عندما تجبرني أمي على أن أرتدي «كورسيه» لكي «يكون القوام جميلا وليس مثل جذعك». وكلما سنحت الفرصة كنت اخلع الكورسيه وأخفيه بعيدًا في الخزانة، لكن المربية تخرجه مرة أخرى وتجعلني أرتديه. تكسرت الألواح والعيدان التي تشده، وانغرزت في الجسد، مما سبّب لي عذابا فظيعا. ثم أضافت تعذيبا جديدا، حيث قالت أمي أن من الضروري لي ارتداء «وسادة الإبط». كانت الوسائد منتفخة، وفتحات الأذرع ضيقة، بالإضافة إلى أنها تتمزق، وتلتوي وتفرك الجلد.

أتذكر أن المربية خاطت لي وسادتي إبط جديدين تحت الثوب الصوفي الأزرق. جاءت الكسندرا كونستانتينوفنا، وجلست في مكانها المعتاد على الكرسي بجوار النافذة، وقالت باستياء:

ـ ساشا، أشم رائحة عطر منك اليوم!

ـ ما دهاكم، الكسندرا كونستانتينوفنا ـ اعترضت ممتعضة ـ لا أستطيع تحمل العطور، ولا أتعطر أبدا!

ـ أشم رائحة عطور، حتى أنني سأخبركم أي نوع من العطور ـ انها هيليوتروب!

وفعلا، كانت تفوح رائحة عطور مفرطة الحلاوة، مثيرة للاشمئزاز. شعرت بالحرج وتضرجت خدودي، وتعرقت على الفور من شدة الارتباك.

ـ لا، هذه أمر مروع! ـ قالت الكسندرا كونستانتينوفنا مرة أخرى ـ إنه عطر ذو رائحة نفاثة! كيف تقولون أنكم لم تتعطروا؟

وفعلا، كانت الرائحة قاتلة، قفزت وبدأت افتش فيما حولي، لكن لم يكن شيئًا، وشعرت بالرعب من أن هذه الرائحة كانت تأتي مني. وكلما تعرقت أكثر، كلما زادت قوة رائحة العطر.

وأخيرًا، قفزت ألكسندرا كونستانتينوفنا، وهي تمسك برأسها، قائلة إنها لا تستطيع مواصلة الدرس، وأنها تعاني من صداع نصفي رهيب، وبارحت القاعة.

كنت أعاني أيضًا من صداع، وذهبت إلى الحديقة، بيد أن الرائحة لاحقتني هنا أيضًا. وفقط في المساء، عندما آويت إلى الفراش، أدركت ما الأمر: كانت المربية قد خاطت لي وسائد إبطين معطرين.

شغلتني حياة الكبار، وبدت أشياء كثيرة غير مفهومة لي، أثارت لدي فضولاً مؤلماً. أردت أن أسأل ولكن مَن؟ احتقرت المربيات وعرفت جيدًا أنهن يفهمن أقل مني. من الأفضل أن أسأل المربية، رغم أنها ردت من دون تردد وبثقة، وسالتُ مربيتي:

ـ لماذا لا يأكل أبي اللحوم؟

ـ لكونها تضره، ولهذا السبب لا يأكلها.

ـ ولماذا لا يذهب إلى الكنيسة؟

ـ لا يعجبه ذلك، لذا فهو لا يذهب.

لقد أوضحت الأخوات بشكل أفضل بكثير، لكن كان من المستحيل فهم كل شيء. إن البابا لا يأكل اللحم لأنه يشعر بالشفقة على الأبقار والدجاج وكل الحيوانات، ولكن لماذا أمي لا تشفق عليها؟ البابا يعتقد أنه من الممكن أن نصلي في المنزل، وليست هناك ضرورة للذهاب إلى الكنيسة، وأن المعجزات التي قيلت في الكتب المقدسة: العهدين القديم والجديد ليست صحيحة، ولكن لماذا أمي؟ تذهب إلى الكنيسة وتصحبنا معها، وتجعلنا نتعلم شريعة الرب؟

وعندما أصل إلى الموضوع الأكثر إثارة للاهتمام، تقول الأخوات حالاً:

ـ حسنًا، ما زلتِ صغيرة، ستكبرين، وستفهمين!

لقد انقسمت الحياة في ذهني إلى مفهومة، وغير مفهومة. كان الكثير من ما أحاط بأبي غير مفهوم، وبعث فيّ الخوف والاحترام.

وكما أتذكر الآن، كان يأتي إلى والدي أشخاص كبار، وأقوياء، بوجوه وديعة، في ملابس فلاحية. وقالوا إن الحكومة انتزعت منهم أطفالهم لأنهم لم يعمدوهم في الكنيسة. جلسوا في غرفة الطعام في المنزل في موسكو، وشربوا الكثير من الشاي من الصحون، ومسحوا العرق الذي تصبب على وجوههم الداكنة.

ـ ماشا، لماذا انتزعوا أطفالهم منهم، هل هم ليسوا صالحين؟

ـ لا، صالحون، جدا.

ـ لماذا انتزعوا الأطفال؟ هل معناه أن الذين انتزعوا الأطفال منهم أشرار؟

ـ نعم أشرار...

كان الأشخاص الذين تصادقوا مع أمي دائما مبتهجين، ويتمتعون باللياقة، وراضين، ولم يتحدثوا أبدًا عن أي مشاكل، كل شيء، على ما يبدو، كان واضحًا وبسيطًا بالنسبة لهم.

وكانت على أولئك الذين أحاطوا بأبي سمات المعاناة، وكأنهم معذبون إلى الأبد، يبحثون عن شيء ما، وعندما ينظر المرء اليهم، كان من المخيف التفكير في الحياة.

كم كان أبي يشتكي ويتأوه عندما تحدثوا عن الدوخبور(43) الذين جرى نفيهم وتعذيبهم لرفضهم الخدمة في الجيش! ثم بدأت السلطات

الحاكمة في اضطهاد أصدقاء أبي: تشيرتكوف، وبيريوكوف، وتريجوبوف.

(43) الدوخوبور هم مجموعة دينية روحانية مسيحية ذات أصلٍ روسي. وتعتبر هذه المجموعة واحدةً من بين العديد من الأديان الإثنية المذهبية غير الأرثوذكسية في روسيا.

بدا لي أن الذين يقومون بالملاحقة نوع من الوحوش، وتفاجأت عندما أرتني ماشا رجلاً عاديًا بنظارات زرقاء وقبعة سوداء ناعمة، وقالت إنه مخبر من الشرطة السرية يراقب منزلنا. أثار هذا الرجل في داخلي الرعب والفضول، وعندما ذهبت في نزهة على الأقدام، بحثت عنه بعيني، وفكرت فيه، وحلمت به في الليل.

عاش نيكولاي نيكولايفيتش جي الأصغر، معنا في منزلنا في خاموفنيك بموسكو. لقد أحببناه، وكأن كل المودة التي كانت تكنها عائلتنا لأبيه الرسام الشهير الذي وصفناه بـ «الجد» انتقلت إلى نيكولاي. لقد كان نيكولاي نيكولاييفيتش مثل والده: بذات اللطف والطيبة والبهجة، وحب النكات والضحك الخافت. أتذكر إن أمي أعطتنا عربة، وذهبنا أنا وماشا للتسوق، وطلب نيكولاي أن نوصله إلى دار نشر «الوسيط» التي نشرت كتب والدي. وعندما اقتربنا، لوح لنا رجل واقف في الزاوية بيده. وفجأة، ظهر امامنا، من مكان ما المخبر المعروف بالنظارات الزرقاء.

عندما دخل نيكولاي إلى دار نشر «الوسيط» وانطلقنا بالعربة، قالت ماشا:

ـ أنا قلقة على نيكولاي لسبب ما!

لم يحضر نيكولاي لتناول الغداء معنا، كما أنه لم يأت لقضاء الليل في منزلنا. كان الجميع قلقين عليه وباشروا في البحث عنه. اتضح بأن الشرطة القت القبض عليه، اشتبهوا على انه إيفان ميخائيلوفيتش تريغوبوف، الذي كان مطلوبًا من قبل الشرطة. وتم إطلاق سراح نيكولاي، وترك هذا الحادث انطباعا حادا عليّ.

وسألت:

ـ كيف يمكنهم القبض على شخص وإيداعه السجن؟.

ـ تم سجنه عن طريق الخطأ.

ـ وإيفان ميخائيلوفيتش من أجل ماذا، هل قتل أم سرق؟

كانت هناك أشياء غير مفهومة تمامًا، في كل هذا.

كانت تزورنا الطبيبة خليفينسكايا. وكانت جادة، ومتواضعة بزيها، بتسريحتها البسيطة، لا بد أنها امرأة ذكية للغاية، على الأقل بدت لي هكذا. وفجأة علمت أن السلطات القت القبض على ماريا ميخائيلوفنا، وأنها في السجن.

ـ على ماذا؟

ـ لتوزيعها كتب الأب!

ـ وهل يا ترى كتب أبي سيئة؟

ـ كلا، إنها جيدة!

ـ ربي، الهي، كيف نفهم كل هذا؟

أتذكر كيف أدهشتني قضية سولير.

كان سوليرجيسكي، أو كما أطلقنا عليه سولير، زميلا لأختي تانيا في مدرسة الرسم. لقد كان شخصًا مميزاً، على عكس أي شخص آخر. أينما ظهر، تفور الحياة حالاً بالبهجة. أتذكر معرفتي به لأول مرة. كان لدينا ضيوف من الفتيات والفتيان، وغنينا، وعزفت أنا على البيانو. وجاء سولير إلينا مرتديًا سترة قديمة، وبدلة بحار بسروال واسع في الأسفل. نظر إليه ضيوفي في حيرة.

ـ هل تعرفون أغنية «تشوبتي» السلافية؟

ـ نعم.

ـ هيا بنا نؤديها!

وقف سولير بالقرب من البيانو، وبدأ يغني من النوطة الثانية بصوت تينور، وراح يغني بصوت مرتفع للغاية:

ـ ذهبت إلى النهر، وصفقت القلوب!

ابتسم الجميع بشكل لا إرادي، وعندما كان سولير يمارس دور قائد جوقة موسيقية، بيديه ويقفز، انتقل إلى تكرار الترنيم، انضممنا إليه. كان الجميع مسرورين. واعتدت عليه وأحببته.

ـ سولير، حاكِ الفيل، من فضلك! ـ الححنا عليه بالطلب ـ واختبأ هو خلف سترته الرثة وخفض يده من الأعلى، وبدأ في التلويح بها من جانب إلى آخر مثل خرطوم.

ـ سولير ـ صرخنا ونحن في اشد حالات الانفعال والهيجان من شدة الانشراح ـ نطلب منه: حاكِ سمكة، سمكة في الحوض!

وسع سولير عينيه، ووجّههما نحو نقطة واحدة، ولف ذراعيه من إبطيه، مصورًا الزعانف، وفتح فمه وأغلقه بانتظام. ثم فجأة طرطشت السمكة وغاصت واختفت.

خرج سولير بشعر منبوش واشعث، زاحفا من تحت الطاولة. غرق أبي في الضحك، ممسكًا بجانبيه، وحدّث ولا حرج عنا.

لقد تعامل سولير بحماس، على حد السواء مع أي قضية كانت: تافهة أو خطيرة، كان سولير متحمسًا لكل شيء. يقوم بكل شيء من صميم وجدانه، ودائمًا بخفة ومرحة، وهو يترنم بأغنية.

ثم وقع شيء غير مفهوم: قبع سولير في السجن. عندما فكرت في جلوسه خلف القضبان، تخيلت طائرًا جميلًا كبيرًا لا يستطيع الغناء في الأسر، وفقط يضرب صدره في قنوط على القضبان من الصباح إلى المساء.

قالوا إن سولير سُجن لعدم التحاقه بالخدمة العسكرية، وعندما أُطلق سراحه وجاء إلينا بالزي العسكري وهو محرج قليلاً، كنت سعيدة للغاية.

كل هذه الاعتقالات والاضطهادات لم تعذبني إلا من حين إلى آخر وبشكل سطحي. كان هناك شيء ما عذبني بلا انقطا ع، وأدى إلى تآكل روحي بالغضب والكراهية، وشوّش على النوم، والعيش، والبهجة... لا يمكنني أن أحدد متى بدأ هذا بالضبط.

في البداية أحببت صديق العائلة الموسيقار تانييف، أحببت عزفه على البيانو، وخاصةً عندما لا يعزف مقاطع من تأليفه، بل لبيتهوفن، ولموزارت، او متتالية أرينسكي على البيانو، يعزفها مع زميله دينفيزير. لقد أحببت ممارسة رياضة التنس مع سيرجي إيفانوفيتش، وكنا مغرمين بنفس القدر باللعبة، وضحكنا من أعماق أرواحنا. لقد أحببت مربيته الوديعة، بيلاجيا فاسيليفنا.

وتدريجيا ، تغير كل شيء. فكلما لاحظت علاقة حب أمي المبالغ فيه لتانييف، كلما قل حبي له اكثر. وعندما يأتي سيرجي إيفانوفيتش، أذهب بتحد سافر إلى غرفتي. أصبحتُ أضجر من قوامه الثخين، وضحكته النسوية، وانفه الدقيق الأنيق المحمر.

أحيانا كان الحوذي يميليانتش السمين، وهو يهتز بالعنان الممدود، يجلب إلى المدخل المزلجة ذات التجويف المبطّن بالفراء، مع عدة الفرس «ليرا» الجميلة، ليأخذ أمي للتسوق، وهي في معطف من الفرو المخملي وقبعة من جلد.

كنت أسألها ، وأنا أعلم جيدًا أن تانييف سيأتي.

ـ هل سيأتي أحد لنا اليوم؟

قالت أمي:

ـ لا أعرف، ربما سيأتي سيرجي إيفانوفيتش.

وفي المساء يظهر تانييف ضاحكا وهو يفرك يديه من الحرج. جلس طوال المساء، وأحيانًا يعزف، ويستمتع بتناول الكافيار المحبب، والحلويات من محلات ألبرت.

ويحدث أن نعود من السوق، أو من متجر «موير وميريليز». تميل أمي إلى الأمام، وتنقر بصدفة السلحفاة على ظهر يميليانيش الواسع بالمعطف المحشو:

ـ نميل على شارع «ميورتفا»!

ثم التفتت إلي وقالت:

ـ لابد من رؤية مربية سيرجي إيفانوفيتش.

كنتُ صامتة، أصر على أسناني. كرهت المربية بلاجيا فاسيليفنا، بوجهها المنمش ومشيتها المتمايلة في بعض الأحيان نجد بالصدفة سيرجي إيفانوفيتش في المنزل، وعادة ما يعزف شيئًا ما، أو يجلس في غرفة طعامه الصغيرة يشرب الشاي. قفز تانييف بشكل محرج وأخرق، لم يكن يعرف كيف يكون مضيافًا، وهبّت لمساعدته المربية. دعتني للجلوس وشرب الشاي. كنت أختبئ في زاوية مظلمة، منطوية على نفسي، وكان من المستحيل انتزاع كلمة واحدة مني.

بدأت أتذرع بمختلف الطرق لعدم الذهاب في أيام الخميس إلى حفل موسيقى الرباعي، إما أن يكون لدي الكثير من الدروس، أو أشعر بالصداع. لاحظت أمي مزاجي، فباتت نادرا ما تأخذني معها.

في الربيع خرجنا إلى ضواحي المدينة مع تانييف.

ـ ساشا، سنذهب يوم الأحد إلى تلال فوروبيوف!

سألتُ، في حالة تأهب.

ـ مع مَن؟

ـ سيذهب معنا آل ماصلوف، وسيرجي إيفانوفيتش...

قلت بخشونة:

ـ لن أذهب.

ـ لماذا؟ ستذهبين حتما، لا حاجة لك للّعب مع أولاد الشوارع!

حل يوم الأحد. كانت لطيفة ومرحة ومتأنقة. وكلما كانت أمي أكثر حيوية، كنت أكثر قتامة. وطوال الطريق ظللت عابسة وصامتة.

لا شيء يمكن أن يبهجني.

أوه، كيف في منحدر الحياة

نحب برقة أكثر وبوسواس اكثر...

لسبب ما، ارتبطت هذه الأبيات الشعرية بتانييف، لقد بغضته، وكنت سعيدة للغاية، عندما اكتشفت أن أبي لا يحبه أيضًا.

ـ قصيدة مقززة، تتغنى بحب الشيخوخة الرذيلة!

خلال هذه الفترة المؤلمة من حياتي، عرفت ما هو الأرق. أرجع إلى غرفتي منهكة بالمعاناة الشريرة والضبابية، وأود أن أنسى بسرعة، وأنام. وأخلع ملابسي بحركة واحدة، وأندسّ تحت البطانية الدافئة التي حاكتها أمي، والمربية تغمغم في شيء ما في المنام، وتنقلب على الجانب الآخر، والعيون تغمض، وأغفو.

ـ خور... فيوو، خور... فيوور! ـ المربية تشخر.

«لم أنم». وأفكر: «لن أنام! باي ثمن لن أنام! اليوم كانت الفطائر لذيذة محشوة بالفستق. لماذا لم تعطني، بينما أعطتها لتانييف، إنه ألتهم كل شيء اليوم! وأنا لا أحب هذه الأغنية المثيرة للاشمئزاز «أغنية بلا كلمات» لمندلسون.

ـ خور... فيوو، خور... فيوور!

«يا رب، لن أنام! هل ان أمي عجوز أم لا؟ إنها لا تريد أن تكون عجوزة!» أتذكر وجهها المفعم بالحيوية، وفجأة تستولي علي الكآبة. «لا تفكري، لا تفكري، اغفي!»

ـ مربيتي، عزيزتي، مربيتي!

المربية تنظر.

ـ ما المسألة؟

ـ مربيتي عزيزتي، من فضلك لا تشخري!..

ـ نامي نامي! تعرف شيئا واحداً! تختلق أيضا... أشخر...

«لماذا، عندما يأتي، ترتدي أفضل فستان؟ يا رب، أود أن أنام على عجل مادامت المربية لم تشخر بعد!»

السرير يصر تحت المربية، وتتنهد.

«أبي؟ وماشا يبغضان تانييف أيضًا...»

يتردد شخير المربية في البداية بخجل، ثم يتعالى أكثر فأكثر. أنا أبكي. يجب سد آذاني! أنهض بهدوء وأُخرج من الخزانة قطعة قطن، وأسد بها آذاني. يصبح الأمر مخيفًا، ولا إراديًا أستمع إلى الشخير مرة أخرى: خو.فيوو.. يتردد من بعيد. بدأ رأسي يؤلمني. أرمي قطعة القطن

من آذاني، وأجلس على الوسادة. هناك محادثة خلف الجدار، الوالدان يتجادلا بصدد شيء ما. يتردد صوت أمي العصبي. أبي يقنعها بهدوء. تثائب الأب بصوت عالٍ، كان قريبا جدا: أوه، أوه، أوه! تتوقف الأصوات، وصَوت طير الوقواق (الاصطناعي في الساعة) مرتين في غرفة الطعام. «يا رب، يا رب، يا لها من تعاسة، لا أحد يحبني، أمي تعذبني. لا أحد يهتم بي.» أشعر بالشفقة على نفسي، أبكي، أبكي وأغفو بالدموع.

ذات مرة بحتُ لماشا بكرهي لتانييف، وعن معاناتي. في البداية كان الخوف يعتريني من الحديث بصدد هذا الموضوع. لكن بعد ان نظرت إليها، أدركت فجأة أن ماشا كانت تعرف، وتتعذب مثلي تمامًا. ثم تدفقت الكلمات من تلقاء نفسها، ولم يكن بوسعي التوقف، كان لابد من أن أبوح بكل ما اصبح مؤلما...

كانت ماشا تشعر بالخوف، حتى أنها حاولت تهدئتي، وقالت ليس من البشاعة ان تحب أمي تانييف.

ـ انظري إلى والدك، كم هو وديع وصبور، رغم معاناته الشديدة...

كنت أعرف أن مشاعر أمي نحو تانييف لا تنطوي على «ما هو سيء» ولكن كيف جَعل ذلك لا يؤلم أحدا منا؟ بيد ان ماشا لم تحسن التحدث عن هذا.

إيه، ماشا! سرعان ما تصرفت بنفسها بطريقة كان من المستحيل فهمها.

عاش معنا قريبنا كولشا اوبلينسكي، حفيد العمة ماريا نيكولاييفنا. تخرّج من الجامعة في ذلك الوقت، ودعته أمي للعيش معنا. عاش كولشكا، وعاش لنفسه، ولم يهتم به أحد. استيقظ متأخرا، ونادرا ما كان يذهب إلى الجامعة، وطالع الروايات، ودخن السجائر. وفجأة عرفتُ أن ماشا ستتزوجه. في البداية، لم أصدق ذلك. حسنًا، ما الذي يمكن أن يكون مشتركًا بين ماشا وهذا الشاب الوسيم، ذي الكسل الأرستقراطي

الفطري في كل كيانه، مع مشيته البطيئة المتعثرة، والذي يلثغ في خطابه الذلق. كان كولشا بعيداً جدًا عن الهالة المحيطة بأختي في مخيلتي. لم يكن بميسوري الافتراض أن ماشا ستترك والدها من أجله. لكنها وقعت في حب كولشا، وقررتْ الزواج منه. أتذكر أنها جابهت صعوبات في الإجراءات الكنسية. فمرة لم يرغب الكاهن في عقد قران بين أقارب، وأخرى طلب بشهادة اعتراف وقربان، وهي ما لم تكن لدى ماشا. وكان حفل الزفاف نفسه صعبًا عليها أيضًا. حاولت أن تجعل كل شيء بسيطًا قدر الإمكان. ذهب العروس والعريس في ثياب منزلية إلى الكنيسة، حيث لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأقارب. ولكن كل هذا لم يكن شيئًا مقارنة بالحل الوسط الذي قررت ماشا بشأنه فيما يتعلق بزواجها. تمرّضتْ، ولم تكن هناك لديها نقود، ولم يرغب كولشا في الخدمة لدى الدولة، وطلبت ماشا منحها جزءًا من الممتلكات التي تخلت عنها سابقًا.

لا أدري أيهما أصعب: صمت الأب المليء بالحب والتسامح، أم لوم الأم وتوبيخها؟

كان الأب محاطًا بالمقربين، لكنه وحيد. البعض منهم اثقله بنزاهتهم وتفانيهم، وآخرون طالبوه بثمن باهظ على التضحيات التي قدموها، وآخرون كبحوه بإعجابهم، والفئة الرابعة أزعجته بتجاهل تام لأفكاره. ماشا وحدها كانت تحبه بنكران ذات، ولم تطلب منه شيئًا، وأعطته هي نفسها أكثر مما يحتاج إليه: الرعاية والحنان والفهم الحساس. غادرت ماشا، لكن والدها لم يتوقف عن التفكير بها، فكتب لها الرسائل. غالبًا ما كانت ماشا وكولشا يعيشان معنا، أو يذهب والدي لرؤيتهما في شارع بيروجوفو بموسكو.

أتذكر كيف كان أبي يتألق عندما يرى ماشا، وحتما يسألها:

ـ حسنا؟ كيف الحال؟ هل ما زلت أنت وكولشا تتحدثان؟

أجابت ماشا ضاحكة.

ـ نعم يا أبي؟

ـ حسنًا، عن أي شيء يمكنكم التحدث عنه طوال اليوم؟

اندهش، وابتهج، لأن ماشا كانت سعيدة.

«البعث». زواج تانيا. الحرمان من الكنيسة

في عام 1891، باشر والدي بشكل غير متوقع كتابة عمل أدبي ـ لقد بدأ في كتابة رواية «البعث». وعلى غير عادته، اهتم الأب بأتعاب المؤلف. كان بحاجة الى النقود التي هدف من جمعها تمويل هجرة أبناء طائفة الدوخبور في كندا وإقامتهم هناك. فالحكومة استمرت في اضطهادهم بسبب رفضهم الخدمة العسكرية، وقرروا الهجرة إلى كندا.

بيع حق الطبعة الأولى من رواية «البعث» لناشر مجلة «نيفا» ماركس، مقابل ألف روبل على الصفحة.

كانت الطاولة في الطابق السفلي، في غرفة الطعام في منزلنا في موسكو، مغطاة تماما بالمخطوطات والمسودات. قام الجميع بالنسخ: تانيا، وأمي، والضيوف. وكان أبي يهبط من وقت لآخر من مكتبه، ويعطي التعليمات.

نظرت إلى الجميع بحسد، وأردت أيضًا المساهمة في العمل المشترك. ويبدو ان تانيا قد شعرت بذلك، وشفقت علي فأعطتني مهمة استنساخ رسائل الأب، على المكبس. لقد بذلت قصارى جهدي. شددت عضلاتي، غارقة في العرق، وضغطت على عضلات البطن بقوة لدرجة أن الطاولة تحت المكبس تشققت. إن وعيي بأني أفعل شيئًا من أجله، من أجل والدي، ملأت قلبي بكبرياء سعيدة.

أتذكر أن والدي أنهى الرواية تمامًا، وأرسل له الناشر ماركس آخر التصحيحات. أخذها إلى الطابق العلوي لينظر بها، ومرة أخرى أعاد كتابة كل شيء من جديد! وأرسلت على جناح السرعة البرقيات التي تطلب تأخير النشر. ومع ذلك، فإن التعديلات التي أجراها والدي لم تصل إلى النسخة الأجنبية، بينما شوهت الرقابة بشدة النسخة الروسية، وعلى هذا النحو فإن النص المدقق بعناية لرواية البعث لم يطبع.

سافر الأخ الأكبر سيريوجا إلى إنجلترا للمساعدة على نقل جماعة الدوخوبور إلى كندا، ورافقه إلى كندا يفرسينيا دميتريفنا خيرياكوفا وليوبولد انطونوفيتش دسليرجيتسكي.

كنا قلقين على سريوجا، فكتبنا إليه، وانتظرنا أخبارًا منه، وعندما عاد، وأحضر من هناك قبعة كندية كبيرة من الفراء، وتحدث عن رحلته، اكتسب أهمية أكبر في عيني.

في نفس العام، تزوجت تانيا. كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها، وخطيبها ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين كان أكبر منها بكثير، ولديه من زوجته الأولى ستة أطفال، اثنان منهم أكبر مني. ترددت لفترة طويلة. وسألتني

ـ حسنًا ما رأيك يا ساشا، هل أتزوج أم لا؟

لم أرد عليها. دفنت نفسي في وسادة الأريكة وأجهشت بالبكاء بصوت عالٍ. ضحكت الأخت ثم انفجرت بالبكاء.

لم يكن هناك أي شخص في المنزل يتعاطف مع زواج تانيا. كان الجميع ضده. لطالما حلمت أمي بزواج رائع لمحبوبتها. أرادت أن تتزوج تانيا من ميخائيل ألكساندروفيتش ستاخوفيتش أو من الكونت أولسوفييف، ولم يكن لدى تانيا نقص في الخاطبين. وفجأة تتزوج أرملَ لديه ستة أبناء! حتى الخادمة العجوزة تذمرت:

ـ وماذا حدث لتاتيانا لفوفنا؟ تذهب لمثل هؤلاء الأطفال!

ولم أستطع منع نفسي من البكاء خلال مراسم الزواج في الكنيسة، رغم أنني كنت أخشى أن تلاحظ تانيا ذلك وتنزعج. كان أبي يبكي أيضًا.

شعرتُ بالحرج عندما اقترح ميخائيل سيرجيفيتش، زوجها، بعد الزفاف، أن أخاطبه بصيغة «أنت»، وليس «انتم». وقال لي:

ـ ناديني بأنت ميخائيل سيرجيفيتش. هذا سيكون بروح القرابة والاحترام ـ أقنعني.

ولم أجرؤ على ذلك عندما نظرت إلى الرجل العجوز ذو الشعر الأشيب المحترم والبطن المستديرة. وفقط بعد وقت طويل، اعتدت عليه، وبدأت في مناداته بالعم ميشا.

بمرور الوقت، وقع الجميع في حب ميخائيل سيرجيفيتش. فقد كان مرحا، وذكيا، ذا طبع رائع، كان يجلب معه دائمًا الحيوية. أحب والدي التحدث إليه، ولعب الشطرنج معه. لقد أصبحنا أيضًا أصدقاء مع عائلته. وقد تآلفتُ اكثر مع ابناءه ناتاشا وميشا الذَين كانا من أترابي.

تمرّضت تانيا، وكانت تعاني باستمرار من الزكام والصداع. كان المرض يتحسن في بعض الأحيان، ثم يتفاقم مرة أخرى، وفي النهاية اشتد الصداع لدرجة أنها بقيت لأيام غير قادرة على الحركة أو الكلام. قام الأطباء بتشخيص تقيح في الجيوب الأنفية، ما يسمى التهاب الجيب الجبهي. كان عليها إجراء عملية ثقب الجمجمة.

أجرى العملية البروفيسور فون شتاين في العيادة. في هذا الوقت كان لدي درس. لم يسمح لي مدرس التاريخ أبدًا بالذهاب إلى المستشفى. لكنني لم أستطع الدراسة، كنت أنظر إلى الساعة كل دقيقة، زحفت على كرسي ولم أستمع إليه، وأدرك أنه لن تكون أي فائدة مني على أي حال.

انطلقت بأسرع ما يمكنني في الممر، وتذكرت فجأة أنهم لن يسمحوا لي بدخول العيادة. بقيت بالخارج منتظرة. مرّ أبي بجانبي مسرعاً. وفي المساء تحدثت أمي بسخط عن البروفيسور. جلس والدي بجوار غرفة العمليات وانتظر. وفجأة انفتح الباب وخرج فون شتاين وأكمامه ملفوفة في معطف أبيض.

ـ ليف نيكولايفيتش، هل تودون أن تروا العملية؟

استلقت تانيا فاقدًة للوعي على الطاولة، مغمورة بالكلور، وشاحبة مثل الموت. تمزق جلد الجبهة، وثقبت الجمجمة، وكسا الدم وجهها. شحب أبي لرؤيتها وترنح. وأمسكوا به من ذراعيه.

انتهت العملية بنجاح، وتعافت تانيا. وكانت لبعض الوقت ندبة قبيحة على الجبهة، ولكن بعد ذلك نما الحاجب المحلوق مرة أخرى، وظلت ثنية ملحوظة تشبه التجاعيد.

تانيا، تمامًا مثل ماشا، تعيّن عليها ان تعاني الكثير من المصاعب في حياتها العائلية. كانتا سعيدتين مع أزواجهن، لكن كلاهما عانت من نفس المرض الذي لا يمكن تفسيره. حملن الأطفال حتى سن الشهر السابع، وأحيانًا حتى ثمانية أشهر وولدن أطفالا موتى.

ليس فقط الأخوات أنفسهن، وأزواجهن، لكننا جميعًا انتظرنا بألم نهاية حملهن. وكنا نخاف من الحديث عن ذلك، ونخاف من السؤال. ونتألم من القنوط، والكآبة اليائسة المرتسمة على وجوه الأخوات، خمنّا أن حركات الطفل تضعف، ثم توقفت تمامًا. ثم استحال الخوف على الطفل إلى القلق على الأخوات، والرعب من المعاناة العقيمة المنتظرة، والمحفوفة بالخطر على الحياة.

أتذكر أنني شعرت بألم جسدي عندما تخيلت الولادة، وفكرت مرتجفًة «لن أتزوج في يوم من الأيام، مقابل أي شيء، ولا لأجل أي شيء في العالم!»

مع زواج تانيا، أصبحنا أيتامًا أكثر. تتكون العائلة الآن في الأساس، من أبي وأمي وميشا وأنا. لكن ميشا، بعد أن قضى فترة خدمته كمتطوع في فوج سومي (ولم يتخرج من مؤسسة تعليمية) سرعان ما تزوج من جليبوفا، وهي فتاة رائعة كان يحبها منذ كان عمره حوالي أحد عشر عامًا.

لكن المنزل لم يكن فارغا. استمر نفس الصخب والضجيج، ولم ينقص عدد الخدم.

يختار الناس عادة أصدقائهم ومعارفهم حسب ذوقهم. لم يكن هذا هو الحال في عائلتنا. بفضل اسم والدي، غالبا ما سعى الأشخاص المغرورون الفارغون الدخول إلى منزلنا. تميزت عائلتنا بلين العريكة ووداعة الأخلاق. يظهر الشخص مرة، مرتين. لا يحبه الجميع، ولكن حين ما يكون في الحشد لا يعيره الناس له الانتباه. يستمر في ارتياد منزلنا بعناد، ويحاول تقديم خدمات ثانوية، ويتعود أهل الدار عليه تدريجياً، ويتوقفون عن التعامل معه بخجل، وفي بعض الأحيان، ينسون أنفسهم، ويتحدثون أمامه عن الأمور الشخصية والعائلية، ويعتبر نفسه من أهل البيت. وبعد بضع سنوات، يزعم أنه كان صديقًا مقربًا للعائلة، وأحيانًا لتولستوي نفسه، ويكتب مذكراته.

أعرف أن بعض الناس لديهم أسئلة جادة لأبي، مثيرة لاهتمامه كذلك، لكن بسبب حسن سلوكهم ولطفهم كانوا يخشون إزعاجه.

تعين علي، بعد سنوات عديدة من وفاة أبي، العمل على أرشيفه في متحف روميانتسيف. وكان يعمل معي أحد الكتاب. كان كثيرا ما يسألني باهتمام وحب عن أبي، ويعرب عن الأسف لعدم تمكنه من التحدث معه عن عدد من الأسئلة التي تعذبه.

وسألته:

ـ لماذا لم تأتوا إلى ياسنايا بوليانا؟

ورد علي:

ـ لقد كنتُ هناك، دخلت الضيعة من بوابة الدخول، وتحولت إلى الحديقة، وجلست على مقعد، جلست لعدة ساعات في تردد رهيب وغادرت. لم أجرؤ. وعندما حملني القطار بعيدًا عن ياسنايا بوليانا أجهشت في البكاء.

من بين «الأصدقاء» كانت هناك سيدة شابة، من أولئك الأشخاص الذين ظلوا في أعماق قلوبهم غير مبالين بأي شيء: لا بالموسيقى ولا

بالأدب ولا بالسياسة وحتى بالحب ـ ويحاولون بذل قصارى جهدهم إظهار مدى قوة إدراكهم لكل شيء. وفي الوقت نفسه، حتما يفقدون الإحساس بالتناسب ـ فضحكهم يظهر غيرَ طبيعي، والتعبير عن البهجة مبالغ فيه، وصاخب، ويشعر المرء بالاختناق في صحبتهم.

كانت لدى الفتاة ولع وشغف بالثروة والألقاب. وسمّت أمي بالكونتيسة ـ الأم، والأخت تانيا ـ الكونتيسة الأبنة، وسرعان ما أصبحت ضرورية لأمي. تذهب معها إلى محلات الخياطة، والتسوق، والمساعدة في التسوية مع عمال التعاونيات، وتصفح الصحف.

وغالبا ما قالت، وقد استوعبت نبرة الحديث مع والدتي من دون تكلف الأمر الذي أزعجني:

ـ لا، لا يمكنك حتى أن تتخيلي، يا الكونتيسة الأم، كم أنت شابة!، في عمرك، لا تجعّد واحداً ولا شعرة بيضاء واحدة!

الفتاة تعرف جيدا أن أمي تستخدم مادة لصبغ الشعر مما جعل شعرها أسود.

قالت أمي وهي تبتسم بسعادة غامرة، وتتلقى عبارات المجاملة على إنها حقيقة.

ـ ما تقولين؟!.

ـ بكل صراحه! وهذا الفستان يناسبك بشكل خاص!

يا ترى هل كانت إمي تثق بها من الصميم؟، وعندما يأتي تانييف، كانت تضفي الحيوية على المحادثة. وبصوت جهوري وانفعال تحدثت عن الحب، ونالت من سيرجي إيفانوفيتش قليلاً، وتغازلت معه بلطف.

كنت في كثير من الأحيان أرغب بان أقول لأمي بأنها كانت تتملق، وأنها مزيفة، لكن أمي عاملتها بحرارة، لدرجة أنني ترددت. لن تصدقني على أي حال. كنت صامتة، وكرهت بشدة هذه الشابة.

فقط بعد فترة طويلة، وبعد أن عرفت تصرفها المخزي، تأكدت أمي من أنني كنت أعرف منذ فترة طويلة.

لم أعد أتحمل المهمة الثقيلة ـ بالذهاب إلى الحفلات الموسيقية السيمفونية والرباعي. أكدت الفتاة لأمي أن الموسيقى كانت شغفها الكبير، وأن تانييف كان أعظم ملحن في العالم!

يوليا إيفانوفنا إيغومينوفا أيضًا علقت بالصدفة في منزلنا، لكن هذه كانت شخصًا مختلفًا تمامًا. كانت مفيدة للغاية لنا في الوقت الذي تزوجت فيه الأخوات، ولم أكن بعد في سن يكفي لمساعدة والدي. كانت يوليا إيفانوفنا صديقة تانيا وسولير في مدرسة الرسم. زارت ياسنايا بوليانا مع صديقتها، ورسمت لوحات بورتيه. وغادرت الصديقة، لكن يوليا إيفانوفنا بقيت معنا لسنوات عديدة. سمتها تانيا بجيولي، لكن الاسم الفرنسي لم يناسبها كثيرًا لدرجة أننا قمنا بتغييره على الفور إلى جولي، ثم جولي ـ مولي.

كانت لدى يوليا إيفانوفنا عادة تقليد شخص ما، بتكرار الكلمات التي يستعملها، واستبدال الحرف الساكن الأول بالحرف «م»؛ كلب ـ ملب، طبق ـ مبق، إلخ.

كانت جولي ـ مولي فتاة هادئة ودمثة الخلق ولكن تعتز بذاتها بوعي، وتضحك بلا انقطاع، وتكشر عن أسنانها الكبيرة التي تشبه أسنان الحصان، وتكشف لثتها، وتهز بشعرها القصير. لقد أحبت المزاح، وغنت بصوت باص ناعم الأغاني الشعبية الروسية الخفيفة، وأحبت أن ترسم الخيول بالطلاء الزيتي. كان بميسورها التحدث لساعات، وهي مستلقية على الأريكة الجلدية في الصالة بتمهل كسول، ولا أحد يعرف عن ماذا. أحيانًا كنت أضايقها.

ـ جولي، ارسمي صورتي!

ـ صورتك؟ حسبك! من يهتم بها؟

مر الزمن، ولاحت في الأفق أحداث جسيمة. ففي فبراير 1901، حرم المجمع المقدس أبي من الكنيسة. في ذلك الوقت بشكل خاص لجأت الحكومة إلى ممارسة العنف، وأثار تنفيذ عقوبة الإعدام، والنفي والرقابة، اكثر فاكثر استياء المجتمع. وكان الجواب على ذلك تصعيد التجمعات الطلابية، والاحتجاجات، وانتشار الأدب المحظور.

أفرحَ حرمان أبي من الكنيسة المثقفين الروس، حيث اتخذوه ذريعة للتعبير عن سخطهم على الحكومة، وانهالت علينا الرسائل والبرقيات والعناوين وحتى الهدايا من جميع الجهات. كان الطلاب والعمال والفلاحون ونخبة المثقفين وتلاميذ المدارس والنساء والسكان العاديون ـ في عجلة من أمرهم للتعبير عن إعجابهم وإخلاصهم لأبي. وانتشرت قصائد «الأسد(44) والحمير» و«الحمام» التي تسخر من الحكومة. وجرى إيقاف أبي في الشوارع، واستقباله بهتافات حماسية. وجاء الطلاب بأعداد كبيرة إلى منزلنا.

(44) ليف تعني بالروسية «الأسد».

ولو كان المجمع المقدس قد تنبأ مسبقا بنتائج قراره، فمن غير المرجح أن يتخذه.

كان الأب غير المؤمن بالكنيسة، غير مبالٍ تمامًا بقرار المجمع المقدس بحرمانه منها. لكن أمي التي تعتبر نفسها أرثوذكسية، شعرت بالإهانة. أعربت لكل من أراد الاستماع إليها عن استيائها من المجمع المقدس ورجال الدين، وبطبيعتها الحادة وسريعة الغضب، كتبت رسالة إلى المطران أنطونيوس.

أتذكر كيف قرأ ألكسندر نيكيفوروفيتش دوناييف هذه الرسالة بإعجاب شديد.

ـ أغبياء! صاح وهو يهز قبضتيه، حمقى! ألا يفهمون حقًا أنهم لا يستطيعون الإساءة إلى تولستوي!

اندلعت أعمال الشغب هنا وهناك. في سان بطرسبرج، وفي ساحة قازان، وضرب القوزاق الناس بالسياط. أوقفهم الأمير فيازيمسكي، الذي كان حاضرًا حينها، لكن تم إبعاده بوقاحة، وتلقى توبيخًا من القيصر على تصرفه. تأثر الأب بموقف فيازيمسكي وكتب له خطابًا وقع عليه الجميع.

بعد ذلك، أغلقت الحكومة اتحاد الكتاب الذي احتج على ضرب المتظاهرين في ساحة قازانسكايا، ومرة أخرى كتبوا البيان الذي وقع عليه الأب والمعارف، واستحوذ المزاج الثوري على الجميع. لكن ما أن رغبت في المشاركة في الصحوة العامة، حتى قالوا لي:

ـ لا تزالين صغيرة! لا قِبل لعقلك به!

حتى لم يسمحوا بكتابة العناوين، وفرّجت عن همي فقط مع ميشا سوخوتين، ربيب أختي تانيا، الذي يعيش في منزلنا، حيث تم إبعاده ايضا من كل الفعاليات. لم يُسمح لنا بتوقيع الخطاب إلى الأمير فيازيمسكي، وكتبنا خطابًا آخر متحمسًا، لكننا لم نجرؤ على إرساله.

أخيرًا، بعد انتهاء دروسنا، باشرنا في توزيع المطبوعات الممنوعة، ونسخنا باليد عدداً لا حصر له من المرات شعارات «الأسد والحمير» و«الحمام» ووزعناها على أصدقائنا مع نقش بأحرف كبيرة: «الرجاء التوزيع». حاولنا استنساخ مقالة الأب «الرد على المجمع المقدس» و«القيصر ومساعديه»، لكن تبين أنه عمل شاق لدرجة أنني استطعت استنساخ نسخة واحدة فقط من «الرد...» وأعطيتها لمعلمة التاريخ لتوزيعها.

بدأت أنا وميشا في البحث عن وسائل عمل أكثر إنتاجية، وما أن عاد ميشا من المدرسة، حتى أخبرني بصورة غامضة أنه حصل على جهاز هكتوغراف، وسيحضره عند حلول الظلام.

طوال المساء ضاقت الأرض بي. كلما أسمع الجرس اندفع كالسهم على طول الممر المظلم لأرى من جاء، وقلبي يخفق بقوة لدرجة أن صدري

يؤلمني.

جاء ميشا في وقت متأخر من المساء بصندوق، سحبناه بهدوء عبر غرفة المطعم إلى غرفته. وعندما آوى الجميع إلى الفراش، باشرنا بالعمل.
كان من الضروري إعادة كتابة المقالات بالحبر الهكتوغرافي، وتحضير نسخة أصلية على الجيلاتين، ثم طباعتها. لقد أفسدنا الأوراق الأولى، ولم يسر العمل على ما يرام، لكنه تحسن تدريجياً، وسارت الأمور على ما يرام. خرجت مرة واحدة نحو مائة نسخة، فقد عملنا عدة ليال، وطبعنا، كما أطلقنا عليه بشكل مهم، إصدار «الرد على المجمع المقدس»، وعدة طبعات من القصائد الهجائية، وبدأنا في نشر مقال «إلى القيصر ومساعديه»، لكننا فشلنا في الانتهاء منه. راقبنا أحد أفراد العائلة وأخبر أمي بأننا لا ننام في الليل، وربما نفعل شيئًا سيئًا.

كنا منهمكين للغاية بالعمل لدرجة أننا لم نسمع أن أحدًا اقترب من الباب ودفعه.

ـ ما الذي تفعلوه هنا؟

نظرنا حولنا. كانت أمي تقف على العتبة؟ وقد قطبت حاجبيتها، وزمت شفتيها، وعيناها تومضان غضبا.

ـ نحن... نحن... نطبع...

ـ ماذا؟

ـ نطبع.

حاول ميشا أن يتسم مظهره باللامبالاة، وطفق يقول إنه لا يسعنا إلا أن نشارك في القضية المشتركة للاحتجاج على المجمع المقدس، وأننا نريد نشر أفكار ليف نيكولايفيتش، إلخ. لكن والدتي قطبت حاجبيها بغضب اشد. بدا لي أن كل شيء ارتجف عندما انفجرت علينا بعاصفة من

غضبها... أرادت طرد ميشا من المنزل، وحبسي، والتخلص من جهاز الهكتوغراف.

صرخت بنا:

ـ كيف تجرؤان على المجيء بآلة الهكتوغراف إلى المنزل؟ وأنتما تعرفان أن هذا شيء ممنوع؟! وإذا فتشت السلطات وعثرت على هذا الرجس، فسيذهب الجميع، بسببكما، إلى السجن! ها؟

في صباح اليوم التالي، أخذ ميشا جهاز الهتكتوغراف، ومُنعتُ من دخول غرفته. لكننا أنقذنا «الرد على المجمع المقدس» من الدمار وأعطيناه لأبي لتوزيعه. لم يكن الأب غاضبًا، لكنه ضحك بلطف على محاولتنا في العمل السري.

شعرت أنني بلغت سن الرشد. حدث ذلك على النحو التالي: أخذتُ قلم رصاص من مكتب أمي في غرفة الضيوف، ونسيت أن أعيده إلى مكانه. غضبت أمي ووبختني، وأمسكت بكتفي وأرادت ضربي.

سخط كل كياني، واندفع الدم إلى رأسي.

ـ لا تجرئي، لا تجرئي! ـ صرخت بها، ولم أختبئ، بل بالعكس اقتربت منها وقدمت لها وجهي. ـ لا تجرئي! أتسمعين، لا أستطيع أن أضمن ضبط نفسي!

اندهشت أمي، وأسقطت يدها، وتراجعت عني.

قفزت واندفعت راكضة إلى الفناء، وكان الظلام قد خيّم على الحديقة. لا بد أنني بدوت غريبة، خرج اندري وأندريوشا وسيريوجا سوخوتين للبحث عني في الحديقة. سمعت أصواتهم لكني لم أرد. وعندما هدأت قليلاً وتعبت من الجلوس في الظلام، عدت إلى المنزل، وركضت إلى والدي عند الباب. قال لي شيئاً عن الغفران لكني لم أستمع إليه.

كررت له:

ـ لن أسمح، لن أسمح لنفسي أن أتعرض للضرب.

كنت واثقة من أن هذا هو أهم شيء، وليس ما قاله والدي.

ـ ليس الأمر هيّناً على والدتك نفسها، لابد من الغفران والمصالحة...

منذ ذلك الحين لم تعد أمي تضربني، لكن في بعض الأحيان كان من الصعب عليها ضبط نفسها. تأخرت الآنسة ويلش مربيتي في هذا العام من بدء تدريسي، وجاءت بدلها السيدة كوتينغ. مربوطة في مشد، والشعر الأشيب على جبينها، ويداها القصيرتان متشابكتين مع عروق

أرجوانية شفافة، أثارت السيدة كوتينج اشمئزازي بشكل فظيع. لم أطق رؤيتها، لقد أزعجني صوتها الخشن، والرغبة في أن تكون شابة، وخصرها الضيق ـ هذا كل شيء.

وفي إحدى المرات كانت العجوز متأثرة بشدة، وأخبرتني أنها في حالة حب، وأنها تريد حقًا العودة إلى بلدها في أسرع وقت ممكن، لأن خطيبها كان ينتظرها هناك. وبالكاد استطعت كبح جماح نفسي من الضحك. لقد بدا لي أمرًا لا يصدق أن امرأة عجوزاً (كانت تبلغ من العمر أربعين عامًا) يمكنها التفكير في العرسان والرومانسية، لكنني استمعت إليها بصبر ونظرت في كارت العريس ـ رجل ألماني عجوز ممتلئ مثلما لدى الإمبراطور فيلهلم.

وفجأة رغبت أن أضايقها. وسألتها بتحدٍ:

ما رايك يا مادام لو اني أيضا واقعة في الحب؟

جفلت السيدة كوتينج.

ـ أوه، أقول ما زال الوقت سابقاً لأوانه بالنسبة لكِ.

لكن انتابني الحماس، ولم أستطع التوقف. وأعلنت باحتفالية:

ـ مدموزيل كوتينج انني واقعة في الحب!

ـ حسنا، حسنا اروي لي!

لقد نسيت أنها كانت مربية، ومكلفة بمراقبة أخلاقياتي، وأخبرتها أنني أحب تلميذاً في المدرسة وهو يحبني أيضًا.

سألتني السيدة كوتتنج في رعب.

ـ وهل تبادلتِ القبل معه؟

أجبت بفخر:

ـ كلا، لقد أراد تقبيلي، لكنني رفضت.

هنا انتهى الحديث حول قصص الحب. عقب عدة أيام، وفيما أنا امر بجوار الغرفة المظلمة حيث أمي تقوم بتحميض الصور، نادت عليّ. وبعبارات قاسية للغاية، طفقت في تأنيبي:

ـ لا شيء يقال، تعطين آمالا واعدة، إذا كنت في الخامسة عشرة من العمر وتتبادلين القبل مع كل طائش، أنت فتاة رديئة وكريهة!

صرخت أمي، وراوحت بقدميها. كان الأمر مروعاً للغاية. وحاولت بين وقفات الصراخ أن أبرر موقفي:

ـ هذا ليس صحيحا يا أمي، أنا لم أتبادل القبل مع أحد!

لكن أمي لم تستمع، لقد فقدت السيطرة على نفسها تماما، لدرجة أنها كانت ستضربني. ولكن في تلك اللحظة، دخلت الخالة تاتيانا أندريفنا كوزمينسكايا(45)، التي كانت تزورنا.

(45) تاتيانا أندريفنا كوزمينسكايا (1846 ـ 1925) ـ أديبة وكاتبة مذكرات روسية، وهي أخت صوفيا أندريفنا زوجة ليف تولستوي. وقضت كوزمينسكايا معظم شبابها في كنف عائلة تولستوي، وكانت صديقة للكاتب، وغالبًا ما كانت ترافقه في نزهاته على الخيل أو الصيد، وساعدته في إعادة كتابة الفصول التالية من رواية «الحرب والسلام». وفقا لليف تولستوي، فأنها نموذج لشخصية ناتاشا روستوفا في رواية «الحرب والسلام».

وسألت:

ـ ما هذا الصراخ يا سونيا؟

وعلمت ما الأمر، فقالت بلهجة لا تسمح بالاعتراض:

ـ ينبغي التمعن في المسألة، سنسأل ساشا، ربما هذا غير صحيح. تعالي معي.

وتبعتها بسعادة.

ـ حسنًا، اجلسي، قولي الحقيقة كاملة، أتسمعين، فقط لا تكذبي، سأعرف ذلك على أي حال... سأتعرف عليه من عينيك، إذا قررت إخفاءه!

أخبرت خالتي عن روايتي. اهتم طالب مدرسة بي، وبدا لي ذلك بهيجا للغاية، وعندما وجدنا أنفسنا في إحدى المرات معًا، بدأ في العبث بالقلادة حول رقبتي. ابتعدت عنه وسألني: هل يمكن أن أقبّلك؟ وساورني الخوف منه، وقلت له كلا، وهربت منه.

سألتني الخالة.

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ كل شيء.

ـ مهلا، ماذا قلتِ للمادموزيل؟

ـ خالتي، قلت لها أقل مما قلته لك. إنها مقرفة، وحقيرة، عجوز كذابة! ـ صرخت بحرارة. ـ هي أول من أخبرني عن رجل سويسري تتأهب للزواج منه.

سألتني الخالة.

ـ أنت لا تكذبين؟

لقد طرحت هذا السؤال لتبرئة ضميرها، بقلبها الحساس والطيب، لقد فهمت تمامًا أنني كنت أقول الحقيقة. ركضت إلى الطابق العلوي لأمي

بمشية خفيفة، وهي تقفز قليلاً.

بعد ذلك تم ترحيل كوتينج. أصرت العمة على هذا.

ـ يا له من هراء ـ قالت ـ هي نفسها أخبرت ساشا عن رواية حبها، وبعد ذلك يعلم الرب ما قالت من الهراء الكثير عنها.

بقي في داخلي كدر مرير من هذه القصة، بدا لي أن أمي لم تصدقني.

ثم وصلت الآنسة ويلش العزيزة.

مرت خالتي على طوال حياتي شعاعًا ساطعًا ومشرقًا ـ من الطفولة المبكرة إلى آخر سنوات الثورة الصعبة، عندما كانت بالنسبة لي الشخص الوحيد القريب في ياسنايا ـ بوليانا!

في طفولتي المبكرة، كانت عائلة كوزمينسكي تأتي إلى ياسنايا ـ بوليانا في كل صيف. يكون الجو بحضورهم صاخبًا وممتعًا، وكانت عائلتهم كبيرة أيضا، تقريبا على غرار عائلتنا. الخالة هي المبادرة الأولى: مرة تدعونا لنذهب لجمع الفطر، ثم للسباحة، وأخرى للنزهات، ثم لتناول الغداء مع بعضنا البعض.

كنا نخاف من اشبيني الطويل والوسيم والمهيب، زوجها ألكسندر ميخائيلوفيتش كوزمينسكي، ولكن عشقنا الخالة، ودائما كان يتردد على السنتنا «الخالة سونيا»، «الخالة تانيا». وفي بعض الأحيان نضطرب في الكلام فندعو الخالة تانيا ماما، وأمي الخالة سونيا.

أحبت العمة أجواء الفرح والبهجة، وتخلصت بسخط من أي شيء لم يكن بهيجًا. كانت تكره المشاجرات والتطاحن والغضب ـ إنها تشوش على فرحها ـ وحاولت تسوية كل شيء في أسرع وقت ممكن. حالما يلتقي المتنازعون بها، تقوم بالتوفيق بينهم واضعة الكثير من الدفء في هذا، لدرجة أنها حققت هدفها دائمًا. لا تجامل الأطفال أبدا، فإذا

تشاجر أحدهم أو تعارك، تمسكه على الفور من الياقات وتضرب رؤوس بعضهم بالبعض الآخر، وتقول بغضب: «حسنًا، تبادلوا القبل يا سقط المتاع، يقولون لكم تبادلوا القبل!» وإذا لم ينجح هذا، فإنها ستصفعهم تحت الرقبة ليتصالحوا على جناح السرعة، وحينها سيكون المشهد مضحكا لحدٍّ يختفي الغضب بعده.

ذات مرة أصيب الابن الأصغر لخالتي، ميتيتشكا محبوبها، بمرض في المعدة، وكان عليه أن يتناول زيت الخروع. قالت له الخالة بمودة وتوسل وهي تقدم له زيت الخروع في كوب حوافه ملطخة بعصير الليمون:

ـ ميتيتشكا ـ ميتيتشكا، عزيزي، اشرب زيت الخروع.

«ـ كلا، كلا، كلا ـ قال بثقة غير صبيانية، وهو يلوح بيده على إيقاع كلا «لا».

وقالت له الخالة بشكل أكثر صرامة:

ـ ميتشكا اشرب زيت الخروع!

ردد ميتشكا بإصرار أكبر:

ـ كلا، كلا، كلا.

فأردفت الخالة بتهديد:

ـ ميتشكا اشرب زيت الخروع!

ترددت في صوت ميتشكا نبرة تقلب في الأهواء:

ـ كلا كلا كلا!.

ـ نعم نعم نعم! ـ صرخت الخالة وأعطت ميتشكا ثلاث صفعات على مؤخرة رأسه، وصبت كأسًا من زيت الخروع في حلق الصبي. ابتلعُ،

وجفلَ، واختنقَ، وحشرت الخالة ملعقة من مربى التوت في فمه لتحسين المذاق.

في بعض الأحيان، كان الضيوف يأتون إلى خالتي، وتعاملهم:

ـ كلوا، من فضلكم، كلوا، على أي حال سنرمي به للكلاب.

ولم ينزعج أحد، كان الجميع يضحكون.

أنا، للأسف، لا أتذكرها وهي شابة، لكني أتذكر أنها غنت بشكل لم يستطع أي شخص آخر في العالم أن يغني مثلها. نمت في غرفة الأطفال التي تبعد غرفتين عن الصالة. يأمروني بالذهاب للنوم، لكني أعلم أن عمتي ستغني، وأنا أنتظر. وها أنا اسمع أبي أو الأخ سيريوجا يعزف أول إيقاع موسيقي على البيانو.. أتسلل، وقلبي ينبض، إلى غرفة الضيوف في ثوب النوم.

أتذكر لحظة رائعة:

ظهرتْ أمامي...

أعرف كل نوطة، احبس أنفاسي، يبدو لي كل شيء حولي، بما في ذلك أنا نفسي، يكتسب معنى جديدًا خاصًا، ويحدث شيء غريب في داخلي، أشعر بقدرة جديدة، بقوة تنمو، تتضخم، تتعب...

انتهت الخالة. يبدو أنّ لا حاجة للمديح، والتعجب، لأنها تنتهك السحر. لكن هنا يبدأ من جديد الرومانس الذي يفضله أبي:

هل اسمع صوتك

الرنان والحنون

فالقلب مثل طائر

يقفز في القفص

وهل ألتقي بعينيك

عميقة الزرقة

والروح تهفو للقائهما

والصدر يتضرع

لهذا اشعر بالبهجة

وارغب في البكاء

وهل سأرتمي

إلى جيدك؟

ـ ممتاز، ممتاز! ـ يتردد صوت الأب ـ رائع!

أقف في ثوب النوم، وأنا أرتجف، وفي الداخل ينمو ويتوسع شيئًا لا أحسن التعبير عنه بالكلمات.

أتذكر القاعة المضيئة. تأخذ أمي والخالة بأيدي بعضهما، وتمسكان بتنانيرهما، وترقصان رقصة بولكا قديمة. إلى الأمام، إلى الخلف. تتباعدان، وتتقاربان مرة أخرى، كلتاهما مضرجة الخدود، وعيونهما تتوقد: الخالة رقيقة، نحيلة، ويشوه أمي البطن البارز قليلاً، لكنهما جميلتان في هذه اللحظة. عندما تتقطع أنفاسهما يجلسن، يشعرن بالخجل، بيد أنهما راضيتان، يجلسن، ويصفق الجميع.

أحيانًا كان الأب ينظر إلى خالتي، المتألقة جدًا والمرحة، ويقول:

ـ تانيا، ولكن سوف تموتين!

صرخت عليه بسخط:

ـ ما هذا الهراء! أبدا!

اعجب والدي بذلك، وضحك حتى البكاء.

بقيت الخالة وحيدة. تشتت الأطفال، ومات العم ساشا كوزمينسكي. بعد ثورة أكتوبر اقتحم العمال شقته في بطرسبورغ، وبدأوا يطالبونه بشيء ما... وقف بطول قامته الفارعة، وصرخ بصوت عالٍ وسقط فاقدًا للوعي. أصيب بنوبة قلبية. انتقلت الخالة إلى ياسنايا ـ بوليانا.

خلال السنوات الصعبة المروعة والجوع، عاشت في ياسنايا ـ بوليانا، وكانت العزاء الوحيد لي.

خالتي المدللة، التي اعتادت على عدم حرمان نفسها من أي شيء، راحت تأكل البنجر المخصص للحيوانات، وتفرح عندما تحصل على قطعة من اللحم أو الجبن. أصبحت نحيفة مثل بقايا جثة، حملتها بسهولة، وعندما ضعف قلبها، حملتها بين ذراعي إلى الطابق العلوي.

في بعض الأحيان، احصل على قهوة أو شوكولاتة في موسكو أو تولا، أحضرها لها، فتفرح كطفل. لقد حصلتُ لها على معاش تقاعدي قدره أربعين روبلًا، هي التي لم ترسل جزءاً منه لأبنها وحسب، بل وساعدته أيضًا من خلال المجيء بحفيدها إلى ياسنايا ـ بوليانا، وتربيته وفق منهج التربية القديمة، مع التركيز بشكل أساسي على تعلم اللغات.

كتبت خالتي في السنوات الأخيرة مذكراتها التي تُقرأ الآن باهتمام كبير، وقد صدرت منها طبعتان وتُترجم إلى لغات أخرى. لقد كتبتها على عجل، لأنها كانت تخشى أن تموت، قبل أن تنتهي من كتابتها.

في بعض الأحيان، أدخل عليها في غرفتها، فتبتسم بفرح شديد، وتدفع نظارتها إلى جبهتها وعيناها تلمعان، من الواضح أنها عاشت للتو في عالم آخر مضى منذ وقت طويل.

ـ هل ما زلت تكتبين يا خالتي؟ هل تتعبين جدا؟

قالت:

ـ لا، لا، لا شيء، وإلا سأموت قريباً، ولن انهيها.

كان لها من العمر خمسة وسبعين عامًا. في 12 يناير/ كانون الثاني (يوم عيد القديسة تاتيانا) كتبت لابنها أنها حزينة. اليوم هو يوم عيد اسمها، واختفت عن الجميع. لا توجد نقود، ولا شيء يمكن شراؤه. لكننا جميعًا تذكرنا تمامًا أنه يوم عيد اسم خالتي. غادرتُ في الصباح إلى المدينة وعدت ومعي الكثير من الأشياء اللذيذة. حضّرت الفطائر في المطبخ.

سألت العمة المرأة العجوز التي تساعدها.

ـ ما الذي يحدث في المطبخ؟

أجابت:

ـ لا شيء (أخبرنا العجوزعن سرنا) يا اندرفنا انهم يعدّون الغداء.

عادة كانت قاعة المتحف ميتة في المساء. ولكن هذه المرة كانت الطاولة مغطاة بفرش طاولة أبيض، وتم وضع سماور تولستوي القديم، والحلويات، والزهور، والفطائر، والفواكه، وحتى زجاجة خمر. تم وضع الهدايا على طاولة أخرى. أحضر جميع الموظفين بعض الأشياء: ورق رسائل، وكولونيا، وقهوة، وقطعة لحم بقري مشوي ـ كل ما يمكن أن يوجد في أوقات المجاعة. وعندما اجتمع الجميع، ذهبنا للبحث عن الخالة. كان الظلام يخيم على القاعة.

قالت:

ـ هذا مذهل، لقد دعوني ولم يكلفوا أنفسهم عناء إشعال النار!

في تلك اللحظة، أضيئت القاعة. اضطربت الخالة برؤيتنا جميعًا ونحن في فساتين أنيقة، وطاولة جاهزة، وهدايا، وانفجرت في البكاء، واندفعت

لتقبيل الجميع بدورها، وتشكرهم وركضت لترتدي فستانًا خفيفًا.

غنت ذلك المساء! رافقتها ابنة عمي إيلينا سيرجيفنا دينيسينكو. ارتجف صوت العمة، لم تستطع أداء بعض درجات السلم الموسيقي. خجلت وقلقت. في تلك الأماكن التي كان من الضروري فيها تسريع الوتيرة، ربتت على ظهر إيلينا سيرجيفنا ـ كانت قوة الحياة لا تزال هائلة فيها!

هل أسمع صوتك

الرنان والحنون...

لقد استمعت إليها ورغبت في البكاء. وعندما انتهت، عانقتها.

قلت لها:

ـ خالتي العزيزة، فقط لا تموتي! ماذا سأفعل من دونك؟

ـ كلا، كلا ـ هدأتني ـ كلا!

بعد أيام قليلة، عندما اجتمع الجميع في غرفة الطعام لتناول الغداء، جاءت خالتي وجلست بهدوء على الأريكة في انتظار أحد الموظفين الذي كان سيذهب إلى تولا. وفجأة قال أحدهم:

ـ ما حدث لتاتيانا أندريفنا؟

قفزتُ. مالت بهدوء على جنبها. أخذوها بين ذراعيهم وحملوها إلى الطابق العلوي، وكانت يدها اليمنى تتدلى بلا حياة، وانعقد لسانها.

بعد أيام قليلة ماتت.

وعندما حملنا التابوت من المنزل في ياسنايا ـ بوليانا، تدفقت الدموع على خدودي رغماً عني، تذكرت فجأة: «تانيا، لكنك ستموتين!» ـ «ولكن هذا هراء! أبدا!»

اعتراف

اقتربت من والدي لأول مرة عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري. أعتبر هذ الزمن بداية العلاقة الحميمة معه، وتزايدت على مر السنين.

كان الأسبوع السادس من الصوم. ترددت في جميع أنحاء موسكو نواقيس الكنائس، وكانت صلاة الليل التي استمرت طوال الليل قد انتهت للتو. وعلى الرغم من الصيام، يشعر المرء بشي ما احتفالي في الجو ـ في الجداول تخرّ بمحاذاة الأرصفة، وفي الأجراس المبهجة، وفي غروب الشمس التي تلقي انعكاساتها حمراء وصفراء على نوافذ المنزل.

خرجت من صلاة الليل من كنيسة صغيرة في شارع «بريتشستنكا» حيث أدت جوقة جميلة من الفتيات المكفوفات أغاني كنسية. لقد غنّين بشكل جيد جدا ، وخاصة واحدة منهن، ذات الشعر الأشقر والوجه الحزين. كان صوتها فظيعا بعض الشيء يتردد فيه الكثير من الحزن والكآبة.

في باكورة الشباب، غالبًا ما تكون لدى المرء حالة من الرقة المنفعلة، عندما يُخيل للمرء أنه يحب الجميع، وأنه بذاته طيب جدًا ، حَسن لدرجة أن الآخرين لا يمكنهم إلا أن يحبوه.

كان هذا هو الشعور الذي انتابني عندما غادرت الكنيسة. كنت اشعر بالخفة، والبهجة، وكل شيء بالداخل كان يغني ويفرح. وقفت بجواري في الكنيسة امرأة عجوز محدودبة رثة الثياب، ورأسها يرتعش. لقد قدمتُ لها خدمات صغيرة ـ وضعت بدلها الشموع على الأيقونات، وأحضرت لها كرسيًا ، وساعدتها في النزول من الدرج. انبعثت من عباءة العجوز السوداء الضاربة في الأخضر رائحة كريهة، ووقفت خلفها ، فشاهدت قملًا كبيرًا يزحف على شعرها الرمادي المصفر وفوق العباءة ـ «ومع ذلك، على الرغم من أنها قذرة للغاية ورائحتها كريهة، فأنا أحبها وأساعدها ـ فكرت، أنني تعاملت برقة زائدة مع نفسي ـ

غدًا يوم الجمعة سأذهب إلى الاعتراف وأتطهر من كل الخطايا».
وحاولت أن أتذكر ما يجب أن اندم عليه أمام الكاهن.

كنت أسير بسرعة في الشارع، وأطرق كعبي بصوت عالٍ على الرصيف الذي غدا جافا بالفعل، وبغتة قابلت والدي وجهاً لوجه. كان يمشي ببطء، بعصا، مرتديًا قبعة رمادية ناعمة ومعطفًا غير مزركش، كانت تُرى تحته بلوزة بيضاء من الكتان.

ـ من أين أنتِ قادمة؟ سألني.

ـ من الكنيسة.

استقرت عيناه الرمادية العميقة عليَّ لمدة دقيقة. لقد انكمشت داخليًا من هذه النظرة.

ـ لماذا ربطة العنق الحمراء الزاهية هذه عليك؟

لذت بالصمت.

ومرة أخرى تفرس بي باهتمام، كما لو كان ينظر في روحي، ومضى.

«لماذا ترتدين ربطة عنق حمراء زاهية؟ ـ كررتُ مع ذاتي. ـ أحمر ساطع، نعم، ساطع للغاية، غير محتشم، ربطة عنق سيئة.» ساورني الحزن، انقبض قلبي. «ربطة العنق سيئة، وهل أنا... جيد؟ لا، ليس جيدة، ليست جيدًا. مزيفة، غير صادقة.»

عدت إلى المنزل في تفكير عميق، كان جسدي ثقيلًا، وبدا قبيحًا ومحرجًا. شعرت بالاشمئزاز من نفسي وظللت أحاول فهم ما حدث. لم يكن هناك أي أثر لحالة النشوة والعطاء التي كنت فيها للتو. جلدتُ نفسي وعنّفتها، وانتقدت بشدة كل أفعالي وخبراتي. وقلت لنفسي: «حسنا، هل تعطين كل ما لديك للمرأة العجوز القذرة؟ كلا؟ فما تستحق رقتك ومغازلتك العاطفية؟»

في بعض الأحيان تجري في نفوسنا، وبصرف النظر عن رغبتنا، عمليات روحية معقدة خفية، وتكفي دفعة ناجمة عن حدث قليل الأهمية، حتى تسير الأفكار والمشاعر باتجاه مختلف... ربما هذا ما حدث لي. لم يعد بميسوري ان أتعامل ببساطة مع ما يحيط بي. لقد لاحظت كل شيء، وحللت كل شيء.

في مثل هذه الحالة المضطربة، ذهبت في اليوم التالي مع والدتي للاعتراف. بعد صلاة الغروب القصير، بدأ الكاهن في استدعاء أبناء الرعية للاعتراف. وقفنا وراء الجميع. كانت في المقدمة امرأة عجوز استندت على عصا، وانتقلت من قدم إلى أخرى، وتنهدت، ورأسها يهتز أكثر من المعتاد. يبدو أنها متعبة للغاية.

خرج الكاهن. وتقدمت المرأة العجوز إلى الأمام، لكن الكاهن تجول حول الجميع واقترب من والدتي.

قال، منحنيًا باحترام وفسح لنا الطريق لنمضي الى الأمام.

ـ تفضلي يا كونتيسة

تراجعت المرأة العجوز بطاعة.

فكرت بسخط.

ـ وهذا هو كاهن خادم الرب!

عندما ذهبت إلى الاعتراف، لم أعد أشعر أن الكاهن يمكن أن يطهّرني من خطاياي. رأيت فيه شخصًا عاديًا خاطئًا، مثل أي شخص آخر. شعرتُ بالاشمئزاز من الرد على أسئلته: هل وبخت أحداً؟ هل كذبتِ، هل استمعت للأكبر عمرا منكِ؟ «ما شأنه؟» ـ فكرت، وأجبت في المقاطع أحادية المقطع: خاطئة، يا أبتي، خاطئة.

لقد عدت إلى المنزل في حالة أكثر ارتباكًا. كانت تنتظرني هنا خيبة أمل كبيرة. عندما دخلت الغرفة، شعرت بالفراغ على الفور. نظرت إلى

القفص ـ كان فارغًا. أين ذهب ببغائي تشيج؟ كان أليفاً ومروّضاً، حلّق في أنحاء الغرفة، وغالبا ما أنشد أغنيته، وهو جاثم على كتفي أو على رأسي. أين هو؟

لم أجده في الغرفة. فذهبت إلى الخادمة لأسألها عما إذا كانت قد رأت تشيج. خلف الشاشات سمعت صوت قرمشة، القطة الرمادية ماشكا كانت تجلس على السرير وتخرخر بسعادة، وتأكل ما تبقى من تشيج، وكان بعض الريش الأصفر قد تناثر على البطانية.

أمسكت بعصا، ورحت أضرب القطة بجنون، واندفعت في أرجاء الغرفة بعد ذلك. كدت أقتلها لو لم تتمكن من التسلل عبر النافذة.

يتنفس الحقد، وينبض القلب بشكل أسرع، وفجأة تذكرت أنني قد اعترفت للتو. «هذا هراء، كل هذا هراء!» لكن تغلغل الألم الذي لا يطاق في روحي، فسقطت على وجهي على الوسادة، وانتحبت.

في اليوم التالي، البسوني ثوباً أبيض وذهبت أنا وأمي إلى الكنيسة لتلقي القربان. عندما دخلنا، كانت الكنيسة مكتظة بالناس. شقّقنا طريقنا إلى الأمام بصعوبة. بدأت الخدمة الطويلة المعتادة.

تابعتُ مجرى القداس باهتمام نقدي، ولفتُّ انتباهي إلى كل كلمة قالها الكاهن: مخارجه وحركاته وعباراته بصوت عالٍ وقراءته للإنجيل، حيث لا يمكن فهم أي شيء ـ كل شيء أثار شكوكي.

في كل هذا رأيت شيئًا خاطئًا، غير صادق. فكرت «هنا القربان، من يضع المزيد من النقود على الطبق، يستلم المزيد من الخمر والنبيذ».

وفي يوم سبت كان يوم أحد الشعانين، عندما نادتني والدتي للذهاب معها إلى الكنيسة، قلت إنني لن أذهب. لم تفهمني على الفور.

ـ لماذا ا؟ هل أنت متوعكة؟

ـ كلا، أنا بصحة جيدة، لكنني لن أذهب إلى الكنيسة بعد الآن.

ـ لكن لماذا؟

ـ لا أرغب. ليس هناك من ضرورة، كل شيء مزيف.

لقد صُدمت أمي لدرجة أنني لم أجد على الفور ما أجيب عليه. كان إعلاني بمثابة ضربة قاصمة لها. تشبعت البنتان الأكبر سناً مني بتعاليم والدهما، وابتعدتا عن الكنيسة منذ فترة طويلة. وحاولت والدتي ان تربي في داخلي الإيمان بالأرثوذكسية، وغالبًا ما كانت تأخذني إلى الكنيسة، وكانت تأمل ألا تنحرف على الأقل، اصغر بناتها، وتبقى أرثوذكسية. درّستني في طفولتي المبكرة بنفسها كتاب العهد القديم، وكانت سعيدة لأني أدرسه بشكل جيد، وقد استمتعتُ كثيرًا بقصص يوسف، وداود، والجالوت، ويونس الذي ابتلعه الحوت، على الرغم من أنني كنت أعرف أن والدي يعتبر العهد القديم حكايات خرافية لا يمكن تصديقها. أتذكر كان خلف السور العالٍ المجاور لمنزلنا حديقة مستشفى للمرضى نفسيا. وفي الوقت الذي كنت اجلس فيه على الجدار العالي وساقيّ تتأرجحان، أتفلسف مع المجانين في مواضيع دينية.

ـ ولكن أبي يقول أن العهد القديم هراء، وأعتقد أنه على حق. ولكنه يقول أيضًا أنه لا يجوز أكل اللحوم. أنا لا أؤمن بذلك، أعتقد أنه يمكن تناول اللحوم بقدر ما تريد.

نظر المرضى إليّ مبتسمين.

قال أحدهم:

ـ أنا أيضًا لا أؤمن بالرب.

أجبته:

ـ كلا، أنا أؤمن!

على ما يبدو، إن آراء والدي مست بشكل مبتذل وعيي الطفولي، لكن أمي لم تشك في ذلك. والآن بعد أن رفضت الذهاب إلى الكنيسة، قررت أن يتحدث والدي معي ليؤثر عليّ.

ذهب أمي على الفور إلى مكتبه لتطلعه على الموضوع. تحدثا لفترة طويلة. ونزلت من الطابق الأعلى وهي تحف بتنورتها الحريرية، وقد توقد خداها، واحمرت عيناها من الدموع. وقالت لي:

ـ والدك يدعوكِ.

ركضت إلى مكتب والدي.

كان يجلس إلى طاولة مستديرة في كرسي جلدي كبير، وفي يديه كتاب.

ـ لماذا تُغضبين والدتك؟

سألني، ونظر بعيني بصرامة واهتمام. ومرة أخرى، كما كان الحال مع سؤاله حول ربطة العنق الحمراء، شعرتُ أنه يرى ويفهم كل شيء.

ـ لماذا لا تريدين الذهاب الى الكنيسة؟

قلتُ له، وانا أشعر بالعبرات تصعد إلى حلقي.

ـ لا استطيع!

قال بهدوء:

ـ لا تبكي

لكني بكيت.

وأوضح لي:

ـ قبل ترك القديم، عليك أن تعرفي على وجه اليقين ما إذا كان لديك أي شيء جديد يمكنك استبداله. هل تمتلكيه؟

ـ لا اعرف.

ـ إذن لماذا تزعجي والدتكِ، ولا تذهبين معها إلى الكنيسة؟

صرخت من خلال العبرات التي خنقني.

ـ هناك كذب، وزيف لا غير، لا أستطيع!

أصبح وجه الأب أكثر نعومة، وغدت عينيه وادعتين ولطيفتين.

ـ إذن على هذا النحو. لا تبكي يا عزيزتي.

بعد ان شعرت بلطفه، أدركت أنه يجب أن أخبره بكل شيء. تلعثمت واختنقت، وتحدثت عن المكفوفين، وعن المرأة العجوز، وعن رقتي، ولماذا انتهى الأمر، وعن الكاهن، وعن تشيج الذي أكله القط.

بدا الأب قلقًا. لم يعد جالسًا، بل بات يتجول في الغرفة ويداه خلف حزامه، وراقبته وانا التقط تعابير وجهه.

سألني، وفي نفس الوقت القى عليّ نظرة كانت لها معانٍ متعددة، كما نظر لشخص راشد.

ـ ومع ذلك، اذهبي مع والدتك إلى الكنيسة اليوم، أليس كذلك؟.

فهمت نظرته.

ـ حسنا.

انحنى وقبل جبهتي. لمعت عيناه بالبهجة. ركضت بسرعة إلى الطابق السفلي، وارتديت ملابسي، وقد اندهشت وفرحت أمي عندما أبلغتها أنني أذهب إلى صلاة الليل.

منذ ذلك اليوم لم يعد أبي أبدا بالنسبة لي بعيد المنال، ولا غريبا.

القرم

بعد مرور عام، كان عليّ تأدية امتحانات أمام لجنة الامتحانات في المنطقة على أساس دروس المعلمة المنزلية. كنت خائفة من مادة «شريعة الرب» أكثر من أي شيء آخر. كان علي أن أعرف عن ظهر قلب التعاليم المسيحية بأكملها، والخدمة الدينية، لكنني لم أستطع حفظها. قالوا إنني ابنة شخص محروم من الكنيسة، وستكون أسألتهمِ لي صارمة، وسيتعنتون معي.

لكني كنت قلقة بلا داع. لم يتعين عليّ أداء الامتحان.

في صيف عام 1901، أصيب والدي بمرض خطير، وأصيب بحمى وذبحة صدرية. وفي ظل درجات حرارة منخفضة، وصل نبض القلب إلى مئة وخمسين. جاءت العائلة بأكملها. وتناوبت أمي وماشا على فترات الاعتناء به، وتم استدعاء الأطباء ـ شتشوروفسكي، وبيرتنسون، اللذين نصحا بالسفر إلى شبه جزيرة القرم.

بعد أن علمت الكونتيسة صوفيا فلاديميروفنا بانينا بقرار الأطباء، عرضت علينا الإقامة في منزلها في منطقة جاسبر على الضفة الجنوبية من القرم. كان الأب ضعيفًا جدًا، لدرجة أن أخذه للقرم كان مخيفًا. طلب أحد أتباعه، الذي خدم في السكة الحديد، من رؤسائه تزويد أبي بعربة مدير للرحلة. ذهبت مع أبي للقرم أمي والأخت ماشا مع زوجها و«ب» وهو احد الملتزمين بتعاليم أبي، وأنا. انضم لنا في مدينة «خاركوف» عازف البيانو جولدينفيزير، الذي كان يسعى بجدية لإرساء علاقات وثيقة بأبي، وذهب من المستخدمين في قطار آخر: الطباخ سيميون نيكولايفيتش، وإيليا فاسيليفيتش وخيّاطة الأم، والفتاة الشابة أولغا.

كان من المفترض ان يغادر قطار البريد محطة مدينة تولا في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وقطعنا مسافة سبعة عشر فيرستا(46) من الضيعة إلى المحطة بعربات تجرها الخيول. كان الظلام دامسا،

والطريق موحلة، وبشكل خاص كانت الطريق الريفية سيئَّة، ورافقنا الخادم فيليشكا بشعلة. ساءت حالة أبي بشدة في محطة سكة حديد تولا، بسبب الصخب والضجيج والتعب، لدرجة فكرنا في العودة إلى المنزل. لكن «ب» رأى بأنه سيكون من الجنون العودة، فعربة القطار ممتازة ومريحة، ومن المخيف التفكير بالسفر مرة أخرى بالعربات التي تجرها الخيول. اتضح أن عربة القطار كانت ممتازة حقًا، فلم يكن وحسب لكل منا مقصورة نوم خاصة به، ومغسلة، بل كان هناك صالون رائع به أرائك وثيرة وطاولة طعام كبيرة وبيانو. كان من الممكن حقا الاسترخاء هنا.

(46) هي وحدة روسية قديمة لقياس المسافة تساوي 1066.781 مترًا

في صباح اليوم التالي، عندما سافرنا عبر إقليم كورسك كان الجو دافئًا، وشعر أبي في الجنوب بتحسن حالته، وحاول العمل، لكنه لم يستطع. نظرت أنا وأختي ماشا من النوافذ وابتهجنا بمنظر الأكواخ البيضاء في وسط روسيا، وأشجار الحور الهرمية، والجبال الطباشيرية، وفي بعض الأحيان انضم إلينا والدي.

كنا ننوي تناول الغداء في محطة مدينة خاركوف، لكن عندما اقترب القطار من المحطة، رأينا على المنصة حشدًا ضخمًا من الناس، يتألف بأسره تقريبًا من الطلاب. خمنت على الفور أنه تم التحضير لاستقبال أبي، وأصبح الأمر مروعاً، ولمعت في خاطري، «لن يتحمل قلبه الضعيف الترحيب، والخطب والصخب!» ـ عدنا إلى داخل العربة، وأصبح من العبث التفكير بالغداء! وبالفعل اندفع الحشد إلى عربتنا.

شعر والدي بسعادة غامرة عند سماعه أن الطلاب ينوون الترحيب به، ويطلبون منه استقبال وفد منهم. انكمش، كما لو كان يريد الاختباء. ارتسم على وجهه تعبير المعاناة والقنوط تقريبا. وقف الوفد عند النافذة وانتظر. تعاطفتُ مع أبي، كان من الصعب علي أن أنظر إلى اضطرابه، وكنت أرغب في حمايته. اعتقدتُ أن لديهم فضولا بسيطا قد

يكلف الأب حياته. يبدو أن ماشا شاطرتني مشاعري هذه، لكن أمي و«ب» أصيبا بعدوى الإثارة العامة، فراحا يقنعان أبي باستقبال الوفد، ووافق الأب. لقد بذل جهوداً جبارة للرد على التحيات والتمنيات، ولم يكن هناك ما يمكن الحديث عنه. وبعد الوفد الأول، جاء الوفد الثاني، ودوى الحشد على الرصيف.

ـ اطلبوا من ليف نيكولايفيتش أن يطل من النافذة! ـ صرخ الطلاب ـ نتوسل لدقيقة!

أجبنا من العربة

ـ لا يستطيع، إنه مريض....

ـ في سبيل الرب، دعوه يظهر لدقيقة فقط...

قبل الجرس الثالث، ذهب والدي إلى النافذة. كان راسه حاسرا.

ـ فجأة رعد الحشد بعبارة الترحيب:

ـ اووووورا! يورا!!(47)

(47) يا هلا! ـ حرف نداء معبر عن الفرح أو الفرح أو صرخة معركة.

طفق القطار يغادر ببطء.

ـ تولستوي، ليف نيكولايفيتش! كن بصحة جيدة! رحلة سعيدة.

احتشد الطلاب ببعضهم البعض، متعلقين على الأعمدة، وركضوا على طول المنصة خلف القطار، لكن الحشد تضاءل تدريجياً، وفي النهاية اضطر حتى الأكثر عنادًا إلى التراجع.

مضى القطار في السير. كان الجميع متحمسين. مخط الأب. أعترف، إني شعرت بلسعة في أنفي أيضًا. ولكن كما كان متوقعًا، لم تذهب

المخاوف التي عاشها الأب سدى. ارتفعت درجة حرارته، وظهر قصور القلب مرة أخرى. في الصباح فقط، وعندما توجهنا إلى مدينة سيفاستوبول، شعر بتحسن.

هنا، في المحطة، تم الترحيب بوالدي مرة أخرى بحفاوة بالغة، ولكن أكثر تواضعًا من خاركوف. بدا لي أن المجموعة الصغيرة من الأشخاص الذين استقبلوا والدي كانوا فى الغالب من السيدات المسنات، ثم علمنا أن في سيفاستوبول التي وصلنا لها، احتشد جمع من المرحبين في المحطة لعدة أيام متتالية، وانتظروا وصول تولستوي، لكن الكثيرين لم ينتظروا.

بقينا في فندق كيستا الكبير الجميل على الشاطئ البديع. كان المزاج احتفاليًا، كما هو الحال عندما تجد نفسك، عقب هطول أمطار خريف وسط روسيا ووحل الطرقات بعدها، في أرض سحرية حيث يغمرك فجأة هواء البحر الدافئ، والسماء الزرقاء الغامقة، وسطوع الألوان والظلال المدهشة. كان الجميع يأمل في استعادة أبي لصحته في الجنوب.

ذهبت و«ب» على الفور إلى المدينة لشراء المؤن، وجلبنا عنقود أصفر مدخناً من العنب العاطر الناضج، كما لو أنه متعرق، ومجموعة من كعك التتار السميك برائحة العجين الحامض، وجميع أنواع الأشياء اللذيذة. كانت أمي مشغولة بإعداد العشاء وما يتعلق به.

لم يستطع الأب، أيضًا، الجلوس في المنزل، وذهب في نزهة مع «ب». ذهب إلى متحف سيفاستوبول(48)، وعاين المدينة وسأل الجميع عن مكان المعقل الرابع الذي قاتل فيه ذات مرة. أخبرنا (ب) أن الناس تعرفوا على أبي وانحنوا تحية له في كل مكان، حتى الشرطة قدمت له التحية.

(48) كان ليف تولستوي قد وصل1854 إلى سيفاستوبول، وشارك في الأعمال القتالية الناشبة في المدينة حينذاك. وكتب من وحي الحرب مع الدولة العثمانية قصة «سيفاستوبول».

بحلول المساء، كان والدي متعبًا، ليس من المشي الكثير، بقدر ما كان من الذكريات التي غمرته.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبنا في عربتين إلى منطقة «جاسبرا» على متن احدى العربات التي جرتها أربعة خيول، كان أبي وأمي و«ب» وأنا، وفي الثانية كان اوبولينسكي وجولدينفيزير. خلال سفرنا عبر المدينة كان أبي ينظر لما حوله باهتمام. وكرر بحزن:

ـ أوه، كيف تغير كل شيء، كيف تغير!

لم يستطع تحديد الموقع بأي شكل من الأشكال، وقد آلمه هذا، وأجهد ذاكرته محاولًا أن يتذكر أين مكان المعقل الرابع. سأل الحوذي عن هذا. وقال وهو يشاهد عدة بحارة بوجوه مفتوحة لوحتها الشمس يرتدون قمصان بيضاء ذات أطواق زرقاء، ويسيرون بشكل متناسق في الشارع:

ـ انهم جدعان! ـ ثم أضاف بهدوء: ـ وفكر فقط أنهم يعدونهم للذبح!

بدأ يتحدث عن أهوال الحرب، واندهش كيف كان بوسعه في يوم ما، ليس فقط المشاركة في الحرب، بل وأيضًا الولع فيها.

اجتزنا المرحلة الأولى من الطريق. أثناء تغيير الخيول في المحطة، تسلقت أنا و«ب» ووجولدينفيزير الجبل. بدا الجبل من أسفل صغيرًا، لكن عندما بدأنا في التسلق، أدركنا أنه لم يكن بهذه السهولة.

ـ على مهل، على مهل ـ أوقفنا «ب». ـ من دون الاعتياد، لا يمكنك صعود الجبال بهذه السرعة. يمكن أن تسوء حالة الإنسان.

لكن وجولدينفيزير ضحك ساخراً من هذا التحذير.

تخطانا بسرعة، وركض إلى اعلى الجبل. وعندما صعدنا إلى القمة، اصبح شاحبًا للغاية، وانتابه الغثيان.

بعد أن هبطنا، أخبرنا أبي عن هذا الحادث. هزّ الأب رأسه. وقال:

ـ طبع يهودي نمطي، الرغبة في أن يكون الأول في كل شيء.

وفي منطقة وادي بايدار، تركنا العربات في المحطة وذهبنا إلى بوابة بايدار الشهيرة(49). لم تصدق عيوني عندما انفتح الساحل الجنوبي الأخضر المليء بالشمس أمامنا من الأعلى. على اليسار، ترتفع صخور هائلة، ويضيء البحر اللامحدود من بعيد مثل الفضة ويتألق. لم تترك رؤية هذا المنظر انطباعًا قويًا عليّ وحسب، بل كان الجميع منشرحين. جلس الأب على حجر وراقب المشهد بصمت.

(49) بوابات البيدر، هي نصب تذكاري معماري تم بناؤه عام 1848 بمناسبة الانتهاء من بناء الطريق المؤدي إلى مدينة سيفاستوبل، وهو ممر فوق التلال الرئيسية لجبال القرم، المؤدية من وادي بيدر إلى الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم.

لكن كان علينا الإسراع، وطهي الغداء لأبي، والسفر حتى لا يداهمنا في الطريق غروب الشمس الخطير في شبه جزيرة القرم، والذي يعقبه انخفاض حاد في درجة الحرارة. بالقرب من الفندق وجدنا غرفة بها جهاز طبخ، فطهينا الغداء لوالدي بسرعة. وبعد الوقوف لمدة ساعة تقريبًا، وتناول الغداء، انطلقنا في هذا العالم الرائع الذي شاهدناه للتو من الأعلى. كان الطريق ينحدر في خطوط متعرجة شديدة الانحدار. انعطفت العربات بمرات لا نهاية لها، ومشيت أنا و(ب) عبر الدروب، وابتهجنا عندما تجاوزنا العربة. كنت طوال الطريق أتطلع للطبيعة، حتى أخيرًا تألمت عيني ورأسي ورقبتي. كان كل شيء غير عادي: قرى تتارية مع متاجر لا نهاية لها، حيث كانت تفوح منها رائحة الروث وشحم الضأن، والنساء التتار بقبعات الحملان المستديرة، وهن محجبات الرؤوس، وأظافرهن مصبوغة، والصخور الضخمة المعلقة على الطريق، والأهم من ذلك البحر والبحر...

وصلنا في وقت متأخر من المساء. استدرنا من الطريق السريع العلوي يمينًا إلى البوابة، وسرنا على طول طريق معبد بالحصى الصخرية إلى القصر البديع. أول ما لفت نظري هو الأبراج الدائرية، وقبة كنيسة المنزل، والنافورة القريبة من المنزل.

استقبلنا مستخدمو الكونتيسة بانينا بالخبز والملح، وتقدم الجميعَ مديرُ القصر، الألماني كارل كريستيانوفيتش كلاسين.

أثار بذخ القصر شعورا مزعجًا لدي. لم أعش في مثل هذا المنزل من قبل. كان الأمر محرجًا وغير مريح: عتبات نوافذه من الرخام، وأبوابه منحوتة، وأثاث الفخم باهظ الثمن، وهناك غرف كبيرة وطويلة. بدا المنزل قاتما بالنسبة لي. لكن عندما خرجنا إلى الشرفة العلوية وانفتحنا على البحر، كان الجميع سعداء. الشرفة السفلية، المتشابكة بالعنب، مع عناقيد إيزابيلا المعلقة الناضجة، كانت بديعة أيضًا.

في اليوم التالي وصل مستخدمو وخدم ضيعتنا على متن باخرة. وعلى الرغم من أن البحر كان هادئًا تمامًا، فقد أصيب الثلاثة بدوار البحر، وعانى السمين بينهم، بشكل خاص حتى أنه اجهش بالبكاء.

ـ حسنا، إلى إين جاءوا بنا، ـ قال في يأس ـ أي بلد هذا! من اليسار البحر، ومن اليمين الجبال، إلى أين المفر!

كان إيليا فاسيليفيتش غير مرتاح أيضًا. وعلى الرغم من أن وجهه احتفظ بالتعبير المعتاد عن الاستسلام للقدر، إلا أنه كان أكثر شحوبًا وغمّا من أي وقت مضى. وجدت أولغا الخياطة قبل الجميع سلوتها، فقد تعرفت على الفور على الإدلاء التتار الوسيمين، وتمتعت بحياة مليئة بكافة أشكال المغامرات والروايات الشيقة.

عندما كان أحدنا منشرحا جدًا، ثم طفق يحتد، صار في عائلتنا يطلق عليه animal spiritus(50). لذا فقد استولت علينا هذه «الأرواح الحيوانية» في الأيام الأولى من إقامتنا في القرم. التولستوي الموقر بالضبط فقد عقله. استأجر الخيول، ورحنا نتجول في المناطق المحيطة،

وذهبنا في نزهة. أتذكر معرفتي الوثيقة بالبحر. نزلت و«ب» واوبولينسكي، إلى الشاطئ. كان الأمواج مضطربة قليلا عند الشاطئ. ضربت الأمواج، التي كانت تنشق وتزبد، الصخورَ وغمرتها بالماء. كان هذا رائعًا، لكنني كنت ارغب بلمسه، وأشعر به. نزلت إلى الأسفل وغسلت وجهي ويدي وغرغرت فمي، لكن هذا لم يكن كافيًا. لذلك صعدت على حجر كبير واستلقيت متمددة عليه. ماشا، التي أصابتها عدوى انشراحي، اقتربت أيضًا. اجتاحتنا موجة كبيرة من الرأس إلى أخمص القدمين. خلعنا ثيابنا، وعلقناها حتى تجف، ورأينا فجأة أن فوقنا يقف جنرال وهو متكئ بمرفقيه على درابزين الجدار الحجري، وينظر إلينا بازدراء سافر.

(50) روح الحيوان (لاتينية).

كان الوقت الذي أمضيناه في البداية بالقرم طيبا! وتدريجيا، عاد كل شيء إلى مجراه. كان والدي يتعافى، وبدأ العمل، ورتّب اليوم بنفس الطريقة كما في ياسنايا ـ بوليانا، إلا أنه استيقظ مبكرًا وذهب إلى الفراش مبكرًا. كانت الأخت ماشا تدوّن له، لكن تعيّن عليها الانتقال إلى يالطا لتلقي العلاج، وكانت قلقة من عدم وجود من يحل محلها.

ـ حسنًا، ساشا، ـ قالت لي ذات مرة، ـ الآن أنت راشدة (لقد تجاوزت السابعة عشر عامًا للتو)، وحان الوقت للشروع في إعادة كتابة نصوص أبيك.

جاءت لي بعدة صفحات كتبها بقلمه، وكان المساء قد حل. لقد سررت، وأردت إثبات أنني أستطيع القيام بالمهمة. عند وصولي إلى غرفتي، طويت الصفحة إلى أرباع، وقطعتها، وثنيتها على الجانب الأيمن من الهامش، ووضعت سنًا جديدًا في القلم، وفتحت المخطوطة. وكما أتذكر مظهرها جيدًا، فقد كانت أرباع ورق مليئة بالكتابة، طولا وعرضا، ومشطوبة، مع حواشٍ بين السطور، وفي الهوامش، والظهر، مع كلمات غير مكتملة...

من اللافت أن الجانب الخارجي من المخطوطة استحوذ على انتباهي، لدرجة أنني لم أتذكر محتواها. أتذكر فقط أنها تضمنت مقالاً عن الدين. تدريجيًا، استحالت حالة النشوة التي شعرت بها إلى قلق، ثم قنوط. الساعة تمر، وحان الليل. أكتب بضع كلمات ثم أحللها، وكلما جلست لفترة أطول، أصبح تضبب رأسي أكثر. ليست الكلمات فقط هي ما لا استطيع أن أميزها، بل الحروف أيضا. بدأت أخمن الكلمات، فظهر هراء، ولم تعد عيناي تبصران، واندمجت الخطوط. حاولت تأجيل العمل والقراءة بسرعة ـ ومرة أخرى لا شيء. بعد مضي عدة أسابيع، أدركت أنني لست بحاجة إلى التركيز على أحرف منفردة، بل يجب فهم المعنى الرئيسي للعبارة، وعندها فقط أصبحت الكلمات والحروف مفهومة. لكن من أجل هذا كان من الضروري العمل بمثابرة لفترة طويلة.

لقد حان الصباح، وبحلول الساعة الثامنة، كان من المفترض أن تكون المراسلات على مكتب والدي، وكان في يدي عمل فظيع يرثى له،، لدرجة أن حمله كان مخيفًا. توجد في كل صفحة فجوات، وكلمات غير مكتملة، وخطوط ملتوية، وحروف عالية وحادة، وهناك مساحة صغيرة للتصحيحات بين السطور. عندما حملت المراسلات إلى أبي، ضحك ووضعها جانبًا، وتركته في يأس كامل، مع إدراكي بأني لا أصلح لأي شيء، ولن أتعلم أبدًا مساعدته!

كنت أحسد ماشا، التي كتبت بكل ثقة بأحرف صغيرة ومستديرة ومميزة، ومستوية، ودقيقة، بالضبط كالمطبوعة، وفهمَت خطّ والدي تمامًا. لكن بالتدريج بدأت أعتاد على ذلك. ملأ هذا العمل حياتي، ولم أعد أشعر بأني عديمة الفائدة.

زار والدي هذا الصيف العديد من الكتاب: تشيخوف وغوركي وسكيتاليتس وإلباتيفسكي وبالمونت وآخرين.

كان انطون تشيخوف قد زار والدي في موسكو، لكنني رأيته هنا لأول مرة. لقد جاء يتكأ على عصا، منحنياً قليلاً، خجولاً وجادا، وكان يسعل

باستمرار سعالاً قصيراً وخافتاً، وكان من الواضح أنه مريض بشكل خطير، وتوقدت خداه الغائرتان حمرة ربما بسبب الإثارة، أو ربما من المرض. جلس تشيخوف مع والدي في الشرفة السفلى، وكان الحديث يدور حول الأدب. أعرف أن والدي كان يحترم تشيخوف، وربما كان من السهل عليه أكثر أن يكون مع أنطون بافلوفيتش. كان بميسوره أن يبدي له رأيه بصدد كتاباته بشكل مباشر وصريح، وكان يعلم أن تشيخوف لن ينزعج وسيفهمه. في هذه المرة أو بعد ذلك، حاول أبي إقناع تشيخوف بعدم كتابة أعمال مسرحية، وأعجب بقصصه. أثار تشيخوف إعجابنا جميعًا، بالجدية، والبساطة، والسحر، والافتتان الداخلي.

في الوقت نفسه، غالبًا ما كان يأتي مكسيم غوركي. كان منفيا في القرم، وعاش على بعد ميلين على شاطئ البحر في منطقة أوليز. بدا غوركي دائما غريبا بالنسبة لي. بدا لي أن والدي لا يمكن أن يكون معه ـ حقيقيا ولا صادقا حتى النهاية. بلى، وغوركي نفسه لم يكن حقيقياً، ارتبكً وتهيبً أمام أبي. رأيت غوركي بين أصدقائه وعائلته. وفي كثير من الأحيان، كنا انا ويوليا إيفانوفنا إيغومنوفا وإخوتي نلعب معهه في الهوركي (لعبة الخمسة أوتاد). بصحبة والدي اختفت منه الجلافة والفظاظة التي يتميز بها.

مثال على هذا التكلف هو المشهد الذي وصفه الدكتور فولكوف في مذكراته:

«ذات مرة، في حضوري، أشاد ليف نيكولايفيتش أمام غوركي برواية «الفلاح» التي كتبها بولينيتس، وتأثر بشكل خاص بالصدق الفني للمشهد الذي تقوم الزوجة التي ضربها زوجها المخمور، بوضعه بعناية في السرير، ودس الوسائد تحت رأسه...

لم يقل غوركي شيئًا... وعندما عدنا معه، قال:

«تضع وسادة تحت رأسه! كان يجب تحطيم رأسه بهراوة!»

أتذكر أن سكيتاليتس جاء بعد ذلك بفترة طويلة مع غوركي وشَليابين. كان هناك تشابه مذهل في مظهر سكيتاليتس الخارجي وغوركي. ذات البلوزة المربوطة بحزام، شعر طويل مفرود رماه بهزة حادة من رأسه، وبنفس الخشونة والبساطة في الأخلاق. قال الاخوة إن سكيتاليتس يعزف على القيثارة ويغني بشكل رائع. لكن يبدو أن أغانيه، تمامًا مثل نكات شاليابين وخفة دمها، لا يمكن سماعها إلا في دائرة الرجال وأثناء تناول كأس من النبيذ.

جاء الشاعر قسطنطين بالمونت عدة مرات. بالطبع لم يستطع والدي قبول شعره، ومن غير المحتمل أن يكون اللقاء مع الشاعر قد أسعده كثيرًا. كان دائما محرجا من التعبير عن رأيه للكتّاب بوجهة نظره، علما أنه يعرف أن كلمته كانت ذات أهمية كبيرة لهم. ولكن، على ما يبدو، كان من الصعب إرباك بالمونت. إليك كيف يتحدث بنفسه عن هذا الاجتماع:

«قرأت له «رائحة الشمس»، وهو يهتز برفق في كرسيه، ضاحكًا صامتًا وقال: «أوه، يا له من هراء! «رائحة الشمس... أوه، يا له من هراء!» ذكرته بسخرية مشحونة بالاحترام، أنه في الصور التي يرسمها لغابة الربيع تختلط أصوات الصباح مع الروائح والزهور. لقد قبل حجتي إلى حد ما وطلب مني قراءة شيء آخر. قرأت له: «أنا في بلد دائمًا يرتدي الزي الأبيض». وتظاهر ليف نيكولايفيتش بأنه لا يحب هذه القصيدة على الإطلاق.

غالبًا ما جاء سيرجي ياكوفليفيتش إلباتيفسكي من يالطا، وعلى الرغم من أنه كان في هذه الأثناء كاتبًا أكثر من كونه طبيبًا، أتذكر أنه شارك عدة مرات في الاستشارات أثناء مرض والدي.

جاء سيرجينكو، الذي بحد ذاته هو غير مثير للاهتمام، ولكنه حاول دائمًا مفاجأة والدي بشيء ما. ذات مرة حصل على سيارة من مكان ما: وكانت السيارات قد ظهرت للتو في روسيا في ذلك الوقت. شعرت والدتي بالقلق الشديد من اهتمام أبي بالسيارة. وذهب في جولة بالسيارة مع سيرجينكو.

زار عضو قيادة الحزب الديمقراطي الدستوري الشهير ايفان بترونكيفيتش الذي كان يقيم في القرم والدي، ودار الحديث بينهما بصدد السياسة. أتذكر الكلمات التي قالها والدي بعد هذا الاجتماع:

ـ حسنًا، كيف لا يفهمون أن الوضع لن يتغير بتغير الحكومة. فهل ستتحسن الحياة لأنه سيحكم بترونكيفيتش بدلاً من نيكولاس الثاني؟!»

الجميع من دون استثناء أحبوا كارل خريستيانوفيتش كلاسين ناظر ممتلكات الكونتيسة بانينا. لقد كان رجلاً عجوزًا وديعا ولطيفًا، وحاول إرضاء الجميع. كان يعيش في أحد الأجنحة مع أمه العجوز وكلبين من سلالة غير محددة. أرسل لنا كارل خريستيانوفيتش كل صباح من كرومه الخاصة سلة من العنب العاطر الرائع من أصناف مختلفة، ومن بستانه التفاح والكمثرى. كان يستفسر كل يوم عن صحة والدي، وإذا اخبروه بان حالته سيئة يشعر بالحزن، وكأنه مذنب بان حبيبه القرم لا يساعد المريض، ويرنو بعينيه الزرقاوين للسماء ويقول بحسرة:

ـ وأسفاه، يا للفظاعة، يا للفظاعة.

كان حاذقا في لعبة بطاقة المسمار. اقترح أحدهم أن يلعب والدي الورق بدلاً من الراحة. شارك في اللعب ابولينسكي وسوخوتين وكلاسين و«ب» عندما كان يأتي من موسكو، وفي بعض الأحيان ينقص شريك رابع فيدعونني للجلوس معهم. تعلمت هذه اللعبة بسرعة وكنت فخورة بقبول الكبار ان ألعب معهم لعب الجميع، كلّ على طريقته الخاصة. لعب «ب» ببراعة وذكاء، ولكن دائمًا ما كان يخاطر بشكل غير متوقع وبصعوبة، ولعب والدي بشكل سيئ، ونسي عد الأوراق الرابحة، وعيّن أكثر مما يستطيع اللعب، وتم احتواؤه، ونادرًا ما كان يفوز. لعب كارل كريستيانوفيتش أفضل الجميع، لقد عيّن اللعبة فقط عندما كان متأكدًا تمامًا من أنه سيربح، لكنه في الغالب كان يربك الآخرين. يضغط الورق على صدره، ويميل رأسه إلى جانب واحد، ويضيّق عينيه وينتظر، وإذا اخفى خصومه أوراقهم، فإن ابتسامة تلوح على وجهه اللطيف ـ الخشن، ولكن إذا خاطر شريكه زفر وهمس:

ـ فظيع...فظيع.

فقط غفر لوالدي لعبَه غير الماهر.

كانت بجوار منطقة جاسبرا ضيعة الامير الأكبر نيكولاي ميخائيلوفيتش. حرس الخفر بوابة الضيعة، ومُنع دخول الغرباء. ولاح أن عالما آخر كان خلف هذه الجدران، وكان الدوق الأكبر، من وجهة نظرنا، بعيد المنال وغريبًا. كم كانت دهشتنا عندما طلب الأمير الأكبر نيكولاي ميخائيلوفيتش الإذن للالتقاء بأبي. وافق الأب، وجرى اللقاء وجهاً لوجه. ترك الدوق الأكبر انطباعًا على والدي، أفضل مما كان يتوقعه.

قال:

ـ غريب، وما حاجته مني؟ تحدث عن حياته، وطلب الإذن بالمجيء مرة أخرى. لكن الرجل بسيط، ويبدو أنه ليس غبيًا.

بعد ذلك بوقت طويل، في الوقت الذي سلمني والدي أوراقا للحفظ تركها له الأمير الأكبر، روى إن نيكولاي ميخائيلوفيتش تناصح معه بشأن حبه لإحدى السيدات...

وبالمناسبة، سأل الدوق الأكبر خلال المحادثة مع أبي: أية خدمة يمكن أن يقدمها له، وأخبرهُ ألا مانع من التنزه في ضيعته، وقال إنه سيعطي الأمر لموظفيه، وأظهر لوالدي الطريق المؤدي إلى الحديقة في الممر عبر الجدار، خلف حديقة جاسبرينسكي.

ومنذ ذلك الحين، كان والدي غالبا ما كان يتنزه في آي ـ تودورا. كان هناك «طريق القيصر» المذهل، أو كما سماه والدي، «الطريق الأفقي» الذي يمكن الوصول من خلالها الى يالطا دون صعود مرتفعات. وأحيانًا يذهب الأب إلى البحر. كان من السهل النزول، ولكن الصعود بقلب ضعيف كان ضارًا. احتفظت أمي بعربة مستأجرة مع اثنين من الخيول والحوذي دمث الخلق مصطفى عمر، لكن والدي لم يرغب أبدًا في استخدام العربة وفضّل المشي، وفي مناسبات نادرة ركب الحصان

الرمادي القديم لكارل كريستيانوفيتش، وكثيرا ما كان يتعب قلبه بتسلق الجبال. كانت نزهات أبي هي المصدر المعتاد لقلق أمي، التي تكره الجنوب عمومًا، وتشعر بالملل، وبغض النظر عما يحدث، تلقي باللوم على شبه جزيرة القرم بأكملها.

أتذكر أنني عدت لتوي من قمة آيـ بيتري التي توجهنا لها في الصباح الباكر، وكنا متعبين وجائعين، وقد حل المساء. وجدنا إمي في حالة قلق بالغ. واتضح أن والدي ذهب منذ فترة طويلة في نزهة، ولم يعد في الوقت المحدد. كانت أمي خائفة من حدوث شيء له، ولم يكن هناك من ترسله للبحث عنه. اختفى التعب، واندفعنا في كل الاتجاهات للبحث عن والدي. ركضتُ إلى البحر ولم أجده، وعندما عدت، كان في المنزل.

نشأت علاقة غريبة بيني وبين «ب». كان يكبرني بعشرين عامًا، وكان... تقريبًا تولستوييا (يتبع تعاليم تولستوي)، ولكن شيء ما منعني من وصفه بالتولستويي الحقيقي. كان شغوفا بالمشروبات الروحية، ولعب الورق. كان يتصرف معي كشاب. ركب الخيل، وبادر للقيام بالتنزه، وابتهج، ومازح، وكنت ممتنًة له، لأنه حاول بكل طريقة ممكنة أن يقربني من والدي وساعدني في كتابة المراسلات، وأشار إلى ماذا وكيف عليّ أن أفعل. اعتدُت على ذلك وعاملته بثقة.

ذات مرة سمعت محادثة بين والدي وأولغا زوجة أخي، ما جعلني أشعر بالحزن لبعض الوقت، لكن سرعان ما نسيتها ولم أتذكرها إلا بعد ذلك بكثير.

سأل الأب وهو يشير لي وإلى «ب»،

ـ هل تلاحظين؟

أردفت أولغا بنبرة كثيرة المعاني.

ـ نعم...

ـ ولكن فكري ـ قال الأب ـ رجل جاد وكبير في السن ومع ذلك ضعف...

أتذكر إحدى زيارات «ب» للقرم، فقد ذهبنا كالعادة في نزهة. أخذنا حزمة من الخبز والعنب معنا، وذهبنا سيرًا على الأقدام إلى بلدة «ألوبكا». مشينا كثيرًا في الحدائق، وتوغلنا في الفوضى حيث راكمت الطبيعة بشكل غريب أكوامًا غير مألوفة من الحجر الرمادي، وعدنا إلى المنزل على الطريق الساحلي. صعدنا إلى جاسبر ليس عبر الطريق العمومي الممهد المألوف ـ بل في خط مستقيم من خلال الصخور والأشجار، كنا نلهث فجلسنا في مرج للراحة. لقد كان الجو حاراً، واحترق العشب بأسره، وبدا أن الشمس قد سَخَّنَت الأرض التي تفوح منها رائحة النعناع. استلقيتُ على العشب ونظرت إلى الأزهار الزرقاء التي ارتفعت درجة حرارتها في الشمس، ففاحت برائحة زكية. وفجأة شعرت بالحرج لسبب ما. رفعت رأسي واصطدمت بعيني «ب». نظر إلي بطريقة غريبة، وغير عادية. بدا لي أن عكارة غشت نظرته.

انتابني الخوف وقفزت على قدمي.

وصرخ بي:

ـ إلى أين انتم؟

ـ انتظروا، في سبيل الرب، علي أن، أن أقول لكم.

صرختُ واندفعتُ إلى أعلى التل دون النظر إلى الوراء.

ـ لا لا لا، ليس هناك دا ع!

خشخشت الحجارة الممزقة خلف ظهري، وكان بإمكاني سماع تنفس «ب» المتقطع، ركض ورائي طوال الطريق إلى القصر.

لم أهدأ إلا عندما أصبحت في الساحة أمام المنزل. كان الأب يتناول الإفطار.

وسألني:

ـ ما خطبك؟ لماذا أنت تلهثين على هذا النحو؟

أجبت وركضت إلى غرفتي.

ـ مشيت بسرعة

كان مزاجي مقرفا.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، ساءت علاقتي مع (ب)؛ فلم تعد تنطوي على تلك البساطة والوضوح كما كانت من قبل.

عاشت ماشا في يالطا، وجاءت تانيا مع زوجها وأبناء زوجها ـ ناتاشا ودوريك. استقروا في الجناح. كانت تانيا حاملا وتتنظر طفلًا، ولكن الطفل ولد ميتا هذه المرة كما كان من قبل، حزن الجميع. حاول الأب أن يواسي ابنته بمداعبة لطيفة. ما تزال حياة الأخوات وأفراحهن وأحزانهن قريبة من قلبه، وقد بدّدن وحدته كما في السابق.

في ذلك الوقت، ما زلت لا أعرف كيفية الاقتراب من والدي. لقد أعاق خجلي هذا جزئيًا، وجزئيًا بسبب ان عمري سبعة عشر عامًا. كنت شغوفة بركوب الخيل، والعروض المسرحية، والحفلات الموسيقية وجوقة عازفي البالاليكا الذين ذهبت معهم إلى البحر. عاشت «نادية ميم» في ذلك الوقت في يالطا، وزرتها، وامتطينا ظهور الخيل في جماعات كبيرة. وفي بعض الأحيان كان في ضيافتنا الكثير من الشباب، وكان الأمر ممتعًا.

أتذكر أن معلما كان يعيش مع عائلة مدرسة سوخوتين: شاب ضئيل أعرج. عندما كان طفلاً، كان مصابًا بالتهاب الدودة، وكانت إحدى ساقيه أقصر من الأخرى. لقد جاهد من أجل المشي معنا، ونسينا عرجه، وسرنا بسرعة كبيرة. كان متعبًا، ووجهه مغطى بالبقع الحمراء، والعرق يتدفق على وجهه المنهك، وهرع وراءنا، وسحب ساقه الأقصر.

أشفقت عليه، وتخلفت عن الركب، وبشكل غير محسوس جعلت الآخرين يخففون خطواتهم. وسواء شعر بلطف في داخلي، أو لأسباب أخرى، فقد تعلق بي.

لم اقف طويلا عند كل شيء عاشه والدي في ذلك الوقت ومر بي مرور الكرام، فلم يكن في ميسوري فهم الجوهر الحقيقي لفهمه للحياة. لقد قرأت للتو الحرب والسلام، لقد كان حدثًا كبيراً في حياتي. قرأت وأعدت قراءة الكتاب، فقد كان أوضح وأكثر سهولة بالنسبة لي من مقال والدي «في الدين»، الذي كان يكتبه في ذلك الوقت.

ظللت مفتونة بجوانب محددة من أنشطة والدي: التحدث علانية ضد الكنيسة والحكومة. وعندما قرأت رسالة والدي الثانية إلى القيصر، أثّرت بشدة على مخيلتي، وحلمت كيف سيتلقى القيصر الخطاب، ويدعو والدي ويتحدث معه، وبعد ذلك سيتغير كل شيء في روسيا. لم يكن لدي أدنى شك في أن القيصر، بعد أن يتلقى الرسالة، سيفهم ما هو قوي وجريء فيها. كنت أشك فقط في أن الرسالة ستصل إلى جهتها.

«لم أكن أريد أن أموت دون أن أخبركم برأي في نشاطكم الحالي وما يمكن أن يكون عليه، وما الفائدة العظيمة التي يمكن أن يجلبها لملايين الأشخاص ولكم، وما الضرر الذي يمكن أن يجلبه للناس ولكم، فإذا استمر الوضع في نفس الاتجاه الذي يسير فيه الآن»، كتب الأب إلى القيصر.

«الأوتوقراطية هي شكل من أشكال الحكم عفا عليه الزمن، ويمكن أن تلبي متطلبات الناس في مكان ما في وسط أفريقيا، البعيدة عن العالم بأسره، ولكن ليس متطلبات الشعب الروسي الذي يتنامى أكثر فأكثر بالتنوير المشترك مع العالم بأسره، وبالتالي أن دعم هذا الشكل من الحكم، المرتبط بالأرثوذكسية ممكن فقط، كما هو الحال الآن، من خلال ممارسة كافة أشكال العنف، وزيادة قوة الحماية، والنفي الإداري، والإعدام، والاضطهاد الديني، وحظر الكتب والصحف، وتحريف التعليم، وبشكل عام، جميع أنواع الأعمال السيئة والقاسية.

وكانت هذه هي أساليب عهدكم حتى الآن، بدءًا من رد وفد إقليم «تفير»، الذي أثار سخط المجتمع الروسي بأسره، حيث وصفتم أكثر التطلعات المشروعة للشعب بأنها «أضغاث أحلام»، وكل أوامركم بشأن فنلندا، وحول الفتوحات الصينية، ومشروعكم لمؤتمر لاهاي. وتقوية الجيش، وإضعافك للحكم الذاتي، وتقوية التعسف الإداري، ودعمك لاضطهاد الإيمان، وموافقتكم على احتكار الدولة لبيع النبيذ، أي متاجرة الحكومة بالسم الذي يسمم الشعب، وأخيرا، إصراركم على العقاب البدني، على الرغم من كل الأفكار التي طرحت لكم حول إلغاء هذا الإجراء غير المنطقي وغير المجدي تمامًا والذي أهان الشعب الروسي. كل هذه الممارسات التي لم يتيسر لكم القيام بها لو لم تجعلوا، بناءً على نصيحة مساعديكم التافهين، هدفًا مستحيلًا ليس بتعطيل حياة الشعب، وإنما إعادتها للوراء إلى حالتها السابقة. يمكن اضطهاد الناس بالعنف، ولكن ليس قيادتهم والسيطرة عليهم». 12 يناير 1902

التفت الأب إلى الأمير الأكبر نيكولاي ميخائيلوفيتش وطلب منه نقل الرسالة إلى القيصر. كان تعهد الأمير نيكولاي ميخائيلوفيتش بتسليم رسالة قد تثير غضب نيكولاس الثاني عليه دليلًا جديدًا على موقف الأمير الأكبر تجاه والده. تلقى القيصر الخطاب، لكنه لم يكن له أي تأثير عليه، وأملى الأب في 8 فبراير، وهو مريض تمامًا، بالأفكار التالية:

«... هناك طريقتان فقط للخروج من الوضع الصعب، والمحفوف بالمخاطر الذي نجد أنفسنا فيه،: الأول، وإن كان صعبًا للغاية، هو اندلاع ثورة دموية، والثاني هو اعتراف الحكومات بالتزامها بعدم معارضة التقدم، وليس الدفاع عن القديم، أو كيف يمكننا العودة إلى القديم ـ أن تفهم اتجاه المسار الذي تسير فيه البشرية، تقوم بقيادة شعوبنا على حذوه. وحاولت أن أشير إلى هذا المسار في رسالتين إلى نيقولاي الثاني».

يبدو أن الشرطة كانت تراقب عائلتنا. أتذكر أن أختي ماشا تلقت حاجيات وكتبًا من العائلة، ووشى أحدهم بأن شحنة كبيرة من المطبوعات المحرمة قد وصلت لها. واضطربت الشرطة، ونشط العملاء السريون، وراقبوا شقة شقيقتي وكل من يزورها. أتذكر أن الطبيب دوشان بتروفيتش ماكوفيتسكي، القادم من تشيكوسلوفاكيا، كان في ضيافة أختي، وراقبوه أيضًا، وروى برعب أن جاسوسًا خرج من وراء شجرة «السرو» وتبعه. ضحكنا، لكن سرعان ما عانينا نحن من الملاحقة. ذات أمسية ذهبنا في نزهة على الشاطئ: صديق إخوتي أليشا دياكوف، وأخت أوبولينسكي، وناتاشا وأنا. وفجأة نرى فعلا أن شخصا خرج من وراء أشجار السرو التي تنمو في الفناء، وذهب إلى الجانب الآخر من الشارع. أسرعنا خطواتنا، وهو أيضًا اسرع خطواته، استدرنا إلى ناحية السوق، ولم يتركنا، وجلسنا على مصطبة نتطلع الى البحر، محاولين نسيان المخبر الذي يلاحقنا، ولكن عندما نهضنا واقفين ظهر انه يسير أمامنا.

ـ توقفوا ـ صرخت ـ لا تدعوه يعود!

وهكذا بدأ السباق الذي تغيرت فيه الأدوار. تباطأ المخبر، وكذلك نحن. سار بشكل أسرع. لم نتخلف عنه، واندفع نحو الشاطئ، وتبعناه حينها انعطف في زقاق، وسرنا خلفه، جلس على مقعد، وجلسنا بهدوء بجانبه. تحرك الشرطي بسرعة مثل وحش مطارد، وضحكنا بصوت عالٍ وسخرنا من الجاسوس البائس عديم الخبرة. دفعناه إلى اليأس. وأخيرًا بالقرب من البازار القديم، لاذ في حانة مظلمة ذات شكل مريب. قال اليوشا من الأفضل ألا نذهب إلى هناك، وعدنا إلى المنزل ونحن نضحك، ومنفعلين بالسباق، وروينا مغامراتنا لاوبولينسكي. ربما بسبب تناقل هذه القضية في يالطا شفهياً، ضحك الجميع على غباء الشرطة، ووصل الأمر إلى قسم الشرطة، بيد أننا، وربما لسبب آخر، لم نلاحظ المزيد من المخبرين. ومن الممكن أيضًا أنه تم تكليف مخبرين أكثر خبرة لمراقبتنا.

في منتصف يناير، مرض والدي مرة أخرى. جاء أولاً من سانت بطرسبرغ الطبيب ـ الخاص بيرتنسون، ثم شتشوروفسكي أحد أفضل أطباء موسكو. وجاء ألتشولر وإلباتيفسكي من يالطا، وباستمرار كان يأتي طبيب المنطقة المحلي فولكوف. لقد كان أبي يشعر بألم في جنبه. وتردد الأطباء لعدة أيام في وضع تشخيص دقيق. في البداية اكتشفوا ذات الجنب، ثم الالتهاب الرئوي. لازم أبي هذه المرة الفراش مدة أربعة أشهر تقريبًا.

حقيقةً أن رجلاً عجوزًا في الثمانينيات من عمره، ومصاباً بذبحة صدرية وحمى في قلبه تمكّن أن يتحمل ذات الجنب، والتهاب الرئتين، والآن، تقريبًا، حمى التيفوئيد ـ كانت معجزة عظيمة! لكن خلال هذه الأشهر الأربعة عشنا جميعًا بالإيمان بهذه المعجزة. لقد استحال اليأس إلى أمل.

جاء الإخوة والزوجات وذهبوا، وانتقلت ماشا وزوجها إلى جاسبرا مرة أخرى، كل ليلة، كان اثنان في الإخفار بالقرب من الوالد. أمي كانت تسهر كل يوم حتى الساعة الرابعة صباحًا ولم ترغب في التخلي عن ساعات مناوبتها لأي شخص، واستبدلتها أنا وتانيا. ماشا كانت ضعيفة، ومريضة، لكنها الأكثر رقة، كانت دائمًا تعمل في الصباح أو بعد الظهر. أملى أبي عليها أفكاره، وتحدث معها عن أهم شيء: عن الموت، الذي كان يستعد له.

لكن الناس لم يتوقفوا عن التشويش عليه. وفضلا عن عدم ثقته بهم، فلقد شوشوا على العملية الروحية التي كانت تسري في داخله، والتي اعتبرها أهم من الشفاء.

في هذا الوقت، ظهرت أكثر فاكثر، ثلاثة حروف في يوميات والدي «ل. ق.ح: لو بقيت على قيد الحياة». واعتبر أنه من الضروري ان نبدأ اليوم بان نتذكر، أن الحياة لا تعتمد على إرادتنا، ويمكن أن نموت في أي ساعة، وفي أي دقيقة.

ولم يحب والدي جداً عندما يضع الناس الخطط.

ـ يا إلهي ـ قال الأب ـ لكن كيف يكون ممكنًا وضع الخطط، كيف ممكنًا، وإذا متّم غدًا؟ وحسنًا، كيف يمكنكم التخمين؟، وحتى عندما يكون بوسعكم التحكم في الحاضر فقط، فأنتم لا تعرفون حتى ما سيحدث لكم في المساء.

23 يناير. جاسبرا. 1902. ـ يكتب الأب في يومياته ـ اشعر بالضعف العام، وصل برتنسون. سفاسف، أبيات رائعة:

بدأ العجوز في الأنين والتأوه!

بدأ العجوز يسعل!

حان الوقت للعجوز ليكون تحت الكفن،

تحت الكفن وفي اللحد.

ولكن نحن الشباب، المفعمون بالقوة، الذين خامرتنا في هذه اللحظة فكرة واحدة فقط: كيف ننقذ والدنا؟ هل كنا نفهم حالته؟ طبعا لا. اعتقد حتى أمي وماشا أعدّتا والدي للموت، ان تذكيره لنا المستمر بهذا الأمر أثار المخاوف أكثر من المسرة. كنا جميعًا بحاجة إلى الأطباء، ونصائحهم، وملاحظاتهم المشجعة، والأدوية التي نقطرها، كما لو كنا نؤدي طقوسا مقدسة، والكمادات، والذرنوخ، ولصقات الخردل، والحقن الشرجية...، طردنا أبي أو تسامح وأذن لنا القيام بهذه الأشياء غير الضرورية من وجهة نظره، فقط حتى لا نشوش على الشيء الرئيسي.

ـ حان الوقت للعجوز ليكون تحت الكفن، ويذهب إلى القبر»، كرر بابتسامة باهتة.

أثناء مرض الأب، اقترب الأخ الأكبر سيريوجا منه أكثر من جميع أبنائه الآخرين. بأي حنان، بأي رقة ونكران ذات، كان هذا الرجل الصارم ظاهريًا، يتودد إلى والده، ويرفعه كطفل، ويضع الضمادات عليه،

ويحمله من مكان إلى آخر، ويستمع إلى كل نفس نفثه والده، ويخمن مشاعره ورغباته.

ولاحظ والدي كل شيء، وفكّر في الجميع، وعانى من أجل الجميع.
وعذّبه ان أمي كانت في الخفارة تسهر عليه حتى الساعة الرابعة صباحًا وكانت متعبة. عادة أحاول أن أحل محلها، قبل نصف ساعة من الموعد المحدد.

قالت أمي:

ـ جئتِ مبكرة؟

ـ أحقا؟ إذن ساعتي تسرع ـ قدّمت الأعذار.

قال والدي متوسلاً:

ـ اذهبي، يا سونى، من فضلك اذهبي، أنت متعبة جدًا.

توضح لي أمي ماذا علي أن أفعل، وفي أي وقت أعطيه الدواء ـ وتغادر.

أتذكر أن «كان في الخفارة أن. أن. جي» (نجل الرسام نيكولاي جي) الذي كنا جميعا نسميه كوليتشكا،.وكانت ليلة هادئة. لم ينم والدي، وكان يئن بصوت عالٍ، ويسعل، وأخيراً، ناداني بصوت خافت:

ـ ساشا ـ قال ـ اطرقي على مقبض الباب!

سمعت ما قاله لكني لم أفهمه.

قال بسخط:

ـ يا إلهي، كيف لا تفهمين؟ كوليتشكا يشخر. إذا قرعتِ بهدوء، فربما يتقلب على فراشه ويتوقف عن الشخير.

ـ الآن سأوقظه الآن ـ قلت وأنا أفكر في أي حالة قنوط سيكون إذا اكتشف أن والدي كان مستيقظًا بسبب شخيره.

صرخ الأب بخوف:

ـ ما خطبك، ما خطبك! ـ كيف يمكنك إيقاظه؟ أنتِ افعلي ما أقول.

طرقت المقبض بهدوء، ثم بطرق اشد، لكن هذا لم يؤثر على نيكولاي نيكولايفيتش، واستمر يشخر بصوت عالٍ، من دون تأنيب ضمير، وبصفير مقزز.

ـ حسنًا، ليس هناك ما يمكن فعله ـ قال الأب بحزن ـ دعيه ينام.

بعد بضع ثوانٍ، أغلقت الباب بهدوء، وسرت من جهة اخرى إلى الغرفة حيث كان نيكولاي نيكولاييفيتش نائمًا، وهززته حتى قفز على الفور على السرير، مذعورا، وأشعثَ وناعسًا.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء، أنت تشخر، وتقلق نوم والدي!

ـ ما تقولين يا ساشا!

كان كوليتشكا حزينا بشكل رهيب، وبالطبع لم ينم بقية الليل.

مرة أخرى كانت هناك الحالة مشابهة. أتيت إلى غرفة نوم والدي في الصباح. كان قد استيقظ لتوه وبمساعدة «ب». كان يقوم بالاغتسال. طلب الأب أن يملأ بالقطن مشطًا ذا أسنان متباعدة، ويمشط شعره. لكن الأمور لم تسر على ما يرام. وحاول «ب» إدخال القطن بالقوة في الأسنان الصغيرة، لكنها لم تدخل وخرجت.

قال والدي ببعض الغضب:

ـ يا إلهي، كيف لا تملأ المشط بالقطن! ألا تمشطوا شعركم أبدًا؟

ـ لا، أبدا، ليف نيكولايفيتش، ـ أجاب بخجل وارتباك، وشعور بالذنب ـ أبدا.

وفرح عند رؤيتي.

ـ الكسندرا لفوفنا! ساعدونا في سبيل الرب. هل تتمكنون من حشو مشط ناعم بالقطن؟

ـ حسنًا، بالطبع، ـ قلت ـ دعوني اذهبوا، سأقوم بتمشيط شعر والدي وغسله.

كان للأب شعر رقيق وناعم، على مؤخرة رأسه كان ينتفخ مثل الطفل. اضطررت إلى تمشيطه، ثم تنظيف لحيته بفرشاة. كان الأمر مخيفًا للغاية، فقد كانت أدنى حركة محرجة مؤلمة، وكان شعر اللحية متشابكاً، مجعداً، وكانت لحية كبيرة. ثم كان يتوجب غسل يده ووجه ورقبته بالصابون، بإسفنجة أو قطعة قطن، مع إضافة القليل من الكولونيا إلى الماء لكي يرطّب أفضل.

يعدّ الالتهاب الزاحف في الرئتين من أكثر الأمراض المنهكة. يخف الورم ـ تنخفض درجة الحرارة، وفجأة، وبعد بضع ساعات، ترتفع الحرارة مرة أخرى، ويتضح أن أوراما جديدة ظهرت في مكان آخر، ويستمر هذا لأسابيع وشهور. وكان الأب يسعل، ويلهث، وأحيانًا لا يستطيع الاستلقاء، ويضعون عددًا لا حصر له من الوسائد تحت رأسه لتسهيل التنفس. في بعض الأحيان كان يعاني بشدة، ويتأوه، ويأن، ويلهث لدقائق وكأنه في غياهب النسيان. كان جسد والدي بأسره متألما ـ كانوا يخافون من قرحة الفراش. لقد كان نحيفًا لدرجة أن من المخيف النظر إليه. ساقاه تؤلماه في الليل. وطلب مني:

ـ دلكيهما من فضلك!

عندما أقوم بتدليك قدميه أشعر تحت يدي بعظام حادة ومترهلة، مثل العضلات الفارغة. يداه تؤلماه من الحقن المستمر، وتقشر الجلد على ظهره، ومن الكمادات والدهون.

لم نفسح الطريق للأطباء:

ـ حسنا، هل يتضاءل الورم؟ ما هو حجمه، هل بحجم قطعة نقدية من فئة خمسة؟

رسموا وشرحوا وشجعوا.

في الفترات الفاصلة بين الأخفار، كان الطبيب شوروفسكي يدعوني للنزهة معه على ظهور الخيل. بدا شوروفسكي الممشوق، فارع القامة، في معطفه الهنغاري، ولحيته الممشطة على جهتين، مثل عقيد فرسان أكثر منه طبيبا. كان خَيّالا رائعا.

أتذكر ذات مرة عندما خرجنا للنزهة بدأ حصاني يعرج، وعرضت عليه العودة إلى المنزل.

ـ لماذا نعود إلى المنزل؟ كما يقال «نعضه كما فعل» وانطلق على الحصان بأقصى سرعة، تقريبًا إلى يالطا نفسها. لقد نظرت إليه بإعجاب. بدا لي هو فقط من يستطيع إنقاذ والدي من الموت. اندفع مرحًا، غير مبالٍ، ولا يشبه ذاك شكوروفسكي، الذي دخل على والدي بوجه جاد وقلق وبصوت مبتهج مصطنع، كما لو كان يريد التغلب على الوجل أمام مريضه، وسأل بصوت عالٍ:

ـ حسنًا، كيف نشعر اليوم، يا ليف نيكولايفيتش؟

أتذكر اكثر الليالي رعبا. في غرفة الطعام القاتمة في منزل جاسبر جلس الأطباء شوروفسكي والتشولر فولكوف وأنا. كانت أمي وماشا مع الوالد. وكان شوروفسكي والتشولر ينهضان ويذهبان إلى غرفة نوم الوالد ويعودان منها. كان وجه شكوروفسكي، الذي عادة ما يكون

مبتهجًا، قلقًا وكئيبًا. تبادل الأطباء فيما بينهم من حين لآخر بعض العبارات التي لم أفهمها.

التفتُ إلى شكوروفسكي:

ـ فلاديمير أندريفيتش، أتوسل إليكم، قولوا لي، هل هناك أي أمل؟

ـ لا يوجد ـ لكنه حملق بوجهي، وأضاف: ـ هناك احتمال واحد بالمائة من انه سيبقى على قيد الحياة ـ وكأنه يريد تجنب الحديث، قام وغادر.

لمس فولكوف كمي بلطف وقال.

ـ الكسندرا لفوفنا، ليس لدي كطبيب أساس ان أقول لكم بهذا، بيد اني أقول لكم كشخص عادي. اشعر من صميم قلبي، أن ليف نيكولايفيتش سوف يتماثل للشفاء، سترون!

لم ينم أحد في تلك الليلة. الأطباء لم يتركوا والدي. كانت هناك لحظات بالكاد جسوا النبض فيها. كان والدي لا يزال هادئًا عقليًا، لكنه عانى جسديًا بشدة.

في تلك الليلة أنجبت زوجة أخي أولغا طفلاً ميتًا.

نام الأب حتى الصباح. انتهت الأزمة. كان الطبيب المحلي فولكوف على حق، ومنذ ذلك اليوم، وإن كان ببطء، بدأت صحة والدي تتحسن. كان يتعافى يومًا بعد يوم، وتلاشى الالتهاب تدريجيًا، وفي الأيام الدافئة بدأ يخرج إلى الشرفة. ولسوء الحظ، كان الشتاء باردًا، وكانت ريح الشمال الشرقي تهب باستمرار، وهو ما يتم الشعور به بشكل خاص في منطقة جاسبرا حيث كانت تقع عالياً ومفتوحة على الرياح من جميع الجهات.

عندما انتهى القلق على حياة والدي، لاحظنا برعب أن رفوف النوافذ قد تدهورت بسبب الأدوية الكاوية، وأن أثاث بانين الرائع قد تضررت. كنا خائفين جدًا من إتلاف أثاث القصر، لكن عندما تدهورت حالة أبي الصحية، لم يكن لدينا وقت للاهتمام بذلك.

ـ آي، آي، آي، ـ صرخ الأب، ـ آي مرة أخرى سكبتُ السائل على رفوف نوافذ بانينا.

أحيانًا كان والدي يجلس على كرسي بذراعين تحت الشمس. لم يستطع التمشي بعد، تحرك قليلاً فقط، متكئًا على عصا.

أتذكر جاء ذات مرة «ب»، كان يبعث الحيوية فينا ويسلينا دائمًا. لقد حظي بحب الأب، واوبلينسكي، وحتى أمي التي تعامل التولستويين معاملة سيئة.

كان يومًا رائعًا وهادئًا. فذهبنا «ب» وأبي وأنا إلى البحر. كانت هذه، كما يخيل لي، أول مرة يغادر بها والدي المنزل بعد المرض. كانت المراكب الشراعية التركية راسية على الشاطئ.

ـ هل تعرف يا ليف نيكولايفيتش! ـ هتف فجأة «ب» ـ هيا بنا نتجول بالقارب!

اعتقدت أن «ب» أصيب بلوثة عقلية،. لكن الفكرة أعجبت والدي، ووافق عليها.

قام اثنان من الأتراك الأقوياء بإمساك الأب من ذراعيه مثل الريشة، وحملاه إلى سطح السفينة ووضعاه على السجادة. ركضوا على جوانب القارب، وسرعان ما ركّبوا الأشرعة. عبأت الريح الأشرعة، فرفرفت، واندفعت دوارة الهواء المائلة قليلاً على جانب واحد، إلى عرض البحر، تاركة وراءها شريطًا لامعًا ومشرقا على سطح الماء الأملس. ليس بعيداً عنا تقلبت الدلافين، قطعانا صغيرة، بشكل أخرق.

كان والدي يقول:

ـ كم هو رائع، يا لها من روعة.

ابتعد الشاطئ، واصبحنا بالكاد نميز مباني المنازل، أبراج قصرنا الدائرية الرمادية، و«دولبر» الأبيض الأخرق على طراز المنائر المغربية.

كان رأس جبل «آي تودور» وقلعة «عش السنونو» مرئيين بالفعل.
تلاعبت الأمواج بالقارب، فساورني الخوف، وومضت في خاطري «واذا هبت عاصفة بشكل مفاجئ»

ـ قلت،

ـ من فضلكم، دعونا نعود!

ـ حسنًا، ـ قال «ب» والآن حان الوقت لكي لا أظهر أمام صوفيا أندريفنا، فانها ستوبخني!

أردنا إخفاء مغامرتنا، لكننا بالطبع ثرثرنا. أردنا إشراك الجميع بانطباعاتنا عن الرحلة الرائعة.

في الأيام المشمسة الصافية، نقلنا والدي على كرسي متحرك. ذات مرة تمنى والدي أن نأخذه أنا وإيليا فاسيليفيتش إلي الحديقة. والآن، كما أتذكر، تصاعدت دقات قلبي. كان الكرسي الثقيل يتدحرج، أحدنا في المقدمة والآخر في الخلف. ولدقائق، كان الكرسي مضغوطًا بشدة لدرجة أنه لا توجد طريقة لكبحه، واننا حرفيًا انزلقنا على الحصى بالأحذية على أقدامنا.

ـ حسنًا، بجرأة أكبر ـ شجعنا الأب ـ ما الذي تخافان منه؟

مرة أخرى، اقترح «ب» فكرة. أخذ الوالد على كرسي بذراعين إلى الممر الأفقي، وكان الأب، بالطبع، سعيدًا جدًا بالاقتراح. ومن أجل الوصول إلى هناك، كان من الضروري إنزال الكرسي على ممر شديد الانحدار. لم يكن «ب» قويًا مثل إيليا فاسيليفيتش. واستلقيت «بكل معنى الكلمة» تحت الكرسي، محاولة إبطائه. وتصبب العرق منا، وعندما وصلنا أخيرًا، سألنا أبي بصورة مفاجأة:

ـ لماذا أنتما متعرقان جدا؟

لكن من ناحية أخرى، كان الأمر رائعًا على الممر المستوي، ابتسم الأب بسعادة، ومزح، وأعجب بمناظر الطبيعة الخلابة.

في ضوء أمراض الأب المتكررة، تقرر دعوة طبيب أسرة دائم. جاء إلينا، ديمتري فاسيليفيتش نيكيتين مساعد سابق لأسترومـوف، وهو رجل جاد وطبيب ذكي، وفاز على الفور ليس فقط بالثقة، ولكن أيضًا بتعاطف عائلتنا بأكملها.

لم نبتهج لوقت طويل بحالة الوالد. عندما بدأ الأخت تانيا والأخوة يتفرقون تدريجياً إلى بيوتهم، وسافرت امي إلى موسكو لترتيب الأمور المالية، والاستماع إلى الموسيقى، أصيب والدي بحمى التفوئيد. طارت البرقيات في كل الاتجاهات، ومرة أخرى بدأ الجميع يجتمعون، وإستدعوا الأطباء، والقيام بنوبات محددة. حملوا والدي إلى الطابق العلوي، إلى غرفة كبيرة ومشرقة بجوار غرفتي. كان ضعيفا. وكان يعاني من آلام في المعدة. ومرة أخرى، ركزتُ حياتي كلها على كيفية إدارة حقنة شرجية، وكيفية عدم سكب قطرة إضافية من الدواء، وكيفية دس الآنية بمهارة أكبر. بدأت ثانية الليالي المروعة، من دون نوم مرة أخرى.

لقد تعيّن علي ان أقوم برعاية والدي لفترة غير طويلة، ثم مرضت. كنت مستلقية بجوار غرفة والدي. ارتفعت درجة حرارتي عاليا، وشعرت بآلام في المعدة. بعض الأطباء شخصوا حالتي بانها التهاب الزائدة الدودية والبعض الآخر بالتيفوئيد. كنت اهذي. سهر الجميع علي: تانيا، وماشا، وسريوجا، وأمي. وعندما عدت إلى وعيي، كانت حالة والدي أفضل بكثير، وانخفضت درجة حرارته.

ـ قالت أمي:

ـ القرم الملعون، لو جلسنا في ياسنايا، فلن يحدث شيء. ستكون معجزة إذا غادرنا جميعًا من هنا أحياء، لقد مرض ليف نيكولايفيتش

منذ أربعة أشهر، والآن ساشا مريضة، يجب أن نغادر في أقرب وقت ممكن.

انتظرنا حتى يتمكن الأب من السفر.

خلال هذا الوقت، وقع حادث كوميدي واحد. جاء جماعة كبيرة من الأشخاص الفضوليين من يالطا، وتوسلوا ان يظهر لهم ليف نيكولايفيتش. لم توافق أمي على استقبالهم قائلة: إن الأب ضعيف جدًا، وليس بميسوره الخروج.

ـ حسنًا، دعوه يظهر على الأقل في النافذة، ـ توسل الزوار ـ سننظر إليه فقط.

لقد توسلوا طويلا، وبإصرار، حتى أن والدي شعر بالشفقة عليهم، ووافق على دفع كرسيه إلى النافذة.

قال الأب بصوت هادئ ضعيف.

ـ مرحبا مرحبا... أي خدمة بميسوري تقديمها لكم؟

كما هو الحال دائمًا في مثل هذه الحالات، كان الأمر عليه صعبًا ومحرجًا. وصمت الجميع. وفجأة، دفعت سيدة سمينة قصيرة القامة، مثل بروفيسور، الآخرين بمرفقيها، وحشرت نفسها بالنافذة:

ـ ليف نيكولايفيتش، عزيزي، أنا سعيدة جدًا، لقد قرأت «الآباء والابناء»(51) بانشراح بالغ.

(51) الاباء والابناء رواية ايفان تورجينيف، وليس لليف تولستوي كما توهمت السيدة.

همسوا لها من الخلف: «الطفولة» و«المراهقة»، و«الصبا»

ـ أوه، لا تشوشوا عليّ، أليس كل هذا نفس الشيء! ـ كانت السيدة متحمسة وتفوح منها رائحة العرق وتضرجت خدودها من الإثارة، ـ أليس كل شيء كما هو، وقرأت «الطفولة» و«الصبا»... عزيزي ليف نيكولايفيتش، أنت عزيزنا...

تم دفعوا بالسيدة جانبا.

غادرنا إلى ياسنايا ـ بوليانا في منتصف شهر يونيو. وسافر معنا الأخ سيرجي والدكتور نيكيتين و«ب»، كنت اشعر بالضعف البالغ. وكانت لدي حمى. حملني أخي سيرجي إلى أسفل السلم الحلزوني بين ذراعيه، ووضعني في العربة. شعرت بضوضاء في رأسي، وأتذكر بشكل ضبابي الفضوليين الذين نظروا في المرسى إلى والدي. قالوا إن من بين المودعين على الباخرة كان تشيخوف وإلباتيفسكي والكسندر كوبرين. لم أر أحدا منهم. كانت حالتي سيئة. أحضر لي سيريوجا كرسي شمس على سطح السفينة، واستلقيت عليه. لم نذهب هذه المرة إلى سيفاستوبول، بيد أننا توجهنا على الفور إلى محطة السكك الحديدية، وركبنا عربة المدير نفسها. هنا ساءت حالتي حقًا، وارتفعت حرارتي لدرجة عالية، وبدأت الآلام الشديدة. هرع «ب» إلى مكان ما لجلب الجليد. لا بد أن الاهتزاز أدى إلى تفاقم التهاب الزائدة الدودية.

أتذكر كيف دخل والدي، الضعيف والنحيف، إلى المقصورة وجلس عند قدمي، وعيناه تشرقان باللطف والرقة.

ـ ربما تحتاجين شيئًا؟

وكان غريباً أنّي أنا التي تتمتع بصحة جيدة، والقوية، أنني لم أستطع القفز، والركض، ومساعدته، بينما هو الذي كان ضعيفًا ونحيفًا للغاية، يريد أن يقوم بشيء من أجلي...

مغامرات غرامية فاشلة

قرأ أبي رسالة صديق لي من المدرسة المتوسطة في مدينة تولا عندما كان عمري ستة عشر عاما، ومنعنى من التراسل معه. وقفت في غرفتي وبيدي الرسالة وأنا حزينة، ومحرجة، وحاولت ان اشرح لأبي أن علاقتي بالتلميذ رائعة وطاهرة، ولا تتعدى ذلك، فقاطعني الأب بكدر:

ـ ليس ثمة داع لهذا ـ قال من دون أن ينظر لي ـ لا داعي لذلك، اخبريه أن يكف عن الكتابة لكِ.

لاحظ الأب في الرسالة شيئا ما يشي بمشاعر اكثر رقة، من مشاعر الصداقة. لم افكر في ذلك، كان انتباهي مركزا على أن احول الشاب المصاب بعدوى الاشتراكية إلى تعاليم تولستوي. اعتقد أن الأب لم يكن على حق، بيد اني لم ارغب في عدم طاعته، وكتبت للتلميذ اني سأوقف المراسلة معه استجابة لرغبة أبي. شعر التلميذ بالإهانة، وقاطع منزلنا لسنوات طويلة.

لاحظتُ قبل ان تتزوج أختي كيف ان الأب عانى بألم، حينما ابدى احد الأشخاص الاهتمام ببناته، ومن دون إرادته، فتعقّبَ بغيرة كل تحركاتهن، وأصاخ بسمعه لنبرة أصواتهن، ملتقطا فيما اذا كانت نغمة تغنج فيها، وأحيانا حافظ بصعوبة على هدوء مهذب مع الشباب، وأخرى على العكس من ذلك، بالغَ في جميل المعاملة، كما لو أنه يؤكد بهذا رفضه لأي تقارب كان مع بناته.

اعتقد ان مشاعر والدي انطوت على الغيرة، والخشية من فقدان بناته، والأهم من ذلك الخوف من عدم النزاهة.

وقال:

ـ بنفسي كنت شابا، وأعرف على أي نحو يكون إظهار الهوى والغرام مقرفا وشنيعا.

سعى بغريزة الأبوة والرجولة في تخمين من هم أصحاب النوايا السيئة من بين الرجال المناسبين للأخوات، وتعذب وقلق ورأى الخطر حيث لا

يوجد، ولم يلاحظه هناك، حيث انه موجود فعلا. حظر عليّ أن اتراسل مع التلميذ الساذج من مدرسة تولا ولم يعرف ان احد التلستويين كان يتعقبني، عندما كان عمري خمسة عشر عاما.

أتذكر كيف ان التلستوي دعاني بذريعة ما إلى غرفة الخدم الخالية المجاور للمدخل، وبصوت ناعم أراد ان يستميلني، ومن ثم بحركة حادة أمسكني وضمني له، وفاحت منه رائحة العرق، والقطران، وصفعته بكل ما في قبضتي من قوة، وانتزعت نفسي منه وهربت، وارتجفت كل أوصالي من الإساءة، والاشمئزاز والقرف.

أتذكر هذه الحادثة. جاء إلى ياسنايا ـ بوليانا المعلم الخصوصي لعائلة سوخوتين، ذلك الطالب الأعرج، الذي تصادقت معه في القرم. جلست معه في غرفة المكتب، وفحصنا مقالة أبي التي أعدتُ كتابتها. كان الطالب يقرأ، وانا أتابع نص المخطوطة، واحيانا توقفنا عن القراءة وتبادلنا الملاحظات بصدد ما قرأناه. كان الطالب سعيدا، لأنه يراني، وسعيد لأنه في ياسنايا ـ بوليانا، وأنه يساعدني بفحص مقالة أبي. اشرق وجهه النحيل، ونظر لي بامتنان.

دخل الأب عدة مرات للغرفة. وقف صامتا وذهب. كان هذا قد حدث له سابقا، عندما قرأت مقالاته بصوت عال. كان يحب سماعها، ثم يصحح الأماكن التي تبدو له غير سلسلة، وغير واضحة بما فيه الكفاية. جاء آخر مرة، ووقف طويلا في الباب، واضعا يديه خلف حزامه، وسأل:

ـ هل ستنتهون قريبا؟

ـ كلا، لماذا؟

عاد مسرعا إلى مكتبه قائلا:

ـ كلا، كلا، لا شيء.

وخُيل لي ان في نبرة صوته وتعبير وجهه عدم ارتياح، بيد أني طردت هذه الفكرة من ذهني، وفكرت بذاتي «من دون شك خُيل لي»، وواصلنا القراءة.

ولكن بعد عدة دقائق استدعتني ماشا في الغرفة المجاورة. وكانت غاضبة. وسألتني بقسوة.

ـ ما تعملين للأب؟

وغمغمتُ بخوف:

ـ ماذا؟

ـ ماذا؟ يا ترى ألا ترين في أي حال هو؟

ـ لماذا؟ ما حدث؟

ـ بلى، أنت تعرفين ـ غضبت ماشا ـ أراد أن يطرد طالبك! وأنت تجلسين معه هنا، تتغنجين، ولا تلاحظين أي شيء!

ـ ما خطبك يا ماشا! انه تعس، إنني اشفق عليه.

وقلدت عبارتي بشكل كاريكاتوري:

ـ اشفق عليه، ألا تعرفين انه واقع في حبك؟ قال الأب: « سأرمي به من على السُلَم، كيف يجرؤ على النظر إلى ساشا على هذا النحو».

توسلتُ لماشا ان تخفف من روع الأب، ووعدتها بانني سوف ارتب الأمر بأن يذهب الطالب، ولكن يجب عدم الإساءة له. لابد ان تكون ماشا قد فهمت بانها احتدمت بعض الشيء، ووعدتني بانها ستتحدث مع الأب، وذهبت.

عندما عدت الى «المكتب» لم ارفع عيني إلى الطالب. كنت محرجة أمامه، ولم اعرف ما بوسعي ان أقول له. لابد ان يكون قد خمن بنفسه

بأنّ هناك شيئًا غير عادي قد جرى. غادر صباحا. وتكون لدي انطباعٌ بانه كان يشعر بالإهانة.

استضافنا الأمير «ن»، كان شابا، وسيما، حالق بنعومة، وشخص ابيض ـ وردي، زيه من دون أي عيب، ومتأنق في أسلوب التكلم والتعامل، لم اعره أهمية. لم تكن أمي راضية عن ذلك، وسعت إلى ان تكون هي لطيفة مع الأمير. لقد حلمت دائما ان تزوجني من رجل غني يمتلك ضيعة، وناسب الأمير جميع مطالبها.

كانت أمسية من أمسيات يونيو / حزيران الهادئة. ذهب الجميع الى مخيم الغجر الذين نصبوا خيامهم جوار الطريق العام. لقد مرت قوافل صغيرة وكبيرة، منذ قديم الزمن، بالقرب من ياسنايا ـ بوليانيا، في طريق «يكترينا» القديم.

وعادة يعيش الغجر في عربات بضاعة، أو في خيام، ويسوقون خلفهم خيولا شمطاء وعرجاء وعمياء يتاجرون فيها في الأسواق العامة. يعرف الجميع ان الغجر محتالون، وتنطبق على سلوكهم تماما العبارة الشائعة «اذا لم تلجأ إلى الغش فلن تبيع»، وأنهم يحتالون ببيع خيولهم: يصبغون البيضاء، ويحدون أسنان العجائز منها، حتى لا يمكن تحديد سنها، ويسقونها الفودكا قبيل عرضها في السوق، حتى تبدو الفرَس اكثر حرارة. قصارى القول أن العالم لا يعرف غشاشين بالخيول مثل الغجر.

احب التولستيون، بما في ذلك أبي، الغجر ربما بسبب فطريتهم وجسارتهم الطبيعية، وحسهم الموسيقي المدهش. تزوج عمي سيرجي من غجرية، واغدق التولستيون عليهم أمولا ضخمة. جرى طرد الغجر من كل مكان، ولم يسمح لهم أصحاب الأراضي الإقامة في ضياعهم، لانهم يسببون الكثير من الأذى: مرة يبيدون العشب، وأخرى يسرقون الخيول. ولكن لم يضيقوا عليهم في ياسنايا ـ بوليانا، ولم يلحقوا هم الضرر في الضيعة.

نصب الغجر خيامهم هذه المرة على منحدر تلة قرب «الحدود». هكذا سمينا المكان، حيث انتصب عمود حجري سعته خمس ياردات، ربما ظل قائما منذ زمن الإمبراطورة يكترينا الثانية (1726 ـ 1796). كان مزدانا بصقر قيصري ذي رأسين، واصبح حدا فاصلا بين مقاطعة تولا ومقاطعة كرابفينسك.

حينما وصلنا كان الرجال الغجر يغمغمون بشيء ما بلغتِهم، وهناك خيول متعددة الألوان مربوطة السيقان، ونساء مغطاة الرؤوس بمناديل ذات ألوان مختلفة، برز من تحتها شعر خشن مجعد، وهن في تنانير مرفوعة الأطراف، وأقراط كبيرة لامعة في الآذان، مشغولات في العمل بالقرب من النيران التي تطقطق من حين إلى آخر، وعلّقت فوقها قدور حديدية سوداء. الثياب الرثة تجفف على عريش العربة التي نزعت عنها عدة الخيول، ونبحت الكلاب، وفاحت رائحة الخيول، وصرخ الأطفال. تصاعدت رائحة الدخان والروث وعرق الحصان، وعندما رآنا الغجر وعرفوا أننا جئنا لمشاهدة الرقص، بدأ الغجر يتجمعون في دائرة. واستعطت النساء:

ـ أعط لغجرياتي، يا سيد، أعط لنسائي عاريات البطون!

يغني الغجر البدو بشكل سيء ـ بصوت عالٍ، وصاخب، لكنهم يرقصون بشكل ممتاز. من ناحية أخرى يغني غجر موسكو، وسانت بطرسبرغ، الذين عادة ما يؤدون عروضهم في المطاعم، جيدًا، لكنهم يرقصون بشكل أسوأ. لقد ضاعت طبيعة عدم التكلف والفطرية.

دخل شاب غجري الدائرة، وتوقف، ورفع رأسه عاليا، وجال بنظره، وضرب على ركبتيه، وضرب الأرض بيده، ولف مرفقيه قليلاً، ومشى. هزّ رجل عجوز يرتدي سترة سوداء ممزقة كتفيه وهو واقف في مكانه، وخبط خبطة بقدمه، وصرخ بشيء ما بصوت أجش وحشي، وفجأة بتثاقل كسول قام كالسابح بدورة. وغنت النساء بصخبٍ:

تفاحة خضراء، لون وردي،

لماذا تحبني ولكني لا احبك.

كشر شاب غجري ذو شعر مجعد عن أسنان بيضاء، ولعب بملعقتين مثل صنجات. رقص الغجر، وأدوا الرقص بالنقر بالأقدام على الأرض، لكن أجسادهم ظلت بلا حراك تمامًا، وفي خضم الرقصة، توقف الرجل العجوز كالمتجمد، وهز كتفه، ثم رمى قبعته على الأرض، وقفز، ومن ثم تجمد مرة أخرى للحظة، ورفع يده إلى رأسه، ومشى.

وكانت النساء تسير خلف الجياد كما لو إنهن طافيات. كان من الصعب متابعة ما كن يفعلنه بأقدامهن. لا توجد حركة حادة واحدة في رقصتهن، والأكتاف ترتجف بهزات خفيفة، وترن على الصدور النقود، وتتأرجح الأقراط الطويلة، وينسى المرء قذارتهن، ولصوصيتهن، ولا تُرى القطع الرثة التي تغطين بها. الغجر في الرقص شامخون وجميلون.

نظر والدي إليهم باستحسان وأعجاب، وضحك مبتهجا، معربًا عن سعادته بعبارات تعجب مقتضبة:

ـ رائع، رائع، أوه، كم هو بديع!

دخل صغار الغجر الدائرة بشكل غير ملحوظ، وهم نصف عراة، ومجعدو الشعر، وتقليدا للكبار، أدوا رقصة النقر على الأرض بأقدام حافية، وهزوا أكتافهم، وضربوا الأرض بأيديهم.

كنا مبتهجين. لم تكن حاجة لنتبادل انطباعاتنا، فقد فهمنا بعضنا البعض بدون كلمات.

همس صوت غريب في إذني:

ـ كونتيسة، أليس صحيحًا أن في هذا عمق شعري لا نهاية له!

جفلت. فقد بدت لي ملاحظة الأمير مبتذلة ومزيفة...

لم أتبادل الحديث معه، وذهبت إلى المنزل مع والدي في عربة. مرت عدة أيام. عاد الأمير إلى الظهور في ضيعتنا.

ـ لماذا يأتي لنا هذا الأمير المهندم كالملحوس؟ سألني والدي.

لقد أدهشتني نبرته الحادة التي لا تناسب طبعه.

أجبته

ـ لا أعرف.

لاحظت والدتي:

ـ انه شاب رائع ومهذب، ومن عائلة محترمة، وغنية جدًا.

لاذ الأب في الصمت.

وعندما جلس الأمير بجواري، عقب الغداء، وطفق في الحديث، أخذتُ حفنة من بذور دوار الشمس من جيبي، وقمت بتكسيرها باسناني، وأبصق قشورها على الأرض.

لم يأتِ الأمير لنا بعد ذلك مرة أخرى. وغضبت أمي.

ـ ساشا لا تعرف كيف تتصرف على الإطلاق ـ قالت ـ تجعل الخاطبين الجيدين يقلعون عن الاهتمام بها، لذلك ستبقى عازبة...

لقد بذلت قصارى جهدي لتجنب الشباب، وعدم الالتقاء بهم على انفراد أبدًا، خوفًا من إثارة قلق والدي. لكن مع ذلك، أحيانًا وقعتُ في المواقف المربكة.

ذات مرة دعاني الأخ أندريه للذهاب معه للصيد، وانضم إلينا الكونت «ك» ابن أخ جارتنا زفيجينتسايا، وتوجهنا الى البراري الواقعة ما وراء قرية كريلتسوفا التي تبعد حوالي خمسة فيرستا عن ياسنايا بولينا. كنت أحيانًا أذهب للصيد مع إخوتي، ولكنني طوال الوقت، لم أر انهم

اقتنصوا في يوم ما ولو أرنبًا واحدًا. وهكذا كان الأمر في هذ المرة. تجولنا طوال اليوم. وفجأة توقف أندريه، ورفع السوط وصرخ بالكلاب بصوت جامح: «هيا اقنصيها!» نظرت حولي. كان أندريه يركض إلى يميني، وهو يصرخ ويضرب بالسوط جوانب حصانه. تبعه حصاني الأنجلو ـ قبارديييني، واندفع وراء الكلاب وعلى الفور اجتاز أخي. شعرت كيف قفزت على التخوم، ورأيت أمامي الكلاب والثعلب. استدار الثعلب وراء تلة إلى منخفض عبر المرج. فجأة رأيت تحتي نهيراً ذا ضفة شديدة الانحدار، أردت أن أمسك الحصان، لكن الأوان كان قد فات، وشعرت أنه ركل مؤخرته وقفز فوقه، وصعدنا التلة. «ما العمل لو اصطادت الكلاب الثعلب؟» في تلك اللحظة، خفق الثعلب ذيله، واندفعت الكلاب إلى جانب آخر. لقد فرّ الثعلب.

لم يظهر أخي في الأفق. وظهر الكونت ك. بجواري، وأوقفنا الخيول، وقفلنا راجعين إلى الوادي، لكن بدا لنا هذه المرة ان النهر واسع لدرجة أننا لم نجرؤ على القفز فوقه، ورحنا نبحث عن معبر ملائم. اخذ ضوء النهار يشحب، وأقبل الغسق، وسرنا في الحقول، وصادفتنا أحياناً واحات صغيرة، ووديان. لقد ضللنا الطريق. ظللت أفكر في والدي من دون انقطاع. ماذا سيقول عندما يكتشف أنني أتجول لوحدي مع شاب في الحقول ليلاً؟ ماذا سيفكر وكيف سيعاني!. كان «ك» شخصاً مضجراً، ولم ارتح له. «لماذا يتبعني؟ ـ فكرتُ ـ لو تمكنت من العثور على أندريوشا!».

حل الظلام. وقررت، وأنا في حالة من اليأس التام، أن أسلم نفسي للحصان. تركت زمام الأمور له، وتركته يذهب أينما يريد، وعلى الفور استدار إلى زاوية مستقيمة، وهز رأسه بمرح وأسرع من خطواته. سرنا في واد عميق مشجر. أمشقت الأغصان وجوهنا.

ـ عبثاً، أنت تعتمدين على الحصان، ـ قال «ك». ـ سترين، إلى أين سيأخذنا، الرب وحده يعرف.

لكنني لم أستمع إليه. مشى الحيوان الذكي بثقة أكبر، وأخيراً خرج إلى الطريق العام. وصلنا إلى الغابة. ظهر كوخ على الحافة. طرقتُ النافذة بالسوط، فخرج حارس الغابة. كنا على حافة غابة ياسنايا ـ بوليانا، على بعد ثلاثة أميال من المنزل.

طلبتُ من الكونت ان يعود إلى منزله ويتركني أعود بمفردي لمنزلي، لكن، ورغبة منه في أن يكون مهذبا، أراد أن يوصلني.

فكرت في ذاتي: «يا إلهي. ما سيفكر والدي عندما سيراه؟ ما العمل؟»

وعندما وصلنا إلى المنزل، توادعت بشكل غير مهذب مع «ك»، دون أن ادعوه لدخول المنزل.

بعد أن غيرت ملابسي، ذهبت إلى القاعة. كان هناك ناس كثيرون، ووالدي يجلس على الكنبة الصفراء ووجه نحو الطاولة، ومن حوله غوربونوف ونيكولاييف وآخرين. دارت بينهم محادثة حيوية. وعندما دخلت، نظر إلي والدي، وسألني فجأة وهو يقاطع المحادثة:

ـ من أين أتيت؟

ـ من الصيد.

ـ وحدك؟

قلت بجهد

ـ كلا، «ك». رافقني.

وبنفس الحدة، استدار والدي عني، واستمر في الحديث المنقطع.

أتذكر حادث بدا لي حينها غير مفهوم.

كان في ضيافتنا ماروسيا أخت أولجا (52) وأ.أ.سولير زجيتسكي، وأليوشا دياكوف، الذين غالبا ما كانوا يزورونا، ومكثوا معنا. سولير،

كالعادة، كان يسلي الجميع، يمزح، يغني، ولم تكن هناك نهاية لمبادراته المسلية، وأخيراً ابتدع الهاتف. أنزلنا أنا وماروسيا من الطابق العلوي، خطابا مربوط بخيط، أمسك سولير وأليوشا من النافذة به، وربطا الإجابة. لقد كتبوا هراء، وابتهجوا لذكائهم وضحكوا بلا نهاية. ذات مرة أرسل لنا سولير رسالة منمقة حيث حدد موعدًا لنا في الحديقة منتصف الليل تماماً. كانت فكرة جديدة ومثيرة.

(52) اولغا كوسطنطينفنا تولستايا زوجة ابن تولستوي اندريه لفوفيتش الأولى.

كانت ماروسيا راشدة ويمكنها أن تفعل ما تريد، وكنت أنا لا أزال تحت إشراف الآنسة ويلش، وكان التنزه ليلا ممنوعًا تمامًا عليّ.

حان وقت النوم، خلعت حذائي، وارتديت ثوب النوم فوق بدلتي مباشرة وذهبت إلى الفراش. ذهبت الآنسة ويلش إلى غرفتها. انتظرت. وأخيرًا ، هدأ كل شيء في المنزل، قفزت وخلعت قميصي وتسللت إلى الردهة حافية القدمين، ولم أجد الجوارب في الظلام. كان الآخرون ينتظرونني هناك. وخرجنا بهدوء ونحن نحبس ضحكنا.

وسألتُ.

ـ وماذا عن الباب؟

أمر سولير.

ـ نغلقه ونأخذ المفتاح معنا!

وهكذا فعلنا. تسللنا في الحديقة إلى درب الزيزفون المظلم، وتشاورنا حول المكان الذي نذهب إليه.

صرخ اليوشا فجأة:

ـ أسقطت المفتاح.

بدأنا في البحث عن المفتاح ونحن نزحف على ركبنا. كانت ماروسيا تضحك، لكن لا وقت لدي للضحك، فهناك ما يشغل بالي: لن نتمكن من دخول المنزل من دون أن نوقظ أحدا، وفي الصباح سيمسكوننا، والمفتاح! وكان من المخيف التفكير بالضجة التي ستُثار!

لكننا عثرنا على المفتاح، هدأنا وقررنا الذهاب إلى المحطة.

قلد سولير الضفادع والقطط والكلاب وضحكنا طوال الطريق وركضنا يسبق أحدنا الآخر. عدنا عند الفجر متعبين، لكننا فرحين بهياج الشباب، وبالربيع.

شققت طريقي بهدوء إلى غرفتي في الطابق العلوي. كانت الآنسة ويلش تجلس في ثوبها وتنتظرني نظيفة كالعادة، صغيرة وقد سرحت شعرها،:

قالت بصرامة:

ـ حسنًا، أين كنت طوال الليل؟

ـ أوه، ميشى، ـ صرختُ ـ لا تغضبوا، لقد قمت بنزهة لطيفة جدًا!

قالت بصرامة:

ـ أتساءل إذا كانت والدتك ستجد سلوكك لطيفًا.

لكنني كنت اعرف أن الآنسة ويلش لن تشكو لأمي، وتعاملت معي بنفسها، وأنا أطعتها لأنني عرفت أنها تحبني.

أخبرت الآنسة ويلش بصراحة عن رحلتنا الليلية، وعندما أدركتْ أنه ليس ثمة شيء خاطئ في ذلك، خففت من موقفها، وابتسمت، ووضعتني في الفراش. شعرت بالخجل لأنني خدعتها ولم تنم بسببي. وبعد أن نمتُ، توسلت إليها أن تسامحني، وأقسمت أنني لن أغادر دون أن أسأل.

غالبا ما زارنا أليوشا دياكوف. في البداية بدا لي أنه كان يهتم بماروسيا، لكنني تدريجياً بدأت ألاحظ أنه كان يحاول أن يكون معي، وكان يرتبك في حضوري، ويتضرج خجلاً، ولم اعد اشعر بالطبيعية والبساطة معه. وعندما زرت أخي اندريه وزوجته اولغا في مقاطعة تابتيكوفا، غالبًا ما كنت أجده هناك.

مر حوالي العام. وذات مرة، بعد مغادرة أليوشا ياسنايا ـ بوليانا، أعطوني رسالة منه، يعرض عليّ فيها أن أكون زوجته. أعدت قراءة الرسالة عدة مرات. لقد كان أمرًا ممتعًا ومخيفًا ومثيرًا للقلق أن قدموا لي طلباً كشخص راشد.

انتشر الخبر على الفور في جميع أنحاء المنزل. لم أكن أعرف كيف اخفيه، فضلا عن أن اليوشا لا بد ان يكون قد اطلع إخوتي. نظروا إليّ بمكر، وابتسموا، ما جعلني أشعر بالحرج. في المساء تذكرت أنه كان عليّ أن أكتب إجابة لليوشا.

«كيف علي الرد في مثل هذه الحالات؟ ـ فكرت ـ يجب الإعراب عن الأسف على مشاعر الصداقة المفقودة، وما إلى ذلك...»

لم تخطر ببالي فكرة أنني أستطيع الزواج من اليوشا. لم أفكر على الإطلاق بأن ردي سيسبب الأذى له، وسيكون مهماً جدا بالنسبة له.

جلست وكتبت له رفضًا.

أشعر بالخجل من تذكر هذه الرسالة، لقد كانت مزيفة وغير صادقة.

في صباح اليوم التالي، دعاني والدي. دخلت المكتب بمشية مبتهجة وواثقًة من نفسي. كنت لا أزال في نفس المزاج المبتهج والمهتاج.

ـ هل دعوتني؟

ـ نعم.

وأدركت من الحاجبين العابسين، ومن العيون (لم ينظر إلي والدي أبدًا عندما كان غير راضٍ)، أن المحادثة ستكون جادة.

سكت دقيقة ثم سأل:

ـ هل عرض اليوشا عليك الزواج؟

لم أكن أتوقع أن يتحدث والدي عن ذلك وكان محرجًا.

ـ نعم.

ـ وما كان ردك؟

ـ لقد رفضته.

ـ لماذا ا؟

ـ أنا لا أحبه.

ـ سفاسف! في زماننا، جرت خطبة العروس والعريس، ولم ير أحدهما الآخر بعينيه، أفضل من الآن. فكري في الأمر، يبدو أنه شخص طيب.

ـ لا أريد أن أتزوج!

ـ عبثا. السؤال مهم، يتم تحديد مصيره ومصيرك ـ قال الأب بهدوء وجدية ـ لا يمكنك التعامل مع الأمر باستخفاف.

لذتُ بالصامت. طرأت الأفكار الواحدة تلو الأخرى على خاطري: «كيف يعرف ما هو موقفي؟ ولماذا يعلق هذه الأهمية على هذا؟ نعم، قال: « المصير يتقرر»... ربما هذا صحيح، فكل شيء يمكن أن يتغير.»

تخيلت فجأة وجه أليوشا النحيف والحيوي، الخجول وفي نفس الوقت اللطيف، عندما نظر إلي بارتباك، أراد أن يقول شي ما، لكنه غير رأيه، ولوح بيده بيأس، وغادر.

قال الإخوان إنه سيشتري ضيعة، ويريد بناء مستشفى لمعرفته بشغفي بالطب.

شعرت بالشفقة على اليوشا.

ـ لماذا أنتِ صامتة؟ ـ سأل الأب.

لم تعد المغامرة، ودغدغة الكبرياء، تبدو لي مسلية، بل أصبحت غير مريحة أكثر فأكثر. حاولت أن أتخيل نفسي كزوجة أليوشا.

صرخت.

ـ لا أستطيع، لا أستطيع الزواج!

قال والدي:

ـ عبثًا أن تقررين بهذه السرعة. مع ذلك أنصحك بالتفكير.

ـ ليس لدي ما أفكر فيه!

كان الثقل يتزايد في روحي، ولم أستطع كبح دموعي.

ـ لن أذهب عنك إلى أي مكان!

قال الأب على عجل، كما لو كان خائفًا:

ـ أوه لا، لا، عزيزتي، لا، لا، هذا بالضبط ما لا أحتاجه. أنا عجوز، وسأموت قريبًا، عليك أن ترتبي حياتك بنفسك.

ـ هل تريد مني أن أكون تعسة؟

استرق النظر لي من تحت الحاجبين الشعثة الرمادية، والعيون الحادة، وبدا لي أنها توغلت بعمق، بعمق، في القلب. أضاء وجه الأب فجأة بفرح.، وقال بمودة، ووضع يده على كتفي:

ـ حسنًا، يكفي، يكفي، يا عزيزتي، دعينا لن نتحدث عن هذا الموضوع بعد الآن.

يمكن أن أستشهد بقضية ديمتري فاسيليفيتش نيكيتين كمثال على الشك غير العادي وغير المبرر لوالدي. كان نيكيتين شخصًا جادًا، ولم يكن لدي أي ظل من المغازلة معه، لكن والدي لم يستثنيه أيضًا.

حاول الطبيب الذي جاء معنا من القرم أن يفعل كل ما بوسعه ليكون مفيدًا لوالدي، ولكن لم يكن لديه عمل، وشعر بالضجر من وضعه كطبيب أسرة، ولذا قررنا فتح مستوصف للفلاحين في ياسنايا ـ بوليانا. عرض ديمتري فاسيليفيتش خدماته، وتوليت أنا توريد الأدوية وتطوعت للمساعدة في غرفة استقبال المرضى. كنت على يقين من أن والدي سيتعاطف مع المشروع.

سارت الأمور بشكل جيد. وسرعان ما علمت المنطقة بأكملها أن هناك طبيبًا في ياسنايا ـ بوليانا يعالج بشكل جيد ويساعد مجانا، وتدفق الناس علينا، وجرى افتتاح العيادة الطبية في عِزبة في القرية. كان الوضع بدائياً للغاية، ولم يكن في البداية ما يكفي من الأدوات الطبية والأدوية، لكننا عملنا بحماس. غادرنا منزلنا في حوالي الساعة الثامنة، وعدنا في حوالي الساعة الثانية. دربني ديمتري فاسيليفيتش بصبر، وبدأت بالتدريج في التعود عليه. لم أعد خائفة جدًا من رؤية المرضى والدم والجروح، أي كل ما يخيف المرء عند التعرف لأول مرة على الطب. الشيء الوحيد الذي كنت أخاف منه هو مرضى الزهري. كان عدد غير قليل منهم في ياسنايا ـ بوليانا وفي المنطقة المحيطة، وبغض النظر عن مدى صعوبة المحاولة، لم أتمكن من الاقتراب منهم بدون رعب.

حادثة واحدة أثرت عليّ بشكل خاص.

جاءت أم بطفلها البالغ من العمر ثلاث سنوات للعلاج. ممتلئ الجسم، وردي، بعيون زرقاء داكنة كبيرة وشعر مجعد، ذكرني هذا الصبي بالملاك رافائيل. أعطيته الحلوى، وابتهج، وضحك. تدلت ساقاه

الصغيرتان، ومنع والدته من خلع حذائه. كان يعاني من طفح جلدي مستمر وعلى قدمه بثور بيضاء مائية.

رأيت وجه الطبيب عبوسًا. وأمر والدته بحدة:

ـ افتحي فمك! أوسع، هيا!

وبعد أن فحص حلقها أمرها بخلع ملابسها.

قاومت المرأة.

ـ ما خطبك يا عزيزي، أنا بصحة جيدة، افحص لي الصبي، فقد تعرض للبرد.

وكرر الطبيب بقسوة غير معهود:

ـ اخلعي ملابسك، يقولون لكِ.

كانت المرأة مصابة بمرض الزهري الذي أصاب الطفل. كما أصاب، قبل ذلك، زوجها الذي سافر إلى البورصة في مدينة تولا.

عدت إلى المنزل ولم أستطع أتخلص من الشعور بأن شيئًا فظيعًا قد حدث، ولا يمكن إصلاحه.

عرّفتني العيادة الطبية على عالم جديد من الحزن، وجهل الناس، وكل يوم أكتشف شيئًا جديدًا، الأمراض عند الأطفال، العمى الليلي، الزهري، الجريمة...

عندما عدت إلى المنزل، اندهشت من أن كل شيء كان لائقًا وهادئًا ونظيفًا. كان الخادم يقدم الإفطار، وجلست أمي في مكانها بجوار السماور، وكانت جولي ـ مولي مستلقية على الأريكة، وتدور احاديث كنت أعرفها عن ظهر قلب: أن الفلاحين قد سمموا الشوفان، وأن

البارومتر كان يؤشر إلى طقس جيد، وأن نيكيش كان يؤدي بشكل غير عادي مقطوعة فريشيتس....

كانت في القرية فتاة معتوهة تدعى باراشا، ملقبة ب كينيا. غالبًا ما يقول الأب، وهو يدين لا منطقية المرأة وبهرجتها واهتمامها بصغائر الأمور، إن باراشا هي المثل الأعلى للمرأة. إنها لا تزعج أحدا، وخاضعة، وطيبة مع الجميع، وتشفق على الجميع، وتحب الجميع. فما هو المطلوب؟

أتذكر كيف كانت صديقتنا صوفيا ألكساندروفنا ستاكوفيتش غاضبة وكانت تلثغ ببعض الحروف:

ـ ما تقولون يا ليف نيكولايفيتش! من المقرف سماعكم، إنها معتوهة!

ـ لماذا يحتاج أمثالكم للعقل؟ ـ سأل الأب.

أتذكر أن باراشا حملت طفلا. ولم يُعرف المسؤول عن هذه الجريمة. وقالت النساء وهززن رؤوسهن: «رغم إن باراشكا معتوهة، معتوهة، لكنها تمكنت من إخفاء ذلك».

كانت غريزة الأمومة قوية جدًا فيها. استمرت في جمع الخرق المختلفة، وتوفير المال. عندما سُئلت: ما حاجتك لذلك يا باراشا؟ أجابت: والصغير؟ ـ وابتسمت ابتسامة غبية. ثم بعد ذلك صمتت، وسألت بإحراج، وتسمي جميع الفتيات ماروسيا:

ـ ماروسا، وماروسا، هل لديك كوبيك؟

لم تكن تحب الفضة.

ـ لا احتاج الى قطعة نقود بيضاء، أعطيني النقود ذات اللون الأسود.

حولت لها قطعة من فئة خمسة كوبيك، فاشرق وجهها وهي تمسك بالنقود في قبضتها، ووراحت ترن بها وتضحك، ومن ثم ربطتها بعناية

في زاوية المنديل.

كانت باراشكا تحرس لدينا العجول في الصيف. ذات يوم جاءت إلى العيادة لتلقي العلاج. كانت تعاني من مرض جلدي، فلم يتمكن الطبيب على الفور من تحديد سبب مرضها. ولسبب ما، تخيلت على الفور أنها مصابة بمرض الزهري. فحصتها في غرفة الاستقبال، ونسيت أن أغسل يدي بكلوريد الزئبق، وتذكرت ذلك في المنزل فقط. كانت لدي خدوش جديدة على يدي. انتابني الرعب، وبدأت أتجول في الغرفة بحثًا عن أي نوع من المطهرات، ولم أجد شيئًا. تنامت في داخلي قناعة بأنني مصابة بمرض الزهري. تصبب العرق على جبهتي، وعندما كنت أسكب كلوريد الزئبق على يدي من زجاجة كبيرة، جاء والدي. لاحظ على الفور اضطرابي.

ـ ماذا حدث لك؟

بدلاً من تهدئتي، اضطرب بنفسه.

ـ أوه، أنت عبثاً تذهبين إلى العيادة الطبية، عبثا.

بعد أيام قليلة قال لي:

ـ أنا أريد أن أطلب منك أن لا تذهبي إلى العيادة مع نيكيتين بعد الآن.

ـ لماذا ا؟

ـ لا حاجة لذلك.

ما عجزت أمي عن تحقيقه بأي وسيلة: بالصراخ، والشدة، وحتى بالضرب، حققه والدي في كلمة واحدة. أنا لم أعارضه أبدا، ونفذت كل رغباته. لكن هذه المرة كنت غاضبة. أعطاني العمل في العيادة الطبية الكثير. لقد كشف أمامي الحياة الفلاحية غير المزخرفة، وعززت إرادتي. وحاولت أن أشرح ذلك لوالدي، لكنه لم يأمر، بل ترجى:

ـ مع ذلك، ارجو منك عدم الذهاب مع الطبيب إلى العيادة الطبية بعد الآن، ولا داعي لذلك.

وأطعت.

كان نيكيتين طبيباً جاداً يتمتع بمعرفة علمية كبيرة ومهارات تنظيمية. لم تستطع واجبات طبيب الأسرة والعيادة الطبية الصغيرة في القرية أن ترضيه سواء من الناحية العلمية أو من الاجتماعية. مكث معنا حوالي العام وغادر أولاً لمدة ثلاثة أشهر بسبب وفاة والدته، ثم بشكل كامل. جاء إلى ياسنايا ـ بوليانا الرفيق ديمتري فاسيليفيتش، ومن ثم إيراسموس ليوبولدوفيتش جيدجوفت.

كان هذا نقيض نيكيتين: صفيق، صاخب، يتحدث عن نفسه، وكان يحب التباهي. تعامل مع المرضى بعنف وشدة، وصرخ عليهم. كان الطبيب الجديد من أولئك الذين يبغضهم الرجال وتحبه النساء. بدا لي أنه حتى جولي ـ مولي لم تكن غير مبالية به.

كانت في ياسنايا ـ بوليانا فئران كثيرة. كانت تقضم الأرض، وتتسلق على الخزائن، وتتلف الكتب، وتسقط الطعام، وأحيانًا تتسلق إلى الطاولة الليلية في الليل، وتأكل الشموع الشحمية، وأحيانًا كانت تتسلل من خلال البطانية إلى الفراش، ورؤوس النيام.

حدثتنا أمي عن انه عندما كان أندريه رضيعا دهنوا وجهه بالقشدة الحامضة من مرض داء الخنازير. وذات مرة دخلت أمي غرفة الأطفال ورأت أن أندريوشا يغط في نوم عميق، بينما كانت فأر ضخمة تلعق القشدة الحامضة من على وجهه، وإنها أمسكت بالجرذ وضربته بكل قوتها بالأرض.

تم تسميم الجرذان والفئران ونصب عدد لا حصر له من مصائد الفئران، لكن لم تسفر عن نتيجة. لم ترغب أمي في تربية القطط على الإطلاق، لأنهن في الربيع يأكلن البلابل التي أحببناها جميعًا كثيرًا.

اعتاد الأب أن يملأ مصيدة فئران بنفسه بقطعة جبن مُدخنة على شمعة، وعندما وقع فأر في الفخ، حمله بحرص بعيدًا إلى الغابة وأطلقه.

أكدت أمي لي أن هذه الطريقة غير مجدية، فالجرذان بلا شك ستعود، ويجب إغراقها في علب القمامة.

في بعض الأحيان تم ترتيب عملية صيد للفئران، شارك فيها الجميع أمي ويوليا إيفانوفنا، والطبيب، والمربية، والخدم. جرى إغلاق جميع الشقوق والثقوب، وطاردوا الجرذان بالفرشاة حتى القضاء عليها.

أتذكر ذات مرة طاردنا جرذا في غرفة نوم أمي. ركض كالمجنون في أرجاء الغرفة، وقفز على أيقونة كبيرة، وطردوه منها وقفز واختفى. فجأة صرخت المربية بصوت حاد غير طبيعى لها: كان الجرذ يجلس على ظهرها.

كان الطبيب رائعا. وقف في وضع الانتظار عند الباب، وعندما ألقى الجرذ نفسه عند قدميه، ضربه بكعبة حذاءه وسواه مع الأرض. استأنا نحن من ذلك، بينما هو ارجع رأسه إلى الوراء، وبصوت جهوري ضحك ملء شدقيه.

بقيت تانيا وزوجها وأبناؤها ـ ناتاشا ودوريك ـ معنا في ربيع ذلك العام. كان الربيع مبكرًا وحارا، وازدهرت الحديقة، وغطت بتلات بيضاء زهرية رقيقة الأرض السوداء المحفورة في دوائر، وتفتح الليلك المطل على جُنَينْات الزهور المهملة النامية بكثافة، وغردت البلابل على الشجيرات، كما لو كانت تتنافس مع بعضها البعض، وصفرت وخشخشت خنافس مايو في الأوراق على طول الطريق المؤدي إلى جناح عائلة كوزمينسك، وارتفع فجأة ومن دون خجل نقيق الضفادع من أسفل الترعة، كما لو كانت تحاول التغطية على صراخ الجميع. ترامت من القرية أغاني النساء، وخوار الماشية، والضحك، والأكورديون...

نمتُ أنا وناتاشا بشكل سيء في الليلُ وفكرنا بكآبة أن أفضل السنوات كانت تمضي من دون جدوى...

كانت ناتاشا والطبيب يجلسان في المساء، على مقعد تحت الشجرة المقابلة للمنزل، وتتحدث معه حول شيء ما، إلى ما لا نهاية. كنت غاضبة منها. شعرت بالملل من وحدتي، وتجنبت جدجوفت. كتب لي قبل عدة أسابيع رسالة غير لائقة، يتهمني فيها بالغنج، ولسبب غير معروف، أخبرني كيف أنه مذنب بحق فتاة انتحرت بدافع حبها له، وعلى الرغم من أن الطبيب كان قد اعتذر لي عن الرسالة، إلا أنني كنت اشعر بالضجر معه.

أتذكر، في الثالث والعشرين من أبريل، في عيد يوم اسمي، كان الجو حارًا كما في الصيف. ذهبنا جميعًا عبر النهار بالعربات التي تجرها الخيول، إلى العجوزة شميدت في قرية اوفسيانكوفا، وجلبنا معنا الضوضاء والقلق في مسكنها الهادئ، وشربنا عدة أواني من الحليب المثلج والخبز الأسود. جاء الأب إلى اوفسيانكوفا مما جعل ماريا ألكساندروفنا تتوهج بفرح، ومكث فترة قصيرة.

تناولنا العشاء على الشرفة بفساتين صيفية خفيفة، وفي المساء، جاء من مكان غير معروف عازف أرغن يدوي متجول. عزف، وتحدثنا أنا وناتاشا عن الحب وعن الطبيب.

وفي الصباح التالي غادرت عائلة سوخوتين ياسنيا ـ بوليانا وذهبت لتوديعهم إلى المحطة. وعندما قفلت راجعة، اعترضني جدجوفت بعربته. كان ينتظرني في الغابة.

بعد أسبوعين اعتدت على الطبيب، وحاولت تجاهل ابتذاله وتفاخره وثقته بنفسه. وبعد شهر قررت أنني واقعة في الحب.

في كثير من الأحيان، عندما اقطع شوطا بعيدًا في الحقل أو في الغابة، تنبثق أمامي قامة الطبيب الفارعة. مشى بجانب الحصان وتبادلنا أطراف الحديث. صارحني الطبيب بحبه لي، لقد كان محرجًا وخجولًا، وبدا لي مختلفًا تمامًا ـ بسيطًا ولطيفًا. لكن على الرغم من

أنني كنت مقتنعة بأني أحبه أكثر فأكثر، إلا أن شيئًا ما منعني من الاعتراف بذلك.

وكان الأب يراقب، وشعرت باستمرار بنظراته الثاقبة واليقظةّ. عرفت أن والدي سيحل لغزي بمجرد أن أرفع راسي وتلتقي عينيي بنظراته. وها قد حانت لحظة مروعة. أحضرت عمل والدي، ووضعته على الطاولة، وأردت مغادرة الغرفة دون أن أنظر إلى أعلى. صرخ والدي بي.

ـ انتظري، أريد أن أتحدث معك، ـ قال، دون ينظر لي أيضًا:

ـ ما نوع العلاقة الغريبة التي لديك مع الطبيب؟

لم يكن أبي معجبا بجدجوفت، كنت أعرف ذلك، رغم أنه لم يقل كلمة واحدة عنه.

ـ هل اعترف لك بحبه؟

ـ نعم.

ـ حسنا، ماذا كان ردك عليه؟

قلت له بيأس وكأنني أقع في الهاوية:

ـ أعتقد أنني أحبه.

ـ يا إلهي يا إلهي! ـ اشتكى الأب. ـ يا ترى أخبرته حقا.. هل وعدته بشيء؟

ـ كلا كلا! ـ اعترضت بشدة. ـ كلا!

تنهد والدي بارتياح.

حينها، أجهشت بالبكاء وتلعثمت، أخبرته بكل ما حدث بيني وبين الطبيب. واضطررت للتوقف عدة مرات، ولم يتيسر لي التحدث من

العبرات التي كانت تحبس حلقي. وعندما انتهيت ركضت إلى الشرفة، واتكأت على الدرابزين وبكيت لفترة طويلة. سمعت أبي يتجول صعودًا وهبوطًا في المكتب.

بعد أن هدأت، دخلت إليه وجلست على الكرسي مرة أخرى. بدأ يتحدث معي، ومع كل كلمة من والدي، أصبح واضحا لي أن جدجوفت غريب، وبعيد، ولم يكن لدي أي شعور جاد نحوه، وأن كل هذا نزوة، هراء، مستوحى من محادثات الربيع والليل مع ناتاشا.

ـ سأقول له أن يغادر.

لكن في نفس الوقت استولى عليّ الرعب من فكرة أن والدي، سيقلق، ويعاني، عند الحديث مع الطبيب.

ـ لا لا! ـ صرخت من الخوف. ـ أتوسل إليك، لا تفعل هذا، سأقوم بنفسي حتى يغادر. صدقني، صدقني، ـ قلت، وأنا أبكي، ـ لن أخفي أي شيء عنك بعد الآن، أعدك...

كنت واثقة من أنني سأفي بوعدي...

استدار الأب. ترددت أصوات سعال غريبة. أمسكت بيده وقبلتها. ونظرنا إلى بعضنا البعض بعيون دامعة.

فكرت، بعد مغادرة المكتب «جدجوفت، والمغامرات الغرامية، لا كل هذا يستحق شيئًا مقارنة بهذه السعادة. يا ترى هل استطيع تركه واستبداله بأي كان...»

واندفعتُ هابطة على الدرج، وبشكل غير متوقع لي قلت بصوت عالٍ: «اقطع عهدا بأنني لن أتركه أبدًا من أجل أحد».

في الطابق السفلي تعقبت الطبيب، وأخبرته.

ـ سأغادر غدا!

ـ متى ستعودون؟

ـ عندما لن تكونوا هنا.

وفي صباح اليوم التالي غادرت إلى أخي إيليا في مقاطعة كالوغا.

وخرج الطبيب ليودعني حتى السقيفة.

مكثت عند أخي مدة أسبوع. قمنا أنا وابنة أخي بتشغيل الجراموفون ووضعنا قرصي المفضل، رومانس «هدأت العواطف المضطربة» لـ جلينكا. لقد استمعت وبكيت على مغامرتي الغرامية الفاشلة. بدت لي في الأحلام، لقد كانت أكثر شاعرية مما كانت عليه في الواقع.

كانت صورة رائعة للطبيب، معلقة في غرفة جولي ـ مولي، رسمتها له بالزيوت.

عندما عدت، لم أجد جدجوفت. وبدلاً منه، عاد الدكتور نيكيتين مرة أخرى. سلمني رسالة منه سميكة. وبدافع الرغبة في الوفاء بوعدي، ركضت إلى والدي.

ـ أبي؟، رسالة من جدجوفت.

ـ وماذا في ذلك؟

أخذت المغلف دون أن أفتحه، ووضعت فيه رسالة جدجوفت، وختمته وكتبت عليه عنوانه. كنت أنتظر مباركة أبي، لكن والدي لم يتفوه بكلمة.

الآن يبدو لي أنني تصرفت بشكل سيئ.

سمعت من الدكتور نيكيتين أن جدجوفت شارك في الحرب الروسية ـ اليابانية كطبيب بحري، وتوفي هناك.

العم سيريوجا

بعد فترة وجيزة من عودتنا من القرم، جاء العم سيريوجا لرؤية والدي. كان العم سيريوجا نادرًا ما يزور ياسنايا ـ بوليانا، خاصة في الآونة الأخيرة، وكان من الغريب رؤيته في بيئة غريبة خارج ضيعته في منطقة «بيروجوفو». لم يكن أي أثر في ياسنايا ـ بوليانا لصرامته المعتادة، وانغلاقه على نفسه، وبدا أنه اصبح ليّنا تحت تأثير تأجج عواطفه. على هذا النحو أثّر عليه فرح اللقاء بأخيه، الذي لم يتوقع رؤيته بعد مرضه الخطير في القرم.

كان اللقاء مؤثرًا للغاية. حاول كبار السن تجنب القضايا الخلافية بينهما. أخبر أبي العم سيريوجا عن مشاريعه الأدبية، واستمع إليها سيرجي نيكولايفيتش باهتمام، على الرغم من أنه لم يستطع التعاطف معها كثيرًا بسبب قناعاته، وفي الصباح تناولا القهوة معًا، في مكتب والدي. في العادة، لا يدخل أحد المكتب في هذا الوقت، لأن والدي كان يبدأ عمله مع تناول القهوة: يقرأ البريد، ويفكر في العمل القادم. وكان على الأب الاهتمام بمودة بالعم سيريوجا، فسأله عما إذا كان متعبًا، وما إذا كان يريد الراحة، وقدّم له الطعام، واختار له التفاح الذي كان ليناً لأسنانه. بدا غريبًا جدًا، وفي نفس الوقت لطيفا، نُطقت أسماء التدليل «لوفتشكا» و«سيريوجا» على لسان الشيخين ذوَيْ الخامسة والسبعين عاما. الشيخوخة جعلت الأخوين متشابهين، فهما يتمتعان بنفس الهدوء، والطيبة ونبل الأرستقراطيين القدامى، ونفس طريقة التأوه، والتثاؤب بصوت عالٍ، حتى يرتجف كل من في المنزل.

كانت تتردد فجأة صرخات أو تنهدات مروعة من المكتب:

ـ أوه، أوه، أوه! ـ

يسأل الناس الذين تواجدوا في منزلنا لأول مرة ولم يسمعوا سابقا كيف يتثاءب أبي، بخوف.

ـ ما هذا؟ من الذي يصرخ؟ ليف نيكولايفيتش، هل يشعر بوعكة؟

ـ لا ـ أجبنا بضحكة ـ إن ليف نيكولايفيتش يتثاءب.

كانت حياة عائلة العم سيريوجا مميزة للغاية. كان الاضطراب ينتاب زوجته، الغجرية الوديعة ماريا ميخائيلوفنا وبناته الثلاث فيرا وفاريا وماشا، وهنّ أمامه. ساد الصمت دائمًا في المنزل. وفي بعض الأحيان، كان العم سيريوجا يتذكر شيئًا مزعجًا، أو يشعر بأنه ليس على ما يرام، يبدأ بالصراخ بصوت عالٍ في مكتبه:

ـ آآآآآآآآآآآآآآ!

تشعر الزوجة والبنات بالخوف أكثر، ويهمدن تمامًا.

لم أر في حياتي ابن سيرجي نيكولايفيتش، غريغوري سيرجيفيتش. قالوا إنه تشاجر مع والده، وتزوج ضد إرادته، وعاش في مكان ما في إقليم أوريل. كانت البنات الثلاث صديقات أخواتي، وتأثرن بأفكار والدي. أعطاهن العم سيريوجا تعليمًا منزليا جيدًا: فكن يعرفن اللغات جيدًا ويتحدثن مع بعضهم البعض، في اغلب الأحيان، بالفرنسية. لقد عشن بكل بساطة وقمن بكل شيء بأنفسهن: غسلن ونظفن غرفهن، وعملن في الحديقة وحلبن الأبقار. وفي الشتاء، درسنَ الأطفال القراءة والكتابة، وقدر استطاعتهن ساعدن الفلاحين. لقد عملن كل هذا بهدوء، ودون أن يلاحظه أحد، فهن يعرفن أن ذلك يثير استياء والدهن. وفي هذا النشاط، حاولن على ما يبدو إيجاد معنى الحياة.

كانت لديهن مخيلة غريبة. أتذكر أنني أتيت إلى بيروجوفو، وكانت فيرا وفاريا تدرّسان الأطفال في الغرف الخلفية.

أخبرتني فيرا:

ـ لدينا درس اللغة الإنجليزية.

ـ اللغة الإنجليزية؟ ـ تفاجأت ـ ما حاجتهم إلى اللغة الإنجليزية، بينما هم لا يعرفون الروسية بشكل صحيح.

ـ نعم، أرادوا ، ـ قالت فيرا بخنوع، ـ لذلك أعلّمهم.

تحدثت الأخوات الثلاث بخفوت، كما لو كن يعتذرنَ عن تجرؤهن على التحدث على الإطلاق. وعندما ضحكت فيرا ، كانت دائمًا محرجة، وتغطي فمها بيدها.

ـ تصوري، أنا أشرح كلمة لهذا الصبي بالإنجليزية ـ ووضعت يدها برقة على رأس أحد الأطفال ـ وقال لي: « تشرحون جيدا ! «ما هذا؟

بنات عمي عشن في عزلة، ولم يرين أحداً، ولم يتواصلن إلا مع الفلاحين والعمال والأشخاص الأقل تطوراً منهم بكثير. أبعد العم تدريجياً سيريوجا عنه جميع الجيران. كان غير صبور، ولا يحتمل الخواء الروحي والذهني والابتذال. بدا له ملّاك الأراضي الذين يعيشون بالقرب منه في بيروجوفو أجلافاً وقليلي التعليم. كان سيرجي فاسيليفتش وهو أحد الجيران مغرمًا بشغف بابنته الصغرى، ماشا ، وماشا ، هادئة، صغيرة، ذات شعر أسود مموج، مثل الغجرية، كانت خجولة أمام والدها ، ولا تعرف كيف تتعامل مع المهتمين بها من الرجال.

قالت:

ـ حسنا ـ قالت ـ لا يهم إن سيرجي فاسيليفتش يقول ان «الكلب ينبح»

كان سيرجي فاسيليفيتش بيبيكوف ـ شابا فارع الطول وفخما ذا شارب طويل معقوف بشكل جميل ـ مالكًا للأراضي ـ نبيلًا وشغوفا بالصيد، وفارسًا ، لكنه كان قليل التعليم. اعتبر العم سيريوجا انه لا يستحق ابنته. أغلقت أبواب منزل بيروجوفو في وجهه، لكنه حاول أن يرى ماشا بكل طريقة ممكنة، ظهر أمامها على ظهور الخيل، وفي الحقل، وفي الغابة ساعيا لنيل حبها.

تبعد بيرجوفو خمسة وثلاثين فيرستاً عن ياسنايا ـ بوليانا، بيد أنها كانت منطقة مختلفة تمامًا. انتهت الغابات وبدأت السهوب بعد أميال قليلة من ياسنايا ـ بوليانا،. كان فلاحونا مدللين، ولم يعتادوا منذ فترة طويلة كسائر الفلاحين على ارتداء الأزياء المنزلية، والقمصان المطرزة، والسراويل الداخلية، ولكن في بيروجوفو لا يزال بإمكان المرء أن يرى، خاصة على النساء المسنات، الزي القديم للفلاح. في ياسنايا ـ بوليانا، يخرج الفلاحون ويذهبون للعمل في المدينة في المصانع والمزارع. كانت الأرض سيئة، وليس بالإمكان إطعام الأسرة بمنتوج الحقول الصغيرة. بينما في بيروجوفو كانت هناك أرض رائعة وتربة خصبة، وكان الفلاحون يعيشون بشكل أساسي على الزراعة، وجاء أفضل طحين الجاودار إلى سوق مدينة تولا من هذه الأماكن. تحدث فلاحو ياسنايا ـ بوليانا بازدراء عن فلاحي بيروجوفو: «حسنًا، ما يفهم فلاحو السهوب؟!». بدورهم تحدث فلاحو بيريجوفو عن فلاحينا «مدللون، في اطراف المدن».

في بعض الأحيان يستغرق السفر ظهور بالعربة من ياسنايا ـ بوليانا إلى بيروجوفو ثلاث ساعات على الأقل، ولا جدوى من السفر بالقطار، لأن بيروجوفو تقع على بعد سبعة عشر ميلاً من المحطة. امتدت طريق كبيرة طوال الوقت تقريبًا، وحقول لا نهاية لها، وأسماء القرى غريبة، ولا سيما البعيدة في أعماق السهوب: «ذيول البقر»، «إيكونوفسكي فيسيلكي». بالقرب من بيروجوفو، كان من الغريب أن تسمى مزرعة العمة ماشا «بورتوتشكي». اعتدنا أن نضحك عندما تسأل الرجال: «من أين أنتم؟» فيجيبون: «نعم من ضيعة الكونت بورتوتشكي». تلوح بيروجوفو من بعيد. تقف عاليا على تلة، وعلى خلفية المساحات الخضراء المظلمة الكثيفة، برزت بصورة مفاجئة الكنيسة القديمة البيضاء. في الأسفل، نهر «أوبا» الذي يلتف في دوائر لا نهاية لها عبر المرج الضخم، وعلى جانبي النهر، على ضفاف شديدة الانحدار، ثمة قرية، وعلى الجانب الأيمن ضيعة صغيرة لعمتي ماشا، وعلى اليسار، خلف الفضاء الأخضر، خلف الكنيسة، بيروجوفو «الكبيرة» كما أطلقنا عليها.

كان المنزل قديمًا، وممتدا، مع دفيئة كبيرة، حيث كان لدى العم دائمًا الكثير من الزهور. الأثاث من الطراز القديم، كالحة وذاوية من القدم، ذات غطاء أثاث رث، تعود معظمها لنيكولاي إيليتش تولستوي(53).
وبالقرب من المنزل توجد حديقة صغيرة ولكنها قديمة ومهملة. نمت الأعشاب في بعض الدروب لدرجة أن الشمس بالكاد تخترقها، وكانت طازجة ورائحتها رطبة. أحيطت حوافي الدروب الأخرى بعظام الذئاب، مما ترك فيّ انطباعًا مروعا عندما كنت طفلة، وشعرت بالرعب عندما تخيلت أن العم سيريوجا قتل هذه الحيوانات أثناء الصيد.

(53) الكونت نيكولاي إيليتش تولستوي (1794 ـ 21837 ا) ـ ضابط روسي من عائلة تولستوي، والد الكاتب ليف تولستوي.

لا أعرف لماذا، لكن العم سيريوجا كان لطيفا دائمًا معي ولم أخفه. عندما كنت أزروهم كان يسألني عن والدي مهتمًا بأدق تفاصيل حياته. كان عليّ أن أخبره بما كتبه والدي، ومن زاره، وما هو مزاجه.

في المساء، عندما أضيئت غرفة الضيوف بمصباح الكيروسين ذي الغطاء الكبير الداكن، جاءت لي، بخطوات غير مسموعة في حذاء من مادة قماش سميك، عجوزٌ صغيرة متغضنة في قبعة سوداء وبدلة سوداء، وقالت مبتسمة بزوايا فمها عديم الأسنان:

ـ حسنًا، يا رائعتي (كانت كلمتها المفضلة ـ رائعة، رائعة)، غنِّي شيئًا.

نظرتُ جانبيًا تجاه العم سريوجا.

قالت وهي تومئ برأسها:

ـ سيكون سيرجي نيكولايفيتش سعيدا.

ـ غني يا الكسندرا لفوفنا الاغنية الغجرية «مضى مئة فيرستا»،

قال سيرجي نيكولايفيتش مبتسما:

ـ غني، غني.

ثم صعدت إلى البيانو وغنيت، ووقفت السيدة العجوز بجانبي تبتسم وتردد كلمات غجرية من بعدي بصوت هامس.

ـ العمة ماشا ـ سألتها، بعناد ادعوها باسمها فقط على الرغم من أنها تنادي بالاسم والعائلة ـ ماذا تعني هذه الكلمات الغجرية؟

حاولت أن تتذكر لكنها لم تستطع. خلال حياتها الطويلة مع العم سيريوجا، نسيت لغتها الأم.

ـ أنا لا أتذكر، يا حبيبتي، لا أتذكر. غنِّي شيئًا آخر.

قالوا عندما كانت صغيرة، كان صوتها بديعا، لا يمكنك الاستماع إليها بدون ان تذرف الدموع. لكنها لم تغن بحضوري.

وهكذا استمرت الحياة في بيروجوف. ولم يتوقع أحد الأحداث التي وقعت هنا، واقل من توقعها هو العم سيريوجا الذي لا يمكن أن تجلب له أي أحداث ذلا اكبر من الذي تعرض له.

عاش في المنزل طباخ، شاب وسيم يدعى فولوديا، أحد أولئك الذين نشأوا وترسخوا في منازل العزبة لسنوات عديدة.

وقعت فارفارا الدميمة، الضئيلة كالقزم تقريبًا، ذات الجديلة الطويلة والسميكة في حب الطباخ.

فهمت تعاليم والدي بطريقتها الخاصة، وقررت أنها كانت تتصرف وفق تعاليم تولستوي، وليس هناك فروقات بينها وبين الطاهي. وقالت ابنة عمتي إيلينا سيرجيفنا دينيسينكو(54) بإنه عندما تشاورت فاريا مع والدي بشأن زواجها، شعرت بالدهشة لأن والدي عاملها بقسوة أكثر من سيرجي نيكولايفيتش، وأدانها بشدة ليس فقط لأنها ستؤذي العم سيريوجا، ولكن برأي أبي، انه لا يمكن أن يكون الزواج سعيداً بين شخصين بمستوى متفاوت من التطور، وليس لديهما المصالح المشتركة.

(54) إيلينا سيرجيفنا دينيسينكو الأبنة الصغرى لأخت ليف تولستوي.

لكن فاريا لم تطع أحداً، وبارحت المنزل.

وبعد فترة اندلعت مصيبة ثانية.

كانت عائلة سيرجي تولستوي تستخدم كل صيف تقريبا أبناء قومية البشكير القاطنين في سهوب إقليم سامارا الذين يعرفون كيفية صنع القمارص(55). كان القُمارص مفيدا بشكل خاص لابنة سيرجي نيكولايفيتش فيرا التي احبها، وكانت تعاني من فقر الدم، ولديها ميل للإصابة بالسل.

(55) القُمارِص أحد أنواع الألبان المُخمّرة سمّاه العرب بالقمارص لأنه يقرص اللسان لشدّة حموضته.

وفُتنت فيرا بشاب بشكيري وسيم.

أخبرتني بعد بضع سنوات:

ـ لقد كان حسنا للغاية، قرأ كل كتب ليف نيكولايفيتش، تحدثت عن اللهّ، وتحدث معي عن الروح وشعرت بالشفقة عليه، ثم وقعت في حبه. ما رأيك يا ساشا ـ سألتني بسذاجة ـ هل تصرفت بشكل سيء للغاية؟

غادرت فيرا المنزل مع البشكيري.

لم يشك العم سريوجا لأحد، ولم يتحدث مع أحد عن ذلك، ولكن أحياناً سُمعت منه صيحات رهيبة في المنزل الفارغ:

ـ !!!!!!

وقفزت المرأة العجوز الصغيرة المتغضنة في رعب، واقتربت بخطوات صامتة من باب المكتب، ورسمت شارة الصليب على نفسها، ولم تجرؤ

على الدخول، وعادت إلى غرفتها.

وسارع العجوزان بموافقتهما على زواج ابنتهم الأخيرة من سيرجي فاسيليفيتش بيبيكوف.

استقرت فيرا في بلدة مع طباخها. وقيل إنه مارس التجارة بأموالها، وبدأ بالإدمان على الشرب، وضرب زوجته الصغيرة بقسوة. ثم جاء الأطفال، وتركها الطاهي، وخلال ثورة اكتوبر 1917، ماتت في مكان ما في البرية ـ وحيدة، تعسة، تاركة وراءها العديد من الأطفال.

أصبح الجو أكثر كآبة في بيروجوف. وكان العم سيريوجا صامتًا ويصرخ فقط وهو جالس في مكتبه، ولم تشتك ماريا ميخائيلوفنا، ولم تُدِن بناتها، وتساءلت عندما جاءت إلينا إما من المعاناة أو الحيرة:

ـ ما هذا؟ فاريا، فاريا... وماذا عن فيرا، فيرا، إيه؟

والدموع تنهمر في عينيها.

بعد عام، عادت فيرا، وولدت، في أبعد غرفة عن مكتب العم سيريوجا، صبيا ضئيلا أصفر الوجه بعينين مائلتين ـ ميشا. سامح العم سيريوجا ابنته، بيد أنه لم يرغب في رؤية حفيده.

توفي العم سيريوجا في عام 1904. أصيب بسرطان اللسان. عانى بشدة، وقامت على رعايته فيرا وماريا ميخائيلوفنا، وذهب أبي لرؤيته في بيروجوفو وعاد مرتبكا، وكئيبا...

كتب والدي في 17 أغسطس/ آب في يومياته:

«بيروجوفو. امضيت ثلاثة أيام. كانت حالة سيريوجا صعبة للغاية. يتألم جسديا ومعنويا بشدة ولا يستسلم».

لم يستطع العم سيريوجا الاستسلام للمعاناة، وحتمية الموت، وتذمر من القدر، ولم يجد العزاء الروحي. عانت ماريا ميخائيلوفنا من أجله،

معتقدة أن «الاعتراف» للكاهن، وتناول «القربان» لتذكيره بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه، يمكن أن يخفف عنه، ولكنها عرفت اشمئزازه من الكهنة، فلم تجرؤ على استدعاء الكاهن. ساعدها والدي، واقترح على العم الاعتراف. وافق العم سيريوجا وهدأت ماريا ميخائيلوفنا ، وفرح والدي، وكان يأمل أن القس على الأقل يساعد سيرجي نيكولايفيتش في الاستعداد للموت.

عندما توفي العم سيريوجا بقيت المرأة العجوز ماريا ميخائيلوفنا في بيروجوف مع ابنتها فيروشكا ، ووجدت العزاء في حفيدها ميشا ـ أصفر الوجه، ذي النظرة العابسة. لم يتحدث مع أحد سوى مع أمه وجدته، وتجنب الجميع. عندما كبر وبدأوا في تعليمه القراءة والكتابة، ظل يحاول الكتابة من اليمين الى اليسار ـ بأسلوب شرقي.

كانت فاريا مع أطفالها وزوجة غريغوري سيرجيفيتش مع العائلة.

أثناء الثورة، عندما دُمرت ضياع أصحاب الأراضي، جرى تحذير فيرا من أن الفلاحين سوف يدمرون ضيعة بيروجوفو ليلا. أخذت فيرا معها أكثر الأشياء الضرورية، والعجوز الطاعنة في السن ماريا ميخائيلوفنا وميشا ، تاركة عشها القديم إلى الأبد ، واختبأت عند الكاهن. من هناك، نقلهم فلاح على عربة هزازة إلى مدينة تولا على بعد خمسين ميلاً. وبعد أن قطعوا عدة أميال، رأوا وهجًا هائلاً في السماء: لقد أحرق الفلاحون الضيعة في بيروجوفو.

نهب الفلاحون الحاجات القديمة لعائلة سيرجي تولستوي ونقلوها إلى منازلهم، من بينها الكلافيكورد (56)القديم، الذي عزفت عليه ماريا نيكولاييفنا ، جدتي، أم والدي.

(56) الكلافيكورد (Clavichord) هو الجد الأكبر لالة البيانو والتي تم تطويرها إلى أن أصبحت آلة البيانو الحالية

مرضت ماريا ميخائيلوفنا وتوفيت بعد السفر إلى تولا على عربة مهتزة.

تنقلت فيرا لسنوات عديدة حول جنوب روسيا، وعاشت في الفقر والجوع والبرد. وتعين على ميشا، الذي كان ضعيفًا ومريضًا مثل والدته، العمل في المصنع كميكانيكي بسيط. وجاءوا أخيرًا إلى ياسنايا بوليانا منهكين، نحيفين، بملابس قديمة رثة. التحق ميشا مرة أخرى بمصنع بالقرب من تولا، لكنه أصيب بنفث الدم، واصبح طريح الفراش، وسرعان ما مات. وبعد بضعة أشهر، توفيت والدته بمرض السل في المستشفى.

من جميع أفراد الأسرة، نجت ماريا سيرجيفنا فقط. مات زوجها، وحصلت على قطعة من الأرض تعمل الآن فيها مع أطفالها.

في البيت مجددا

لاح لنا أن أبي كان يتعافى، بيد أننا ما زلنا نخشى عليه. وبدا لنا أن أدنى وعكة، وعسر في الهضم، وضيق التنفس، هي مؤشرات لبداية لمرض جديد. أمسكنا بيده، وحسبنا نبضه، ولوح هو بها، وضحك، لكن مع ذلك صبر وتحمل مضايقاتنا.

على ما يبدو، كان لظروف ياسنايا ـ بوليانا التي إعتاد عليها تأثير رائع عليه. أكد الأطباء شكوروفسكي وأوسوف، الذين جرى استدعاؤهم من موسكو، مع الدكتور نيكيتين، أنه لا يمكن إيجاد شيء افضل من ذلك، يجب عليه البقاء في ياسنايا ـ بوليانا، لكنهم نصحوا والدي بالصعود إلى الطابق العلوي. انتقل الأب من الغرفة التي تعج بالخزائن، إلى غرفتين يسودهما الضوء، بجوار غرفة الضيوف، في الجانب المشمس. في الغرفة الأولى رتبوا له المكتب وفي الثانية ـ غرفة النوم.

زادت قوته تدريجيا. قام بإطالة فترة المشي، وحاول ممارسة الجمباز. أتذكر المرة الأولى بعد المرض التي ركب فيها والدي حصاناً كنت قد اشتريته للتو. بالكاد رفع ساقه اليسرى في الرِّكاب، وبجهد ألقى بجسده، حمى الحصان، واختفى على طول الدرب الذي نسميه بـ«الممر». لم يستقر لي قرار، خُيل لي أن والدي غير قادر على التعامل مع الحصان الشاب المحتدم، وكنت أتطلع إلى عودته.

ـ كنت في منطقة كوزلوفكا! ـ صرخ لي بمرح وهو يقترب من المنزل.

ما أن رأيته، حتى أدركت أنني كنت قلقة من دون سبب. سار الحصان «ديلير» بخطوة هادئة ومنسقة... كما لو أن والدي قد اعتاد على الحصان منذ فترة طويلة، وشعر الحصان بأنه صاحبه، وانصاع له.

قال والدي:

ـ «ديلير» حصان جيد، وذكي وهادئ، وفي نفس الوقت حامٍ.

كنت سعيدة لأنه أحب الحصان فتوقفت عن ركوبه، والدي إعتاد عليه، ووقع في حبه، وركبه حتى الأيام الأخيرة من حياته.

بدا لي أن سجايا العادية لوالدي: الابتهاج بالحياة، وبالزهور، وبالأشجار، وبالأطفال، وكل ما يحيط به ـ قد تكثفت لديه بعد مرضه، وكما يتراءى لي الآن، إنه قادم من الغابة، ببلوزة بيضاء تجلس مثل كيس على جسد نحيل، والياقة خلفها، وعظام الترقوة بارزة، وهو يسير من دون قبعة، وعلى رأسه شعر ناعم رمادي.

قال مبتسماً بمرح:

ـ انظري إلى ما جلبته.

أنظر في قعر القبعة. هناك عدة حبات من الفطر موضوعة بعناية على ورقة أرقطيون.

ـ شمي، فقط شمي رائحتها! رائعة!

أنا أشم الفطر وأستمتع به أيضًا.

ربما دفعته فرحة العودة إلى الحياة، إلى مواصلة الإبداع الفني. شرع والدي في كتابة رواية «حاج مراد». كنت أنا وماشا، التي كثيرًا ما زارتنا في ذلك الوقت، سعيدتين، لكننا كنا خائفتين من إظهار ذلك حتى لا يؤثر سلبا على مزاج والدي. كنا نتطلع إلى كل فصل جديد يخرج من تحت قلمه. لقد شعرت بالاستياء لأن ماشا وكوليا نادرا ما يسمحان لي باستنساخ «حاج مراد»، لأنهما نسخا كل شيء بأنفسهما.

لكن والدي لا يمكن أن يكتفي بعمل فني واحد. فبعد مقالته «إلى رجال الدين» كتب العمل شبه الروائي «تدمير الجحيم واستعادته» الذي أثار سخط والدتي. وقالت:

ـ ها أن ليف نيكولايفيتش كتب العمل الرائع «حاج مراد» وهو الآن يكتب قذارة شريرة مقززة... لماذا هذا؟ اللعنة، الجحيم، كل هذا رجس...

مقرف...

لم أقبل وجهة نظر والدتي، فكل ما كتبه والدي كان رائعًا. فقط انقسم في ذهني إلى أكثر او أقل إثارة للاهتمام. كنت حزينة، وأنّبتُ نفسي، لكن ما يثير اهتمامه أكثر فأكثر، بدا لي أحيانًا مملًا.

في ذلك الوقت، درس والدي البوذية والإسلام واليهودية، ومن جميع المعتقدات اختار ما يتوافق مع نظرته العالمية.

قال بعد قراءة كانط وشوبنهاور ومونتين ومفكرين آخرين: «يا لها من صحبة رائعة قضيت مساء اليوم».

لقد شكل دائرة القراءة الخاصة به ـ مجموعة من الكتب التي أعطته غذاء روحيًا، وفي كثير من الأحيان شرع في التفكير بكيفية جعل هذه القراءة في متناول عامة الناس.

أحيانًا في الصباح، يقتطع صفحات التقويم، ويستاء من الاختيار السيئ والعشوائي للأقوال التي كتبت عليها. ربما هذا أوحى له بفكرة تأليف شيئًا مثل التقويم يتضمن أقوال «خواطر حكماء»، مثل الأحجار الكريمة، وراح يبحث عن الأقوال في مجموعة الكتب التي حوله، ويربطها واحدة بالأخرى في تسلسل متناغم، ويمثل هذا الكتاب بداية تجميع عدد من المجموعات ـ كان والدي يعمل فيها حتى نهاية حياته.

يا لها من فرحة عندما أرسل إيفان إيفانوفيتش جوربونوف النسخ الأولى من كتاب «أفكار الحكماء». لم يشبع والدي من معاينتها، وعرضها على الجميع، وقرأها بصوت عالٍ. لا أتذكر أي كتاب آخر قد منحه مثل هذه الغبطة. يفتح، في بعض الأحيان، صفحة بشكل عشوائي ويقول:

ـ حسنًا، ساشا، أخمن، إن هذا القول لك!

ويفرح إذا استبان أن المحتوى مناسب لي.

في هذا الوقت، وقع حدث أخلّ بمجرى حياتنا الهادئ.

جلسنا في المساء في القاعة وشربنا الشاي. شعرنا برائحة دخان. في البداية كنا نظن أن الخدم قدموا سماور ما زال يبعث جمره غاز الفحم، ودعوا الخادم، فأخرجه، ونفخ عليه، لكن لم يكن هناك شيء في السماور. قاموا بفحص جميع المواقد، لكنهم لم يجدوا أي شيء هنا أيضًا، وقرروا أن البواب قد أطلق الدخان عندما وضع السماور. وعند هذا هدأ الجميع واستعدوا للنوم. كانت أمي فقط قلقة، وجابت في أرجاء المنزل، بحثًا عن سبب الرائحة. وأخيرًا، فتحت باب العلية، وصرخت بصوت عالٍ، من حيث جاء الدخان الكثيف.

ـ حريق! ساشا! نادي بسرعة على الناظر، والعمال.

لم أستمع للنهاية، ركضت بسرعة فائقة إلى الفناء. كان الناظر بيوتر ألكسيفيتش نائمًا. أيقظته بطرقي، وقفز ناعسًا وهو بقميص النوم.

صرخت به واندفعت الى العمال:

ـ عجل! عجل! البيت الكبير يحترق!.

عندما عدت إلى المنزل، كان العمال يحملون دلاء من الماء إلى العلية. وتم تنظيم طابور من الأشخاص على الدرج، وراحوا ينقلون برميلين من مياه الترعة. لم تكن هناك سيارة إطفاء في ياسنايا ـ بوليانا. اشتعلت خشبة بلوط سميكة فوق مكتب والدي، وأخمد الحريق، وبقي عاملان للخفارة في العلية طوال الليل. اتضح أن حجرا سقط في أنبوب المدخنة الأفقي المتصل بالموقد، واشتعلت في النهاية النيران تدريجياً، ولو لم تكتشف أمي سبب الحريق، لكان من الممكن أن ينهار السقف ليلا فوق رأس والدي.

لم يتوقف أبي عن إيجاد اهتمامات جديدة، وكثيرًا ما يكرر أنه لم يكن لديه ما يكفي من الحياة لإنجاز كل شيء، وتعبت أمي. كتبت في دفتر يومياتها: «أنا أعيش بلا حياة». كان كل ما يقلق والدي غريبًا عنها، ولم تهتم بشغفه الجديد بأقوال الحكماء، على الرغم من أنها كانت تحب اقتباس اثنين أو ثلاثة من أقوال سينيكا وسبينوزا.

كانت أمي مشغولة طوال الوقت. وعندما تراكمت في القاعة الكثير من الكتب التي أرسلها مؤلفون وناشرون لوالدي، حملتها أمي مع يوليا إيفانوفنا أو مع أبريكوسوف، وهو من الذين يشاطرون أفكار أبي وكان غالبًا يتواجد في منزلنا في ذلك الوقت، ووضعتها في الخزانات، وأدرجتها في الكتالوج الذي وضعته، ووزعتها على الرفوف. جمعت قصاصات من الصحف، ولصقتها في إضبارة خاصة، وفي بعض الأحيان ولعت بالتصوير بحماس، والتقطت صوراً، وبيّضتها بالحامض بنفسها، واستنسختها. في بعض الأحيان، حين لا تعرف ماذا تفعل مع الطاقة المتراكمة فيها، تقوم بجمع القمامة وأعقاب السجائر، وقطع الورق في أكوام صغيرة ثم تحرقها، على الرغم من أن هناك بستاني لهذا الغرض، وأن العشرات من العمال المياومين يتسكعون دائمًا حول المنزل. كان لديها في غرفتها كل أدوات البستنة: مجرفة إنجليزية صغيرة، منجل، مجرفة، مطرقة، مسامير، ومنشار، ومقص أعشاب، وعندما ينمو نبات القراص والأرقطيون في الصيف بالقرب من المنزل، تقوم أمي بقصها، وفي فصلي الخريف والربيع، قصت الأغصان في شجر الليلك والسنط، وكانت تحب صبغ طاولات الحديقة، والمقاعد، والمغسلة في المنزل.

كانت طاقة أمي ضخمة. لا يمكنها أن تظل غير نشطة. مرت فترة أمضت فيها أيامًا كاملة في تعلم الطباعة على آلة طابعة أيضًا، واهتمت فجأة بالرسم، ورسمت نسخًا من صور أسلافها، ووالدها، وبدأت في رسم صورتي. ثم استبدلت الرسم بالكتابة، ونشرت مجلة «الحياة للجميع» قصيدة نثرية بعنوان «أنين» من تأليف والدتي. لكن ولعها الرئيسي كان الموسيقى. لم يقتصر الأمر على قضاء ساعات في عزف درجات السلم الموسيقي، وتمارين على الارغانون، بل حاولت معرفة ما جرى عزفه في حفلات تانييف الموسيقية: بيتهوفن، وموزارت، ومندلسون. عزفت المقطوعات من البداية إلى النهاية في عدد لا حصر له من المرات، وكانت ترتكب الأخطاء نفسها دائمًا، وتنقر بصوت عالٍ على المفاتيح بأصابعها المنحنية بشدة.

طلبت على الفور من كل من جاء لزيارتنا، ويجيد العزف ولو قليلاً على البيانو، أن يعزف معها بأربع أيادٍ، وتم قياس مكانة الضيف ولياقته، بما إذا كان يعزف على البيانو.

كانت تزورنا سيدة شابة من تولا، تدعى ناديشكا إيفانوفا، وهي ابنة تاجر غير مثقف وفّر لابنته الوحيدة تعليمًا في المدرسة المتوسطة. كان لإيفانوف منزل في شارع كيفسكايا، ومحل بقالة، وفناء صغير كريه الرائحة حيث توقفت خيولنا.

غرفت ناديتشكا من التعليم، وجاءت إلى منزلنا مثلما سعت إلى الشمس. ولكنها كانسان ضيقة الأفق، فقد قرأت بشكل عشوائي كل ما وقع بيدها. قرأت بشغف الجرائد والمجلات وشوبنهور وماركس وإنجلز ومتشنيكوف وتولستوي وروزانوف وكانط...

لم تستطع هضم كل هذا الطعام المتنوع، واندفعت من جانب إلى آخر، بحثًا عن الاستفادة من «تعليمها». ألقت بنفسها فى اتجاه التولستوية، وكادت أن تنجرف إلى الاشتراكية، لكنها أصيبت بخيبة أمل في كليهما. خطبها أقاربها من التجار الأغنياء، لكنها رفضت المتقدمين الأميين، بسخط. وأخيرًا، عثرت ناديتشكا على ضالتها. بدأت ناديتشكا فجأة تتعلم الموسيقى بشغف غير عادي، رغم أنها تفتقر إلى الموهبة الموسيقية، ولديها أذن موسيقية متواضعة. اشترت لنفسها بيانو كبيرًا، وأنفقت المال على المدرسين، وضربت على لوحة المفاتيح بلا أمل لعدة سنوات، وأصبحت أخيرًا معلمة موسيقى.

ازدادت زيارات ناديشكا. وارتفعت من الصالة أصوات علية كان ينبغي أن تكون لهايدن ولموتسارت ولبرامز. كلاهما قصيرة النظر، تدفعان حامل نوطة القطع الموسيقية إلى مقربة، أمي ونادية تضغطان بلا رحمة على الدواسة اليمنى أمسيات كاملة، تعزفان بأربعة أيدي. في بعض الأحيان حلت ناتاشا سوكوتينا محل ناديشكا. لقد أزعجتني هذه الموسيقى، لم أستطع تحملها. غالبًا ما كان اللاعبون يتفرقون، ويلعبون بعيدًا عن العديد من الأشرطة، وهو ما أدركوه في نهاية الصفحة. ذهبت

لاستنساخ ما كتبه والدي، في الطابق السفلي في الزاوية في غرفتي، وفكرت برعب أنه قد فُرِض على والدي الاستماع إلى هذه الحفلات لساعات.

في كثير من الأحيان غادرت أمي ياسنيا بوليانا إلى موسكو، وعندما تعود من هناك مبتهجة وحيوية ومليئة بالانطباعات من الحفلات الموسيقية والاجتماعات مع العائلة والأصدقاء، كنت أشعر بحالة من الغم والغضب كانت تعذبني في طفولتي.

في بعض الأحيان، وبما تتصف من طاقة، تولي والدتي الاهتمام بشئون الضيعة. لكنها لم تفهم، ولم تكن تعرف هذا العمل ولم تستطع القيام به بشكل جيد. لم تلفت انتباهها إلى الجوانب الأساسية، ولكن فقط إلى الأشياء الصغيرة. أغضبتها النساء اللواتي يحملن العشب عبر الضيعة، والمرأة العجوز التي تسحب غصنًا جافًا من غابة السيد، ولكنها لم ترَ سرقات الناظر، والبستاني، ولم تلاحظ الاضطراب السائد.

أتذكر حادثة مروعة نتجت عن سوء الإدارة. منذ زمن بعيد، أخذوا في ياسنايا ـ بوليانا، الرمال من ما يسمى بحفرة الرمال ـ وهو تل يبعد نصف فيرستا عن الضيعة، حيث توجد رواسب جيدة من الطين الناعم والرمل. قيل أنه في عهد والدي، تم تنظيم المحاجر بشكل صحيح، حيث كان الأمر سهلاً، دون التعرض لخطر انهيار الرمل. لكن الناظرين لم يهتموا بهذا، على الرغم من أنهم استحصلوا من الرجال على عشرة كوبيكات على كل عربة. حفروا بشكل عشوائي لأخذ الرمال. وعلى هذا النحو، طمر الرمل الفلاح سيميون فلاديميروف أمام عمدتنا أدريان بافلوفيتش. حفر الفلاح عميقاً، وبدأت الحفرة تنهار عليه، وتشنجت ساقاه وصرخ طالبا المساعدة، لكن نجل سيميون وأدريان بافلوفيتش هبّا لمساعدته، عندما غمرته الرمال حتى خصره. أرادوا رمي حبل له، لكنهم شعروا بالرمال تسيح من تحت أقدامهم وقفزا إلى الوراء. لقد شاهدا كيف تطمره الرمال تدريجيًا، واستوت الحفرة.

قال أدريان بافلوفيتش:

ـ لا يمكن رؤيته بعد الآن، ولكن ما يزال بالإمكان سماعه يصرخ من تحت الرمال.

ركضوا إلى الضيعة حيث ابلغا عن الفاجعة. هرع الجميع إلى «حفرة الرمال». ونادرا ما رأيت والدي مستاءً بهذه الصورة، وحفر جنبا إلى جنب مع العمال، لانتشال سميون.

ـ لا يجوز، لا يجوز القيام بمثل هذه الأشياء ـ قال لأمي ـ اذا كنت تديرين شئون الضيعة لابد من القيام بذلك بصورة حسنة، أو تخلي عنها تماما.

كانت المرة الوحيدة في ذاكرتي عندما تدخل والدي في شؤون الضيعة. استأجر حفّارين، وشرح كيفية فتح محجر، ومنذ ذلك الحين غالبًا ما ذهب إلى «حفرة الرمال» ـ ورأى ما إذا كانت الرمال قد أخذت بشكل صحيح.

اعتقدت الأم أن أهم شيء في حياتها هو رعاية والدي. وبعد أن شعرت بالخلاف الداخلي بينها وبينه، تمسكت بالرعاية الخارجية له مثلما يتمسك غارق بالقش. كانت سعيدة بالقبعة التي حبكتها له، وبالبلوزة الجميلة التي خاطتها. طمأنت نفسها بهذا ، ولم تأخذ بالحسان أنه ليس بميسور أي رعاية خارجية التخفيف عن القلق الذي ينتاب والدي من المعاناة الروحية. لقد اعتقدت بصدق أن والدي سيموت إذا لم تضع سراً مرق اللحم في حساءه، وإذا لم تقم بالإخفار قربه أثناء مرضه، وإذا لم تفكر مليًا في ملابسه وطعامه.

تردد أمي دائما وهي تدفع الإبريق بعيدًا عن والدي:

ـ لوفتشكا ، لا تشرب الكثير من الكفاس، مرة أخرى ستصاب بالتسمم المعوي...

ـ لوفتشكا ، البس معطفا دافئا ، الجو قارس جدا اليوم!..

أحيانًا يطيع الأب في صمت، وكان أحيانًا يقول بانزعاج:

ـ أوه، كفي، من فضلك، يا سونيا ، أعرف.

الفرح التام(57)

(57) تجربة الفرح الكامل... ـ معنى موعظة فرنسيس الأسيزي القائلة أن الشخص يتلقى «فرحًا كاملاً» إذا كان بإمكانه «تحمل عار غير مستحق، وتحمل عقاب غير مستحق منه، ولم يشعر بالعداء تجاه من سبب له المعاناة». كانت هذه المواقف قريبة من تولستوي.

يلوح لي أن ماشا كانت الشخص الوحيد في العائلة التي نظرت إلى إرادة الأب على إنها مقدسة. ربما لهذا السبب تعقدت علاقتها مع الوالدة.

بعد سنوات عديدة، عندما اضطررت إلى تنفيذ إرادة والدي، على وفق إرادته الروحية، وتحمّل العديد من الكلمات المريرة واستياء العائلة مني، غالبًا ما كنت أتذكر ماشا ، وفكرت لأي مدى سيكون الأمر سهلا لو كانت على قيد الحياة.

على الرغم من أنها لم تبارك سطحيتي، معتبرة أنني لم أدرك بما يكفي آراء والدي، شعرتْ في أعماق قلبها أن تعلقي به غدا أقوى وأعمق بمرور السنين، ولهذا سامحتني كثيرًا.

ان الشرخ الذي شعرت به بشكل غامض في العلاقة بين أبي وأميّ، أصبح حقيقيًا بالنسبة لي، بعد عدة محادثات مع ماشا ، وعلى مر السنين بدأت أفهم أكثر فأكثر عمق الهاوية التي تفصل بينهما.

وكما أتذكر الآن، دعتني ماشا للحديث في غرفة الضيوف. كانت مستاءة ومضطربة، وقالت لي أن الأم شرعت تكتب اليوميات بتاريخ

رجعي سابق للحقيقي، مستخدمة يوميات الوالد، وتفسّر الأحداث، ومزاج الأب بطريقتها الخاصة.

لم أفهمها على الفور. وسألتها بسذاجة.

ـ لأي غرض؟

ـ هنا بيت القصيد. لأي غرض؟ حتى يعتقد الناس، عند قراءة هذه اليوميات، أن الوالد شرير، وأناني في العلاقة مع الأم، التي حمّلها عبء كل شؤون إدارة الممتلكات والأسرة... والأم؟ شهيدة...

صرخت بحمية:

ـ يجب أن نمنع هذا بطريقة ما! ـ لا يجوز السماح بهذا...

ابتسمت ماشا بحزن.

ـ حسنًا، كيف نمنع هذا؟ علينا وإياكِ فقط أن نتذكر، ليس كل شيء صحيحًا في هذه اليوميات...

لم أنس هذا أبدا. وعندما بدأت أمي تتحدث عن كتاباتها: مذكرات، «قصة حياتي»، كنت صامتةً ببرود وعدوانية. وكثيراً ما قالت أنه يجب تبرير نفسها بعيون جيل المستقبل، وأنها ستودع مذكراتها في متحف رومیانتسیف ليتم نشرها بعد خمسين عامًا من وفاتها، ومن ثم سيرى الناس كيف عانت، وكيف كان الوالد قاسيًا وغير منصف معها.

ربما كنت انزعجُ بشدة من فكرة جيل المستقبل هذه، لأن أمي كررت باستمرار أنه يجب حفظ وكتابة كل شيء، وأن كل هذا سيكون مثيرًا للاهتمام لاحقًا، وأعطت أهمية كبيرة لما سيقوله الجيل القادم ويفكر فيه عنها. لهذا أيضا لم أكتب يوميات إلا عندما مسني شيء ما بشدة، أو عندما كنت في حالة حب.

الآن أشعر أنني مذنبة بشأن ذكرى والدي.

مرة أخرى، استدعتني ماشا إلى مكتب الوالد بطريقة سرية.

قالت:

ـ تحت هذه الأريكة، ترين بطانتها الممزقة، هناك رسالة. طلب الاب (لم تقل ماشا ماذا) إعطائها إلى العم سريوجا في حال حدوث شيء ما. وإذا لم نكن أنا وكوليا هنا، قومي بذلك بنفسك!

سألت وقد استشفيت سرّ وأهمية المهمة الموكلة إلي.

ـ ولمن الرسالة؟

ـ لا اعرف.

استولى الفضول علي، لكنني لم أجرؤ على الإلحاح بالأسئلة، ومن المحتمل أن ماشا نفسها لم تكن تعرف ما يكمن في البطانة الممزقة للكرسي القديم.

عندما لم تعد ماشا على قيد الحياة، ذكّر زوجها أوبولونسكي والدي بالرسالة، وبعد أن عرفت الأم بذلك، أرادت تفكيك الأريكة في المكتب. استل الأب الرسائل، ظهر ان هناك رسالتين، وأعطاهما لكوليا، طالبًا منه الاحتفاظ بهما، وإعطاءهما للأم بعد وفاته.

قام ابولونسكي بذلك بالضبط، وقال بعد أن قرأت أمي احدى الرسالتين أنها مزقتها على الفور إلى مزق. وبعد ذلك بكثير، عرفت محتوى الرسالة الثانية. لم تكن لدي أي فكرة حينها عن أن والدي كان قريبًا جدًا من فكرة مغادرة ياسنايا ـ بوليانا.

وأورد الرسالة أدناه:

«عزيزتي سونيا!

لفترة طويلة أتعذب لعدم انسجام حياتي مع معتقداتي. لا أستطيع إجباركم على تغيير حياتكم وعاداتكم التي عودتكم عليها، لم أستطع أيضا حتى الآن، الذهاب عنكم، معتقدا أنني سأحرم الأطفال عندما كانوا صغارًا، ولو التأثير الضئيل الذي يمكن أن يكون لديّ عليهم، وأسبب لكم الكرب، ولم أعد أستطيع أيضًا الاستمرار في العيش بالطريقة التي عشت بها ستة عشر عامًا، مرة أكافح وأزعجكم، ومرة أقع تحت تلك الإغراءات التي اعتدت عليها والمحاط بها، والآن قررت أن أفعل ما كنت أرغب فيه منذ فترة طويلة أن أفعل ـ أن أغادر: أولاً، لأنه مع تقدمي بالسن، تغدو هذه الحياة اكثر صعوبة، وتتصاعد اكثر فاكثر الرغبة بالعزلة، وثانيًا، لأن الأطفال قد كبروا، وتأثيري في المنزل اصبح غير ضروري، ولديكم جميعًا اهتمامات حيوية تجعل غيابي غير ملحوظ. الشيء الرئيسي هو كما ان الهندوس عند بلوغ سن الستين يذهبون إلى الغابة، ومثل أي شخص متدين كبير السن، ارغب في تكريس السنوات الأخيرة من حياتي للرب، وليس للنكات، والتورية، والقيل والقال، والتنس، لذلك وأنا أدخل عامي السبعين، ارغب بكل قوة روحي بهذا الهدوء والعزلة ولو بعدم التوافق التام، ولكن ليس عدم انسجام حياتي الصارخ مع معتقداتي ومع ضميري. لو قمت بذلك علانية، سيكون هناك طلبات بالبقاء وإدانات ونزاعات وشكاوى، وسأضعف، ربما لن أنفذ قراري، لكن يجب تنفيذه. ولذلك، أرجو أن تسامحوني إذا كان عملي يؤلمكم، وسونيا إنكِ أنت الرئيسية في روحي. دعيني أذهب طوعا، ولا تبحثي عني، ولا تقلقي عليّ ولا تدينيني. وحقيقة كون أني تركتك، لا يبرهن على أنني كنت غير راضٍ عنك، فأنا أعلم أنك لا تستطعي، أو حرفيًا لم تستطيعي ولن تستطيعي أن ترى وتشعري مثلي، ولذلك لم تستطيعي ولن تستطيعي تغيير حياتك وتقدميها تضحية من أجل ما لا تعين به. ولذا فأنا لا أدينك، بل على العكس من ذلك أتذكر بحب وامتنان، الخمسة وثلاثين عامًا الطويلة من حياتنا، وخاصة النصف الأول من هذا الزمن، عندما كنتِ بسجيتك، أمّاً مضحية بالنفس، وتحملت بحيوية وقوة ما اعتبرته رسالتكِ... لقد منحتِ العالم ما يمكنكِ منحه، منحت الكثير من حب الأم، ونكران الذات، ولا

يسع المرء إلا أن يقدرك على هذا. لكن في الفترة الأخيرة من حياتنا ـ في الخمسة عشر عامًا الماضية، نحن انفصلنا. وليس بوسعي أن أعتقد أنني مذنب، لأنني أعلم أنني تغيرت ليس من أجل نفسي وليس من أجل الناس، ولكن لأنني لا أستطيع أن أفعل غير ذلك. وليس بميسوري أن أتهمك، لأنك لم تتبعيني، لكنني أشكرك، وأتذكر بحب، وسأتذكر كل ما قدمته لي.

وداعا عزيزتي سونيا. ليف تولستوي، الذي يحبك.

8 يوليو 1897».

بعد بضعة أشهر، كتب لأختي تانيا:

«أنت تكتبين عن عدم مجيئي إلى موسكو. أفكر في هذا الأمر مائة مرة كل يوم، ولفترة طويلة، لا أستطيع أن أقرر. هل اذهب إلى العذاب، والحياة غير اللائقة والخاملة، تاركًا وحدتي المثمرة، عندما لم يتبق لي سوى فترة قصيرة من الحياة والعمل. هناك شكل من أشكال الانتحار الروحي، فلماذا؟

وفي غضون ذلك أعرف أن الأم تعاني من هذا، وأود مساعدتها. لكن عندما أصل، أعرف أنني لن أساعدها، إنها ستعاني بطريقة أخرى، وسوف ألحق الضرر بنفسي، وهذا ليس من منفعتي. أفكر دائمًا وأتمنى ألا أقرر لنفسي، بل أمام الرب».

كنت أعرف لدى والديّ أسبابا كثيرة للخلافات: حول تربيتنا، ونمط الحياة في موسكو، والرفاهية، ولكن في أغلب الأحيان كانت الخلافات تدور حول حقوق نشر المؤلفات.

أتذكر عندما كنت مراهقة، كيف منح والدي حقوق نشر قصة «السيد والخدم» إلى «مجلة «البشير الأوروبي» وكيف غضبت أمي، وبكت، ووبخته. بدا لي حينها أن المحررة «ل. يا. غوريفيتش» هي المسؤولة عن

كل شيء. قالت أمي إنها «يهودية صفيقة» تمكنت من التوسل إلى والدي من أجل القصة.

كتب والدي في عام 1895، في يومياته شبه وصية، طلب فيها من أبنائه وزوجته التنازل عن حقوق المؤلف، ووضعها تحت التصرف العام. كتب: «كون أن مؤلفاتي كانت معروضة للبيع خلال السنوات العشر الماضية، كان أصعب أمر عليّ».

كتبت ماشا ثلاث نسخ من هذه الوصية. أعطت واحدة لوالدها ليوقع عليها واحتفظت بها، وأعطت الاثنين الآخريين لسيريوجا وتشيرتكوف لحفظهما.

عرف اخي إيليا بهذه الوصية وأخبر والدته.

صبت الأم جام غضبها على ماشا، ووصفتها بأنها كاذبة، وغير صادقة وإتهمتها بأنها دست لوالدها الورقة خفية ليوقع عليها.

تحلت ماشا بضبط النفس، وحاولت أن توضح أن الورقة المعنية ليست ذات قوة قانونية، وأن الأسرة بأكملها تعرف إرادة والدها، ولكن الأم لم تستمع إليها، وواصلت الصراخ. وتذكرت الأم أن ماشا، بعد أن تخلت عن الملكية، أخذت نصيبها مرة أخرى لإطعام زوجها، البائس الفقير، ووصمتها بالنفاق...

ذهبت الأم من ماشا إلى الوالد. وحدث مشهد عاصف بينهما. على ما يبدو الأب لم يوافق على إتلاف الورقة، لأن أمي استمرت في القلق، وصرخت، وبكت، وهددت بالإنتحار.

شعر أبي بعدم انتظام نبض القلب. وكانت ماشا تعرف إن أمي لن تتوقف عن تعذيبه حتى تحقق هدفها، وخافت على صحته فأعطت الوصية لأمي.

في مذكراتها المؤرخة في 10 أكتوبر 1909، قدمت الأم التفسير التالي لهذا الحدث:

«عندما تم تقسيم ممتلكات عائلتنا بناءً على طلب ليف نيكولايفتش، وتوزيعها على أفراد العائلة، رفضت الإبنة ماشا، التي كانت آنذاك راشدة، المشاركة في ميراث والديها، سواء الآن أو في المستقبل. ولمعرفتي بطبيعتها الكاذبة والمتذبذبة، لم اثق بها، وسجلتُ هذا الراسمال باسمي، وكتبت هذا الراسمال في الوصية لصالحها. لكني لم أمت، وتزوجت ماشا من الفقير ـ اوبولينسكي وأخذتْ حصتها لإعالته ونفسها. وإذ لا تتمتع باي حقوق على المستقبل، قامت في عام 1895 لسبب ما، وفي خلسة مني، باستنساخ من يوميات والدها جملة من رغباته التي طلب تنفيذها عقب وفاته. وبالمناسبة، كتب أنه عانى من بيع مؤلفاته، ويتمنى ألا تبيعها أسرته وبعد وفاته. وعندما ألمّ بليف نيكولايفتش مرض خطير في يوليو 1901، أعطت ماشا والدها وفي غفلة عن الجميع هذه الورقة، التي استنسختها من يومياته، ليوقع عليها بقلمه، وهو ما قام به، وهو على سرير المرض.

شعرت بعدم ارتياح شديد، عندما عرفت ذلك بالصدفة. اعتبرت إن جعل أعمال ليف نيكولايفتش ملكية عامة، امر سيئ وعديم المعنى. أنا أحب عائلتي، وأتمنى لها ان تعيش بافضل اشكال الرفاهية، ومن خلال التبرع بالمؤلفات للملكية العامة، سنكافئ دور النشرالغنية وأصحابها مثل ماركس وتسيتلين (يهود) وغيرهم. وقلت إذا مات هو قبلي، فلن احقق رغباته، ولن أتخلى عن حقوق أعماله، ولو كنت اعتبر أن هذا جيّد وعادل، لأسعدته بالتخلي عن الحقوق إبان حياته، فبعد الموت لا ينطوي هذا على أهمية له. والآن، بعد أن شرعت بنشر أعمال ليف نيكولايفيتش، وبناءً على طلبه القاضي بالاحتفاظ بحق النشر لي، ولم ابعه لأي كان، وعلى الرغم من العروض التي قدمت لي بمبالغ كبيرة مقابل حق النشر، شعرت بعدم الارتياح لأن بحوزة ماشا ورقة وقّع عليها ليف نيكولايفيتش تنص على أنه لا يرغب ببيع حقوق نشر أعماله بعد وفاته. لم أكن أعرف المضمون الدقيق وطلبت من ليف نيكولايفتش أن يعطيني هذه الورقة،

بعد أن أخذها من ماشا. لقد فعل ذلك عن طيب خاطر وسلّمها لي، وحدث ما لم أتوقعه أبدًا: غضبت ماشا، وصرخ زوجها أمس، والرب أعلم لماذا، قائلا إنه وماشا سينشران هذه الورقة بعد وفاة ليف نيكولايفيتش، ليطّلع عليها أكبر عدد من الناس، وليعرف الجميع أن ليف نيكولايفيتش لم يرم بيع حقوق نشر مؤلفاته، لكن زوجته باعتها».

حل موسم الخريف. وأصبحت اوراق أشجار البتولا الشفافة قليلة الكثافة، وظهرت هنا وهناك أغصان صفراء ساطعة في أشجار الزيزفون، واختلطت الأوراق المتساقطة في مياه الترعة، الشفافة القاتمة تقريبًا.

مشينا نحن الثلاثة الاب وماشا وأنا، بصمت على طول درب البتولا إلى الترعة السفلية. لقد وحّدنا شعور عميق بالمودة، ولهذا، ولأن الأب بدا مرهقًا للغاية، شعرت بحزن عميق وساورتني الرغبة في البكاء. وطفق هو، وكما لو كان يخمن مزاجنا، يتحدث عن أن الحياة هي الفرح، ونحن المذنبون اذا لم نعي هذا.

ـ يُخيل للمرء انه سيحظى بالسعادة لو تغيرت ظروف حياته، أو إذا كان بميسوره الذهاب إلى مكان ما، أو إذا استعاد بصره فجأة، أو سيصبح شابًا، ويمكن أن يبدأ حياته من جديد. في هذه الحالة، كما يعتقد، سيكون جيدًا تمامًا... لكن، كلا... هذا ليس صحيحًا. إذا تغيرت الحياة وفقا لرغبته، واختفت احدى المصاعب، فستبدلها على الفور أخرى وثالثة. لكن يتوجب عليه...

ـ مثل فرانسيس الأسيزي.. ـ قاطعته ماشا.

ـ صرخ الأب بسعادة. ـ

ـ نعم، نعم، انك تفهمين كل شيء دائمًا بشكل مثالي! نعم، عندما يشتمونكم ويضطهدونكم، حينها اشعروا بالفرحة التامة...

ارتجف صوته. ولم أستطع رؤية معاناته، بكيت وهربت.

وفي المساء سألتني ماشا:

ـ ماذا أنت، يا الكسندرا، لماذا اجهشت بالبكاء؟ ربما تغارين من علاقة الأب بي؟

ـ ما خطبكِ! ـ صرخت ـ كلا، أشعر بالشفقة عليه، إنه يتألم، ويعاني... وانهمرت الدموع من عيني مرة أخرى.

طوال الخريف، تقريبًا حتى رأس السنة الجديدة، كان والدي مريضًا. وفي البداية لم يتمكن الأطباء من تشخيص مرضه. كانت هناك حمى وآلام شديدة في الجنب. ثم ارتفعت درجة الحرارة فجأة. وشخّص أطباء موسكو ممن استدعوهم مرض والدي بانه الأنفلونزا.

النزهات

بعد ان ينتهي والدي من كتابة عمل ناجح تكتسب هيئته التحدي والبهجة، وتتسم مشيته بالخفة، ووجهه بالغبطة، وعيناه ضاحكتان. أحيانًا ينقلب فجأة على كعب واحد، أو يرمي ساقه بسهولة وبسرعة على ظهر كرسي. أعتقد أن أي شخص يحترم نفسه من اتباع تولستوي، سيصاب بالرعب من سلوك مثل هذا المعلم. نعم، لم تغتفر دائما مثل هذه الرشاقة لوالدي! أتذكر هذه الحالة:

كنا نتناول الغداء في الشرفة، وجلست أمي في مكان «الرئيس»، كما أطلقنا عليه، وعلى الجانب الأيمن منها كان يجلس أبي، وبجانبه مساعده تشيرتكوف. كان الجو حارًا، وازعجنا البعوض. كان يرفرف في الهواء، ويطن بشكل خارق ومضجر، ويلسعُ الوجوه والأيادي والأقدام. تحدث الأب إلى تشيرتكوف، واستمع الباقون. وكان المزاج مرحًا وحيويًا، ومزح الجميع، وضحكوا.

نظر والدي فجأة، إلى رأس تشيرتكوف، وصفع رأسه الأصلع بحركة بارعة وسريعة! بقيت بقعة دم على رأس تشيرتكوف من بعوضة منتفخة مخمورة بالدم.

انفجر الجميع ضاحكين، وضحك الأب أيضًا. لكن فجأة توقف الضحك. حملق تشيرتكوف، الذي كان قد قطب حاجبيه الوسيمين، في والدي بعتاب. واردف قائلا:

ـ ما عملتم؟ ما فعلتم يا ليف نيكولايفيتش! لقد انتزعتم حياة كائن حي! ألا تخجلون؟

ارتبك الأب. وشعر الجميع بالحرج.

عندما كان الوالد منبسط المزاج، كان دائمًا يبتكر نزهات مشوقة: إلى الحِضار(58)، وإلى محطة «رفي» التي تبعد أربعة فيرستا عن

ياسنايا ـ بوليانا أو إلى منزل العجوز ماريا الكسندروفنا شميدت، حيث بحيرة «بروفالي» التي ظهرت قبل مائة عام. وفي بعض الأحيان، كان الأب يجمعنا ـ كبارًا وصغارًا، في نزهة، وبالنسبة لأولئك الذين لا يتحملون مشقة الطريق، يركبون الخيول. وتجنب الأب الطرق الوعرة، وأحب أن يسلك طرق مختصرة. ويقول:

(58) الحِظار عائق من أشجار مقطوعة يسد به الطريق

ـ مهلا، مهلا هذا هو الدرب، يجب أن يؤدي بالتأكيد إلى الطريق العام.

مشينا فيرستا، واثنان، وثلاثة...

ـ يا إلهي، لقد رحنا شوطا ابعد... انتظروا، يجب أن يكون الطريق قد انحرف إلى اليمين.

كنا نسير في درب ترابي ـ بالكامل، وتحت أقدامنا ورق رقيق متعفن، وتتشبث برؤوسنا أغصان البندق، ونلتف على جذوع الأشجار، والأشجار القديمة، وشجيرات السراخس المتضخمة التي تفوح برائحة الخيار الطازج. ونمضي أعمق وأعمق في الغابة. أمي تعبت، وساورها الغضب:

ـ ها أنت دائمًا هكذا يا لوفيتشكا، بطرقك المختصرة، لو سرنا في الطريق المستقيمة، لوصلنا المحطة منذ فترة طويلة، ولكن الآن، لا سامح الرب، سنصل في المساء إلى هناك!

الشباب راضون. هناك متع كثيرة في الطريق!

ومع إن والدي عرف الحِضار جيدًا، فإنه غالبًا ما كان يضل الطريق فيها.

في بعض الأحيان نأخذ الضيوف في نزهة على الأقدام. أتذكر جاء إلينا جيراننا، آل شينشين. الرجل مثل درع أصفر، رجل سمين أحمر، يرتدي سترة بيضاء مع حزام كتف أصفر، ويميل للصمت ويتعرق. أما

زوجته فسيدة ممتازة مفعمة بالحيوية والثرثرة، سيدة فوج عسكري نمطية.

ـ فولوديشكا ـ شجعت زوجها ـ لماذا أنت صامت؟ ارو شيئًا لليف نيكولايفيتش!

ذهب والدي معهم، بعد الغداء، في نزهة على الأقدام إلى الحِضار، ولم يستطع أبي هذه المرة أيضا مقاومة إغراء اختصار الطريق، وكالعادة أخذهم من «بئر كودييياروف» عبر الدرب الترابي الى الطريق العام، وانتقلوا إلى الجانب الآخر من نهر «فورونكا» عبر اعمدة خشب ملقاة بمثابة جسر عبر النهر. عبَر أبي، وانتقلت سيدة الفوج العسكري بسهولة، ويبدو أن زوجها فولوديتشكا جفل، ونظر الجميع بفضول وترقب إليه. عندما وصل إلى وسط العمود، حُرج فجأة، واستعجل، فانكسر أحد الأعمدة قليلاً، وهوى فولوديتشكا في الماء.

ضحك والدي حتى البكاء، وروى لنا هذا الحادث، ومنذ ذلك الحين أطلقنا على هذا المكان «ممر فولوديتشكين».

أحب أبي الزهور، ودائماً ما كان يقطفها بدون أوراق، ويضغط على بعضها عن قرب، وعندما صنعت له باقات الزهور بطريقتي الخاصة، وأضفت إليها المساحات الخضراء ورتبت الزهور بحرية في مزهرية، لم يعجبه ذلك.

ـ إنها عديمة الفائدة، يجب أن تكون أسهل...

عادة كان أول من يجلب ورود البنفسج وأذن الفار، وزنابق الوادي، ومن ابتهج بها، ودعا الجميع لشمها. لقد أحب بشكل خاص إذن الفار، واللبلاب، وكان يحزن لأن من غير المريح وضع اللبلاب في الماء ـ فسيقانها قصيرة جدًا.

ـ شمي تفوح برائحة لطيفة، مثل اللوز المر، هل تشعرين؟ وأية مَسحة وظِلال، انظري...

أدت الخيول والكلاب دورًا كبيرًا في منزلنا.

اهدوا لأبي كلبة من نوع «لايكا» سيبيرية أصيلة تدعى «بيلكا». لقد كانت كلبة حسنة، لطيفة، والأهم من ذلك ـ جادة مع شعور الاعتزاز بالذات. لكن والدي لم يهتم بها، ولم يطعمها، ولم تعترف بيلكا بالوالد بأنه صاحبها. كانت متأهبة أكثر للسير مع يوليا إيفانوفنا أو معي. وفي بعض الأحيان كانت تتظاهر فقط بأنها تسير مع والدي، تركض إلى الأمام، وتهز ذيلها وتنظر في عينيه، وترافق والدي عبر بستان التفاح إلى الغابة، وهناك بهدوء تميل الى جانب ثم تعود إلى المنزل من دونه. حتى أن الأب شعر بالاستياء.

ويقول ليوليا إيفانوفنا:

ـ لقد أخذتم مني بيلكا، فهي لا تريد أن تمشي معي.

أتذكر أنني اقتنيت كلبا سلوقيا كثيف الشعر على الرقبة، قوي البنية، أشعث ذا وجه كبير. اقتفى اثري، وحنى رأسه في طاعة وتجهم. ولكن بمجرد أن يرى قطيعًا من الأغنام، يقفز عليها بكل قوته، ويندفع إلى وسطها، وغالبًا ما كان يمزق الأغنام حتى الموت. عاقبناه وحبسناه ـ ولم يساعد هذا في شيء.

اعتاد السلوقي التجول مع والدي. ذات يوم جاء والدي من نزهة مستاءً للغاية:

ـ خذي كلبك إلى مكان ما!

ـ لماذا؟

ـ لقد طارد الخراف مرة أخرى اليوم! دفعته عنها بعيدا بالقوة!

ـ تعبت، وتلهث؟

ـ هذا لا شيء. لقد جعلني اقترف خطيئة. خلعت الحزام وجلدته. والأهم من ذلك، ان الشعور بالضغينة أمر سيء...

اضطررت إلى أن أعطي السلوقي لأحد الأشخاص.

لقد اعتدنا على وجود كلبين في الفناء: الأول يدعى «توليب» والآخر «الغجري». لابد أن يكونا شقيقين فهما متشابهان إلى حد كبير: لونهما أسود وصدورهما بيضاء، وآذانهما متدلية، وخفيفة الشعر في الأمام، وشعثاء من الخلف، ودائما تلعب في الأشواك. كانت هذه الكلاب دائما ما ترافق أبي في نزهاته.

كانت في الغابة الكثيفة القريبة الكثيفة، عين ماء جارية، من الصعوبة ملاحظتها، حيث يؤدي إليها طريق وعر. وفي احدى الأماكن تتشكل منها ترعة صغيرة من المياه النظيفة النقية. سمّي هذا ب «بئر الذئب». تعيش هنا في التل حيوانات الغرير(59). قامت بحفر أوكار عميقة لنفسها، وتتواصل بعضها مع البعض الآخر من خلال أنفاق تحت الأرض. كان أبي يحب الذهاب أحيانا إلى هذا المكان البري المهجور، وتسللت الكلاب في الأوكار. تتسلل في إحداها وتخرج من الأخرى، وأحيانًا كانت تطرد الحيوان للخروج من هناك. وذات مرة خرج «الغجري» من الوكر ملطخا بالدماء، وهو يزعق بصوت رهيب. لقد عضه الغرير من ذيله. أتذكر بينما كنا أبي وأنا نتجول في منطقة «تشابيز» طاردت الكلاب غريرًا كبيرًا كان يتجه نحونا.

(59) حيوان الغرير من الحيوانات اللاحمة من عائلة، الغرير موجود في معظم الغابات والأحراج، لكننا لا نراه كثيرا لأنه يبقى نهارا في وكره تحت الأرض ولا يخرج منه إلا ليلا.

واندفع «الغجري» و«التوليب» نحو الناس المتسولين، والجوالين، ومزقا ملابسهم، وقررنا التخلص منهما، فأعطيناهما لعوائل أخرى، لكنهما رجعا لنا. فكر شخص ما في إرسالهما بعيدا بالقطار. سلموهما في الحِضار ووضعوهما في مستودع عفش عربة القطار لتسليمهما

لشخص سينتظرها في محطة ريفياكينو على الجانب الآخر من مدينة تولا. ولكن عندما استيقظنا في اليوم التالي، استقبلنا الكلبان وهما يهزان ذيلهما عند المدخل.

يسألنا الأب بعد الغداء.

ـ من يريد أن يذهب معي إلى صيد النباتي؟

نرتدي بصعوبة أحذية ثقيلة للخوض في المستنقعات، تفوح منها رائحة القطران، ونتبعه بمرح عبر بستان التفاح و«شابيزه» إلى الغابة الكثيفة. ما يزال هناك جليد متسخ في الخنادق، والغابة عارية، وأصبحت البراعم المنتفخة على الأشجار داكنة، وفي بعض الأماكن اصفرت أوراق الصفصاف الرقيقة.

نخرج إلى مرج الغابة، ونتوقف.

ـ الآن اركنوا إلى السكون ـ يقول الأب: ـ لا تتحدثوا وانصتوا!

نجلس على السيقان النامية تحت الأرض، وننتظر. أستمع بتوتر، وقلبي ينقبض من الإثارة.

ـ انصتوا؟ انصتوا؟ يهمس الأب.

يترامى، صوت طيور ديك الغاب:

ـ خر، خر، خر.

ويحلق أحدها فوق رؤوسنا. ويقوم بدورة في الهواء ويختفي في الغابة. وينطلق بعده الثاني والثالث.

ساد الصمت التام. وحل الظلام.

عدنا إلى المنزل في غاية السعادة مع «صيد النباتي». خفقت الأحذية بالأرض بصوت عالٍ، وهي تغوص في الأرض الرطبة.

ـ يا للعجب، ـ قال والدي ـ كم هو غريب أنني كنت مولعًا بالصيد والقتل...

إذا كنت تركبين مع والدك على ظهور الخيل، «لا تزعجيه»، كما قال أدريان بافلوفيتش، اتبعيه جيدًا. كان والدي يسير عبر الوديان والمستنقعات والغابات العميقة وعلى طول الممرات الضيقة، بغضّ النظر عن العقبات التي واجهته في الطريق.

قلت له:

ـ هنا الدرب ضيق للغاية، ربما لن نجتازه.

سأل ابي في الوقت الذي كان فيه وجه ديلير باتجاه الوادي:

ـ وبرأيك من يسير في طريق ضيق، الحصان أم الإنسان؟

ـ الإنسان!

ـ لا، الحصان. لانه لا يخاف من شيء!

إذا كان هناك جدول في الطريق، يدفع الأب ديلير، من دون أن يفكر قليلا، ويقفز إلى الجانب الآخر، مثل طائر. أتذكر أنني كنت أركب حصانًا سيئًا يعاني من قدمه. قفز والدي، وتعثر حصاني، وسقط على رجليه الأماميتين، ووجدت نفسي على كتفه.

وصرخ الأب، وهو ينظر حوله:

ـ هل أنتِ على قيد الحياة؟

أجبت، وأنا أضحك، واعدل جلستي على السرج.

ـ بالكاد على قيد الحياة!

أو يقفز فوق الجدول، ويصعد التل حيث ينحني جسم الحصان بشكل إيقاعي عند أسفل الظهر، وهناك أشجار وشجيرات ربما تضرب ساق المرء، أو يضربُ غصن عينيه.

ـ حسنا؟

ـ لا شيء ـ أجبت ـ وأنا جالسة.

ـ امسكي بقوة!

ذات مرة، سرنا راكبين أنا وأبي على طول الحِضار. كنت امتطي فرسا ثقيلا وكسولا. توقف والدي في الغابة وبدأ يتحدث مع قاطعي الأشجار، وعضت الذباب وذبابة النِبْر الخيول. قاوم الفرس بساقيه وهز ذيله ورأسه وفجأة تربع، وانبطحت. صرخ به الأب بصوت عال. وبمعجزة ما تدحرجتُ من تحت الحصان، وقبل ان اقفز على قدمي، ضربه والدي بحركة شاب قوي، حتى قفز على الفور.

أتذكر أنني كنت لا أزال في الخامسة عشرة من عمري عندما علمني أبي ركوب الخيل.

ـ حسنا، يا ساشا، اسحبي قدمك من الرِكاب!

اشعر بالرعب. يبدو أني على وشك السقوط.

ـ حسنا، جربي السير خبباً!

امشي في خبب، وأتخبط على السرج وأفكر فقط أن أتماسك.

ـ لا، لا، سيري على الطريقة الإنجليزية ـ خفيفة الوزن.. حسنًا، الآن اتركي العنان جانبا!

«يا رب، فقط ألا يجفل الحصان خائفا ـ فكرت في ذاتي ـ وان لا يندفع جانبا! الآن سأطير من على ظهره!».

أتذكر أن والدي سقط عن حصانه. مررنا بجوار مصنع «كوسوي غورا» لصهر الحديد وبدأنا في عبور الطريق العام. جفل حصان السهوب الحامي، واندفع إلى جانب الطريق ركض في كومة وسقط. بالضبط انكسر شيء ما بداخلي. ومن دون أن يترك الزمام، وبسرعة رهيبة، حرر ابي ساقه من الرِّكاب، قبل أن يقفز الحصان على قدميه.

وأطلق أنينا:

ـ يا إلهي، هل جرحت نفسك؟

ـ كلا سفاسف.

ساقَ الحصان إلى كومة الأنقاض، وركب حصانه، ومضينا.

واستدار، وصرخ بي:

ـ احذري... لا تخبري أمك؟ لا تقولي شيئا عن الحادث!

كنا في الآونة الأخيرة خائفين من السماح له بالذهاب بمفرده، تحسبا من أن يفقد فجأة وعيه، أو تنتابه نوبة قلبية، وكان يذهب معه دائمًا احد ما ـ دوشان بتروفيتش أو فالنتين بولجاكوف أو أنا.

ـ ساشا، دعينا نتجول على الخيول!

أنا دائما اذهب معه بكل سرور. هو على «ديلير» المفضل لديه، وأنا على «اروبل» الكرباخي الكُميت ـ فاتح اللون مثل الذهب الأحمر.

وعندما نصادف صعوداً طويلاً مملاً على تل، يلتفت لي الأب لي قائلا:

ـ هيا خببا!

وبمجرد أن اطلقنا الخيول، بدأت فرسي الكاراباخية تتخبط للوراء.

ـ توقف يا أبي؟ ـ أصرخ به ـ ا ،ا توقف! يضربني «اريول» من الخلف!

ـ لا شيء، تحتاج إلى ان تسخن نفسها!

يصرخ الأب ويعدو سريعا بحصانه.

وانا بالكاد اجلس. ويعطي الحصان كل دقيقة دفعة يمكن فيها فجأة أن يسقطني بها من السرج.

ـ لا شيء، لا شيء ـ يشجعني الأب ـ ليتقدم.

استمر الحال هكذا هذا طوال الطريق. كنت منهكة. وصلنا ، وحينما نزعنا السروج من الخيول، لاحظنا حيث كان الطوق جرحا كبيرا تحت بطن «اريول» ـ ولهذا كان يخبط للوراء.

كان اليوم هادئًا ومشمسًا.

كان أبي يسير راكبًا ، وتبعناه في زلاجتين. كان الطريق الشتوي يتعرج عبر الغابة، وعلى خلفية الثلج اللامع، مرة يظهر ثم يختفي مرة أخرى خلف الأشجار ردف الحصان الداكن وظهر عريضة في معطف أسود من جلد الغنم مع غطاء حول رقبته.

ـ قف! صرخت، وأنا أشد الزمام.

كانت شجرة عبر الطريق تميل مثل القوس، وتسمر الجزء العلوي من رأسها نحو الأرض على الجانب الآخر من الطريق. انحنى والدي على السرج وانطلق، واصبحنا نحن عالقين، فالقوس لم يسمح لنا بالمرور. ما العمل في هذه الحالة؟ يستغرق فك زلاجتين وشدهما مرة أخرى وقتًا طويلاً! كان هناك كوخ حراسة قريب. استدعيت ناظر الغابة، فجاء بفأس، وبدأ في تقطيع الشجرة، وبعد أن قطعها ، وضع صدره على جانب راسها حتى تنكسر. لكن الشجرة لم تستسلم. كنت في عجلة من أمري، فقد مرت عشر دقائق تقريبًا منذ مغادرة والدي، وكنت قلقة عليه.

ومن دون التفكير طويلا، رميت بنفسي بشدة على الشجرة من جانب المؤخرة. وتعالى صوت انهيار! وبعد أن تخلصت الشجرة من الرأس، استقامت بقوة وضربتني في فكّي، ورمتني إلى الأعلى، ففقدت الوعي.

لا أعرف كم من الوقت كنت مستلقية، ولكن عندما عدت إلى رشدي، كان رجل يصرخ بصوت نسوي ثاقب.

ـ ايها القديسون، أعزائي، قتلوا، قتلوا، قتلوا الشابة حتى الموت، أعزائي.

قفزت على قدمي، وكان الدم يسيل على ذقني، وفي الفم عصيدة، وتدلّت في الفك العلوي إحدى الأسنان على عصب مكشوف. باقي الأسنان ترنحت، وكان ذقني مكسورا، وواصل الرجل ينوح ويندب.

ـ حسبكم ـ كشرت له بأسناني ـ لماذا أنت تعوي، سأضع أسناني...

جلسنا وانطلقنا. أردت أن أعطي العنان لشخص ما، كي اغلق فمي ـ فالسن المكسور صار يؤلمني بشكل لا يطاق من البرد، وارتجفت من الحمى، لكن اتضح أن لا أحد يعرف كيف يسوق الزلاجة. سقت الحصان، ولا وجود لوالدي في أي مكان.

وقفت في كوخ الحراسة فتاة في السابعة عشرة من عمرها.

ـ ألم تبصري رجلا عجوزا على ظهر حصان؟

ـ ذهب الى هناك! قالت، وشخرت لسبب ما.

سقنا الحصان في الاتجاه الذي أشارت له الفتاة، سرنا لمدة نصف ساعة، والتقينا برجل بعربة.

ـ هل رأيت الكونت؟ هل مر هنا؟

ـ لا، لم أره. لا بد أنه لم يمر من هنا، وإلا كنت قد التقيت به...

عدنا. كان السن يؤلمني أكثر فأكثر، وكنت أرتجف. لم نعثر على الأب. عندما وصلنا إلى المنزل، اكتشفنا أنه كان في المنزل، وكان يستريح. ذهبت إلى الفراش، كان وجهي متورمًا، واشتد الألم، وفي السادسة صباحًا، استيقظ والدي، ورووا له ما حدث.

ـ يا إلهي يا إلهي! ماذا فعلت؟. عزيزتي، كل هذا بسببي. ـ قال ـ أنا العجوز الأحمق، ذهبتُ، ولم أخمن أن القوس تحت الشجرة غير ملائم.

كانت الدموع تلمع في عينيه، وضغطت الأماكن المؤلمة على ذراعه، وشعرت أنني في حالة حسنة.

كنت أنا وأبي عائدين إلى المنزل على الطريق المؤدية الى نهر فورونكا حيث المكان الذي نستحم فيه. لقد سرنا بجوار المرج حيث تزدهر في الربيع على التلة ورود آذان الفار، ونما في الصيف فطر ابيض قوي بجذر وردي وبطانة بنية. نادى والدي عليّ:

ـ ساشا!

وعندما همزت الحصان، واقتربت منه، سحب اللجام وسَوَطَ، مما جعل ديلير يرتعش بعصبية، وأشار إلى المكان، وقال:

ـ ادفنوني عندما أموت، ها هنا، بين أشجار البلوط هذه....

الحرب اليابانية. سنة 1905

التعبئة في المدينة لم تكن محسوسة كما في الريف. وعلى الرغم من أن الناس يعيشون هنا قريبا من بعضهم البعض، إلا أنهم في الواقع بعيدون عن بعضهم الآخر للغاية، وغالبًا لا يعرفون ما يحدث ليس فقط في المنزل المجاور، ولكن أيضًا في الشقة المجاورة. المرء يعرف كل شخص في القرية: من لديه أسرة وما طبيعتها، وكم عدد الأطفال، وما الثروة، وأي من الأبناء تم استدعائهم إلى الجيش. إن الكرب الذي سببته الحرب موجود أمام أعيننا، ولا يمكن للمرء الهروب منه.

يمكن للمرء أن يسمع البكاء، والنحيب، وعزف الأكورديون بحزن، وبعض الأصوات الشابة التي مرة تمطط وأخرى تقطع الأغنية ببراعة مخمور. المجندون الجدد السكارى، الذين يجعدون قبعاتهم، يتجولون في مجموعات متنافرة حول القرية، وعلى الرغم من مظهرهم المثير، وأغنيتهم المرحة والبهيجة، فقد ارتسم على ملامحهم يأس قاتم.

أبعدت الحرب لفترة من الوقت جميع الاهتمامات الأخرى، وأغرقت هذه المحنة كل شيء: الأفراح والأتراح العادية.

الأخ أندريه، الذي ترك للتو زوجته أولغا كونستانتينوفنا مع طفلين ـ وتورط التعس في ولع جديد بامرأة، ذهب إلى الحرب، وذهب الأخ إيليا وزوجته إلى تفير، حيث كان يرابط فوجه لتوديعه، وأخذوا الطباخ سيميون نيكولايفيتش. سمين، مترهل، كان قليل الشبه بمحارب وبكى بشفقة، وهو يقبل يدي أمي ويودعنا جميعًا. اصبح سيميون نيكولايفيتش طباخا للجنرال جوركو وافتخر بذلك.

الآن في كثير من الأحيان صارالناس يأتون إلى والدي بالتماسات مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالحرب: «ألحقوا هذا أو ذاك، بشكل غير صحيح، وليس وفقًا للقانون»، «لم يستلم هذا او ذاك المنحة الحكومية».

اعتقد إن الريف لم يشهد ارتفاع المشاعر الوطنية. ذهب ابناء الريف إلى الجبهة لأنه قيل لهم يجب الالتحاق بالجيش، ولا يجوز عدم الذهاب، ولم يعرف احد لماذا بدأت الحرب، ولماذا ساقوا الجيش إلى الشرق الأقصى.

زادت نزهات أبي على الطريق العام. هناك جمع الأخبار الرئيسية، والتقط المزاج، وموقف الفلاحين من الحرب. يصعد مرة مع الرجال في زلاجة أو في عربة، ثم يمشي مع النساء ويتحدث عن احتياجاتهن.

حاول الأب قراءة الصحف، لكنه لم يستطع، فقد أثارت قلقه كثيرًا. وقال:

ـ لا أستطيع أن أقرأ، الناس في محاولة لإثارة الروح الوطنية، يكتبون عن أحداث دامية كما لو عن شيء نبيل، وجميل!

ولكن بمجرد أن يأتي أحدهم لزيارتنا يسأله على الفور:

ـ ما الجديد؟ ماذا يحدث في الحرب؟

وعندما أخبروه أن اليابانيين يحققون الإنتصار، شعر بالضيق.وقال:

ـ لا أستطيع التخلص من الشعور بالاستياء عندما أسمع أن الروس يتعرضون للضرب.

وعندما عرف أن «بورت ـ آرثر» قد استسلم دون قتال، قال:

ـ إيه، لم يقاتلوا في زماننا على هذا النحو!

أتذكر كنت والدكتور نيكيتين ويوليا إيفانوفنا جالسين في غرفة المكتب في الطبق العلوي، ونتحدث عن الحرب. أثار ديمتري فاسيليفيتش مسألة ما إذا كان من الممكن، مع إنكار كامل للقتل، الذهاب إلى الحرب كطبيب، كأخت رحمة.

جاء الأب.

ـ عن ماذا تتحدثون؟

قلنا له.

قال والدي:

«لو كنت شابا، لذهبت إلى الحرب كمساعد طبيب»!

ولكن هل يجوز لأبي أن يعبر عن مشاعر الرحمة بشكل مباشر؟ سارع الناس في إلتقاط كلماته وطبعها. وابتهج اليمينيون الوطنيون.

ـ تولستوي نفسه غارق في حب الوطن، على الرغم من دعوته لعدم مقاومة العنف بالعنف!

جاءت فتاتان إلى والدي، تستعدان للذهاب إلى الحرب كأخوات رحمة، وسألن والدي إن كان تصرفهن صائبا. أخبرهن أن في رأيه لا يجوز المشاركة في القتل بأي شكل من الأشكال. فوجئت الفتيات وحاولن إثبات ضرورة ذلك. وقلن: حتما سيكون جرحى، ولابد من مساعدتهم. اعترض أبي عليهن:

ـ اعترفن بأن لديكن رغبة في إجتراح ماثرة، ورغبة في التميز عن الآخرين! لماذا ترغبن في الذهاب إلى الجبهة، بالذات إلى الحرب، لأجل منح قوتكن للناس؟ لماذا لا تذهبن إلى قرية نائية لمساعدة ملايين الذين يعانون، ويموتون من الأمراض والأوساخ وسوء التغذية؟ لماذا؟ لأنه عمل رمادي، غير ملفت للنظر، لن يتفاجئ بهذا أي شخص...

لم تفهم الصحف والمجلات، أو تظاهرت بعدم فهم والدي، من أجل الحصول على فرصة لنشر كلماته مرة أخرى، وطلبت رأيه في الحرب الروسية اليابانية.

على سبيل المثال، سألته إحدى الصحف في فيلادلفيا: مع مَن هو تولستوي، مع الروس أم مع اليابانيين؟ فأجابه الأب:

ـ أنا لست مع روسيا ولا مع اليابان، ولكن مع الشعب العامل في كلا البلدين، مع الذين خدعتهم أو أجبرتهم الحكومات على الحرب ضد الضمير، والدين ورفاهيتهم.

وقال والدي:

ـ إنه لأمر مدهش، أن المسيحية تحرم القتل، والبوذية أيضًا. والآن هناك شعبان، يعتنقان ديانات تحرم القتل، ويتقتلان ويغرقان بالدم، ويشوهان بعضهما البعض.

لم يستطع والدي أن يظل غير مبال بالحرب، وأرجأ لبعض الوقت المضي في تأليف كتابه «حلقة القراءة» الذي كان يعمل عليه في ذلك الوقت، وكتب مقالاً بعنوان «فكّر في الأمر».

فقط في زوايا روسيا النائية، فهم الفلاحون شبه المتعلمين تعاليم المسيح كما فهمها الوالد. لم يسألوه مع من هو مع الروس أو مع اليابانيين، ورفضوا حمل السلاح والقتال. لقد فعلوا ذلك ببساطة، دون التباهي، ومن دون التفكير في العواقب. وكانت العواقب وخيمة، فقد سُجنوا وأرسلوا إلى كتائب تأديبية، وغالبًا ما تعرضوا للجلد والتعذيب...

كان للحرب مفعول المنشط والمنبه على الجميع، وكما يحدث دائمًا في مثل هذه الحالات، فأنت تريد التحرك والعمل، حتى لو لم تستطع المساعدة في أي شيء، والانفلات من البيئة اليومية المألوفة. لم نتمكن من التفكير في أي شيء له قيمة وقررنا: ناتاشا وميشا وإليا سوخوتين وناتاشا أوبولينسكيا وضيف عائلة سوخوتين الألماني براوميولير قطع المسافة البالغة حوالي مائة وأربعين فيرستا، من منطقة كوتشوتي(60)، إلى ياسنايا ـ بوليانا، سيرا على الأقدام.

(60) كوتشوتي ـ ضيعة آل سوخوتين على الحدود بين اقليمي اريول وتولا. تقيم هناك ابنة تولستوي الكبرى تتيانا مع زوجها مستشار الدولة ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين.

ارتدينا بشكل بسيط فساتين من الشيت، ورمينا على اكتافنا الحقائب حيث الأشياء والمؤن، ومضينا، لا بدّ أن مظهرنا كان غريبا! لو لم نكن شبابا لاعتبرونا حجّاجًا. براوميولير وحده تميز عنا. كان يرتدي سترة سويسرية وبنطالًا قصيرًا من القماش وحقيبة ظهر على ظهره وقبعة من اللباد، ويمكن للمرء أن يتعرف من خلالها على الفور أنه اجنبي.

قضينا الليلة الأولى عند معارفنا، وكان من المفترض في اليوم التالي أن نصل إلى منزل اخي الأكبر سريوجا. أصبح أرمل، وعاش وحيدًا تمامًا في منزله في نيكولسكوي ـ فيازيمسكوي. لكن نيكولسكوي كانت على بعد حوالي خمسة وثلاثين فيرستا. وكان الجو حارًا، قررنا أن نميل على قرية لأخذ قسط من الراحة وشرب الشاي والحليب. وبعد أن اخترنا كوخًا نظيفا، دخلنا وسألنا أصحابه هل بإمكانهم وضع السماور لنا وتقديم الحليب؟ كان الفلاحون غير ودودين. نظروا إلينا بريبة، وسألوا من أين نحن، وإلى أين ذاهبون، ومن نحن؟ كنا مترددين في الإجابة، لم نرغب في الكشف عن هويتنا، والاعتراف بأن رحلتنا ليس لها هدف محدد.

ألحوا بالسؤال:

ـ ولكن إلى أين أنتم ذاهبون، هل للصلاة للرب؟.

ـ لا، نحن نقوم بجولة سياحية...

ـ تقومون بجولة سياحية؟ شيء عجيب ـ قال صاحب الدار بريبة ـ وهذا من يكون؟

ـ هذا ألماني، مهتم بالريف الروسي.

ـ مهتم؟ ما الذي يهتم به؟ ماذا يريد؟

ـ إنه مهتم كيف تعيشون، هو مهتم بالريف الروسي، ولم يزر روسيا قط.

ـ إذن على هذا النحو... ـ هز الرجل رأسه بعدم ثقة، وخرج من الكوخ ـ

وقررنا إنه على ما يبدو، لا ينوي تقديم الشاي لنا، وانتهزنا فرصة مغادرة صاحب الدار، للانتقال إلى منزل آخر. لكن لدهشتنا ظهر الباب، عندما اردنا فتحه، موصدا.

ـ مهلا، ـ صرخنا ـ أي مزحة خطرت على بالكم، لماذا أغلقتم الباب؟! افتحوا الباب!

ـ انتظروا قليلا! ـ صرخ الرجل ـ أنا سأركض إلى العمدة!

وذعرنا.

ـ هذا هو السماور، وهذا هو الحليب! ـ شاكسنا بعضنا البعض ـ. المهم ان لا يرسلوا بنا للسجن!

انتابنا القلق وشعرنا بالسخط، حشرنا رؤوسنا في النوافذ. لكنها كانت صغيرة وعالية. بقي الألماني فقط هادئًا تمامًا، مفترضا على ما يبدو أن كل شيء ممكن في روسيا.

بعد نصف ساعة، ظهر مضيفنا وأصطحب معه رجلين آخرين، العمدة وشاهدا. ظهر أن مضيفنا يخدم في سلك شرطة القرية. أراد العمدة من دون أي كلام أن يأخذنا إلى الزيمتوف(61)، ولكن فجأة فقد ميشا سوخوتين أعصابه، وهو عادة متواضع وهادئ.

(61) زيمتوف هو شكل من أشكال الحكم المحلي وضع خلال الإصلاحات الليبرالية التي اضطلع بها ألكسندر الثاني في الإمبراطورية الروسية.

ـ هل تعرفون مع من تتعاملون؟ صرخ بنبرة مهددة ـ أنا ابن مستشار الدولة الفعلي ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين، وهذه الأميرة أوبولينسكايا، وهذه ابنة الكونت تولستوي، أسمعتم أن كاتبًا كهذا

يعيش في ياسنايا ـ بوليانا. هل تعلمون أنكم إذا احتجزتونا ما سيحدث لكم؟ كيف تجرؤون؟!

جبن الفلاحون، وأثرت فيهم نبرة التهديد والألقاب الرفيعة التي صرخ بها ميشا.

سأل الشرطي:

ـ إذن هل انت ابن ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين؟

وسأل العمدة:

ـ وهذه أخت الكونت سيرجي تولستوي، الذي يعيش في نيكولسكوي ـ فيازيمسكوي؟ فلماذا خطر لكم أن تتجولوا في القرى سيرًا على الأقدام؟

وسأل الشرطي مشيرًا إلى براوميولير الذي كان الفلاحون ينظرون إليه باستمرار:

ـ وهذا من يكون؟.

ـ قلنا لك أيها الغبي أن هذا ضيفنا ـ ألماني...

وتسائل الرجل فجأة:

ـ ألألماني ليس يابانى؟

ـ ألماني، ألماني. وهل هيئة اليابانيين على هذا الشكل؟ هم من العنصر الاسمر وعيونهم ضيقة، وهذا أشقر وعيناه زرقاوان...

اتضح أن الرجال ظنوا خطأ أن براوميلر ياباني وأرادوا احتجازه كجاسوس.

لقد كان من دواعي سرور والدي أن يعرف أن هناك أشخاصًا في اليابان، مثله، يكافحون ضد الحرب.

نشرت الصحيفة الاشتراكية اليابانية «Heimin Shimtun Sha» في أغسطس / آب 1904 مقالًا باللغة الإنجليزية بقلم الاشتراكي الياباني الشهير إيزو آبي. أجرى والدي مراسلات معه، وكتب بالمناسبة أنه يأسف لأن إيزو آبي كان اشتراكيًا. أجاب اليابانيون أنه على الرغم من كونه اشتراكيًا، إلا أنه يؤيد الثورة السلمية، وفي علاقاته مع الثوريين الروس يحاول دائما أن يقنعهم دائمًا بالامتناع عن العنف.

لقد أثار الثوريون كدر أبي العميق.

أتذكر مثل هذه الحالة. جلسنا إلى الإفطار. وجاء والدي من الأسفل، لاهثًا.

ـ يا إلهي يا إلهي! تأوه بصوت عال. ـ ولكن أي فظاعة هذه! أقول له إنه لا يمكن استخدام العنف لتحسين أوضاع الناس، وهو يقاطعني بهذه الثقة: «أنتم على خطأ، ليس غير مستحيل، بل يجب بلا رحمة القضاء على كل من يستغل الناس!» ومَن هو؟ طالب مدرسة ثانوية، له حوالي سبعة عشر عاما، يهودي! يا له من حقد دفين! يا لها من ضغينة! بدأت أتحدث معه عن شريعة الرب، وعن تعاليم المسيح.
قاطعني مرة أخرى، بقوله إن «كل هذا هراء، لا يوجد رب!» لم أستطع التحمل، لقد أثارني! والشيء الرئيسي هو هذه الثقة بنفسه التي لا حدود لها. سألته «لماذا أتيت إلي، إذا كنت تعرف جيدا كل شيء؟» ـ وبارحت الغرفة.

نادرا ما رأيت والدي في مثل هذه الحالة من الهيجان. كان وجهه متضرجا، ويتنفس بسرعة، ويقطع الغرفة ذهابا وإياب، وظل يتأوه.

كان الأب ينتظر اندلاع الثورة. لقد شعر بمزاج العمال والجنود والفلاحين، ليس فقط من خلال المحادثات، ولكن أيضًا من الرسائل التي تدفقت عليه بلا نهاية من جميع أنحاء روسيا. عرف السخط الشعبي

الذي تزايد كل يوم، ورأى أن لا داعي للحربً اليابانية، ولا معنى لها، حيث قُتل مئات الآلاف من الناس، لقد فاض كأس الصبر...

كان واضحا له تماما أن الثورة لن تحسن أوضاع الناس، وربما لهذا السبب ناشد الحكومة مرارا وحذرها من الأحداث الدموية الوشيكة، وفي رأيه، ان كل سلطة وبغضّ النظر عن شكلها تقوم على العنف، وبالتالي فإن كل سلطة سيئة، وستعتمد الحكومة الجديدة على العنف مثل الحكومة السابقة. وكما سحق كرومويل، ومارات خصومهما، كذلك ستسحق في بلدنا الحكومة الجديدة المحافظين، وصحيفة «الزمن الجديد»، إلخ. إذا كان عليّ الاختيار، فأنا أفضّل اختيار فلاديمير ألكساندروفيتش. إنه لص ميسور الحال، ولن يسرق بفظاعة.

كتب والدي في مقالته «للحكومة والثوار والشعب»:

«لكي يصبح وضع الناس أفضل، من الضروري أن يصبح الناس أنفسهم أفضل. وهذه هي حقيقة بديهية مثل بديهية ان تسخين وعاء ماء، يتوجب تسخين جميع قطرات الماء. ولكي يصبح الناس أفضل، ينبغي أن يهتموا اكثر بأنفسهم وحياتهم الداخلية. إن النشاط الاجتماعي، وخاصة النضال الاجتماعي، دائما يصرف اهتمام الناس عن الحياة الداخلية، لهذا يؤدي دائمًا إلى إفساد الناس، ويقلل من مستوى الأخلاق العامة، في كل مكان، كما نراه الآن في روسيا إلى درجة مذهلة. إن انخفاض مستوى الأخلاق العامة يجعل اجزاء المجتمع اللا أخلاقية تظهر أكثر فأكثر على السطح، وتصوغ رأياً عاماً غير أخلاقي يسمح بارتكاب للجرائم، بل ويوافق عليها، وتتشكل دائرة باطلة: إن أسوء أجزاء المجتمع التي حرضت بحرارة على الصراع الاجتماعي، عكفت على أسوء الانشطة الاخلاقية الاجتماعية التي تناسب مستواها. إن هذا النشاط يجذب عناصر المجتمع الآكثر انحطاطا».

عندما التفت أحد الفلاحين في تولا إلى والدي، وسأله: «إلى متى ستسحب الملايين من أصحاب البدلات الخشنة الرمادية العربةَ المقلوبة»، قال الأب:

ـ يجب رميها، هذه العربة المقلوبة، رميها، دع من يريد أن يجرها. وإذا رفض الفلاحون والعمال فمن الذي سيقاتل، ويعمل لصالح الملاك، ويزرع، ويحرث، ويعمل في المصانع؟

أثارت أحداث 9 يناير/ كانون الثاني(62) قلق والدي العميق. وتحدث عن حماقة ما تم فعله، وألقى باللوم على المحرضين.

(62) الأحد الدامي كان حادثة وقعت في 9 (1905 في سانت بطرسبرغ بالامبراطورية الروسية حين تقدم متظاهرون غير مسلحين نحو قصر الشتاء ليقدموا التماسًا للقيصر نيقولا الثاني فوجه إليهم الحرس الإمبراطوري الروسي بوابل من الرصاص.

ـ لم يستطع القيصر استقبال خمسة عشر ألف عامل، ربما لم تعرف الدهماء ذلك، لكن الذين قادوها يعرفون ذلك.

«الجريمة التي ارتكبت في سانت بطرسبرغ مروعة. إنها مثيرة للاشمئزاز ثلاث مرات: لأن الحكومة تأمر بقتل الناس، ولأن الجنود يطلقون النار على إخوانهم، ولأن المحرضين عديمو الشرف، ومن أجل أهدافهم الدنيئة، يقودون الناس البسطاء إلى الموت. أنا لا أدين الشعب، لكن ليس لدي كلمات للتعبيرعن اشمئزازي عن الذين يظللونه».

كان المزاج مضطربًا ومتوترًا، وقالوا إن ثورة على وشك الاندلاع، وتوقعوا أعمال شغب في موسكو ومدن أخرى...

عدت من بطرسبورغ مع خالتي تاتيانا أندريفنا وابنتها الكبرى. جلبنا الكثير من الأخبار، وتحدثنا عما كان يحدث في موسكو وسانت بطرسبرغ. استمع إلينا الأب باهتمام، ولكن بألم ظاهر.

عشية يوم 4 فبراير، عندما كنت في موسكو، سمعنا دوي انفجار رهيب. هرع الجميع إلى الكرملين. قالوا إن سيرغي الكسندروفيتش قُتل بقنبلة.

كان الانفجار قوياً لدرجة أنهم لم يتمكنوا من جمع جثة الدوق الأكبر، وتمزق إلى قطع صغيرة.

ـ مريع! مريع! ـ كرر والدي، وقد تغضنت ملامحه من الألم عندما رويت له كيف ان احد الطلاب، في عربة القطار في الطريق من موسكو، قال أن مقتل سيرجي ألكساندروفيتش كان أول إشارة لبداية الثورة. «رائع، عملية نظيفة! الكلب يموت ككلب!»

ـ يا إلهي! ـ يتأوه الأب. ـ حسنًا، كيف لا يفهمون أن الحقد والقسوة تخلق قسوة اشد، ولن تكون نهاية لهذا».

وتحدثت الخالة بسخط عن الاضطرابات في المصانع، والإضرابات، وأصبح والدي أكثر كآبة وكدرا.

أخبرت كيف كان على إبن خالي ساشا بيرس أن يحرس خلال هذه الأحداث الجسور مع فوج بريوبراجينسكي. اقترب منه طالبة وبدأت في توبيخه، ووصفته بالجلاد، والدرك، وجندرمة القيصر. صمت ساشا بصبر. ثم بصقت عليه. ولعدم رغبته في القبض عليها، انحنى ورفعها على السرج وصفعها. بدا لي مضحكا.

ـ أوه، كيف يمكنك، كيف يمكنك أن تضحكي، ـ قال الأب، عابسًا، ـ حسنًا، ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من هذا الحقد المتبادل، الفرقة والخصومة بين الناس؟

تحدثوا عن كيف كان الأخ ليوفا عند القيصر، وكيف تأثر القيصر بوفود العمال.

ـ ومن فوّض هؤلاء العمال بالذهاب إلى القيصر؟ ـ سأل الأب. ـ لم يكن لديهم الحق في التحدث نيابة عن عدة ملايين من الناس.

وعندما أضفت أن ليوفا يريد أن يكتب خطابًا إلى القيصر، وأنه يعتقد ان هذا سيكتسب أهمية كبيرة، قال الأب حول هذا الموضوع:

ـ كيف يحب الجميع تعليم الاخرين، كيف يحبون تعليم الآخرين، لكن هم أنفسهم لا يعرفون شيئًا، لا يعرفون كيف يرتبون حياتهم! يتخيل ليوفا أنه سيكتب خطابًا إلى القيصر ومن هذا سيتغير مصير روسيا...

وراح الناس يسألون أبي أكثر فاكثر عن رأيه في الثورة، ويطرحون عليه أسئلة فارغة وغير مدروسة. ولم يبذلوا شيئاً من الجهد للتعرف على وجهات نظره، والتقاط ما كان في صالحهم ـ موقفه السلبي من الكنيسة والدولة ـ وخرج بعض الثوار باستنتاج متسرع مفاده أن تولستوي شخص من معسكرهم، وبسذاجة انتظروا منه التعاطف معهم.

كان هناك أيضًا من يعرفون آراء والدي جيدًا، وحجبوا منها ما لم يتجاوب مع افكارهم، وفي الوقت الذي رغبوا فيه استخدام تأثير تولستوي لصالحهم، وزعوا بعض أعماله. قال والدي: «أرغب في أن يتم قبول أفكاري بالكامل، وعدم استخدام جزء منها لأغراض غريبة عني»، وعندما حاول والدي الوقوف على الحياد، تمت إدانته.

«يحسبونني على معسكر كاتكوف(63). في وقت الاختبار هذا، على المرء أن يحافظ على نفسه. أنا مع الرب وليس مع الحكومة، ولا مع الليبراليين. الناس يهملون الحياة الداخلية التي يكونون فيها فقط أحرارًا: يضع الجميع البرامج عن كيفية إسعاد الآخرين، لكنهم ينسون حياتهم الروحية. أنا أعيش في ظروف سعيدة بعيدًا عن هذا الصراع، وما زلت أحافظ على أفكاري وأطورها على وجه التحديد لصالح تحرير الناس، والتي ستكون مفيدة لاحقًا عندما يحين الوقت «كما جاء في مذكرات طبيب الاسرة ماكوفيتسكي.

(63) ميخائيل نيكيفوروفيتش كاتكوف (1818 ـ 1887) كاتب روسي، ناشر، ناقد أدبي، مؤيد لوجهات نظر المحافظين الاصوليين الداعين لتعزيز اركان الدولة.

في مايو، وردت أنباء عن هزيمة أسطولنا. قتل العديد من الأقارب والأصدقاء. وحزنت العمة تاتيانا أندريفنا على ابنها فاسيا، لكنه نجا. بقي في الماء لمدة ثماني ساعات، وقبض اليابانيون، عليه، وقضى عدة أشهر في الأسر.

ووردت في أكتوبر أنباء عن اندلاع أعمال الشغب في كرونشتاد، ومن ثم صمتت فجأة الصافرات على السكك الحديدية، كما لو أن الحركة توقفت على الفور في إحدى القصص الخيالية، وتوقفت جميع القطارات ـ قطارات البضائع والركاب ـ وكان في هذا التطور شيء غريب ومثير. تسكع الركاب المرتبكون حول محطة «كوزلوفكا» للسكك الحديدية في مدينة تولا، ووصلت صفوف من النساء إلى المحطة مع الحزم، مدركات ان بالإمكان استغلال الفرصة لبيع الحليب والزبدة والبيض بأسعار باهظة.

في ذلك الوقت، جاء لزيارتنا الأخ ميشا، وكان على عجلة من أمره للذهاب إلى موسكو فقد كان على زوجته أن تلد في تلك الأثناء هناك. ودون انتظار انتهاء إضراب السكك الحديدية، استأجر عربة تجرها الخيول وسافر الى موسكو. واتصل وهو في الطريق من مدينة هاتفيا بموسكو بصديقه سربوخوف،. وجرت في موسكو عمليات تبادل إطلاق النار وبناء الحواجز.

وسأل الأخ.

ـ كيف لينا؟

أجاب صديقه:

ـ دوبل!.

وسأل أخي معتقدا أنه يتحدث عن إطلاق النار.

ـ لينا، زوجتي ما حدث لها؟

ـ لكني، أقول لك دوبل! هل تفهم؟ توائم، توائم! لقد ولدا بأمان تحت وابل الرصاص ـ صبي وفتاة...

كنت في تولا يوم إعلان الدستور. كان من الصعوبة السير في شارع «كييف» في تولا، فقد كان مكتظا بالناس. سارت حشود لا نهاية لها، وسُمعت هتافات، وحافظت فرق الشرطة المدججة بالسلاح على النظام، ولم يكن من الواضح ما إذا كان الناس يعربون عن فرحهم بالدستور الذي منحه القيصر لهم، أم أن أعمال الشغب على وشك الاندلاع...

جرت في الربيع انتخابات مجلس الدوما، وانتخب زوج أختي تانيا، ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين، بشكل غير متوقع للجميع. قبل عدة سنوات كان رئيسا لتجمع النبلاء في مقاطعة نوفوسيلسكي، لكنه بعد ذلك اعتزل تمامًا الأنشطة الاجتماعية، ولهذا بالذات بدا سبب انتخابه غير مفهوم.

عاشت تانيا وابنتها معنا، وانتظرنا جميعا بفارغ الصبر وصول ميخائيل سيرجيفيتش من سانت بطرسبرغ. لم يكن بوسع احد ان يروي الأحداث كما فعل هو، بحيوية، ومتعة، وذكاء. كما لو نهض أمامنا أحياء نماذج من «المئة السود»(64)، وممثلو حزب العمال في قمصان شعبية مطرزة، بعنادهم، ووقاحتهم...

(64) المئة السود هكذا كانت تدعى العصابات الملكية التي كانت تنظمها الشرطة القيصرية للنضال ضد الحركة الثورية.

«أي نمط مثير للاشمئزاز يتشكل من العامل »، قال والدي بحزن، وهو يستمع إلى هذه القصص ـ ويؤكد أكثر فأكثر الرأي القائل بأن الدوما لن تأتي بشيء جديد، أي جنون، ويا لخطيئة الخطب الطويلة الفظيعة! ويتم إنفاق الملايين من أموال الناس على هذه المشاحنات التي لا طائل من ورائها، والهراء، وصيحات الحقد والضغينة!

لم يعترض ميخائيل سيرجيفيتش، فقد ضحك فقط بلطف، وفي أعماق روحه اتفق بشدة مع والدي. لكن الأخ سيرجي جادله دائمًا، مقتنعًا بأن

ـ لا يمكن رؤيته بعد الآن، ولكن ما يزال بالإمكان سماعه يصرخ من تحت الرمال.

ركضوا إلى الضيعة حيث ابلغا عن الفاجعة. هرع الجميع إلى «حفرة الرمال». ونادرا ما رأيت والدي مستاءً بهذه الصورة، وحفر جنبا إلى جنب مع العمال، لانتشال سميون.

ـ لا يجوز، لا يجوز القيام بمثل هذه الأشياء ـ قال لأمي ـ اذا كنت تديرين شئون الضيعة لابد من القيام بذلك بصورة حسنة، أو تخلي عنها تماما.

كانت المرة الوحيدة في ذاكرتي عندما تدخل والدي في شؤون الضيعة. استأجر حفّارين، وشرح كيفية فتح محجر، ومنذ ذلك الحين غالبًا ما ذهب إلى «حفرة الرمال» ـ ورأى ما إذا كانت الرمال قد أخذت بشكل صحيح.

اعتقدت الأم أن أهم شيء في حياتها هو رعاية والدي. وبعد أن شعرت بالخلاف الداخلي بينها وبينه، تمسكت بالرعاية الخارجية له مثلما يتمسك غارق بالقش. كانت سعيدة بالقبعة التي حبكتها له، وبالبلوزة الجميلة التي خاطتها. طمأنت نفسها بهذا ، ولم تأخذ بالحسان أنه ليس بميسور أي رعاية خارجية التخفيف عن القلق الذي ينتاب والدي من المعاناة الروحية. لقد اعتقدت بصدق أن والدي سيموت إذا لم تضع سراً مرق اللحم في حساءه، وإذا لم تقم بالإخفار قربه أثناء مرضه، وإذا لم تفكر مليًا في ملابسه وطعامه.

تردد أمي دائما وهي تدفع الإبريق بعيدًا عن والدي:

ـ لوفتشكا ، لا تشرب الكثير من الكفاس، مرة أخرى ستصاب بالتسمم المعوي...

ـ لوفتشكا ، البس معطفا دافئا ، الجو قارس جدا اليوم!..

أحيانًا يطيع الأب في صمت، وكان أحيانًا يقول بانزعاج:

ـ أوه، كفي، من فضلك، يا سونيا ، أعرف.

الفرح التام(57)

(57) تجربة الفرح الكامل... ـ معنى موعظة فرنسيس الأسيزي القائلة أن الشخص يتلقى «فرحًا كاملاً» إذا كان بإمكانه «تحمل عار غير مستحق، وتحمل عقاب غير مستحق منه، ولم يشعر بالعداء تجاه من سبب له المعاناة». كانت هذه المواقف قريبة من تولستوي.

يلوح لي أن ماشا كانت الشخص الوحيد في العائلة التي نظرت إلى إرادة الأب على إنها مقدسة. ربما لهذا السبب تعقدت علاقتها مع الوالدة.

بعد سنوات عديدة، عندما اضطررت إلى تنفيذ إرادة والدي، على وفق إرادته الروحية، وتحمّل العديد من الكلمات المريرة واستياء العائلة مني، غالبًا ما كنت أتذكر ماشا ، وفكرت لأي مدى سيكون الأمر سهلا لو كانت على قيد الحياة.

على الرغم من أنها لم تبارك سطحيتي، معتبرة أنني لم أدرك بما يكفي آراء والدي، شعرتْ في أعماق قلبها أن تعلقي به غدا أقوى وأعمق بمرور السنين، ولهذا سامحتني كثيرًا.

ان الشرخ الذي شعرت به بشكل غامض في العلاقة بين أبي وأميّ، أصبح حقيقيًا بالنسبة لي، بعد عدة محادثات مع ماشا ، وعلى مر السنين بدأت أفهم أكثر فأكثر عمق الهاوية التي تفصل بينهما.

وكما أتذكر الآن، دعتني ماشا للحديث في غرفة الضيوف. كانت مستاءة ومضطربة، وقالت لي أن الأم شرعت تكتب اليوميات بتاريخ

رجعي سابق للحقيقي، مستخدمة يوميات الوالد، وتفسّر الأحداث، ومزاج الأب بطريقتها الخاصة.

لم أفهمها على الفور. وسألتها بسذاجة.

ـ لأي غرض؟

ـ هنا بيت القصيد. لأي غرض؟ حتى يعتقد الناس، عند قراءة هذه اليوميات، أن الوالد شرير، وأناني في العلاقة مع الأم، التي حمّلها عبء كل شؤون إدارة الممتلكات والأسرة... والأم؟ شهيدة...

صرخت بحمية:

ـ يجب أن نمنع هذا بطريقة ما! ـ لا يجوز السماح بهذا...

ابتسمت ماشا بحزن.

ـ حسنًا، كيف نمنع هذا؟ علينا وإياكِ فقط أن نتذكر، ليس كل شيء صحيحًا في هذه اليوميات...

لم أنس هذا أبدا. وعندما بدأت أمي تتحدث عن كتاباتها: مذكرات، «قصة حياتي»، كنت صامتةً ببرود وعدوانية. وكثيراً ما قالت أنه يجب تبرير نفسها بعيون جيل المستقبل، وأنها ستودع مذكراتها في متحف رومیانتسیف ليتم نشرها بعد خمسين عامًا من وفاتها، ومن ثم سيرى الناس كيف عانت، وكيف كان الوالد قاسيًا وغير منصف معها.

ربما كنت انزعجُ بشدة من فكرة جيل المستقبل هذه، لأن أمي كررت باستمرار أنه يجب حفظ وكتابة كل شيء، وأن كل هذا سيكون مثيرًا للاهتمام لاحقًا، وأعطت أهمية كبيرة لما سيقوله الجيل القادم ويفكر فيه عنها. لهذا أيضا لم أكتب يوميات إلا عندما مسني شيء ما بشدة، أو عندما كنت في حالة حب.

الآن أشعر أنني مذنبة بشأن ذكرى والدي.

مرة أخرى، استدعتني ماشا إلى مكتب الوالد بطريقة سرية.

قالت:

ـ تحت هذه الأريكة، ترين بطانتها الممزقة، هناك رسالة. طلب الاب (لم تقل ماشا ماذا) إعطائها إلى العم سريوجا في حال حدوث شيء ما. وإذا لم نكن أنا وكوليا هنا، قومي بذلك بنفسك!

سألت وقد استشفيت سرّ وأهمية المهمة الموكلة إلي.

ـ ولمن الرسالة؟

ـ لا اعرف.

استولى الفضول علي، لكنني لم أجرؤ على الإلحاح بالأسئلة، ومن المحتمل أن ماشا نفسها لم تكن تعرف ما يكمن في البطانة الممزقة للكرسي القديم.

عندما لم تعد ماشا على قيد الحياة، ذكّر زوجها أوبولونسكي والدي بالرسالة، وبعد أن عرفت الأم بذلك، أرادت تفكيك الأريكة في المكتب. استل الأب الرسائل، ظهر ان هناك رسالتين، وأعطاهما لكوليا، طالبًا منه الاحتفاظ بهما، وإعطاءهما للأم بعد وفاته.

قام ابولونسكي بذلك بالضبط، وقال بعد أن قرأت أمي احدى الرسالتين أنها مزقتها على الفور إلى مزق. وبعد ذلك بكثير، عرفت محتوى الرسالة الثانية. لم تكن لدي أي فكرة حينها عن أن والدي كان قريبًا جدًا من فكرة مغادرة ياسنايا ـ بوليانا.

وأورد الرسالة أدناه:

«عزيزتي سونيا!

لفترة طويلة أتعذب لعدم انسجام حياتي مع معتقداتي. لا أستطيع إجباركم على تغيير حياتكم وعاداتكم التي عودتكم عليها، لم أستطع أيضا حتى الآن، الذهاب عنكم، معتقدا أنني سأحرم الأطفال عندما كانوا صغارًا، ولو التأثير الضئيل الذي يمكن أن يكون لديّ عليهم، وأسبب لكم الكرب، ولم أعد أستطيع أيضًا الاستمرار في العيش بالطريقة التي عشت بها ستة عشر عامًا، مرة أكافح وأزعجكم، ومرة أقع تحت تلك الإغراءات التي اعتدت عليها والمحاط بها، والآن قررت أن أفعل ما كنت أرغب فيه منذ فترة طويلة أن أفعل ـ أن أغادر: أولاً، لأنه مع تقدمي بالسن، تغدو هذه الحياة اكثر صعوبة، وتتصاعد اكثر فاكثر الرغبة بالعزلة، وثانيًا، لأن الأطفال قد كبروا، وتأثيري في المنزل اصبح غير ضروري، ولديكم جميعًا اهتمامات حيوية تجعل غيابي غير ملحوظ. الشيء الرئيسي هو كما ان الهندوس عند بلوغ سن الستين يذهبون إلى الغابة، ومثل أي شخص متدين كبير السن، ارغب في تكريس السنوات الأخيرة من حياتي للرب، وليس للنكات، والتورية، والقيل والقال، والتنس، لذلك وأنا أدخل عامي السبعين، ارغب بكل قوة روحي بهذا الهدوء والعزلة ولو بعدم التوافق التام، ولكن ليس عدم انسجام حياتي الصارخ مع معتقداتي ومع ضميري. لو قمت بذلك علانية، سيكون هناك طلبات بالبقاء وإدانات ونزاعات وشكاوى، وسأضعف، ربما لن أنفذ قراري، لكن يجب تنفيذه. ولذلك، أرجو أن تسامحوني إذا كان عملي يؤلمكم، وسونيا إنكِ أنت الرئيسية في روحي. دعيني أذهب طوعا، ولا تبحثي عني، ولا تقلقي عليّ ولا تدينيني. وحقيقة كون أني تركتك، لا يبرهن على أنني كنت غير راضٍ عنك، فأنا أعلم أنك لا تستطعي، أو حرفيًا لم تستطيعي ولن تستطيعي أن ترى وتشعري مثلي، ولذلك لم تستطيعي ولن تستطيعي تغيير حياتك وتقدميها تضحية من أجل ما لا تعين به. ولذا فأنا لا أدينك، بل على العكس من ذلك أتذكر بحب وامتنان، الخمسة وثلاثين عامًا الطويلة من حياتنا، وخاصة النصف الأول من هذا الزمن، عندما كنتِ بسجيتك، أمّاً مضحية بالنفس، وتحملت بحيوية وقوة ما اعتبرته رسالتكِ... لقد منحتِ العالم ما يمكنكِ منحه، منحت الكثير من حب الأم، ونكران الذات، ولا

يسع المرء إلا أن يقدرك على هذا. لكن في الفترة الأخيرة من حياتنا ـ في الخمسة عشر عامًا الماضية، نحن انفصلنا. وليس بوسعي أن أعتقد أنني مذنب، لأنني أعلم أنني تغيرت ليس من أجل نفسي وليس من أجل الناس، ولكن لأنني لا أستطيع أن أفعل غير ذلك. وليس بميسوري أن أتهمك، لأنك لم تتبعيني، لكنني أشكرك، وأتذكر بحب، وسأتذكر كل ما قدمته لي.

وداعا عزيزتي سونيا. ليف تولستوي، الذي يحبك.

8 يوليو 1897».

بعد بضعة أشهر، كتب لأختي تانيا:

«أنت تكتبين عن عدم مجيئي إلى موسكو. أفكر في هذا الأمر مائة مرة كل يوم، ولفترة طويلة، لا أستطيع أن أقرر. هل اذهب إلى العذاب، والحياة غير اللائقة والخاملة، تاركًا وحدتي المثمرة، عندما لم يتبق لي سوى فترة قصيرة من الحياة والعمل. هناك شكل من أشكال الانتحار الروحي، فلماذا؟

وفي غضون ذلك أعرف أن الأم تعاني من هذا، وأود مساعدتها. لكن عندما أصل، أعرف أنني لن أساعدها، إنها ستعاني بطريقة أخرى، وسوف ألحق الضرر بنفسي، وهذا ليس من منفعتي. أفكر دائمًا وأتمنى ألا أقرر لنفسي، بل أمام الرب».

كنت أعرف لدى والديّ أسبابا كثيرة للخلافات: حول تربيتنا، ونمط الحياة في موسكو، والرفاهية، ولكن في أغلب الأحيان كانت الخلافات تدور حول حقوق نشر المؤلفات.

أتذكر عندما كنت مراهقة، كيف منح والدي حقوق نشر قصة «السيد والخدم» إلى «مجلة «البشير الأوروبي» وكيف غضبت أمي، وبكت، ووبخته. بدا لي حينها أن المحررة «ل. يا. غوريفيتش» هي المسؤولة عن

كل شيء. قالت أمي إنها «يهودية صفيقة» تمكنت من التوسل إلى والدي من أجل القصة.

كتب والدي في عام 1895، في يومياته شبه وصية، طلب فيها من أبنائه وزوجته التنازل عن حقوق المؤلف، ووضعها تحت التصرف العام. كتب: «كون أن مؤلفاتي كانت معروضة للبيع خلال السنوات العشر الماضية، كان أصعب أمر عليّ».

كتبت ماشا ثلاث نسخ من هذه الوصية. أعطت واحدة لوالدها ليوقع عليها واحتفظت بها، وأعطت الاثنين الآخريين لسيريوجا وتشيرتكوف لحفظهما.

عرف اخي إيليا بهذه الوصية وأخبر والدته.

صبت الأم جام غضبها على ماشا، ووصفتها بأنها كاذبة، وغير صادقة وإتهمتها بأنها دست لوالدها الورقة خفية ليوقع عليها.

تحلت ماشا بضبط النفس، وحاولت أن توضح أن الورقة المعنية ليست ذات قوة قانونية، وأن الأسرة بأكملها تعرف إرادة والدها، ولكن الأم لم تستمع إليها، وواصلت الصراخ. وتذكرت الأم أن ماشا، بعد أن تخلت عن الملكية، أخذت نصيبها مرة أخرى لإطعام زوجها، البائس الفقير، ووصمتها بالنفاق...

ذهبت الأم من ماشا إلى الوالد. وحدث مشهد عاصف بينهما. على ما يبدو الأب لم يوافق على إتلاف الورقة، لأن أمي استمرت في القلق، وصرخت، وبكت، وهددت بالإنتحار.

شعر أبي بعدم انتظام نبض القلب. وكانت ماشا تعرف إن أمي لن تتوقف عن تعذيبه حتى تحقق هدفها، وخافت على صحته فأعطت الوصية لأمي.

في مذكراتها المؤرخة في 10 أكتوبر 1909، قدمت الأم التفسير التالي لهذا الحدث:

«عندما تم تقسيم ممتلكات عائلتنا بناءً على طلب ليف نيكولايفتش، وتوزيعها على أفراد العائلة، رفضت الإبنة ماشا، التي كانت آنذاك راشدة، المشاركة في ميراث والديها، سواء الآن أو في المستقبل. ولمعرفتي بطبيعتها الكاذبة والمتذبذبة، لم اثق بها، وسجلتُ هذا الراسمال باسمي، وكتبت هذا الراسمال في الوصية لصالحها. لكني لم أمت، وتزوجت ماشا من الفقير ـ اوبولينسكي وأخذتْ حصتها لإعالته ونفسها. وإذ لا تتمتع باي حقوق على المستقبل، قامت في عام 1895 لسبب ما، وفي خلسة مني، باستنساخ من يوميات والدها جملة من رغباته التي طلب تنفيذها عقب وفاته. وبالمناسبة، كتب أنه عانى من بيع مؤلفاته، ويتمنى ألا تبيعها أسرته وبعد وفاته. وعندما ألمّ بليف نيكولايفتش مرض خطير في يوليو 1901، أعطت ماشا والدها وفي غفلة عن الجميع هذه الورقة، التي استنسختها من يومياته، ليوقع عليها بقلمه، وهو ما قام به، وهو على سرير المرض.

شعرت بعدم ارتياح شديد، عندما عرفت ذلك بالصدفة. اعتبرت إن جعل أعمال ليف نيكولايفتش ملكية عامة، امر سيئ وعديم المعنى. أنا أحب عائلتي، وأتمنى لها ان تعيش بافضل اشكال الرفاهية، ومن خلال التبرع بالمؤلفات للملكية العامة، سنكافئ دور النشرالغنية وأصحابها مثل ماركس وتسيتلين (يهود) وغيرهم. وقلت إذا مات هو قبلي، فلن احقق رغباته، ولن أتخلى عن حقوق أعماله، ولو كنت اعتبر أن هذا جيّد وعادل، لأسعدته بالتخلي عن الحقوق إبان حياته، فبعد الموت لا ينطوي هذا على أهمية له. والآن، بعد أن شرعت بنشر أعمال ليف نيكولايفيتش، وبناءً على طلبه القاضي بالاحتفاظ بحق النشر لي، ولم ابعه لأي كان، وعلى الرغم من العروض التي قدمت لي بمبالغ كبيرة مقابل حق النشر، شعرت بعدم الارتياح لأن بحوزة ماشا ورقة وقّع عليها ليف نيكولايفيتش تنص على أنه لا يرغب ببيع حقوق نشر أعماله بعد وفاته. لم أكن أعرف المضمون الدقيق وطلبت من ليف نيكولايفتش أن يعطيني هذه الورقة،

بعد أن أخذها من ماشا. لقد فعل ذلك عن طيب خاطر وسلّمها لي، وحدث ما لم أتوقعه أبدًا: غضبت ماشا، وصرخ زوجها أمس، والرب أعلم لماذا، قائلا إنه وماشا سينشران هذه الورقة بعد وفاة ليف نيكولايفيتش، ليطّلع عليها أكبر عدد من الناس، وليعرف الجميع أن ليف نيكولايفيتش لم يرم بيع حقوق نشر مؤلفاته، لكن زوجته باعتها».

حل موسم الخريف. وأصبحت اوراق أشجار البتولا الشفافة قليلة الكثافة، وظهرت هنا وهناك أغصان صفراء ساطعة في أشجار الزيزفون، واختلطت الأوراق المتساقطة في مياه الترعة، الشفافة القاتمة تقريبًا.

مشينا نحن الثلاثة الاب وماشا وأنا، بصمت على طول درب البتولا إلى الترعة السفلية. لقد وحّدنا شعور عميق بالمودة، ولهذا، ولأن الأب بدا مرهقًا للغاية، شعرت بحزن عميق وساورتني الرغبة في البكاء. وطفق هو، وكما لو كان يخمن مزاجنا، يتحدث عن أن الحياة هي الفرح، ونحن المذنبون اذا لم نعي هذا.

ـ يُخيل للمرء انه سيحظى بالسعادة لو تغيرت ظروف حياته، أو إذا كان بميسوره الذهاب إلى مكان ما، أو إذا استعاد بصره فجأة، أو سيصبح شابًا، ويمكن أن يبدأ حياته من جديد. في هذه الحالة، كما يعتقد، سيكون جيدًا تمامًا... لكن، كلا... هذا ليس صحيحًا. إذا تغيرت الحياة وفقا لرغبته، واختفت احدى المصاعب، فستبدلها على الفور أخرى وثالثة. لكن يتوجب عليه...

ـ مثل فرانسيس الأسيزي.. ـ قاطعته ماشا.

ـ صرخ الأب بسعادة. ـ

ـ نعم، نعم، انك تفهمين كل شيء دائمًا بشكل مثالي! نعم، عندما يشتمونكم ويضطهدونكم، حينها اشعروا بالفرحة التامة...

ارتجف صوته. ولم أستطع رؤية معاناته، بكيت وهربت.

وفي المساء سألتني ماشا:

ـ ماذا أنت، يا الكسندرا، لماذا اجهشت بالبكاء؟ ربما تغارين من علاقة الأب بي؟

ـ ما خطبكِ! ـ صرخت ـ كلا، أشعر بالشفقة عليه، إنه يتألم، ويعاني... وانهمرت الدموع من عيني مرة أخرى.

طوال الخريف، تقريبًا حتى رأس السنة الجديدة، كان والدي مريضًا. وفي البداية لم يتمكن الأطباء من تشخيص مرضه. كانت هناك حمى وآلام شديدة في الجنب. ثم ارتفعت درجة الحرارة فجأة. وشخّص أطباء موسكو ممن استدعوهم مرض والدي بانه الأنفلونزا.

النزهات

بعد ان ينتهي والدي من كتابة عمل ناجح تكتسب هيئته التحدي والبهجة، وتتسم مشيته بالخفة، ووجهه بالغبطة، وعيناه ضاحكتان. أحيانًا ينقلب فجأة على كعب واحد، أو يرمي ساقه بسهولة وبسرعة على ظهر كرسي. أعتقد أن أي شخص يحترم نفسه من اتباع تولستوي، سيصاب بالرعب من سلوك مثل هذا المعلم. نعم، لم تغتفر دائما مثل هذه الرشاقة لوالدي! أتذكر هذه الحالة:

كنا نتناول الغداء في الشرفة، وجلست أمي في مكان «الرئيس»، كما أطلقنا عليه، وعلى الجانب الأيمن منها كان يجلس أبي، وبجانبه مساعده تشيرتكوف. كان الجو حارًا، وازعجنا البعوض. كان يرفرف في الهواء، ويطن بشكل خارق ومضجر، ويلسعُ الوجوه والأيادي والأقدام. تحدث الأب إلى تشيرتكوف، واستمع الباقون. وكان المزاج مرحًا وحيويًا، ومزح الجميع، وضحكوا.

نظر والدي فجأة، إلى رأس تشيرتكوف، وصفع رأسه الأصلع بحركة بارعة وسريعة! بقيت بقعة دم على رأس تشيرتكوف من بعوضة منتفخة مخمورة بالدم.

انفجر الجميع ضاحكين، وضحك الأب أيضًا. لكن فجأة توقف الضحك. حملق تشيرتكوف، الذي كان قد قطب حاجبيه الوسيمين، في والدي بعتاب. واردف قائلا:

ـ ما عملتم؟ ما فعلتم يا ليف نيكولايفيتش! لقد انتزعتم حياة كائن حي! ألا تخجلون؟

ارتبك الأب. وشعر الجميع بالحرج.

عندما كان الوالد منبسط المزاج، كان دائمًا يبتكر نزهات مشوقة: إلى الحِضار(58)، وإلى محطة «رفي» التي تبعد أربعة فيرستا عن

ياسنايا ـ بوليانا أو إلى منزل العجوز ماريا الكسندروفنا شميدت، حيث بحيرة «بروفالي» التي ظهرت قبل مائة عام. وفي بعض الأحيان، كان الأب يجمعنا ـ كبارًا وصغارًا، في نزهة، وبالنسبة لأولئك الذين لا يتحملون مشقة الطريق، يركبون الخيول. وتجنب الأب الطرق الوعرة، وأحب أن يسلك طرق مختصرة. ويقول:

(58) الحِظار عائق من أشجار مقطوعة يسد به الطريق

ـ مهلا، مهلا هذا هو الدرب، يجب أن يؤدي بالتأكيد إلى الطريق العام.

مشينا فيرستا، واثنان، وثلاثة...

ـ يا إلهي، لقد رحنا شوطا ابعد... انتظروا، يجب أن يكون الطريق قد انحرف إلى اليمين.

كنا نسير في درب ترابي ـ بالكامل، وتحت أقدامنا ورق رقيق متعفن، وتتشبث برؤوسنا أغصان البندق، ونلتف على جذوع الأشجار، والأشجار القديمة، وشجيرات السراخس المتضخمة التي تفوح برائحة الخيار الطازج. ونمضي أعمق وأعمق في الغابة. أمي تعبت، وساورها الغضب:

ـ ها أنت دائمًا هكذا يا لوفيتشكا، بطرقك المختصرة، لو سرنا في الطريق المستقيمة، لوصلنا المحطة منذ فترة طويلة، ولكن الآن، لا سامح الرب، سنصل في المساء إلى هناك!

الشباب راضون. هناك متع كثيرة في الطريق!

ومع إن والدي عرف الحِضار جيدًا، فإنه غالبًا ما كان يضل الطريق فيها.

في بعض الأحيان نأخذ الضيوف في نزهة على الأقدام. أتذكر جاء إلينا جيراننا، آل شينشين. الرجل مثل درع أصفر، رجل سمين أحمر، يرتدي سترة بيضاء مع حزام كتف أصفر، ويميل للصمت ويتعرق. أما

زوجته فسيدة ممتازة مفعمة بالحيوية والثرثرة، سيدة فوج عسكري نمطية.

ـ فولوديشكا ـ شجعت زوجها ـ لماذا أنت صامت؟ ارو شيئًا لليف نيكولايفيتش!

ذهب والدي معهم، بعد الغداء، في نزهة على الأقدام إلى الحِضار، ولم يستطع أبي هذه المرة أيضا مقاومة إغراء اختصار الطريق، وكالعادة أخذهم من «بئر كودييياروف» عبر الدرب الترابي الى الطريق العام، وانتقلوا إلى الجانب الآخر من نهر «فورونكا» عبر اعمدة خشب ملقاة بمثابة جسر عبر النهر. عبَر أبي، وانتقلت سيدة الفوج العسكري بسهولة، ويبدو أن زوجها فولوديتشكا جفل، ونظر الجميع بفضول وترقب إليه. عندما وصل إلى وسط العمود، حُرج فجأة، واستعجل، فانكسر أحد الأعمدة قليلاً، وهوى فولوديتشكا في الماء.

ضحك والدي حتى البكاء، وروى لنا هذا الحادث، ومنذ ذلك الحين أطلقنا على هذا المكان «ممر فولوديتشكين».

أحب أبي الزهور، ودائماً ما كان يقطفها بدون أوراق، ويضغط على بعضها عن قرب، وعندما صنعت له باقات الزهور بطريقتي الخاصة، وأضفت إليها المساحات الخضراء ورتبت الزهور بحرية في مزهرية، لم يعجبه ذلك.

ـ إنها عديمة الفائدة، يجب أن تكون أسهل...

عادة كان أول من يجلب ورود البنفسج وأذن الفار، وزنابق الوادي، ومن ابتهج بها، ودعا الجميع لشمها. لقد أحب بشكل خاص إذن الفار، واللبلاب، وكان يحزن لأن من غير المريح وضع اللبلاب في الماء ـ فسيقانها قصيرة جدًا.

ـ شمي تفوح برائحة لطيفة، مثل اللوز المر، هل تشعرين؟ وأية مَسحة وظِلال، انظري...

أدت الخيول والكلاب دورًا كبيرًا في منزلنا.

اهدوا لأبي كلبة من نوع «لايكا» سيبيرية أصيلة تدعى «بيلكا». لقد كانت كلبة حسنة، لطيفة، والأهم من ذلك ـ جادة مع شعور الاعتزاز بالذات. لكن والدي لم يهتم بها، ولم يطعمها، ولم تعترف بيلكا بالوالد بأنه صاحبها. كانت متأهبة أكثر للسير مع يوليا إيفانوفنا أو معي. وفي بعض الأحيان كانت تتظاهر فقط بأنها تسير مع والدي، تركض إلى الأمام، وتهز ذيلها وتنظر في عينيه، وترافق والدي عبر بستان التفاح إلى الغابة، وهناك بهدوء تميل الى جانب ثم تعود إلى المنزل من دونه. حتى أن الأب شعر بالاستياء.

ويقول ليوليا إيفانوفنا:

ـ لقد أخذتم مني بيلكا، فهي لا تريد أن تمشي معي.

أتذكر أنني اقتنيت كلبا سلوقيا كثيف الشعر على الرقبة، قوي البنية، أشعث ذا وجه كبير. اقتفى اثري، وحنى رأسه في طاعة وتجهم. ولكن بمجرد أن يرى قطيعًا من الأغنام، يقفز عليها بكل قوته، ويندفع إلى وسطها، وغالبًا ما كان يمزق الأغنام حتى الموت. عاقبناه وحبسناه ـ ولم يساعد هذا في شيء.

اعتاد السلوقي التجول مع والدي. ذات يوم جاء والدي من نزهة مستاءً للغاية:

ـ خذي كلبك إلى مكان ما!

ـ لماذا؟

ـ لقد طارد الخراف مرة أخرى اليوم! دفعته عنها بعيدا بالقوة!

ـ تعبت، وتلهث؟

ـ هذا لا شيء. لقد جعلني اقترف خطيئة. خلعت الحزام وجلدته. والأهم من ذلك، ان الشعور بالضغينة أمر سيء...

اضطررت إلى أن أعطي السلوقي لأحد الأشخاص.

لقد اعتدنا على وجود كلبين في الفناء: الأول يدعى «توليب» والآخر «الغجري». لابد أن يكونا شقيقين فهما متشابهان إلى حد كبير: لونهما أسود وصدورهما بيضاء، وآذانهما متدلية، وخفيفة الشعر في الأمام، وشعثاء من الخلف، ودائما تلعب في الأشواك. كانت هذه الكلاب دائما ما ترافق أبي في نزهاته.

كانت في الغابة الكثيفة القريبة الكثيفة، عين ماء جارية، من الصعوبة ملاحظتها، حيث يؤدي إليها طريق وعر. وفي احدى الأماكن تتشكل منها ترعة صغيرة من المياه النظيفة النقية. سمّي هذا ب «بئر الذئب». تعيش هنا في التل حيوانات الغرير(59). قامت بحفر أوكار عميقة لنفسها، وتتواصل بعضها مع البعض الآخر من خلال أنفاق تحت الأرض. كان أبي يحب الذهاب أحيانا إلى هذا المكان البري المهجور، وتسللت الكلاب في الأوكار. تتسلل في إحداها وتخرج من الأخرى، وأحيانًا كانت تطرد الحيوان للخروج من هناك. وذات مرة خرج «الغجري» من الوكر ملطخا بالدماء، وهو يزعق بصوت رهيب. لقد عضه الغرير من ذيله. أتذكر بينما كنا أبي وأنا نتجول في منطقة «تشابيز» طاردت الكلاب غريرًا كبيرًا كان يتجه نحونا.

(59) حيوان الغرير من الحيوانات اللاحمة من عائلة، الغرير موجود في معظم الغابات والأحراج، لكننا لا نراه كثيرا لأنه يبقى نهارا في وكره تحت الأرض ولا يخرج منه إلا ليلا.

واندفع «الغجري» و«التوليب» نحو الناس المتسولين، والجوالين، ومزقا ملابسهم، وقررنا التخلص منهما، فأعطيناهما لعوائل أخرى، لكنهما رجعا لنا. فكر شخص ما في إرسالهما بعيدا بالقطار. سلموهما في الحِضار ووضعوهما في مستودع عفش عربة القطار لتسليمهما

لشخص سينتظرها في محطة ريفياكينو على الجانب الآخر من مدينة تولا. ولكن عندما استيقظنا في اليوم التالي، استقبلنا الكلبان وهما يهزان ذيلهما عند المدخل.

يسألنا الأب بعد الغداء.

ـ من يريد أن يذهب معي إلى صيد النباتي؟

نرتدي بصعوبة أحذية ثقيلة للخوض في المستنقعات، تفوح منها رائحة القطران، ونتبعه بمرح عبر بستان التفاح و«شابيزه» إلى الغابة الكثيفة. ما يزال هناك جليد متسخ في الخنادق، والغابة عارية، وأصبحت البراعم المنتفخة على الأشجار داكنة، وفي بعض الأماكن اصفرت أوراق الصفصاف الرقيقة.

نخرج إلى مرج الغابة، ونتوقف.

ـ الآن اركنوا إلى السكون ـ يقول الأب: ـ لا تتحدثوا وانصتوا!

نجلس على السيقان النامية تحت الأرض، وننتظر. أستمع بتوتر، وقلبي ينقبض من الإثارة.

ـ انصتوا؟ انصتوا؟ يهمس الأب.

يترامى، صوت طيور ديك الغاب:

ـ خر، خر، خر.

ويحلق أحدها فوق رؤوسنا. ويقوم بدورة في الهواء ويختفي في الغابة. وينطلق بعده الثاني والثالث.

ساد الصمت التام. وحل الظلام.

عدنا إلى المنزل في غاية السعادة مع «صيد النباتي». خفقت الأحذية بالأرض بصوت عالٍ، وهي تغوص في الأرض الرطبة.

ـ يا للعجب، ـ قال والدي ـ كم هو غريب أنني كنت مولعًا بالصيد والقتل...

إذا كنت تركبين مع والدك على ظهور الخيل، «لا تزعجيه»، كما قال أدريان بافلوفيتش، اتبعيه جيدًا. كان والدي يسير عبر الوديان والمستنقعات والغابات العميقة وعلى طول الممرات الضيقة، بغضّ النظر عن العقبات التي واجهته في الطريق.

قلت له:

ـ هنا الدرب ضيق للغاية، ربما لن نجتازه.

سأل ابي في الوقت الذي كان فيه وجه ديلير باتجاه الوادي:

ـ وبرأيك من يسير في طريق ضيق، الحصان أم الإنسان؟

ـ الإنسان!

ـ لا، الحصان. لانه لا يخاف من شيء!

إذا كان هناك جدول في الطريق، يدفع الأب ديلير، من دون أن يفكر قليلا، ويقفز إلى الجانب الآخر، مثل طائر. أتذكر أنني كنت أركب حصانًا سيئًا يعاني من قدمه. قفز والدي، وتعثر حصاني، وسقط على رجليه الأماميتين، ووجدت نفسي على كتفه.

وصرخ الأب، وهو ينظر حوله:

ـ هل أنتِ على قيد الحياة؟

أجبت، وأنا أضحك، واعدل جلستي على السرج.

ـ بالكاد على قيد الحياة!

أو يقفز فوق الجدول، ويصعد التل حيث ينحني جسم الحصان بشكل إيقاعي عند أسفل الظهر، وهناك أشجار وشجيرات ربما تضرب ساق المرء، أو يضربُ غصن عينيه.

ـ حسنا؟

ـ لا شيء ـ أجبت ـ وأنا جالسة.

ـ امسكي بقوة!

ذات مرة، سرنا راكبين أنا وأبي على طول الحِضار. كنت امتطي فرسا ثقيلا وكسولا. توقف والدي في الغابة وبدأ يتحدث مع قاطعي الأشجار، وعضت الذباب وذبابة النِبْر الخيول. قاوم الفرس بساقيه وهز ذيله ورأسه وفجأة تربع، وانبطحت. صرخ به الأب بصوت عال. وبمعجزة ما تدحرجتُ من تحت الحصان، وقبل ان اقفز على قدمي، ضربه والدي بحركة شاب قوي، حتى قفز على الفور.

أتذكر أنني كنت لا أزال في الخامسة عشرة من عمري عندما علمني أبي ركوب الخيل.

ـ حسنا، يا ساشا، اسحبي قدمك من الرِكاب!

اشعر بالرعب. يبدو أني على وشك السقوط.

ـ حسنا، جربي السير خبباً!

امشي في خبب، وأتخبط على السرج وأفكر فقط أن أتماسك.

ـ لا، لا، سيري على الطريقة الإنجليزية ـ خفيفة الوزن.. حسنًا، الآن اتركي العنان جانبا!

«يا رب، فقط ألا يجفل الحصان خائفا ـ فكرت في ذاتي ـ وان لا يندفع جانبا! الآن سأطير من على ظهره!».

أتذكر أن والدي سقط عن حصانه. مررنا بجوار مصنع «كوسوي غورا» لصهر الحديد وبدأنا في عبور الطريق العام. جفل حصان السهوب الحامي، واندفع إلى جانب الطريق ركض في كومة وسقط. بالضبط انكسر شيء ما بداخلي. ومن دون أن يترك الزمام، وبسرعة رهيبة، حرر ابي ساقه من الرِّكاب، قبل أن يقفز الحصان على قدميه.

وأطلق أنينا:

ـ يا إلهي، هل جرحت نفسك؟

ـ كلا سفاسف.

ساقَ الحصان إلى كومة الأنقاض، وركب حصانه، ومضينا.

واستدار، وصرخ بي:

ـ احذري... لا تخبري أمك؟ لا تقولي شيئا عن الحادث!

كنا في الآونة الأخيرة خائفين من السماح له بالذهاب بمفرده، تحسبا من أن يفقد فجأة وعيه، أو تنتابه نوبة قلبية، وكان يذهب معه دائمًا احد ما ـ دوشان بتروفيتش أو فالنتين بولجاكوف أو أنا.

ـ ساشا، دعينا نتجول على الخيول!

أنا دائما اذهب معه بكل سرور. هو على «ديلير» المفضل لديه، وأنا على «اروبل» الكرباخي الكُميت ـ فاتح اللون مثل الذهب الأحمر.

وعندما نصادف صعوداً طويلاً مملاً على تل، يلتفت لي الأب لي قائلا:

ـ هيا خببا!

وبمجرد أن اطلقنا الخيول، بدأت فرسي الكاراباخية تتخبط للوراء.

ـ توقف يا أبي؟ ـ أصرخ به ـ ا ،ا توقف! يضربني «اريول» من الخلف!

ـ لا شيء، تحتاج إلى ان تسخن نفسها!

يصرخ الأب ويعدو سريعا بحصانه.

وانا بالكاد اجلس. ويعطي الحصان كل دقيقة دفعة يمكن فيها فجأة أن يسقطني بها من السرج.

ـ لا شيء، لا شيء ـ يشجعني الأب ـ ليتقدم.

استمر الحال هكذا هذا طوال الطريق. كنت منهكة. وصلنا ، وحينما نزعنا السروج من الخيول، لاحظنا حيث كان الطوق جرحا كبيرا تحت بطن «اريول» ـ ولهذا كان يخبط للوراء.

كان اليوم هادئًا ومشمسًا.

كان أبي يسير راكبًا ، وتبعناه في زلاجتين. كان الطريق الشتوي يتعرج عبر الغابة، وعلى خلفية الثلج اللامع، مرة يظهر ثم يختفي مرة أخرى خلف الأشجار ردف الحصان الداكن وظهر عريضة في معطف أسود من جلد الغنم مع غطاء حول رقبته.

ـ قف! صرخت، وأنا أشد الزمام.

كانت شجرة عبر الطريق تميل مثل القوس، وتسمر الجزء العلوي من رأسها نحو الأرض على الجانب الآخر من الطريق. انحنى والدي على السرج وانطلق، واصبحنا نحن عالقين، فالقوس لم يسمح لنا بالمرور. ما العمل في هذه الحالة؟ يستغرق فك زلاجتين وشدهما مرة أخرى وقتًا طويلاً! كان هناك كوخ حراسة قريب. استدعيت ناظر الغابة، فجاء بفأس، وبدأ في تقطيع الشجرة، وبعد أن قطعها ، وضع صدره على جانب راسها حتى تنكسر. لكن الشجرة لم تستسلم. كنت في عجلة من أمري، فقد مرت عشر دقائق تقريبًا منذ مغادرة والدي، وكنت قلقة عليه.

ومن دون التفكير طويلا، رميت بنفسي بشدة على الشجرة من جانب المؤخرة. وتعالى صوت انهيار! وبعد أن تخلصت الشجرة من الرأس، استقامت بقوة وضربتني في فكّي، ورمتني إلى الأعلى، ففقدت الوعي.

لا أعرف كم من الوقت كنت مستلقية، ولكن عندما عدت إلى رشدي، كان رجل يصرخ بصوت نسوي ثاقب.

ـ ايها القديسون، أعزائي، قتلوا، قتلوا، قتلوا الشابة حتى الموت، أعزائي.

قفزت على قدمي، وكان الدم يسيل على ذقني، وفي الفم عصيدة، وتدلّت في الفك العلوي إحدى الأسنان على عصب مكشوف. باقي الأسنان ترنحت، وكان ذقني مكسورا، وواصل الرجل ينوح ويندب.

ـ حسبكم ـ كشرت له بأسناني ـ لماذا أنت تعوي، سأضع أسناني...

جلسنا وانطلقنا. أردت أن أعطي العنان لشخص ما، كي اغلق فمي ـ فالسن المكسور صار يؤلمني بشكل لا يطاق من البرد، وارتجفت من الحمى، لكن اتضح أن لا أحد يعرف كيف يسوق الزلاجة. سقت الحصان، ولا وجود لوالدي في أي مكان.

وقفت في كوخ الحراسة فتاة في السابعة عشرة من عمرها.

ـ ألم تبصري رجلا عجوزا على ظهر حصان؟

ـ ذهب الى هناك! قالت، وشخرت لسبب ما.

سقنا الحصان في الاتجاه الذي أشارت له الفتاة، سرنا لمدة نصف ساعة، والتقينا برجل بعربة.

ـ هل رأيت الكونت؟ هل مر هنا؟

ـ لا، لم أره. لا بد أنه لم يمر من هنا، وإلا كنت قد التقيت به...

عدنا. كان السن يؤلمني أكثر فأكثر، وكنت أرتجف. لم نعثر على الأب. عندما وصلنا إلى المنزل، اكتشفنا أنه كان في المنزل، وكان يستريح. ذهبت إلى الفراش، كان وجهي متورمًا، واشتد الألم، وفي السادسة صباحًا، استيقظ والدي، ورووا له ما حدث.

ـ يا إلهي يا إلهي! ماذا فعلت؟. عزيزتي، كل هذا بسببي. ـ قال ـ أنا العجوز الأحمق، ذهبتُ، ولم أخمن أن القوس تحت الشجرة غير ملائم.

كانت الدموع تلمع في عينيه، وضغطت الأماكن المؤلمة على ذراعه، وشعرت أنني في حالة حسنة.

كنت أنا وأبي عائدين إلى المنزل على الطريق المؤدية الى نهر فورونكا حيث المكان الذي نستحم فيه. لقد سرنا بجوار المرج حيث تزدهر في الربيع على التلة ورود آذان الفار، ونما في الصيف فطر ابيض قوي بجذر وردي وبطانة بنية. نادى والدي عليّ:

ـ ساشا!

وعندما همزت الحصان، واقتربت منه، سحب اللجام وسَوَطَ، مما جعل ديلير يرتعش بعصبية، وأشار إلى المكان، وقال:

ـ ادفنوني عندما أموت، ها هنا، بين أشجار البلوط هذه....

الحرب اليابانية. سنة 1905

التعبئة في المدينة لم تكن محسوسة كما في الريف. وعلى الرغم من أن الناس يعيشون هنا قريبا من بعضهم البعض، إلا أنهم في الواقع بعيدون عن بعضهم الآخر للغاية، وغالبًا لا يعرفون ما يحدث ليس فقط في المنزل المجاور، ولكن أيضًا في الشقة المجاورة. المرء يعرف كل شخص في القرية: من لديه أسرة وما طبيعتها، وكم عدد الأطفال، وما الثروة، وأي من الأبناء تم استدعائهم إلى الجيش. إن الكرب الذي سببته الحرب موجود أمام أعيننا، ولا يمكن للمرء الهروب منه.

يمكن للمرء أن يسمع البكاء، والنحيب، وعزف الأكورديون بحزن، وبعض الأصوات الشابة التي مرة تمطط وأخرى تقطع الأغنية ببراعة مخمور. المجندون الجدد السكارى، الذين يجعدون قبعاتهم، يتجولون في مجموعات متنافرة حول القرية، وعلى الرغم من مظهرهم المثير، وأغنيتهم المرحة والبهيجة، فقد ارتسم على ملامحهم يأس قاتم.

أبعدت الحرب لفترة من الوقت جميع الاهتمامات الأخرى، وأغرقت هذه المحنة كل شيء: الأفراح والأتراح العادية.

الأخ أندريه، الذي ترك للتو زوجته أولغا كونستانتينوفنا مع طفلين ـ وتورط التعس في ولع جديد بامرأة، ذهب إلى الحرب، وذهب الأخ إيليا وزوجته إلى تفير، حيث كان يرابط فوجه لتوديعه، وأخذوا الطباخ سيميون نيكولايفيتش. سمين، مترهل، كان قليل الشبه بمحارب وبكى بشفقة، وهو يقبل يدي أمي ويودعنا جميعًا. اصبح سيميون نيكولايفيتش طباخا للجنرال جوركو وافتخر بذلك.

الآن في كثير من الأحيان صارالناس يأتون إلى والدي بالتماسات مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالحرب: «ألحقوا هذا أو ذاك، بشكل غير صحيح، وليس وفقًا للقانون»، «لم يستلم هذا او ذاك المنحة الحكومية».

اعتقد إن الريف لم يشهد ارتفاع المشاعر الوطنية. ذهب ابناء الريف إلى الجبهة لأنه قيل لهم يجب الالتحاق بالجيش، ولا يجوز عدم الذهاب، ولم يعرف احد لماذا بدأت الحرب، ولماذا ساقوا الجيش إلى الشرق الأقصى.

زادت نزهات أبي على الطريق العام. هناك جمع الأخبار الرئيسية، والتقط المزاج، وموقف الفلاحين من الحرب. يصعد مرة مع الرجال في زلاجة أو في عربة، ثم يمشي مع النساء ويتحدث عن احتياجاتهن.

حاول الأب قراءة الصحف، لكنه لم يستطع، فقد أثارت قلقه كثيرًا. وقال:

ـ لا أستطيع أن أقرأ، الناس في محاولة لإثارة الروح الوطنية، يكتبون عن أحداث دامية كما لو عن شيء نبيل، وجميل!

ولكن بمجرد أن يأتي أحدهم لزيارتنا يسأله على الفور:

ـ ما الجديد؟ ماذا يحدث في الحرب؟

وعندما أخبروه أن اليابانيين يحققون الإنتصار، شعر بالضيق.وقال:

ـ لا أستطيع التخلص من الشعور بالاستياء عندما أسمع أن الروس يتعرضون للضرب.

وعندما عرف أن «بورت ـ آرثر» قد استسلم دون قتال، قال:

ـ إيه، لم يقاتلوا في زماننا على هذا النحو!

أتذكر كنت والدكتور نيكيتين ويوليا إيفانوفنا جالسين في غرفة المكتب في الطبق العلوي، ونتحدث عن الحرب. أثار ديمتري فاسيليفيتش مسألة ما إذا كان من الممكن، مع إنكار كامل للقتل، الذهاب إلى الحرب كطبيب، كأخت رحمة.

جاء الأب.

ـ عن ماذا تتحدثون؟

قلنا له.

قال والدي:

«لو كنت شابا، لذهبت إلى الحرب كمساعد طبيب»!

ولكن هل يجوز لأبي أن يعبر عن مشاعر الرحمة بشكل مباشر؟ سارع الناس في إلتقاط كلماته وطبعها. وابتهج اليمينيون الوطنيون.

ـ تولستوي نفسه غارق في حب الوطن، على الرغم من دعوته لعدم مقاومة العنف بالعنف!

جاءت فتاتان إلى والدي، تستعدان للذهاب إلى الحرب كأخوات رحمة، وسألن والدي إن كان تصرفهن صائبا. أخبرهن أن في رأيه لا يجوز المشاركة في القتل بأي شكل من الأشكال. فوجئت الفتيات وحاولن إثبات ضرورة ذلك. وقلن: حتما سيكون جرحى، ولابد من مساعدتهم. اعترض أبي عليهن:

ـ اعترفن بأن لديكن رغبة في إجتراح ماثرة، ورغبة في التميز عن الآخرين! لماذا ترغبن في الذهاب إلى الجبهة، بالذات إلى الحرب، لأجل منح قوتكن للناس؟ لماذا لا تذهبن إلى قرية نائية لمساعدة ملايين الذين يعانون، ويموتون من الأمراض والأوساخ وسوء التغذية؟ لماذا؟ لأنه عمل رمادي، غير ملفت للنظر، لن يتفاجئ بهذا أي شخص...

لم تفهم الصحف والمجلات، أو تظاهرت بعدم فهم والدي، من أجل الحصول على فرصة لنشر كلماته مرة أخرى، وطلبت رأيه في الحرب الروسية اليابانية.

على سبيل المثال، سألته إحدى الصحف في فيلادلفيا: مع مَن هو تولستوي، مع الروس أم مع اليابانيين؟ فأجابه الأب:

ـ أنا لست مع روسيا ولا مع اليابان، ولكن مع الشعب العامل في كلا البلدين، مع الذين خدعتهم أو أجبرتهم الحكومات على الحرب ضد الضمير، والدين ورفاهيتهم.

وقال والدي:

ـ إنه لأمر مدهش، أن المسيحية تحرم القتل، والبوذية أيضًا. والآن هناك شعبان، يعتنقان ديانات تحرم القتل، ويتقتلان ويغرقان بالدم، ويشوهان بعضهما البعض.

لم يستطع والدي أن يظل غير مبال بالحرب، وأرجأ لبعض الوقت المضي في تأليف كتابه «حلقة القراءة» الذي كان يعمل عليه في ذلك الوقت، وكتب مقالاً بعنوان «فكّر في الأمر».

فقط في زوايا روسيا النائية، فهم الفلاحون شبه المتعلمين تعاليم المسيح كما فهمها الوالد. لم يسألوه مع من هو مع الروس أو مع اليابانيين، ورفضوا حمل السلاح والقتال. لقد فعلوا ذلك ببساطة، دون التباهي، ومن دون التفكير في العواقب. وكانت العواقب وخيمة، فقد سُجنوا وأرسلوا إلى كتائب تأديبية، وغالبًا ما تعرضوا للجلد والتعذيب...

كان للحرب مفعول المنشط والمنبه على الجميع، وكما يحدث دائمًا في مثل هذه الحالات، فأنت تريد التحرك والعمل، حتى لو لم تستطع المساعدة في أي شيء، والانفلات من البيئة اليومية المألوفة. لم نتمكن من التفكير في أي شيء له قيمة وقررنا: ناتاشا وميشا وإليا سوخوتين وناتاشا أوبولينسكيا وضيف عائلة سوخوتين الألماني براوميولير قطع المسافة البالغة حوالي مائة وأربعين فيرستا، من منطقة كوتشوتي(60)، إلى ياسنايا ـ بوليانا، سيرا على الأقدام.

(60) كوتشوتي ـ ضيعة آل سوخوتين على الحدود بين اقليمي اريول وتولا. تقيم هناك ابنة تولستوي الكبرى تتيانا مع زوجها مستشار الدولة ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين.

ارتدينا بشكل بسيط فساتين من الشيت، ورمينا على اكتافنا الحقائب حيث الأشياء والمؤن، ومضينا، لا بدّ أن مظهرنا كان غريبا! لو لم نكن شبابا لاعتبرونا حجّاجًا. براوميولير وحده تميز عنا. كان يرتدي سترة سويسرية وبنطالًا قصيرًا من القماش وحقيبة ظهر على ظهره وقبعة من اللباد، ويمكن للمرء أن يتعرف من خلالها على الفور أنه اجنبي.

قضينا الليلة الأولى عند معارفنا، وكان من المفترض في اليوم التالي أن نصل إلى منزل اخي الأكبر سريوجا. أصبح أرمل، وعاش وحيدًا تمامًا في منزله في نيكولسكوي ـ فيازيمسكوي. لكن نيكولسكوي كانت على بعد حوالي خمسة وثلاثين فيرستا. وكان الجو حارًا، قررنا أن نميل على قرية لأخذ قسط من الراحة وشرب الشاي والحليب. وبعد أن اخترنا كوخًا نظيفا، دخلنا وسألنا أصحابه هل بإمكانهم وضع السماور لنا وتقديم الحليب؟ كان الفلاحون غير ودودين. نظروا إلينا بريبة، وسألوا من أين نحن، وإلى أين ذاهبون، ومن نحن؟ كنا مترددين في الإجابة، لم نرغب في الكشف عن هويتنا، والاعتراف بأن رحلتنا ليس لها هدف محدد.

ألحوا بالسؤال:

ـ ولكن إلى أين أنتم ذاهبون، هل للصلاة للرب؟.

ـ لا، نحن نقوم بجولة سياحية...

ـ تقومون بجولة سياحية؟ شيء عجيب ـ قال صاحب الدار بريبة ـ وهذا من يكون؟

ـ هذا ألماني، مهتم بالريف الروسي.

ـ مهتم؟ ما الذي يهتم به؟ ماذا يريد؟

ـ إنه مهتم كيف تعيشون، هو مهتم بالريف الروسي، ولم يزر روسيا قط.

ـ إذن على هذا النحو... ـ هز الرجل رأسه بعدم ثقة، وخرج من الكوخ ـ

وقررنا إنه على ما يبدو، لا ينوي تقديم الشاي لنا، وانتهزنا فرصة مغادرة صاحب الدار، للانتقال إلى منزل آخر. لكن لدهشتنا ظهر الباب، عندما اردنا فتحه، موصدا.

ـ مهلا، ـ صرخنا ـ أي مزحة خطرت على بالكم، لماذا أغلقتم الباب؟! افتحوا الباب!

ـ انتظروا قليلا! ـ صرخ الرجل ـ أنا سأركض إلى العمدة!

وذعرنا.

ـ هذا هو السماور، وهذا هو الحليب! ـ شاكسنا بعضنا البعض ـ. المهم ان لا يرسلوا بنا للسجن!

انتابنا القلق وشعرنا بالسخط، حشرنا رؤوسنا في النوافذ. لكنها كانت صغيرة وعالية. بقي الألماني فقط هادئًا تمامًا، مفترضا على ما يبدو أن كل شيء ممكن في روسيا.

بعد نصف ساعة، ظهر مضيفنا وأصطحب معه رجلين آخرين، العمدة وشاهدا. ظهر أن مضيفنا يخدم في سلك شرطة القرية. أراد العمدة من دون أي كلام أن يأخذنا إلى الزيمتوف(61)، ولكن فجأة فقد ميشا سوخوتين أعصابه، وهو عادة متواضع وهادئ.

(61) زيمتوف هو شكل من أشكال الحكم المحلي وضع خلال الإصلاحات الليبرالية التي اضطلع بها ألكسندر الثاني في الإمبراطورية الروسية.

ـ هل تعرفون مع من تتعاملون؟ صرخ بنبرة مهددة ـ أنا ابن مستشار الدولة الفعلي ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين، وهذه الأميرة أوبولينسكايا، وهذه ابنة الكونت تولستوي، أسمعتم أن كاتبًا كهذا

يعيش في ياسنايا ـ بوليانا. هل تعلمون أنكم إذا احتجزتونا ما سيحدث لكم؟ كيف تجرؤون؟!

جبن الفلاحون، وأثرت فيهم نبرة التهديد والألقاب الرفيعة التي صرخ بها ميشا.

سأل الشرطي:

ـ إذن هل انت ابن ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين؟

وسأل العمدة:

ـ وهذه أخت الكونت سيرجي تولستوي، الذي يعيش في نيكولسكوي ـ فيازيمسكوي؟ فلماذا خطر لكم أن تتجولوا في القرى سيرًا على الأقدام؟

وسأل الشرطي مشيرًا إلى براوميولير الذي كان الفلاحون ينظرون إليه باستمرار:

ـ وهذا من يكون؟.

ـ قلنا لك أيها الغبي أن هذا ضيفنا ـ ألماني...

وتسائل الرجل فجأة:

ـ ألألماني ليس يابانى؟

ـ ألماني، ألماني. وهل هيئة اليابانيين على هذا الشكل؟ هم من العنصر الاسمر وعيونهم ضيقة، وهذا أشقر وعيناه زرقاوان...

اتضح أن الرجال ظنوا خطأ أن براوميلر ياباني وأرادوا احتجازه كجاسوس.

لقد كان من دواعي سرور والدي أن يعرف أن هناك أشخاصًا في اليابان، مثله، يكافحون ضد الحرب.

نشرت الصحيفة الاشتراكية اليابانية «Heimin Shimtun Sha» في أغسطس / آب 1904 مقالًا باللغة الإنجليزية بقلم الاشتراكي الياباني الشهير إيزو آبي. أجرى والدي مراسلات معه، وكتب بالمناسبة أنه يأسف لأن إيزو آبي كان اشتراكيًا. أجاب اليابانيون أنه على الرغم من كونه اشتراكيًا، إلا أنه يؤيد الثورة السلمية، وفي علاقاته مع الثوريين الروس يحاول دائما أن يقنعهم دائمًا بالامتناع عن العنف.

لقد أثار الثوريون كدر أبي العميق.

أتذكر مثل هذه الحالة. جلسنا إلى الإفطار. وجاء والدي من الأسفل، لاهثًا.

ـ يا إلهي يا إلهي! تأوه بصوت عال. ـ ولكن أي فظاعة هذه! أقول له إنه لا يمكن استخدام العنف لتحسين أوضاع الناس، وهو يقاطعني بهذه الثقة: «أنتم على خطأ، ليس غير مستحيل، بل يجب بلا رحمة القضاء على كل من يستغل الناس!» ومَن هو؟ طالب مدرسة ثانوية، له حوالي سبعة عشر عاما، يهودي! يا له من حقد دفين! يا لها من ضغينة! بدأت أتحدث معه عن شريعة الرب، وعن تعاليم المسيح.
قاطعني مرة أخرى، بقوله إن «كل هذا هراء، لا يوجد رب!» لم أستطع التحمل، لقد أثارني! والشيء الرئيسي هو هذه الثقة بنفسه التي لا حدود لها. سألته «لماذا أتيت إلي، إذا كنت تعرف جيدا كل شيء؟» ـ وبارحت الغرفة.

نادرا ما رأيت والدي في مثل هذه الحالة من الهيجان. كان وجهه متضرجا، ويتنفس بسرعة، ويقطع الغرفة ذهابا وإياب، وظل يتأوه.

كان الأب ينتظر اندلاع الثورة. لقد شعر بمزاج العمال والجنود والفلاحين، ليس فقط من خلال المحادثات، ولكن أيضًا من الرسائل التي تدفقت عليه بلا نهاية من جميع أنحاء روسيا. عرف السخط الشعبي

الذي تزايد كل يوم، ورأى أن لا داعي للحربً اليابانية، ولا معنى لها، حيث قُتل مئات الآلاف من الناس، لقد فاض كأس الصبر...

كان واضحا له تماما أن الثورة لن تحسن أوضاع الناس، وربما لهذا السبب ناشد الحكومة مرارا وحذرها من الأحداث الدموية الوشيكة، وفي رأيه، ان كل سلطة وبغضّ النظر عن شكلها تقوم على العنف، وبالتالي فإن كل سلطة سيئة، وستعتمد الحكومة الجديدة على العنف مثل الحكومة السابقة. وكما سحق كرومويل، ومارات خصومهما، كذلك ستسحق في بلدنا الحكومة الجديدة المحافظين، وصحيفة «الزمن الجديد»، إلخ. إذا كان عليّ الاختيار، فأنا أفضّل اختيار فلاديمير ألكساندروفيتش. إنه لص ميسور الحال، ولن يسرق بفظاعة.

كتب والدي في مقالته «للحكومة والثوار والشعب»:

«لكي يصبح وضع الناس أفضل، من الضروري أن يصبح الناس أنفسهم أفضل. وهذه هي حقيقة بديهية مثل بديهية ان تسخين وعاء ماء، يتوجب تسخين جميع قطرات الماء. ولكي يصبح الناس أفضل، ينبغي أن يهتموا اكثر بأنفسهم وحياتهم الداخلية. إن النشاط الاجتماعي، وخاصة النضال الاجتماعي، دائما يصرف اهتمام الناس عن الحياة الداخلية، لهذا يؤدي دائمًا إلى إفساد الناس، ويقلل من مستوى الأخلاق العامة، في كل مكان، كما نراه الآن في روسيا إلى درجة مذهلة. إن انخفاض مستوى الأخلاق العامة يجعل اجزاء المجتمع اللا أخلاقية تظهر أكثر فأكثر على السطح، وتصوغ رأياً عاماً غير أخلاقي يسمح بارتكاب للجرائم، بل ويوافق عليها، وتتشكل دائرة باطلة: إن أسوء أجزاء المجتمع التي حرضت بحرارة على الصراع الاجتماعي، عكفت على أسوء الانشطة الاخلاقية الاجتماعية التي تناسب مستواها. إن هذا النشاط يجذب عناصر المجتمع الآكثر انحطاطا».

عندما التفت أحد الفلاحين في تولا إلى والدي، وسأله: «إلى متى ستسحب الملايين من أصحاب البدلات الخشنة الرمادية العربةَ المقلوبة»، قال الأب:

ـ يجب رميها، هذه العربة المقلوبة، رميها، دع من يريد أن يجرها. وإذا رفض الفلاحون والعمال فمن الذي سيقاتل، ويعمل لصالح الملاك، ويزرع، ويحرث، ويعمل في المصانع؟

أثارت أحداث 9 يناير/ كانون الثاني(62) قلق والدي العميق. وتحدث عن حماقة ما تم فعله، وألقى باللوم على المحرضين.

(62) الأحد الدامي كان حادثة وقعت في 9 (1905 في سانت بطرسبرغ بالامبراطورية الروسية حين تقدم متظاهرون غير مسلحين نحو قصر الشتاء ليقدموا التماسًا للقيصر نيقولا الثاني فوجه إليهم الحرس الإمبراطوري الروسي بوابل من الرصاص.

ـ لم يستطع القيصر استقبال خمسة عشر ألف عامل، ربما لم تعرف الدهماء ذلك، لكن الذين قادوها يعرفون ذلك.

«الجريمة التي ارتكبت في سانت بطرسبرغ مروعة. إنها مثيرة للاشمئزاز ثلاث مرات: لأن الحكومة تأمر بقتل الناس، ولأن الجنود يطلقون النار على إخوانهم، ولأن المحرضين عديمو الشرف، ومن أجل أهدافهم الدنيئة، يقودون الناس البسطاء إلى الموت. أنا لا أدين الشعب، لكن ليس لدي كلمات للتعبيرعن اشمئزازي عن الذين يظللونه».

كان المزاج مضطربًا ومتوترًا، وقالوا إن ثورة على وشك الاندلاع، وتوقعوا أعمال شغب في موسكو ومدن أخرى...

عدت من بطرسبورغ مع خالتي تاتيانا أندريفنا وابنتها الكبرى. جلبنا الكثير من الأخبار، وتحدثنا عما كان يحدث في موسكو وسانت بطرسبرغ. استمع إلينا الأب باهتمام، ولكن بألم ظاهر.

عشية يوم 4 فبراير، عندما كنت في موسكو، سمعنا دوي انفجار رهيب. هرع الجميع إلى الكرملين. قالوا إن سيرغي الكسندروفيتش قُتل بقنبلة.

كان الانفجار قوياً لدرجة أنهم لم يتمكنوا من جمع جثة الدوق الأكبر، وتمزق إلى قطع صغيرة.

ـ مريع! مريع! ـ كرر والدي، وقد تغضنت ملامحه من الألم عندما رويت له كيف ان احد الطلاب، في عربة القطار في الطريق من موسكو، قال أن مقتل سيرجي ألكساندروفيتش كان أول إشارة لبداية الثورة. «رائع، عملية نظيفة! الكلب يموت ككلب!»

ـ يا إلهي! ـ يتأوه الأب. ـ حسنًا، كيف لا يفهمون أن الحقد والقسوة تخلق قسوة اشد، ولن تكون نهاية لهذا».

وتحدثت الخالة بسخط عن الاضطرابات في المصانع، والإضرابات، وأصبح والدي أكثر كآبة وكدرا.

أخبرت كيف كان على إبن خالي ساشا بيرس أن يحرس خلال هذه الأحداث الجسور مع فوج بريوبراجينسكي. اقترب منه طالبة وبدأت في توبيخه، ووصفته بالجلاد، والدرك، وجندرمة القيصر. صمت ساشا بصبر. ثم بصقت عليه. ولعدم رغبته في القبض عليها، انحنى ورفعها على السرج وصفعها. بدا لي مضحكا.

ـ أوه، كيف يمكنك، كيف يمكنك أن تضحكي، ـ قال الأب، عابسًا، ـ حسنًا، ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من هذا الحقد المتبادل، الفرقة والخصومة بين الناس؟

تحدثوا عن كيف كان الأخ ليوفا عند القيصر، وكيف تأثر القيصر بوفود العمال.

ـ ومن فوّض هؤلاء العمال بالذهاب إلى القيصر؟ ـ سأل الأب. ـ لم يكن لديهم الحق في التحدث نيابة عن عدة ملايين من الناس.

وعندما أضفت أن ليوفا يريد أن يكتب خطابًا إلى القيصر، وأنه يعتقد ان هذا سيكتسب أهمية كبيرة، قال الأب حول هذا الموضوع:

ـ كيف يحب الجميع تعليم الاخرين، كيف يحبون تعليم الآخرين، لكن هم أنفسهم لا يعرفون شيئًا، لا يعرفون كيف يرتبون حياتهم! يتخيل ليوفا أنه سيكتب خطابًا إلى القيصر ومن هذا سيتغير مصير روسيا...

وراح الناس يسألون أبي أكثر فاكثر عن رأيه في الثورة، ويطرحون عليه أسئلة فارغة وغير مدروسة. ولم يبذلوا شيئاً من الجهد للتعرف على وجهات نظره، والتقاط ما كان في صالحهم ـ موقفه السلبي من الكنيسة والدولة ـ وخرج بعض الثوار باستنتاج متسرع مفاده أن تولستوي شخص من معسكرهم، وبسذاجة انتظروا منه التعاطف معهم.

كان هناك أيضًا من يعرفون آراء والدي جيدًا، وحجبوا منها ما لم يتجاوب مع افكارهم، وفي الوقت الذي رغبوا فيه استخدام تأثير تولستوي لصالحهم، وزعوا بعض أعماله. قال والدي: «أرغب في أن يتم قبول أفكاري بالكامل، وعدم استخدام جزء منها لأغراض غريبة عني»، وعندما حاول والدي الوقوف على الحياد، تمت إدانته.

«يحسبونني على معسكر كاتكوف(63). في وقت الاختبار هذا، على المرء أن يحافظ على نفسه. أنا مع الرب وليس مع الحكومة، ولا مع الليبراليين. الناس يهملون الحياة الداخلية التي يكونون فيها فقط أحرارًا: يضع الجميع البرامج عن كيفية إسعاد الآخرين، لكنهم ينسون حياتهم الروحية. أنا أعيش في ظروف سعيدة بعيدًا عن هذا الصراع، وما زلت أحافظ على أفكاري وأطورها على وجه التحديد لصالح تحرير الناس، والتي ستكون مفيدة لاحقًا عندما يحين الوقت «كما جاء في مذكرات طبيب الاسرة ماكوفيتسكي.

(63) ميخائيل نيكيفوروفيتش كاتكوف (1818 ـ 1887) كاتب روسي، ناشر، ناقد أدبي، مؤيد لوجهات نظر المحافظين الاصوليين الداعين لتعزيز اركان الدولة.

في مايو، وردت أنباء عن هزيمة أسطولنا. قتل العديد من الأقارب والأصدقاء. وحزنت العمة تاتيانا أندريفنا على ابنها فاسيا، لكنه نجا. بقي في الماء لمدة ثماني ساعات، وقبض اليابانيون، عليه، وقضى عدة أشهر في الأسر.

ووردت في أكتوبر أنباء عن اندلاع أعمال الشغب في كرونشتاد، ومن ثم صمتت فجأة الصافرات على السكك الحديدية، كما لو أن الحركة توقفت على الفور في إحدى القصص الخيالية، وتوقفت جميع القطارات ـ قطارات البضائع والركاب ـ وكان في هذا التطور شيء غريب ومثير. تسكع الركاب المرتبكون حول محطة «كوزلوفكا» للسكك الحديدية في مدينة تولا، ووصلت صفوف من النساء إلى المحطة مع الحزم، مدركات ان بالإمكان استغلال الفرصة لبيع الحليب والزبدة والبيض بأسعار باهظة.

في ذلك الوقت، جاء لزيارتنا الأخ ميشا، وكان على عجلة من أمره للذهاب إلى موسكو فقد كان على زوجته أن تلد في تلك الأثناء هناك. ودون انتظار انتهاء إضراب السكك الحديدية، استأجر عربة تجرها الخيول وسافر الى موسكو. واتصل وهو في الطريق من مدينة هاتفيا بموسكو بصديقه سربوخوف،. وجرت في موسكو عمليات تبادل إطلاق النار وبناء الحواجز.

وسأل الأخ.

ـ كيف لينا؟

أجاب صديقه:

ـ دوبل!.

وسأل أخي معتقدا أنه يتحدث عن إطلاق النار.

ـ لينا، زوجتي ما حدث لها؟

ـ لكني، أقول لك دوبل! هل تفهم؟ توائم، توائم! لقد ولدا بأمان تحت وابل الرصاص ـ صبي وفتاة...

كنت في تولا يوم إعلان الدستور. كان من الصعوبة السير في شارع «كييف» في تولا، فقد كان مكتظا بالناس. سارت حشود لا نهاية لها، وسُمعت هتافات، وحافظت فرق الشرطة المدججة بالسلاح على النظام، ولم يكن من الواضح ما إذا كان الناس يعربون عن فرحهم بالدستور الذي منحه القيصر لهم، أم أن أعمال الشغب على وشك الاندلاع...

جرت في الربيع انتخابات مجلس الدوما، وانتخب زوج أختي تانيا، ميخائيل سيرجيفيتش سوخوتين، بشكل غير متوقع للجميع. قبل عدة سنوات كان رئيسا لتجمع النبلاء في مقاطعة نوفوسيلسكي، لكنه بعد ذلك اعتزل تمامًا الأنشطة الاجتماعية، ولهذا بالذات بدا سبب انتخابه غير مفهوم.

عاشت تانيا وابنتها معنا، وانتظرنا جميعا بفارغ الصبر وصول ميخائيل سيرجيفيتش من سانت بطرسبرغ. لم يكن بوسع احد ان يروي الأحداث كما فعل هو، بحيوية، ومتعة، وذكاء. كما لو نهض أمامنا أحياء نماذج من «المئة السود»(64)، وممثلو حزب العمال في قمصان شعبية مطرزة، بعنادهم، ووقاحتهم...

(64) المئة السود هكذا كانت تدعى العصابات الملكية التي كانت تنظمها الشرطة القيصرية للنضال ضد الحركة الثورية.

«أي نمط مثير للاشمئزاز يتشكل من العامل »، قال والدي بحزن، وهو يستمع إلى هذه القصص ـ ويؤكد أكثر فأكثر الرأي القائل بأن الدوما لن تأتي بشيء جديد، أي جنون، ويا لخطيئة الخطب الطويلة الفظيعة! ويتم إنفاق الملايين من أموال الناس على هذه المشاحنات التي لا طائل من ورائها، والهراء، وصيحات الحقد والضغينة!

لم يعترض ميخائيل سيرجيفيتش، فقد ضحك فقط بلطف، وفي أعماق روحه اتفق بشدة مع والدي. لكن الأخ سيرجي جادله دائمًا، مقتنعًا بأن

ازدهار روسيا يعتمد على تغيير الحكومة. وفي بعض الأحيان وصلت الخلافات بين الأب والأخ إلى حد الانزعاج المتبادل.

ـ أنت تقول الدستور، وآخر يدعو لملكية مطلقة، والثوريون يكافحون من أجل الاشتراكية، وكلكم تعتقدون أنه يمكنك تعديل مصير الشعب. وأنا أؤكد لكم أنه فقط عندما يسعى كل شخص بنفسه ليعيش حياة جيدة، دون التدخل في حياة شخص آخر، عندها فقط تتحسن حياة الناس.

ـ لكن لابد من الحد من السلطة بطريقة ما. أليس أنت نفسك ترتعب من أن الحكومة تسجن وتطلق النار؟...

ـ وتستمر القيام بنفس الشي. لا يتعلق الأمر بالشكل...

ذات مرة روى ميخائيل سيرجيفيتش كيف تجمع النواب خلال فترة الراحة في حديقة «تافريد»، وكان الحراس يجزون العشب. أخذ بعض الأشخاص من اليساريين المذراة منهم.

ـ حسنا، هيا، لنرَ من يحصد اكثر من الآخر! ـ صرخ ستاخوفيتش، وهو يرمي سترته وأخذ المنجل.

وعندما بدأ ستاخوفيتش يحش، لم يستطع أي اشتراكي مواكبته، تعرقوا، وتعبوا، وضحك بقية النواب والحراس:

ـ حسنًا، أين هم، هؤلاء ممثلو الفلاحين!

ـ إنه لأمر مدهش، ـ صرخ الأب من خلال الضحك ـ مذهل! حسنًا، هل هم فلاحون؟ اليس هم رعاع جاءوا عن طريق الخطأ، من يأخذ على عاتقه تقرير مصير الشعب الروسي؟ لن ينخرط أي فلاح حقيقي محترم في السياسة ـ فهذا غريب عنه ومثير للاشمئزاز!

كان والدي يقرأ أحيانًا الصحف، ويتابع الأحداث السياسية، وأحيانًا لا يلمسها منذ شهور. قال: «الصحف أسوأ من المنشطات، أسوأ من

السجائر، وضرر الحضارة يتجلى في الصحف. كل يوم، تمتلئ أوراق ضخمة بكل أنواع الهراء لتبرير الجرائم والقتل».

في بعض الأحيان، كان يخرج إلى القاعة، ويجد محادثات حول السياسة فيشارك فيها قسراً، لكنه يضبط نفسه ويذهب بسرعة إلى غرفته.

أصبح الأب مهتمًا بمجلس الدوما، وبعد ذلك بوقت طويل ولفترة قصيرة، وعندما خطرت له فكرة إدخال نظام هنري جورج للضريبة الموحدة، التفت الأب إلى المحامي وعضو الدوما فاسيلي الكسيفتش ماكلاكوف في هذا الشأن.

قال:

ـ لقد تحدثت مع ماكلاكوف الليلة الماضية حول جلب برنامج الاقتصادي الانجليزي هنري جورج من خلال مجلس الدوما.

ـ وما رايه؟

ـ أجابني بشكل غامض للغاية، وأعتقد أنه لن ينجم شيء منه. الشيء الرئيسي أنه هو نفسه لا يؤمن به...

فعلا، قال ماكلاكوف لأبي لا يجوز إجراء هذا الإصلاح.

وفي مناسبة أخرى، تحدث والدي عن هذا الأمر مع نائب الدوما تشيليشيف الذي جاء ليتحدث مع والدي عن محاربة الإدمان على الخمر. لكن تشيليشيف أكد أيضًا رأي ماكلاكوف، وانتهى بهذا اهتمام والدي بالدوما.

كتب مقالته «واحد للطلب». دعا إلى إنهاء العنف والقتل والحقد، ولكن ما الأهمية التي انطوت عليه كلماته؟

كان الناس منشغلين بالشؤون السياسية والاجتماعية الرئيسية، وتنظيم مصير الشعب الروسي، وإلى حد بدا لهم إن أحلام سن قانون ضريبة موحدة، ساذجة، وإن فكرة عدم مقاومة الشر بالعنف سخيفة!

كثيراً ما أسأل نفسي، هل أعاق والدي، ولو جزئياً الأحداث الدموية التي اندلعت، من خلال مناشداته المستمرة للحكومة والثوار؟ وهل لصوته الآن أي معنى، في الوقت الذي أُريقت فيه كل هذه الدماء البريئة، وما زالت تُراق في روسيا؟

ولادة تانيشكا. مدرستي. دوسان بتروفيتش

في نوفمبر 1905، شهدت عائلتنا حدثا مهما. ولدت تانيا طفلة. لقد عادت أختي لتوها من سويسرا، حيث تلقت العلاج في مصحة، وربما لهذا السبب وُلدت الطفلة على قيد الحياة.

في الصباح ذهبت إلى غرفة البنات. كانت المربية جالسة بجوار النافذة تخيط، وقد زمت شفتيها بمعانٍ كثيرة، بينما كانت أختي، تقطع الغرفة ذهابا وإيابا. كان وجهها مركّزًا ومتهيجا وأحيانًا لاح تشنج طفيف بالقرب من فمها. وصرختُ بها:

ـ تانيا! بدأت؟

وما أن أنهيت عبارتي، أدركت أنه لا داعي للسؤال.

نظرت تانيا إلي بعتاب.

سمعتها من غرفتي تذهب إلى الغرفة المخصصة لها، بينما كانت القابلة تتبعها. انتظر الجميع في المنزل في صمت وتركيز. مرت ساعة، ربما ساعة ونصف، كنت أدور في الطابق السفلي عند باب غرفة تانيا، وفجأة قال أحدهم:

ـ ولدت تاتيانا لفوفنا، فتاة!

ركضت إلى والدي، وكان، كما لو كان يشعر، هبط الدرج بالفعل. لم يعمل في ذلك اليوم.

ـ أبي؟، تانيا ولدت طفلة!

قال ثم رجع وهو ينفخ أنفه ويمسح دموعه.

ـ لماذا تبكين يا غبية؟

وفي المساء، عندما ناولته كتباً من الرف، قال فجأة:

ـ لماذا ماريا؟

ـ ماذا؟

ـ لماذا يريدون ان يسموها مريم؟ ماريا، ماريا ميخائيلوفنا، هي الزوجة الأولى لميخائيل سيرجيفيتش. من الأفضل أن تُدعى تاتيانا...

وبدأ قلق جديد. كانت تانيتشكا فتاة على غير ما يرام، نحيفة مثل فرخ دجاجة ظهر متأخرا، كانت تعاني منذ ولادتها تقريبًا من الإسهال، وكنا نشعر بالقلق على هذه الحياة التي بالكاد يسري فيها الدفء، والتي ظهرت في دنيا الرب بعد سنوات عديدة من العقم. أخذ المخلوق الصغير المتغضن على الفور مكانًا كبيرًا في منزلنا. أمضت الجدة وقتا طويلا معها، وانحت على حفيدتها بشكل منخفض جدا، وتفرست بها لفترة طويلة، بعيون تعاني من قصرة النظر.

عاشت تانيا في الشتاء معنا في ياسنايا ـ بوليانا. فقد أوصى الأطباء زوجها ميخائيل سيرجيفيتش بالسفر إلى المناطق الأكثر دفئًا خلال أشهر الشتاء الباردة.

ذهب معه هذه المرة أوبولينسكي زوج الأخت ماشا، إلى روما. والغريب أن والدي شجعني أكثر من الآخرين، على هذه الرحلة. لا بد أنه رأى أنني كنت أحيانًا أشعر بالكآبة، وأن كل شيء باستثناء العمل معه بدا لي بغيضًا ومملًا. لكن زيارتي لدولة أجنبية لم يساعدني أيضًا، فليس عبثا أن والدي قال دائمًا إنه لا يمكن للمرء الهروب من نفسه، وعليه ان يبحث في داخله عن أسباب شعوره بالملل، والكآبة.

تكررت نوبات الكآبة. في مثل هذه اللحظات، كنت ارغب دائمًا في الموسيقى. أذهب إلى غرفتي، أوصد الباب، وأغني الأغاني على جيتار، ويبدو أن روحي قد تعرت، وتخجل عندما يسمعني أحدهم. أحيانًا أعزف على البيانو، ولكن نادرًا. لقد أبعدتني الحفلات الموسيقية في

أربعة أيادي إلى الأبد عن الأداء السطحي للكلاسيكيات. لم يكن هناك سوى اثنين من مقدمات شوبان التي كنت أتقنها.

أتذكر مرة بعد العشاء خرج الجميع في نزهة. لم يكن هناك أحد في الطابق العلوي. كانت النوافذ في القاعة مفتوحة، وكان يمكن للمرء أن يسمع صوت طيور السنونو والخطاف وهي تطير تحت الأفاريز، وهي تدور وتصفر. دخلت القاعة، ووفقًا لعادة احتفظت بها منذ الطفولة، رحت أتزلج عبر الأرضية الخشبية الزلقة إلى خزانة الكتب الصفراء في الزاوية، وأخرجت دفتر النوطة في غلاف قرمزي وجلست إلى البيانو.

كان هناك شعور بالغبطة في العزلة، في أصوات البيانو، شعرت وكأن لحنًا يغني في يدي اليسرى، وولدت أحلام غامضة ومغرية في رأسي.

ـ أوه، هذا أنت، ساشا؟ مشيت وتساءلت من الذي يعزف موسيقى شوبان بهذه الجودة.

ارتجفت، لسبب ما، أحرجت بشدة وخجلت.

ـ يجب أن تدرسي ـ قال الأب ـ لديك قدرات عظيمة. سأتحدث إلى جولدينفيرزير.

وبدأت في دراسة الموسيقى. في البداية، قضيت ساعات بضمير حي في العزف على درجات السلم الموسيقي، والتمارين، وذهبت بعناية لأخذ دروس جولدينفيرزير في القرية التي تعود لي، حيث يعيش الموسيقار، وفي الشتاء مرتين في الشهر في موسكو، لكن تدريجيًا تحولت الموسيقى بالنسبة لي إلى شيء ممل ورتيب بشكل غير عادي. شعرت وكأنني كنت أقتل بيدي الأشياء القليلة التي تعلمتها لموتسارت وجريج وباخ، وركز معلمي انتباهه على التقنية والدقة. هلكت بالنسبة لي إلى الأبد الأشياء التي تعلمتها، بدأت أكرهها. بالإضافة إلى ذلك، بدأت ذراعي تتألم وتنتفخ بسبب كثافة التمارين والعمل على آلة كاتبة، فتخليت عن الموسيقى. صرفتني عنها الأنشطة الأخرى.

كان في ياسنايا ـ بوليانا مبنى مدرسة أبرشية في حالة سيئة للغاية. في عام 1891، قامت الأخوات بتعليم الأطفال في ما يسمى بكامنكا، وفي غرفة الحراسة، بجوار بوابة المدخل القديمة. وحينما كنت فتاة تبلغ من العمر سبع سنوات، ذهبت إلى هناك للدراسة. لكن حاكم تولا، زينوفييف، حذر الأخوات من أنه إذا لم يتوقفن عن تعليم أطفال الفلاحين، فسيتعين عليه بحكم الخدمة إغلاق هذه المدرسة رسميا.

وهكذا، كما لو كان للحد من تأثير تولستوي، تم في منطقتنا افتتاح عدد من المدارس التابعة للكنيسة، وهي سيئة للغاية من حيث المباني ومن حيث التدريس.، وبُنيت في ياسنايا ـ بوليانا، مدرسة صغيرة مكونة من غرفة مدرسة بموقد بارز سخيف، من الطوب المغمد بالحديد في وسطه وأسقف منخفضة ونوافذ صغيرة. يمكن أن تستوعب هذه الغرفة بصعوبة كبيرة ثلاثين أو أربعين شخصًا، وكان الفلاحون يرسلون أولًا الأولاد للدراسة، معتقدين أنهم بحاجة إلى حِرف أكثر من البنات، وإلى جانب ذلك، أعطى التخرج من المدرسة الأفضلية عند الخدمة الإلزامية في الجيش.

كان المعلم عادة رجل دين تخرج من مدرسة مدتها أربع سنوات. اشتكى الفلاحون من أن المدرسة كانت سيئة، وأن الأطفال يتعرّضون للضرب وللعقوبة بإرغامهم على الوقوف في العراء وفي الزاوية، لكن تكن هناك أية فائدة ـ لم يتمكنوا من القراءة أو الكتابة أو العد بشكل صحيح.
وعلى هذا النحو خطرت لي فكرة تعليم الفتيات بنفسي. أنشأت مدرسة في الورشة التي كانت تعمل فيها أختي سابقا، حيث اعتادت الرسم مع الجد جي، وريبين.

التحقت بالفصل ما بين عشرين وخمس عشرين فتاة. لم أضع خططًا كبيرة. كنت أرغب في تعليمهن القراءة والكتابة والحساب. في ذلك الوقت، كانت جميع نسائنا تقريبًا أميات.

أستيقظ في الصباح الباكر وأشرب القهوة وأجري. كانت الفتيات بإنتظاري. نشعل الموقد ونجلس للدراسة.

بمجرد ذهابي إلى المدرسة، سيقابلني والدي.

ـ إلى أين تذهبين؟

ـ الى المدرسة.

ـ هل يحدث أنه من الصعب عليك ان تستيقظي مبكرًا ، أو تجدين صعوبة في إجبار نفسك على التدريس، أو لا توجد رغبة لديك، أو متعبة؟

أجبت دون تفكير.

ـ كلا.

لكن في اللحظة التالية ادركت ما قاله أبي، فاستطردت:

ـ نعم، في بعض الأحيان لا توجد رغبة، ولكن أجبر نفسي...

ـ آها! إذا كان الأمر كذلك، فهذا جيد. هذه علامة على أن هذا عمل حقيقي، وليس تدلعا ، وليس ألعابًا. حسنًا ، انطلقي، انطلقي، ـ يبتسم ويومئ برأسه، ومضى في طريقه.

أحيانًا كنت أواجه صعوبة في التعامل مع تلميذاتي. لم أكن أعرف طرق التدريس، لقد تصرفت وفقًا لفهمي الخاص، وكانت هناك أيام لم أتمكن فيها من التعامل معهن. لم أكن خائفةً من مقالبهن، أو ضحكهن، وتلقين بعضهن الآخر، الأهم من ذلك إن الخوف ينتابني عندما يتسلل الملل إلى الفصل الدراسي. تتثاءب إحداهن، والأخرى، ويصاب الجميع بالتدريج بالملل، يقضمن أقلام الرصاص، وتتدلى أرجلهن، وتكون أجوبتهن بليدة، وتصبح العيون ناعسة ومتململة...

ذات مرة دخل والدي إلى الفصل في تلك اللحظة. القى نظرة على الفتيات، وبدا لي أنه استحوذ على المزاج. استقبلته الفتيات بالوقوف، وجلسن، ونظرن إليه بفضول.

ـ ما لديك.

ـ مادة الحساب.

دفعت لأبي من كتاب التمارين.

ـ ما هذا؟ كتاب التمارين؟ لا حاجة له. حسنا استمعوا! يرعي قطيع من ستين بقرة واثنين وثلاثين خروفًا بالقرب من نهر فورونكا القريبة من ياسنايا ـ بوليانيا. كان يحرس القطيع راعٍ، ومساعدان. كم عدد الأرجل لديهم جميعا؟

تم استبدال تمرين بتمرين أخر. استيقظت الفتيات وأجبن بصخب. وفجأة ساد الجو الصخب المرح، بالضبط كما لو أن الفتيات ولدن من جديد.

وفي التوادع أثنى أبي على البنات:

ـ حسنا، أحسنتن! تحسبن بشكل جيد!

لقد جاء إلى مدرستي أكثر من مرة. والفتيات اعتدن عليه، وصرخت الأكثر جرأة منهن:

ـ تعال إلينا، ليف نيكولايتش!

وفي اسبوع الفطائر الذي يسبق الصوم الكبير، قال:

ـ يمكن أن تدعي فتياتك لتناول الفطائر. عندما كانت لدي مدرسة، كنا نعد الفطائر، ثم سرجنا الخيول وذهبنا في جولة. لقد نال ذلك اعجاب الفتيان.

أطعته. جاءت لنا الطاهية ماتريونا بوعاء كامل من الفطائر. وجاءت الفتيات، مرتديات ملابس أنيقة، في سارافانات جديدة، وتم تمشيط

شعرهن بسلاسة، ولم يشعرن على الإطلاق بأنهن في المدرسة ـ كن محرجات، انكمشن، وامتنعن في البداية، عن تناول الفطائر.

في ذلك الوقت كان الكسندر نيكيفوروفيتش دوناييف يزورنا. خبزتُ الفطائر معه بالدور. خلع نيكيفوروفيتش سترته الحمراء المعرقة، وعمل بالملقط بمهارة، واخرج الفطائر المحمصة من الموقد ووزعها. جلست الفتيات بشكل مزخرف حول طاولة حيث كانت عليها الرنجة والقشدة الحامضة والزبدة المذابة. وتدريجيا انبسطن، وذهب الخجل عنهم.

ـ هيا، اعطني الفطائر!

صرخن وهن يمسكن بأطباق فارغة. أكلن بأيديهن، حيث تُقطر الزبدة والقشدة الحامضة، ومضغنَ الطعام بصوت عالٍ، بصمت وجدية، كما لو كن يفعلن شيئًا.

جاء الأب لدقيقة ووقف، والقى نظر إليهن وابتسم وذهب. وذهبنا بعد ذلك في جولة على عدة زلاجات.

زارنا في الشتاء عدد اقل بكثير من الضيوف مقارنة بالصيف. أحببت هذه الفترة، عندما نظل لوحدنا، باستثناء يوليا إيفانوفنا والطبيب الذين يعيش معنا. بعد «ج»عاد نيكيتين إلينا ومكثت لفترة قصيرة، ثم غادر مرة أخرى، وحل محله جريجوري موسيييفيتش بيركينهايم، وهو شخص لطيف وطيب. لكن بيركينهايم لم يبق طويلاً في ياسنايا ـ بوليانا، وجاء لنا دوشان بتروفيتش ماكوفيتسكي.

ترأس في وطنه، في تشيكوسلوفاكيا، مع صديقه شكارفان، حركة تولستوي، وقام بترجمة ونشر كتب والدي، وجاء أكثر من مرة إلى روسيا ولياسنايا ـ بوليانا للإلتقاء بأبي. حتى أن شكرفان رفض الإلتحاق بالخدمة العسكرية وتعرض للاضطهاد.

يبدو أن فكرة خطرت لماشا بالطلب من دوشان بتروفيتش البقاء في ياسنايا ـ بوليانا. وبعد ان وافق سافر إلى بلاده ليخبر أسرته بقراره،

وودّعهم وعاد إلى ياسنايا ـ بوليانا، حيث مكث حتى نهاية حياة والدي.

قال الأب عن دوشان بتروفيتش:

ـ إن دوشان قديس. ولكن نظرًا لعدم وجود قديسين حقيقيين، فقد أرسل الرب له عيبًا واحدا، هو كراهية اليهود.

في الواقع، اكتسب وجه دوشان بتروفيتش اللطيف، تعبيرا عنيدا وغاضبا عندما تحدثوا عن اليهود. لقد أحب صحيفة «الأزمنة الحديثة» ومينشكوف لأنهم وبخوا اليهود، وحاول دس مقالاته إلى والدي بشكل غير محسوس. لم يشترِ دوشان بتروفيتش أبدًا أي شيء من اليهود، وأداناني إذا ذهبت إلى المتاجر اليهودية.

ـ أوه، الكسندرا لفوفنا، الكسندرا لفوفنا! يا للخزي يا للخزي! ـ قال لي ـ لماذا تشترون من يهودي، لماذا؟ لماذا لا تدعموا شعبكم، لأن اليهود يكرهونكم، يجلسون على اكتافكم...

بحضور دوشان بتروفيتش، أعيد إحياء العيادة الطبية، التي تدهورت حالتها بعد رحيل دميتري فاسيليفيتش نيكيتين. نظم دوشان بتروفيتش على الفور استقبالاً صحيحاً للمرضى، وزار المرضى في منازلهم من دون اعتراض.

ولم اذهب لمساعدته هذه المرة على الرغم من أن والدي لن يعترض، لكن لم تعجبني الطريقة التي كان يعالج بها دوشان بتروفيتش، بدا لي دائمًا أنه طبيب سيء، وتوقفت عن الذهاب إلى العيادة الطبية معه. في البداية، لم يفهمه المرضى. وبدل ان يقول «دور من؟» صرخ:

ـ صف مَن؟ صف مَن؟

بعد ذلك، تعلم القليل من اللغة الروسية، لكنه دائمًا ما كان يتكلم بوضع نبرة خاطئة على الكلمات، وبما أننا ضحكنا عليه، فقد توقف عن

وضعها تمامًا، محاولًا نطق الكلمات دون توتر. أعطى دوشان بتروفيتش للمرضى القليل من الأدوية.

قال للمرأة عندما أحضرت الطفل المصاب بفقر الدم: «أرجو إعطاءه المزيد من الشكولاته». نظرت إليه المرأة باستغراب.

ـ لو تعطيني بعض الأدوية، قطرات أو من مسحوق.

وكرر دوشان بتروفيتش بإصرار:

ـ أرجو إعطاءه المزيد من الشكولاتة...

وتعين عليّ أن أتدخل وأشرح له أن المرأة ليس لم تأكل الشوكولاتة أبدًا وحسب، بل لم ترها في عينيها أبدًا، وأنها لا تستطيع شراء الشوكولاتة لطفل، فهذا يفوق إمكانياتها.

ثم بدأ دوشان بتروفيتش في استخدام علاج آخر للكساح، قائلا:

ـ أطعموه بشوربة البازلاء!

ـ ولكن ماذا عن المساحيق، ألا تعطي؟

وصرخ الطبيب، غير منتبه للمرأة المرتبكة.

ـ التالي، صف مَن؟

ذات مرة، مرضت الفلاحة مارثا كوباريفا، وكنا نرتبط مع أسرتها بعلاقات صداقة وثيقة. ذهبتُ مع دوشان بتروفيتش لزيارتها. سعلت مارثا بقوة. سكب لها مسحوق «دوفر» لعلاج السعال، وقال:

ـ من فضلك تناوليه من على طرف السكين ثلاث مرات في اليوم.

حاولت إقناع دوشان بتروفيتش بوجوب حل المسحوق بالماء، لكنه قال:

ـ يجب، كما تعلمون، على طرف السكين.

في صباح اليوم التالي، جاءت ابنة مارفينا وركضت ورائي باكية.

ـ ماذا؟

ـ المشكلة ان أمي تغط في نوم متواصل، لا نستطيع أن نوقظها بأي شكل من الأشكال.

جريت إلى منزلهم. كانت مارثا تغط في نوم عميق. أيقظتها، لكنها نامت مرة أخرى على الفور. جريت إلى دوشان بتروفيتش. عندما أعدنا المرأة إلى رشدها، سألتها عما إذا كانت قد تناولت الدواء الذي أعطاها إياها دوشان بتروفيتش.

ـ نعم، لقد تناولته كله، اعتقدت أنني لئن تناولت أكثر، سيخف الأم بسرعة...

لم يستطع الطبيب بأي حال من الأحوال التكيف مع جهل الفلاحين الروس.

ذات مرة، في الطريق إلى المنزل من العيادة الطبية، قال دوشان بتروفيتش بحزن:

ـ الكسندرا لفوفنا، أنا شخص سيء للغاية! سيئ جدا! ارتكبت اليوم خطيئة مرة أخرى اليوم!

أنا ضحكت. جاءت امرأة مصابة بالجرب إلى العيادة اليوم. وبينما كان دوشان بتروفيتش يحضر لها الدواء، لم تتوقف عن الحك، فقال لها بصرامة.

ـ واو، لا تحكّي!

لكن المرأة، نسيت نفسها، وبدأت مرة أخرى في خدش المنطقة المؤلمة. ثم صفع دوشان بتروفيتش يدها بكل قوته.

قالت المرأة، التي لم يزعجها الطبيب على الإطلاق: «لن أفعل، يا عزيزي، لا تغضب، إنه محموم...».

كان الأمر غير معقول ومضحكًا لدرجة أنني، وأنا أركض إلى الصيدلية، لم أتمكن من ضبط نفسي لفترة طويلة، وضحكت حتى دمعت.

إذا سعل شخص في المنزل وطلب نصيحة دوشان بتروفيتش، فإنه يرفض إعطاء الدواء، ويكتفي بالقول فقط:

ـ ارجو الاستلقاء، وعدم الكلام وتنفس الغبار!

عندما جلست أنا أو ناتاشا سوخوتينا منحنين على الطاولة، كان يأتي بهدوء ويدفع ظهرنا ويقول:

ـ من فضلكم، اجلسا باستقامة!

سرعان ما أصبح لا غنى عن دوشان بتروفيتش في المنزل. لكن ليس كطبيب. عندما يصاب شخص ما بمرض خطير، نستدعي استدعاء نيكيتين، أو بيركينهايم، أوشكوروفسكي. أصبح دوشان بتروفيتش ضروريًا كمساعد لوالدي. عند تجميع كتاب «دائرة القراءة»، كان على والدي إعادة قراءة الكثير من الكتب، ووضع علامة بقلم رصاص على ما يجب تضمينه في المجموعة. تذكر دوشان بتروفيتش الكتب التي يجب أن يحصل عليها من المكتبة، وأي الكتب يدرج فيها. كما ساعد دوشان بتروفيتش التعامل مع الزوار، محاولًا كطبيب صرفهم عن الوالد، وكشخص شريك في الرأي يشرح آرائه. في بعض الأحيان كان والدي يطلب منه الرد على الرسائل، وهو ما فعله دوشان بتروفيتش عن طيب خاطر، وإن باختصار شديد. لكن الميزة الرئيسية لدوشان بتروفيتش كانت أنه كان كاتب غير عادي للوقائع التاريخية.

كل ما فعله قام به بنزاهة وإخلاص، وبمثابرة شديدة. كتب الكثيرون عن والدي: غولدن وايزر، وجوزيف، وبولجاكوف، لكن لم يكتب أحد على هذا النحو بدقة وبشكل منظم وحيادي مثل دوشان بتروفيتش. كما لو الآن أرى وجهه الغريب المتوتر، الذي لا يتحرك لدرجة فظيعة، ورأسه الأصلع الأبيض المنحني، ويده في جيبه. كان في جيبه أقلام رصاص صغيرة جاهزة شحذت بعناية، وأوراق سميكة مقطعة، وكان يقلبها باللمس ودون النظر إليها.

لم أستطع أن أنظر بهدوء إلى جموده وقوامه الغريب، ورغبت في مشاكسته.

ـ دوشان بتروفيتش، سأخبر أبي الآن؟ ماذا تدونون...

ـ الكسندرا لفوفنا! من فضلك لا! ارجوك!

صرخت عبر الطاولة.

ـ حالا سأخبر! بابا؟!

سحب دوشان بتروفيتش يده من جيبه على عجل، واحمر خجلاً ونظر إلي بعتاب وتوسل.

ـ بابا؟! دوشان بتروفيتش... ـ هنا عملت وقفة قصيرة، خجل خلالها الطبيب المسكين، ثم أصبح شاحبًا... ـ استقبل دوشان بتروفيتش اليوم ثلاثين مريضًا!

سأل الأب بتعاطف:

ـ متعب جدا؟

ـ لا شيء، ـ قال دوشان بتروفيتش بارتياح ـ لا شيء، لست متعبًا.

بعد فترة تكرر نفس الشيء. دس دوشان بتروفيتش يده في جيبه، وأصبحت عيناه زجاجيتين.

ـ سأخبره الآن اقسم بالرب! ـ لقد اضنيته.

سيكون الأمر فظيعًا بالنسبة لدوشان بتروفيتش، الذي كان يخشى بشدة أن يلاحظ والدي أنه كان يكتب كل ما يقوله.

في بعض الأحيان كان والدي يقرأ شيئًا بصوت عالٍ. وبمجرد فتحه الكتاب، يركض دوشان بتروفيتش إلى الطابق السفلي. وإذا كانت القراءة، وفقًا لحساباته، ستستغرق سبع دقائق، ضبط المنبه لمدة سبع دقائق، واستلقى على السرير واستغرق على الفور في النوم مثل رجل ميت. بعد سبع دقائق، رن المنبه، قفز دوشان بتروفيتش، وصعد إلى الطابق العلوي وكتب تعليقات والدي حول ما قرأه.

كان دوشان مصابًا بفقر الدم وضعيفًا، وكان وجهه شاحبًا وليس متوردا، ولا بد أنه كان يتعبً جدا. في الصباح، يستقبل المرضى، وبعد ذلك يجري استدعاؤه للمرضى، وفي بعض الأحيان يتعين عليه الذهاب في عربة أو يقطع في الشتاء عشرات الأميال في البرد، في زلاجة على طرق سيئة، ثم تدوين ما يقوله الأب، وفك ما تم تدوينه. كان يعمل من الصباح إلى المساء، ولا عجب أنه بمجرد أن استلقى على السرير غط في نوم عميق. لقد استخدم كل دقيقة فراغ، من أجل الحصول على وقت «لتدفئة قدميه»، أي ينام. كانت أقدام سرير الطبيب عند الموقد، وعندما يسخن الموقد، يدفئ ساقيه المتعبتين أثناء النهار في العيادة الطبية، ومن الرحلات الطويلة.

«أنت نائم، إذن أنت لا ترتكب الإثم!» ـ قال دوشان بتروفيتش.

مرض أمي، موت ماشا

اشتكت أمي منذ فترة طويلة من ثقل وألم في أسفل البطن. وفي أغسطس 1906 لازمت السرير. بدأت تعاني من آلام شديدة وحمى. استدعينا طبيبا جراحا من تولا، الذي شخص مع دوشان بتروفيتش وجود ورم في الرحم.

تناوبنا أنا والأخت ماشا ويوليا إيفانوفنا على فترات الاعتناء بها. لقد عانت بشدة: كانت تتقلب في الفراش، غارقة بالعرق، تئن بصوت عالٍ... تحدث الأطباء عن ضرورة إجراء عملية، وطلبوا استدعاء البروفيسور سنيجيريف من مقاطعة ألكسين، وإخطرت تانيا وإلإخوان.

وصل البروفيسور سينجريف مع مساعدين ومسعفين وأدوات جراحة، وحتى مع طاولة عمليات جراحية.

اجتمعت العائلة بأكملها تقريبًا، وكما يحدث دائمًا، عندما يجتمع العديد من الشباب والأقوياء والعاطلين، على الرغم من قلقهم وحزنهم، ملأوا المنزل على الفور بالضوضاء والصخب والحيوية، وتحدثوا وشربوا وأكلوا بلا نهاية. طالب البروفيسور سنيجيريف، وهو رجل سمين وطيب وصاحب صوت جهوري، بالكثير من الاهتمام به. انتقل دفتر الطباخ سيميون نيكولايفيتش لكتابة التعليمات بصدد شئون المنزل ليّ، وحاولت أن اتعامل بيقظة مع مشاغل الأسرة مثلما تفعل أمي، كان من الضروري إعداد مكان نوم لكل من يأتي، وإطعام الجميع، وإصدار الأوامر بذبح الدجاج والديك الرومي، وإرسال احدهم إلى مدينة تولا لجلب الدواء، والنبيذ والسمك (جلس) أ في كل مرة أكثرمن عشرين شخصًا إلى مائدة الطعام)، وإرسال الحراس لاستقبال من يصل إلى المحطة، وإلى المدينة ـ كان هناك الكثير من المشاغل...

لكن فجأة حدث تحسن في صحة الأم. وقرر سنيجيريف تأجيل العملية وغادرنا.

ولكن الالم بدا بقوة متجددة في اليوم التالي، وارتفعت درجة الحرارة إلى أربعين درجة. وقال الأطباء بانه قد بدأ التهاب الصفاق، ويجب إجراء عملية على الفور. وقدم سنيجيريف مرة أخرى، إذ تم استدعاؤه ببرقية عاجلة.

كان والدي يذهب باستمرار إلى غرفة الوالدة، وخرج من هناك متأثرا للغاية بعواطفه. وفي هذا الوقت كتب في مذكراته:

«مرض ص [وفيا] يزداد سوءًا. الآن شعرت بشفقة خاصة عليها. لكنها شفقة عقلانية ومؤثرة ولطيفة وطيبة. لا أريد أن أكتب عن أي شيء آخر. ثلاثة أبناء ـ س[يرجي]، وا[ندريه] وم [يخائيل] ـ موجودون هنا وابنتين، م [آشا] وس [آشا]. البيت مكتظ بالأطباء. إنه أمر صعب: بدلاً من الإخلاص لإرادة الرب والمزاج الديني الحافل ـ تتجلى أنانية متمردة تافهة. كان التفكير والشعور جيدا. الحمد للرب. أنا لا أعيش، ولا يعيش العالم كله في الزمن، ولكن انكشف عالم في الزمن لا يتحرك، وكان يتعذر عليّ الوصول إليه سابقًا. على هذا النحو أسهل وأكثر قابلية للفهم. وعلى هذا النحو إن الموت من وجهة النظرة هذه لا يعني توقفًا عن شيء ما، بل الكشف الكامل.»

تحملت أمي المرض بصبر الهائل ووداعة. وكلما كانت المعاناة الجسدية أشد، كلما أصبحت اكثر دماثة وواكثر رقة. ولم تشكُ، ولم تتذمر من القدر، ولم تطالب بأي شيء وشكرت الجميع فقط، وقالت شيئًا لطيفًا للجميع كثر وشعرت باقتراب الموت، واستسلمت، وابتعد عنها كل شيء دنيوي. رأى الأب هذا وبكى ليس من الحزن بل من الفرح. لم يرَ «توقفًا لشيء ما، بل كشفا كاملاً». ـ وقال، منتحبًا:

ـ طلبت مني المغفرة، ومن الناحية الروحية هذا حسن، جيد جدًا...

جرى التحضير للعملية: يقوم بها سنجيريف، وثلاثة مساعدين ودوشان بتروفيتش. كان سنجيريف قلقًا. إن إجراء عملية في المنزل عندما بدأ التهاب الصفاق، وبدون أي أجهزة، حقًا محفوف بالمخاطر، وبناءً على

طلبه، تم استدعاء البروفيسور فينومينوف من بطرسبورغ، لكن كان من المستحيل انتظاره لفترة أطول.

التفت سنيجيريف إلى والدي، وسأله عما إذا كان يوافق على العملية. فأجاب الأب بأنه في رأيه لا يجب إجراء العملية.

فاعترض البرفيسور.

ـ لكن إذا لم تُجرَ عملية، فسوف تموت صوفيا أندريفنا!

ـ أفعلوا ما تشاءون! ـ قال الأب.

اندهش سنجيريف من إجابة والدي، واستاء الأخوة، لكن لم يفهم أحد أن شيئًا واحدًا مهمًا لوالدي ـ ان تعيش الأم، «تتكشف»...

طلبت أمي قبل إجراء العملية استدعاء كاهن، اعترفت، وتلقت القربان، وتوادعت مع الجميع، استغفرت من الأبناء، ومن المستخدمين في الضيعة. حاولت أن تقول شيئًا لطيفا ورقيقا للجميع، خرج الكثيرون منها والدموع تبلل عيونهم.

عندما بدأت العملية، ذهب والدي إلى كوخه في على حافة غابة ياسنايا ـ بوليانا الصغيرة، وطلب بدق الجرس مرتين، إذا سارت الأمور على ما يرام،، وإن لم يكن، فمرة واحدة.

لقد رأيت كل ما جرى من الدرج المطل على الباب المفتوح. في منتصف الغرفة كانت هناك طاولة عمليات، غمرت المياه الأرضية، وكان الأطباء يتحركون بهدوء ويتحدثون بهمس فيما بينهم، وهم في معاطف بيضاء، حملوا أمي وأغلقوا الباب. سمعت أنينها، ثم صمتت. كان يتردد فقط صوت البرفيسور الجهوري، في البداية كان هادئًا، ثم أكثر وأكثر توتراً وغضبًا. وفجأة انهالت شتائم بغيضة وغير لائقة:

ـ أوه، أنت خطم ألماني.. ابن العاهرة! ألماني ملعون!..

شتم سنجيريف المستورد الألماني، عندما تقطعت خيوط أمعاء القطط الطبية التي خاط بها الجرح في اللحامات. بدا لي أن وقتًا طويلاً قد مضى، وأنه لن تكون نهاية لهذا، وعندما فجأة انفتح الباب بضوضاء، وأطل البرفيسور متضرجا ومتعرقا من الغرفة. ألقوا عليه رداءاً دافئًا، وأخذوه إلى الطابق السفلي، وحملوا خلفه زجاجة شمبانيا.

سارت العملية بشكل جيد. ركضت إلى حافة الغابة ورأيت والدي على العشب بين أشجار البلوط. صرخت:

ـ بابا؟ انتهت العملية بسلامة.

ـ حسنا، حسنا!

أدركت أنه يريد أن يكون بمفرده. بعد عودتي، قابلت ماشا وإيليا، كانا متوجهين إلى الوالد، وفي المنزل وجدت أطباء يفحصون كيسًا ضخمًا بحجم رأس الطفل. عندما أخرجوها، انفجرت.

ذهبت لرؤية سنيجيريف، كان مستلقيًا في السرير مغطى ببطانيات دافئة ويشرب الشمبانيا الباردة في رشفات صغيرة. بدا هادئًا تمامًا، مازحا، مبتسمًا، لكنه لم يتحدث عن العملية ـ لقد تجنبها.

ولفترة طويلة، لم يُسمح لأحد بزيارة الأم باستثناء الأب، وقامت على رعايتها ممرضة تم استدعاؤها من تولا. جاء الأطباء نيكيتين وبيركينهايم لمساعدة دوشان بتروفيتش على متابعة المريض. تحسنت وتعززت صحتها تدريجيًا. فقط خيوط أمعاء القطط الطبية «الألماني الملعون» سببت بانفصال اللحامات الداخلية في بعض الأماكن وأصيبت الأم بفتق.

غالبًا ما كان سنجيريف يكتب لي رسائل لطيفة ويسألني عن صحة والدتي. وعلى طريقة العجائز، وصفني في الرسائل، بلطف بـ«حمامة»، و«عزيزتي». لكن المراسلات لم تدم طويلا. فقد وقعت

إحدى الرسائل بالصدفة بيد والدي. لم تعجبه وطلب مني عدم الكتابة إلى البروفيسور مرة أخرى.

ثم استمرت الحياة كما كانت من قبل. جاءت تانيا إلى لتقيم في الجناح مع ابنتها الصغيرة التي لا تزال حالتها الصحية سيئة وأبناء زوجها ناتاشا ودوريك، وغالبا ما جاء الأخ أندريوشا. منح ضيعته في تابتيكوف لزوجته اولغا كونستنتينوفنا وأولاده، وأصبح وحيدا ، مشوشاً، وليس له من يُسندُ رأسَهُ.

استأنفت أمي مشاغلها: عزفت على البيانو بمفردها أو مع ناتاشا سوخوتينا بأربعة أيادي، وخاطت، وأخذت تتحرك بنشاط في المنزل، وغادرت أحيانًا إلى موسكو. ابتلعتها الشؤون المادية مرة أخرى. ومن جديد بدأت المخاوف بشأن الممتلكات، وحقوق الطبع التي كان لها دائمًا تأثير ثقيل على حياة والدي.

في بعض الأحيان يتذكر الأب بعاطفة غامرة كم كانت الأم رائعة، فقد تحملت المعاناة، وكيف كانت حنونة ولطيفة مع الجميع. للمرة الثانية في حياتي، كما حدث بعد وفاة فانيا ، رأيت نافذة مفتوحة، واندفع الضوء، وأضاء حياتنا... ومرة أخرى أغلقت...

ذهبت ماشا وكوليا وأندريوشا ويوليا إيفانوفنا في أحد أيام نوفمبر الباردة في نزهة على الأقدام. رأوا ثعلبًا بالقرب من نهير فورونكا. وعندما عادوا ، هبت ريح عاتية عليهم واقشعرت ماشا من البرد، وعند المساء أصيبت بقشعريرة وحمى، ولفترة طويلة لم يتمكنوا من فهم ما اصابها. تم استدعاء الطبيب العسكري أفاناسييف من تولا ، الذي كان كوليا يثق به بشكل خاص. تطور المرض بسرعة البرق، وكانت الحمى شديدة لدرجة أن ماشا بالكاد استعادت وعيها. شخص الطبيب شكوروفسكي، القادم من موسكو، مرضها بالتهاب حاد في الرئتين. وبالتناوب: اعتنيت بها أنا وكوليا ويوليا إيفانوفنا. لم تستطع الكلام، فقط كانت تئن بضعف مثل طفل. تضرجت وجنتاها النحيفتان، ومن شدة الضعف لم تستطع أن تنقلب على جنبها ، ولا بد أن جسدها كله

يعاني من آلام. عندما وضعوا الكمادات، ورفعوها للأعلى أو أداروها من جانب إلى آخر، تغضن وجهها بشكل مؤلم، وأصبح أنينها أقوى. وذات مرة أمسكتها بطريقة خرقاء وسببت لها الألم، فصرخت، ونظرت إلي بعتاب. ولفترة طويلة، تذكرت صراخها، ولم أستطع أن أسامح نفسي على الحركة المحرجة.

كانت ماشا تنطفئ. وعندما نظرت إليها، تذكرت فانكا، الذي غدت تشبهه الآن بشكل خاص، وكذلك بالضبط أن المرض عاصف ومن دون رحمة يأخذها، وكان من الواضح أنه لا جدوى من الكفاح. كان وجه ماشا مهمًا وغريبًا، جسدها فقط بقي معنا، بدا أن روحها حلقت بعيدًا. ومثلما احتضر فانيشكا، بدا لي أنها تعرف شيئًا لا يمكننا الوصول إليه، شيئاً هاماً.

دخل والدي بهدوء وبصمت، أخذ بيدها وقبلها على جبهتها. ولم ننظر كوليا وأنا الى بعضنا البعض، ولم نتحدث.

استمر الوضع على هذا النحو تسعة أيام. تلامس بأصابع رقيقة وشفافة البطانية، وضعف نبضها. وفجأة ظهر العرق الذي انتظرناه بلا جدوى لعدة أيام. ساورني أمل غبي عقيم ولا أساس له من الصحة، كان الطبيب العسكري البدين يجلس في غرفة دوشان بتروفيتش على السرير ويغطي وجهه بيده. وصرخت به:

ـ دكتور!. ـ دكتور! عرق! إنها تتعرق!

لوح الطبيب بيده بلا أمل وتمتم دون أن يرفع رأسه:

ـ عرق، لكن ليس هذا!

دخل الجميع الغرفة. جلس الأب بجانب السرير وأخذ بيد ماشا. وبالكاد كان مصباح محجوب يضيء. كان المكان هادئًا، وكان الجميع صامتين، ولم يُسمع سوى أنفاس ماشا الباهتة، وأصبحت تقل وتقل، وبدأت تنقطع وهمدت، وبكى كوليا بخفوت عند النافذة.

كتب الأب في مذكراته: «26 نوفمبر/ تشرين الثاني. الواحدة ليلا. ماتت ماشا. إنه لأمر غريب، لم أشعر بأي رعب، ولا خوف، ولا وعي بشيء استثنائي كان يحدث، ولا حتى شفقة، وحزن. يبدو أنني أعتقد أنه من الضروري ان استدعي في نفسي شعوراً خاصاً بالحنان والحزن واستدعيت ذلك، ولكن في أعماق روحي كنت هادئا اكثر مما يحدث عند تصرف شخص غريب، ناهيك عن تصرفاتي الخاصة، سيئة كانت أم غير لائقة. نعم، هذا حدث في مجال الجسد، وبالتالي هو غير ذي بال. نظرت كل الوقت اليها، عندما كانت تحتضر ـ هادئة بشكل مدهش. بالنسبة لي، كانت كائنًا انكشف امام انكشافي. راقبت، انكشافه وكان مفرحا لي. ولكن هذا الانكشاف توقف الوصول له في مجالي، أي توقفت رؤية هذا الانكشاف، أي أين؟ متى؟ هذه أسئلة تتعلق بالعملية. هذه أسئلة تتعلق بالعملية الجارية هنا ولا يمكن أن تُعزى إلى حياة حقيقية زمنية ومكانية».

عندما عُرفَ في القرية أن الأجل قد وافى ماريا لفوفنا، بدأت النساء في العويل، وركضن إلى المنزل، وطلبت النساء المسنات الجلوس بالقرب من ماريا لفوففنا، وناحت الأخريات وندبن كما هي العادة، ومسحت البعض الآخر منهن، دموعًا صادقة، وصميمة بالمآزر. تحدثت النساء بهمس، متذكرات ما قامت به، ولمن: من عالجته، ومن عملت معه في الحقل، ومن كانت تقول لهن كلمة لطيفة، وجلسن بالتناوب ليلا نهارا بجوار نعش ماشا حتى الجنازة. وعندما حملوها عبر القرية خرج الفلاحون والنساء من الأكواخ، ووضعوا نقودًا نحاسية في يد الكاهن وطلبوا القيام بقداس على روحها.

ودع الأب التابوت إلى البوابة، وعاد إلى المنزل. لم يجرؤ أحد ان يعود معه، والتحدث اليه بكلمات العزاء...

وكتب في مذكراته: «أعيش وغالبا ما أتذكر الدقائق الأخيرة لماشا (لا أريد أن أطلق عليها اسم ماشا، هذا الاسم البسيط لا يناسب ذلك المخلوق الذي رحل عني). تجلس، محاطة بالوسائد، وآخذ يدها الرفيعة

الحلوة، وأشعر كيف تغادر الحياة كيف تغادر الحياة. إن ربع الساعة هذه، أهم زمن في حياتي».

دروس للفتيان. إغماء

كان دوريك سوخوتين، ربيب أختي تانيا، فتى لطيفًا ووديعًا ولكنه ضعيف الإرادة. درس بشكل سيئ. كثيرا ما تفرس الأب به عن كثب.

ـ هل تصلي يا دوريك؟

خفض دوريك عينيه السوداوين الكبيرتين واحمر خجلاً وهمس:

ـ أنا أصلي.

ـ وكيف تصلي؟

ـ أقول أبانا. ايتها العذراء...

ـ ألا تصلي بكلماتك؟

خجل دوريك وسكت. راح الأب غالبا يتحدث معه عن الصلاة، والشفقة على الحيوانات، وعن الرب، واصبح دوريك يعتاد على مثل هذه المحادثات.

جاء الأولاد من القرية إلى أبي للحصول على كتب. تحدث الأب معهم عما قرأه. وتدريجيًا، تعمقت هذه المحادثات، وتحولت إلى دروس دائمة. وجرى في الدروس، تطبيق فكرة الأب عن أن الشيء الرئيسي في التدريس ليس المعرفة الشكلية، وليس تعليم الكتابة والحساب، ولكن التربية الدينية والأخلاقية. ومن بين المواد الأخرى، درسوا فقط الجغرافيا.

بعد تناول الفطور، في بداية الساعة الثامنة صباحًا، في الطابق السفلي في الردهة، كان بإمكاننا سماع صفقات الأبواب، وأصوات الفتيان المبتهجة والمتحفظة. كان الأب في عجلة من أمره إلى مكتبه، وجمع الأوراق والكتب، وابتسم بغبطة، وهبط إلى المكتبة. عادة ما يأتي

ثمانية إلى عشرة أشخاص، ولكن كانت هناك أيام يصل العدد فيها إلى عشرين منهم. مثل هذا العدد من الأطفال أحرج والدي، فالدروس التي كان يدرسها تتطلب العلاقة الحميمة. والتلاميذ الأكثر مواظبة، كانوا أربعة هم: دوريك وسوخوتين وكوليا روماشكين، وباشا ريزونوف، وبيتيا فوروبيوف. أحبهم الأب، وخاصة كوليا وباشا. كان باشا فتى عميق التفكير، وتلقى ما سمعه بجدية وانتباه، إذا سأل فدائمًا بمعنى، يحاول التعمق، والفهم. وكان الصبي الصغير كوليا ذو العيون الزرقاء والبهجة والجذابة، والغمازة على خديه وعلى ذقنه، حساسًا، فهم بسرعة، وسرعان ما يشتعل رغبة، ويبرد بسرعة. ومع ذلك، فقد أثر والدي فيه لفترة. وعندما كان صبيًا، تم إرساله إلى دورة تدريب لصناعة الحلوى في مدينة تولا. لم يأكل اللحم هناك، ولم يشرب الخمور، ولم يدخن، ودعاه رفاقه بالتولستوي.

لم يستطع الأب التعامل مع الأطفال أمام الغرباء. في بعض الأحيان، استسلم تحت تأثير الطلبات المستمرة، لكنه فعل ذلك بتردد كبير، وقام بالتحضير للدروس، وكتب في مذكراته أو على قطعة من الورق كل ما كان ينوي التحدث إليه مع الأطفال.

«بالنسبة لشريعة الرب للأطفال، أكتب قواعد بسيطة: 1) لا تشجب، 2) لا تأكل كثيرا، 3) لا تؤجج الشهوات، 4) لا تخدر العقل، 5) لا تجادل، 6) لا تنقل أشياء غير لطيفة عن الناس، 7) لا تكن كسولًا، 8) لا تكذب، 9) لا تأخذ بالقوة، 10) لا تعذب الحيوانات، 11) عامل الناس معاملة طيبة، 12) احترم الجميع، 13) احترم كبار السن».

كتب والدي في 17 مارس 1907: «انشغلت خلال هذا الوقت فقط بدروس الأطفال. وكلما مضيت شوطا ابعد، كلما أرى الأمر أصعب فأصعب، وفي نفس الوقت هناك أمل أكبر في النجاح. من المشكوك فيه أن يكون كل ما فعلته حتى الآن، صالحاً. أمس قسمتهم إلى فصلين: الآن فكرت بالفصل الأصغر.»

لم يدرّس الأب القضايا الدينية والأخلاقية للأطفال فحسب، بل كان يفكر بالإستمرار في التربية الأخلاقية للأطفال بشكل عام. بعد أن كتب «شرح تعاليم المسيح للأطفال»، قرر أن يؤلف «حلقة القراءة للأطفال»، وجرّب على أطفاله الأفكار التي يمكن أن يفهمونها أكثر.

كتب في مذكراته «لكي تكون سعيدا، كيف تكون سعيدًا، كيف تكون سعيدًا؟ حتى يكون الجميع، الذين يعيشون على هذا النحو، سعداء».

كل ما هو نجس وشر في الأطفال يزعج الأب بشكل رهيب. أتذكر أنه عاد من نزهة، هائجا، ومضطربًا بوجهه قاتم، ومدبب. اعتقدت أنه مريض.

ـ ولكن هذا فظيع! ـ صاح ـ فظاعة! كنت أتنزهه، الصباح رائع، والطيور تغرد، ورائحة البرسيم تفوح... وفجأة ترامت لي لعنات سيئة لا معنى لها! اقتربت... جلس فتية صغار خلف شجيرات الأكاسيا وهم يحزون الخيول، ويشتمون بشناعة وقذارة ويدخنون. بكيت... قلت لهم أن هذا سيء. ولكن، هل يمكنك المساعدة في ذلك؟

كانت الأم تشكك بنجاعة دروس والدي. وقالت باستخفاف:

ـ لدى ليف نيكولايفيتش هواية جديدة، يستظهر حقائق مسيحية ما، مع الفتية. يرددونها عن ظهر قلب، مثل الببغاوات، وهو واثق من أن شيئًا سيبقى منها لديهم.

وعندما تحدث الأب بانشراح، كيف يتعلم الفتية تعاليم المسيح، قالت:

ـ على الرغم من ذلك، سيكون الجميع مدمنين على الخمور ولصوصًا.

لاذ الأب في الصمت.

ولعت أمي في ذلك الوقت بعمل جديد ـ تنظيم خزان لآثار ومخطوطات والدي. نقلت جميع المخطوطات إلى متحف موسكو التاريخي، واستمرت

الآن بحماس شديد في جمع كل ما يمكن أن تجده في الخزائن والأرائك القديمة والأدراج.

وشككت بوجود خطط نفعية وأنانية، لدى الأشخاص الذين أحاطوا بوالدي، وبذلت قصارى جهدها لحماية مصالح الأسرة. غضبت على سيرجينكو الذي كان ينوي نشر مختارات من أعمال والدي، ولم ترفضه فحسب، بل كتبت رسالة إلى الصحف أكدت فيها حقوقها في نشر الأعمال حتى عام 1980.

أصبح الأب أكثر قتامة من السحابة، محاولًا عدم الاستماع إلى محادثات حول الأحفاد الذين سيتسكعون في جميع أنحاء العالم، وبصدد المخطوطات التي يرغب في أن يُعطى كل شيء منها لتشيرتكوف

قالت الوالدة:

ـ ليف نيكولايفيتش ليس في مزاج جيد اليوم، ويحدث هذا دائمًا عندما لا يكون كبده في حالة جيدة.

لم تفهم أن الحديث عن حقوق الطبع قد ازعج الأب.

جاء سيرجي إيفانوفيتش تانييف في يناير 1908، إلى ياسنايا ـ بوليانا. اجتمع في المساء في غرفتي: تانييف، والعجوز شميت، وأمي، ومساعدة أبي فارفارا ميخائيلوفنا. كانت أمي حيوية، وتوقدت عيناها الكبيرتان وكانت كل حركاتها متوترة، ومترددة. بدا لي أنها حملت كل ما قالته معنى غريبًا ومبالغًا فيه. حاولت ماريا ألكساندروفنا، كما هو الحال دائمًا، تسوية كل شيء، متجاهلة الأشياء غير السارة والمزيفة، والتأكيد على ما هو حسن.

نظرتُ إلى تانييف. كان كالعادة مبتهجًا، وضحك بلطف، ولم يلاحظ حالة والدتي المتوترة.

قال:

ـ سأعزف لكم. هل تريدون؟

أجبنا جميعًا:

ـ نريد، نريد جدا! من فضلك!

لا أتذكر ما عزفه سيرجي إيفانوفيتش، لكني أتذكر فقط أنه عندما عزف «أغنية بلا كلمات» لمندلسون اجهشت أمي بالبكاء فجأة بصوت عال.

نهض تانييف من خلف البيانو، وجال في أرجاء الغرفة، وفرك يديه. كان الجميع محرجين. فقط ماريا الكسندروفنا صرخت متعاطفة:

ـ حبيبتي، صوفيا اندريفنا! ما خطبكم؟

نظرتُ إلى والدتي. كان رأسها يرتجف. وعلى الرغم من شعرها الأسود وبشرتها الجميلة، كانت امرأة عجوزاً، تبلغ من العمر ثلاثة وستين عامًا. شعرت بشفقة لا حدود عليها، وكان هذا الشعور، الممزوج بشعور من الإحراج، صعبًا بشكل لا يطاق. نهضت واقفة بحركة حادة.

قلت:

ـ شكرًا لكم، سيرجي إيفانوفيتش لنصعد إلى الطابق العلوي!

جاء سيرجي إيفانوفيتش لزيارتنا مرة أخرى في فبراير. كان والدي دائمًا لطيفا للغاية وودودًا معه، يلعب الشطرنج، ويستمع إلى موسيقاه، وكان معجبا به، واخبره عن أعماله.

زارتنا هذه المرة في نفس الوقت مع تانييف، صديقة العائلة، صوفيا ألكساندروفنا ستاخوفيتش. لقد احببتها. مرحة وذكية وخبيرة ممتازة في الأدب، كانت دائمًا تجلب الحيوية إلى منزلنا. لم تفهم تعاليم والدي، ولم تتعاطف معها، ولكن، على ما يبدو، لم يكن هناك من يقدر أعماله

الأدبية أكثر من ستاخوفيتشي. عرفت صوفيا ألكسندروفنا رواية «الحرب والسلام» عن ظهر قلب.

أتذكر حادثة جعلتنا جميعًا نضحك. قرأت صوفيا ألكساندروفنا في القاعة بصوت عالٍ مقتطفًا من رواية الحرب والسلام، ودخل الأب الصالة وتوقف عند الباب، ودس يديه في حزامه كالمعتاد. عندما سكتت صوفيا الكسندروفنا، سألها والدي:

ـ ماذا قرأت؟ مكتوب بشكل حسن!

قالت صوفيا ألكسندروفنا:

ـ يا ترى لم تعرفوا؟ إن هذه هي «الحرب والسلام».

ـ أوه! ـ لوح الأب بيده بخيبة أمل وغادر الغرفة.

قامت صوفيا ألكساندروفنا، في هذه الزيارة، وكالعادة، بتسلية الجميع. بعد الظهر ذهبنا في جولة بالزلاجات. في الزلاجة الأولى، صعدتُ محل الحوذي واخذتُ تانييف بها. ابتهج كالطفل، ضحك حتى على المطبات، ولم يحاول الحفاظ على توازنه، وسقط في الثلج مثل كيس.

صرخت لي صوفيا ألكساندروفنا من الزلاجة الخلفية.

ـ اللهُ أعلم ما هذا!، أنت، يا ساشا، لا تعرفين على الإطلاق كيف تقودين الزلاجة!

ـ قف! صرخت ـ وأنا أشد الزمام. ـ لقد وجهت لي إهانة يا صوفيا ألكساندروفنا! تفضلوا اجلسوا بدلا مني في مكان الحوذي!

لقد غيرنا الأماكن وانطلقنا. ظللت أنظر إلى الزلاجة الأمامية. طرق وعرة، دوي، والزلاجات تميل إلى أحدى الجوانب. ويمكن ان يرى المرء توترا رهيبا في قامة صوفيا أليكساندروفنا النحيلة والمرنة، وهي تحاول

بجسدها الخفيف إمالة الزلاجة في الاتجاه المعاكس. لكن عبثا. سيرجي إيفانوفيتش يميل بشدة مع مزلقة إلى الطريق الوعرة.

ـ آخ! ـ تصرخ صوفيا ألكساندروفنا، وهي توقف الحصان بينما يتخبط سيرجي إيفانوفيتش في الثلج، وهو يرتجف من الضحك، بلا صوت.

ـ آها! أصرخ منتصرة. ـ آها! من هو الحوذي السيئ؟!

عندما عدنا إلى المنزل، كانت صوفيا أليكساندروفنا غاضبة:

ـ نعم، إنه مثل كيس! جذع! أقول له: ميلوا لليمين، ميلوا لليمين! وهو يضحك فقط ويتهاوى في الثلج.

لكن على الرغم من المرح الخارجي، كان المزاج متوتراً وثقيلاً. طلبت أمي من سيرجي إيفانوفيتش أن يعزف لها «أغنية بلا كلمات»، وقد أضفت على ذلك مرة أخرى معنى غامضا، الأمر الذي أثار شعورًا بالحرج لدى كل الحاضرين ولدى سيرجي إيفانوفيتش نفسه.

في يوميات؟ في 22 فبراير 1908، كان هناك هذا النص: «يوم عيد القلب. ذهبنا في جولة. أوه، هذه الـ «أغنية بلا كلمات»!

انشغلت أمي في هذا الربيع بكتابة قصة عنوانها «أغنية بلا كلمات». أعطتها لوالدي ليقرأها، وتفاجأت بأن القصة لم تنل اعجابه.

أزعج ناظرو الضيعة الأميون والأغبياء الفلاحين أكثر فأكثر. وبسبب عدم معرفتهم بكيفية استحصال دخل من الأراضي وتنظميها بشكل جيد، حاولوا زيادة إيجار الأرض، وبدلاً من الحفاظ على نظام الاسوار، قاموا بطرد ماشية الفلاحين من المتنزه والبستان والحدائق، وفرضوا غرامات باهظة على الفلاحين بسبب إفساد المزروعات، وتهاونوا في حراسة الغابة. كان الحراس سيئين، وتزايدت أعمال قطع أشجار الغابات. وتصاعدت الضغينة بين الضيعة والفلاحين، وقام أطفال

الفلاحين بالمشاكسة، وتسلقوا حدائق الخضروات، والأحواض، وحتى الحظائر والأقبية، وجاء الناظر والبستاني للشكوى لأمي،

وجرى الحديث في عائلتنا عن انه:

ـ من المستحيل العيش بسلام مع هؤلاء الناس، لا يمكننا العيش معهم. يجب علينا إما أن نستخدم شركساً أو حراساً.

لقد أثر في ذلك مثال الجيران عائلة زفيجينتسيفا، التي أقامت معسكرًا للشرطة في الضيعة وأحاطت نفسها بمعسكر كامل من الشركس والحراس. ذات مرة بعد مناوشة بين البستاني وأبناء الفلاحين، حيث أطلق أحدهم النار على شخص ما، قررت أمي، بعد التشاور مع شقيقي أندريه، طلب الحماية من حاكم مدينة تولا. وغني عن القول، كم كان هذا الحاكم مسرورا! احتاجت ياسنايا ـ بوليانا، حيث يعيش رجل يدعو إلى عدم مقاومة الشر بالعنف، إلى مساعدة السلطة. لقد حاولوا بالطبع أن يصنعوا فيلًا من ذبابة. تم تضخيم المناوشات في حديقة الخضروات وتصويرها تقريبًا بهجوم مسلح على ملكية تولستوي، وجاءت سلطات تولا إلى القرية: المحافظ، وقائد الشرطة، وقائد الشرطة، وكاتب المحضر، وما إلى ذلك. خرج الفلاحون الخائفون للقاء الرؤساء بالخبز والملح، وتم اعتقال العديد من الفلاحين وإرسالهم إلى السجن.

جرت بين الوالدين محادثات صعبة لم تخفف الموقف، ولم تجلب الراحة، بل خلقت فجوة أوسع وأوسع بينهما، وملأت أرواحهما بالمرارة.

غادر والدي الذي تغضن من الألم المكتب مسرعاً عبر غرفة الضيوف إلى القاعة، وأراد بشدة إنهاء المحادثة، والمغادرة في أسرع وقت ممكن.

قال

ـ حسبك، حسبك، يا سونيا. إذا كنت لا تفهمين إني لا أحتمل الحياة مع الحراس الذين يمسكون بالرجال، ويقبضون عليهم، ويرمونهم في السجون، فلا فائدة من الكلام...

ـ هل تريد ان يطلقوا النار علينا جميعا هنا؟ ـ قالت أمي وهي تسير بخطوات سريعة ومتوترة للحاق بأبي. ـ بالأمس أطلقوا النار على البستاني، وغدًا سيطلقون النار علينا، ويأخذون كل شيء...

ـ يا إلهي! حسنًا، كيف تريدني أن أكون هادئًا. أليس هذا هو الجحيم، وأي جحيم! ولكن من المستحيل خلق وضع أسوأ مما خلقته لي... لم يعد بإمكاني العيش في مثل جو الضغينة المروع هذا الذي يتنامى حولنا كل يوم... ومن المرعب التفكير بأن لدينا سبعة مسلحين في ضيعتنا.

ـ لقد تخليت عن كل شيء، أنت لا تهتم بشي، فما العمل؟ ولكن، لا يمكن للمرء أن يسمح لعديمي الضمير بسرقته...

جرت مثل هذه المحادثات بشكل شبه يومي. وطلب الفلاحون، الذين أساء الحراس معاملتهم، الحماية من أبي، وتوجه بدوره إلى الأم.

يبدو لي أنها لم تتصور بالكامل مشاعر الرعب التي تكونت لديه، ومعاناته.

كتبت في دفتر مذكراتها: «جرى حديث مزعج مع ليف نيكولايفيتش بسبب الحراس، وضعي ميؤوس منه، وأنا محاصرة أخلاقياً ومعذبة» وجملة أخرى: «في الصباح، موقف ليف نيكولايفيتش المزعج تجاه الحراس».

و»يتبادر إلى ذهني شك فيما إذا كنت أبلي بلاءً حسناً، من أنني صامت ـ يكتب أبي في دفتر ملاحظاته ـ وهل من الأفضل لي أن أغادر، أو اختبئ، مثل بوولنجر. ويعود سبب عدم قيامي بهذه الخطوة، بشكل أساسي إلى أنني ساقوم بخلاص نفسي وحسب، من الحياة المسمومة من جميع الجهات، وأعتقد أن من الضروري لي تحمل هذه الحياة «(2 يوليو/ تموز). «الحالة مؤلمة، أنا أكافح، لكني أكافح بشكل سيء! إن الحياة هنا، في ياسنايا ـ بوليانا، مسمومة تمامًا. أينما ذهبت ـ خزي ومعاناة» (3 يوليو).

ومرة أخرى من 6 يوليو: «ساعدني يا رب. مرة أخرى أريد أن أغادر. ولا أجرؤ، لكني لم أتخل عن فكرة المغادرة. الشيء الرئيسي هو إذا غادرت هل سأقوم بذلك لمصلحة نفسي. أنا افهم ان البقاء ليس لمصلحة نفسي. يجب أن نفكر مع الرب. وسأفعل على هذا النحو.»

بقيَ من الحراس السبعة في الضيعة اثنان. اقام رجل عريض أخرق يحمل مسدسًا في غرفة بجوار غرفة الانتظار، وعاش آخر في غرفة الخدم. فاحت منهما رائحة القطران والتبغ، وبصفة عامة شيء نجس وخشن...

أُكتشف في غابة «غنوموتي» سرقة كبيرة ـ مئة وتسع وعشرون شجرة بلوط. لم تكن هناك أدلة كافية ضد الفلاحين. طلب الجميع من الأم وقف هذه القضية، وجاء الفلاحون إلى أبي طلبا للحماية. تحدث إلى والدتي، لكنها كانت عديمة الشفقة.

كتبت الأم في دفتر مذكراتها: «من المزعج أن رئيس اللجنة الإدارية المحلية، برأ الفلاحين من قيامهم بقطع 129 شجرة بلوط، ولأنهم لم يستكملوا العمل. سأقدّم شكوى إلى المؤتمر».

دعم الأبناء، أندريه وليف، الأم.

قال الأخ ليف:

ـ حسنًا، ما العمل في هذه الحالة: إما أن نجلس مكتوفي اليد، والتخلي عن كل شيء، كما فعل أبي، أو إدارة الممتلكات بشكل صحيح. لا يمكننا السماح للفلاحين بسرقة كل شيء».

وبما أن والدي حاول دائمًا حماية الفلاحين، وطلب من والدتي أن تغفر لهم الغرامات التي فرضتها المحكمة عليهم، كان الحراس يتعالمون معه بعداء، وقالوا لأمي التي اعتبروها «سيدة» حقيقية ومحترمة:

ـ حسنًا، ما العمل، يا سعادتكم، ما هذا؟ نحن نعمل، نحاول منع الفلاحين من السرقة، والكونت يغفر لهم، ويمنحهم الضوء الأخضر للسرقة. تصرفوا كما تريدون، وهذا غير صالح...

غضبتُ بشدة من سماع مثل هذه المحادثات. وفكرت «يجب إخراجهم من هنا! وطردهم! حتى لا تكون لهم قدم في ياسنايا ـ بوليانا!»

وحاول الأب أن يتعامل بإنسانية مع الحراس، لتحريك مشاعرهم. وسأل:

ـ هل لديكم عائلة؟

رد الحارس بحيوية:

ـ ولكن كيف، هناك: زوجة، طفلان.

ـ لماذا التحقت بمثل هذا الوظيفة السيئة؟ ـ واصل الأب السؤال.

وأجاب الحارس مراوغاً.

ـ لابد من الأكل والشرب!

أتذكر في العام الأخير من إقامة الحراس معنا، وقعت لي مشكلة كبيرة معهم. كان الأب في ذلك الوقت يزور أختي تانيا.

القى الحراس القبض على الفلاح إفيم أوريخوف، الذي اصطاد السمك بشبكة في الترعة، واعتبرت الترعة الكبيرة في ضيعتنا دائما ملكية مشتركة مع الفلاحين. الجانب المجاور للقرية يعود للفلاحين، والجانب القريب من الضيعة ـ لتولستوي. ومن الصعب، بالطبع، تحديد المكان الذي كان صاد فيه يفيم. مسك به الحارس وانتزع الشبكة منه، وجاء به إلى المكتب. وجدت هذه الصورة: إفيم مبلل، وأزرق اللون من البرد، يقف مقابل الحارس ويطلب إعادة الشبكة إليه. كان الحارس يشتمه، ويهز كتفه ويتأهب لضربه. في تلك اللحظة صرختُ به:

ـ ما تفعل؟ كيف تجرؤ على الشجار!

أجاب الحارس بوقاحة:

ـ أفعل ما هو ضروري.

ارتجف كل شيء بداخلي. وغشى الضباب عيوني، وأنحبس تنفسي.

ـ ابن حرام! ـ صرخت عليه بصوت غريب. ـ اَعطِ الفلاح فوراً الشبكة واطلق سراحه.

أطاع الحارس أوامري دون أي اعتراض، وذهبتُ أنا لأوضح لأمي ما جرى.

بعد مرور عدة أيام، جاء رئيس قسم الشرطة وطالبني بالاعتذار من الحارس، لأنني أهنته أثناء تأدية واجبه. تأججت غضبا، وكتبت رسالة إلى رئيس قسم الشرطة أنني لن أعتذر لهذا الوغد بأي حال من الأحوال، وطلبت منه، إذا رأى ضرورة في ذلك، فليرفع دعوى للمحكمة ضدي.

في اليوم التالي ذهبت لمقابلة المحافظ. استقبلني نائب المحافظ لوبوخين. وكان الحديث موجعاً للغاية بالنسبة لي. عندما أخبرته بقصة الحارس، لاحظ بابتسامة ساخرة:

ـ في محافظة تولا بأكملها، يوجد حراس في ضيعة واحدة، وهذه هي ضيعة ياسنايا ـ بوليانا!

فصرخت به.

ـ فلماذا لا تسحبوهم بعيدًا؟!

ـ لماذا؟ أردنا أن نسحبهم...

ـ وما منعكم؟

نظر لوبوخين إلي، مبتسما، بوعي انه متفوق عليّ بسبب منصبه، وربما بسبب غبائي.

ـ عندما أردنا سحب حراسكم، قدمت الكونتيسة التماسا تطلب فيه إبقاءهم.

ـ ما تقولون؟

ـ نعم.

أراني الإلتماس.

ـ الكونتيسة تترك الوثائق الجيدة لدينا!

عدت إلى المنزل مهتاجةً تمامًا ولم أستطع ضبط نفسي. لقد تحدثت بحدة مع والدتي لفترة طويلة، وقمت بنقل المحادثة مع لوبوخين إليها، وتحدثت عن الوضع الفظيع وغير المقبول الذي تضع فيه والدي.

دع كل شيء يختفي، وليس فقط بعض أشجار البلوط، بل ياسنايا ـ بوليانا بأكملها، كل شيء، كل شيء! ولكن لا يجوز وضع والدي في مثل هذا الموقف!

قال لي الأخ ليوفا:

ـ عبثا تدخّلتِ، لقد وجدت نفسك في موقف لا يحسد عليه، ولا يمكن ان يكون غير ذلك. يجب عدم السماح للفلاحين إساءة التصرف في الترعة!

قالت الأم لي:

ـ لمَ أرَ منك سوى الأذى والدناءة لا غير، أعلم جيدًا لا يهمك مطلقًا حتى لو تم أخذ ياسنايا ـ بوليانا بأسرها، ولكن لا يحق لي التفكير على هذا النحو، فلدي أبناء.

مكث الحراس معنا عامين. ويبدو ان أمي قررت فقط بعد هذا الحادث استبدالهم بحراس من الشركس. لكن الوضع لم يتغير إلا قليلاً.

ومهما كان طبيعة والدي قوية، فإن القلق المستدام حطمها.

أغمي على أبي لأول مرة في مارس 1908. أصبح فجأة شاحبًا، وأراد جوسيف، الذي كان متواجداً في الغرفة أن يسنده، لكنه لم يستطع، وانزلق الأب ببطء على الأرض. أغمي عليه. جاءت الأم، ودوشان بتروفيتش، راكضين، وتمت إعادة الأب إلى رشده. لكن عندما استيقظ اتضح أنه لا يتذكر شيئًا. نسي انه كان في المنزل، وما حدث له في المنزل، وأيّ أحداث جرت، وفقد تصوره عن الزمن، وراح إغماءه يتكرر.

الاب

عندما كنت مراهقة، نادرا ما كنت أرى والدي، وأتذكر القليل من الحالات التي تحدث بها معي.

أتذكر أنني قمت بنشر خريطة للكرة الأرضية في القاعة على باركيه الأرضية، وكنت مستلقية على بطني ورجليّ للأعلى، نظرت إليها وحلمت. حاولت أن أتخيل في مكان البقع الزرقاء محيطات لا نهاية لها، وثلوجًا أبدية، وجليدًا عند القطبين، وقمت ذهنيا برحلة حول العالم...
وفجأة سألني والدي:

ـ ماذا تفعلين؟

خفضت رجلي ببطء، ونهضت على ركبتي.

ـ أنا أدرس الجغرافيا.

ـ وأين الكتاب المدرسي؟ على هذا النحو لا معنى له...

لم يعجبه عندما يتم خلط العمل بالكسل.

بطريقة ما وقعت على كتاب كوزما بروتكوف. وقبل قراءة الكتاب، قررت دراسة السيرة الذاتية للكاتب قبل مطالعة النص. لقد قرأت للتو مع أستاذي سيرة ذاتية قصيرة لألكسندر بوشكين.

ـ ماذا تدرسين؟

أجبته برصانة:

ـ سيرة كوزما بروتكوف.

ـ ماذا.....؟!

ـ سيرة كوزما...

ـ يا إلهي! من أعطاك هذا الكتاب؟ وكيف من دون أن يشرحوا لكِ؟ ألا تعلمين أن هذه مزحة؟ بادئ ذي بدء، لم يكن هناك كوزما بروتكوف. هذا أليكسي تولستوي، زيمشوجنيكوف... وقد بدأ يشرح لي أصل الكتاب.

كنت أقترب منه عام بعد عام أكثر فأكثر.

ـ اعطني يدك!

شعرت بالحرج، خاصة إذا لم تكن يدي نظيفة تمامًا. يعاينها لفترة طويلة من جانب، ثم من الجانب الآخر.

ويقول كما لو كان يتحدث لنفسه:

ـ الإصبع الأوسط اعوج.

ـ ماذا يعني ذلك؟

لقد كنت أعرف أنه يعلق أهمية كبيرة على الأيادي، أريده أن يقول شيئًا، لكنه صامت. أحاول أن ألوي إصبعي الأوسط بشكل غير محسوس.

ـ عندما تغسلين يديك، شدي الجلد حول أظافرك بالمنشفة، فلن يكبر.

أجدها مضحكة.

ـ لماذا تضحكين؟ أنا جاد. وهذا قبيح!

في الحادية عشرة، أعطوني نظارات طبية. لقد حدث على هذا النحو.

كنت أعزف في الصالة على البيانو، ودخلت الأخوات. كنت أرى النوتات الموسيقية بشكل سيء، وحامل الموسيقى ممتد بعيدا إلى أقصى حد ممكن، ويدي على المفاتيح، أما مرفقي فقد تراءى على بعد ياردة من خلف لوح الكتف.

ـ ساشا، لماذا تجلسن هكذا؟

ـ أنا لا أرى!

أخبرت الأخوات أمي، أخذتني إلى بروفيسور في أمراض العيون، والذي قام بتشخيص الاستجماتيزم وقصر النظر الكبير. أعطوني نظارات. أتذكر المرة الأولى التي لبستها وخرجت بها إلى الفناء في ليلة مليئة بالنجوم. لقد اندهشت لرؤية الكثير من النجوم. انفتحت آفاق جديدة أمامي، ولم أفترق أبدًا مع النظارات.

ـ قال الأب.

ـ انزعي النظارات! لا ينبغي تشويه نفسك هكذا!

خلعتها بخضوع، وغرقتُ في الظلام.

قال:

ـ هكذا أفضل.

حدث أن دخلت إليه. وراح ينظر إليّ باهتمام طويل، ثم قال بحزن:

ـ يا إلهي! كم أنتِ دميمة! كم أنتِ قبيحة!

شعرت بعدم الارتياح من كلماته، ورحت أضحك بتكلف. ويبدو أنه لاحظ ذلك.

ـ حسنًا، لا شيء، لا تتكدري، هذا غير مهم...

قلت له بصدق:

ـ أنا غير متكدرة، فلن يتزوجني أحد، وأنا لا انوي الزواج.

في كل عام أقوم مع شباب القرية بتنظيم حلبة تزلج. أزلنا الثلج من البركة، وأحضرت ثلاثين ـ إلى أربعين زوجًا من الزلاجات من موسكو، وبدأ اللهو والبهجة! عندما كان والدي يذهب راكبا على ظهر الحصان

بعد الإفطار، أخذت العمل منه وذهبت بنفسي إلى حلبة التزلج. قام الفتيان بربط زلاجاتهم، بعضهم بأحذية من اللباد، وبعضهم بأحذية بسيقان طويلة، وبعضهم باحذية من ألياف، وانتظروني. أركض على الجليد واطلق موفه(65) على السطح ألأملس واللامع.

(65) فروة لتدفئة اليدين (المترجم).

ـ يا فتيان، اقبضوا عليها!

وتزحلق الحشد كله ورائي. في بعض الأحيان، كان الشخص الذي أمسك موفه لا يحسن البقاء واقفا على قدميه ويتشقلب، وتزحلق الآخرون الذين خلفه بسرعة فائقة، وسقطوا عليه. وتعالى الضحك، والصراخ، والبهجة! وبالطبع صنعنا في الجدران الثلجية التي تشكلت حول حلبة التزلج الكهوفَ وأضرمنا فيها الشموع في المساء التي تدفق منها ضوء أصفر ناعم، ينعكس على الجليد، ونحن مبتهجين.

يصرخ الشباب.

ـ إيه، إشعاع ضوئي رائع!

وكان أبي بعد عودته من نزهته، ينزل إلى البركة وينظر إلينا.

أتذكر أنني أخذت يومياته ذات مرة لأعيد كتابتها وأقرأ: «ذهبت إلى حلبة التزلج، تنعمت بالنظر إلى ساشا. حينما تعيدين كتابة يومياتي تذكري أود ان أتنعم فيك بطاقة روحية مماثلة» (3 ديسمبر/ كانون الثاني 1909).

أحب الأب اللهو الأصيل والجيد. وكثيرا ما كان يردد مازحا:

ـ أخشى ثلاثة أشياء: أن يُطلّق أندريوشكا كاتيا، وأن تموت ماريا ألكساندروفا، وأن تتوقف ساشا عن الضحك!

أحيانًا كنا نغني أنا وأنوشكا بمرافقة القيثارة، وينفتح الباب. إذا أطلت أمي، أو تشيرتكوف أو أي شخص آخر من الكبار، فنكون محرجين، ونلوذ بالصمت. لكن إذا جاء والدي، نتوقف فقط لسؤاله عما إذا كان بحاجة إلى أي شيء.

ـ لا لا، هكذا جئت لرؤيتكم. حسنًا، أنوشكا، أنتَ تؤدي ذلك بصورة جيدًا!

مثل تحت شجرة التفاح، تحت تلك

تحت الأخضر المجعد

تحت الأخضر المجعد،

كان احد الفتيان!

ابتسم الأب وخبط بقدميه.

في بعض الأحيان كان يتفرس بي، وينظر لي لفترة طويلة. كنت أنكمش من هذه النظرة.

ـ ماذا يا أبي؟

ـ أنت سمينة جدا، عليك مزاولة عمل، عمل جسدي!

كنت أعرف ذلك بنفسي، وحاولت أن أتحرك قدر المستطاع ـ قطعت الخشب وجرفت الثلج، ولم يكن ذلك كافياً، لأنه تعين عليّ أن أمارس نمط حياة هادئ وملازمة البيت.

لقد أولى والدي اهتمامًا كبيرًا لما كنت أقرأه. عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري طلبت من والدتي أن تمنحني رواية أبي «الحرب والسلام».

ـ قال الأب

ـ ما بك! ما بك! لا يجوز أن تعطيها الرواية قبل ان تبلغ الثمانية عشر عاما.

كنت في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين عندما سألني ذات مرة ما كنت أقرأه.

ـ رواية «سانين»(66) آرتسيباشيف.

(66) «سانين» رواية للكاتب الروسي ميخائيل أرتسيباشيف صدرت عام (1907) وتُرجمت للعديد من اللغات بما في ذلك للعربية (ترجمة ابراهيم المازني) وكانت مثار جدل ومحاكمات بتهمة الإباحية وتمجيد اللذة، ولكنها حظيت بشهرة واسعة خاصة بين الشباب.

ـ أوه، اتركيها، من فضلك! أرجوكِ ان تتركيها! ـ قال متضرعا ـ هذا رجس!

ـ نعم! هناك، من الصفحة الأولى، الأخ غريب نوعًا ما...

وقال شاكيا، ومن الواضح أنه تذكر محتويات الكتاب:

إلهي حسنًا، لماذا أخذتِ هذا الكتاب؟ فقط تلوثين روحك!

قلت له، وأغلقت الكتاب.

ـ حسنًا، لن اقرأه، لن أفعل!

وتأوه وتألم طويلا في مكتبه.

عندما تلقينا رواية الكسندر كوبرين «الحفرة»(67) وكان قد قرأها الجميع في المنزل قال لي والدي:

(67) صدرت الرواية بالعربية بترجمة المترجم السوري الراحل يوسف الحلاق.

ـ لدي طلب لك يا ساشا. من فضلك لا تقرئي رواية «الحفرة»،إنها شيء ثقيل، غير حسن! أنا لا أفهم حتى لماذا يصف الكسندر كوبرين كل هذه الشناعة!

لقد نما حبي وتعلقي بأبي يوما بعد يوم، وفي السنوات الأخيرة تركزت حياتي بالكامل عليه. وكان من الصعب علي أن ابتعد عنه حتى لأيام قليلة. في الصباح انتظرته بفارغ الصبر حتى يستيقظ لكي اعرف كيف نام وكيف حاله، وفي المساء، أتوادع معه، آخذ يده وأقبّلها، يده كبيرة، جميلة، أظافره دائمًا نظيفة، غشتها الندوب، وجلده مشدود جيدًا، غير مترهل.

لكن، على الرغم من تعلقي به، كثيرًا ما أحزنته. كان لدي المال، وقد أهدرته عبثا، وعلى الرغم من أنه لم يتحدث معي أبدًا عن ذلك، كنت أعرف أنه غير مرتاح مني. كان يؤلمه أنني اشتريت أرضا من دون أن اعرف لماذا، وامتلكت خيلا.

كانت الخيول إحدى هواياتي الرئيسية. كنت باستمرار أشتريها وأبيعها، وأعتني بها. حملتني والقت بي من العربات، وأمضيت كل وقت فراغي على ظهور الخيل، في عربة أو في إسطبل.

قال أبي وهو يهز رأسه بعتاب ولوم:

ـ لا فائدة من ذلك! لا فائدة!

ولا بد أنني كنتُ اصغر من أن أفكر بعمق في لماذا كان هذا يعذبه كثيرًا، وتملصت من هذه الأسئلة، وفرحتُ بشكل طفولي عندما كان يمتدح خيولي.

في شتاء عام 1909، عاشت تانيا في ياسنايا بوليانا مع ابنتها تانتشكا وزوجها دوريك. تزوجت ناتاشا سوخوتينا(68) من كوليا أوبولينسكي(69).

(68) ناتاشا سوخوتينا هي ابنة زوج تانيا ابنة تولستوي الكبرى (المترجم)

(69) اوبولونسكي نيكولاي ليونيدوفيتش زوج الأخت الراحلة ماريا (التي تشير لها باسم التدليل ماشا) لفوفنا. (المترجم)

أصيب دوريك سوخوتين في الشتاء بالحصبة. كان مستلقيًا في الطابق العلوي، بجانب «ريمنجتون» (غرفة السكرتارية)، وكثيرًا ما كنت أذهب إليه. لقد تحمل المرض بسهولة وأخذ يتعافى عندما مرضتُ. كنت أعاني من صداع شديد، تألمت عيوني، وشعرت بالوجع في جسدي كله. كانت تانيا خائفة على الصغيرة تانتشكا، فقاموا بتعقيمها، ولسبب ما تركزت رائحة الفورمالين بالكامل في غرفتي. هذا ما جعل حالتي أسوأ، بدأت في الاختناق.

اتصلوا بطبيب تولا، فقد أصبت بحمى شديدة. أخذني الطبيب إلى النافذة، وقام بفحص الطفح الجلدي على جسدي بعناية. هبت ريح من النافذة، وبالكاد استطعت الوقوف على قدمي.

تعقدت الحصبة بسبب الالتهاب الرئوي، وظهر الدم في البلغم. حامت السكرتيرة فارفارا ميخائيلوفنا حولي ليل نهار.

أتذكر ذات ليلة شعرت بسوء شديد. هرعت فارفارا ميخائيلوفنا لاستدعاء الطبيب دوشان بتروفيتش(70)، وقرر وضع كمادة عليّ، وأخذ الملاءة، ورطبها بالماء البارد، وعصرها قليلاً، ورفعني مع فارفارا ميخائيلوفنا، ووضعني على الملاءة، وهرب بسرعة.

(70) دوشان بيتروفيتش (1866 ـ 1921) طبيب عائلة تولستوي والفلاحين في ياسنيا بوليانا (المترجم)

صرخت به فارفارا ميخائيلوفنا:

ـ دوشان بتروفيتش انتظروا... على مهلكم!، إلى أين أنتم ذاهبون؟ ساعدوني في ربط الضمادة!

ـ لا استطيع؟ ـ صرخ دوشان ـ أنا خجول جدا! لفّوها بأنفسكم!

كانت فارفارا ميخائيلوفنا في حالة يأس، فقد كنتُ مستلقية على ملاءة مبللة، غير قادرة على أن أنكب على وجهي، ولم تستطع هي رفعي. تعين إيقاظ أفاناسيفنا، بعد ربع ساعة، بللت الملاءة التي لم يتم عصرها جيدا، قميصي وأغطية الفراش ـ بدأت أرتجف.

البقية لا أتذكرها جيدًا. عرفت فقط إن أمي في موسكو، وأن تانيشكا، على الرغم من التعقيم، مرضت أيضًا. وأتذكر بغموض وصول الدكتور نيكيتين. ولدقائق بدا لي أنني أحتضر، فقدت الوعي. لكن لسبب ما لم ينتابني الشعور بالخوف من الموت.

فتحت عينيي. كانت الغرفة مظلمة تقريبا.

ـ اشربي الماء!

ينهض شخص ما من الأريكة ويقترب مني. غمرني فجأة الشعور بالسعادة.

ـ أبي، هل هذا أنت؟

سلمني الماء بيد مرتجفة. فاض الماء من الآنية، ولم يدخل فمي، سال أسفل ذقني. أمسكت بيده العزيزة بشفتي. ونشج هو، أخذ يدي الكبيرة الخاطئة الهزيلة. أشعر بلمسة لحيته ويدي مبللة. لم اشعر بالخجل على الإطلاق من أنه قبّل يدي، رغم أن هذا لم يحدث من قبل. لكنني لم أفهم سبب حزنه الشديد.

ـ أبي، لماذا تبكي؟ ـ أسأله ـ أشعر أنني بحالة جيدة، جيد جدًا...

اصبح صوت النشيج عاليا، ونهض وذهب خلف الحاجز.

أكرر، ولكن الوعي يختفي من الجهد الذي أبذله للفهم:

ـ لماذا تبكي؟.

في أصعب الأيام، عندما لم يعرفوا ما إذا كنت سأبقى على قيد الحياة أم لا، جلس في الغرفة، وقدم لي الشراب، وطالب الجميع بالمغادرة.

ثم بدأت الحياة تعود تدريجياً. عرفت أن فالنتين فيدوروفيتش بولجاكوف(71)، الذي أرسله تشيرتكوف أثناء مرضي، قام بعملي.

(71) فالنتين فيدوروفيتش بولجاكوف 1886ـ 1966 أحد أتباع ليو تولستوي وآخر سكرتير له (المترجم).

غالبًا ما كان والدي يأتي إلى غرفتي ويجلب معه العمل. شعرتُ بالراحة، كما لم أشعر بها من قبل في حياتي. جلس، وهو ينفخ شفتيه، ثم توقف، ثم كتب مرة أخرى، وكنت أخشى أن أتحرك، خائفًة من السعال حتى لا أخيف أفكاره.

بدأت تدريجيًا في المشي، وبدأت أعمل شيئًا فشيئًا: الكتابة، والرد على الرسائل. ساعد بولجاكوف أبي في جمع مجموعة «أفكار الحكماء لكل يوم».

أنا أكره جوسكا

أنا لا أحب بولجاشكا!

كنت أترنم، وأغلق الطرود. وسرعان ما انتقل بولجاكوف إلى قرية تيلاتينكي(72)، وتعاملنا أنا وفارفارا ميخائيلوفنا بشكل جيد مع المراسلات.

(72) تيلاتنكي قرية في إقليم تولا، حيث توجد فيها ضيعة تعود لعائلة تولستوي.(المترجم).

لقد اختفت الحصبة منذ فترة طويلة، والتهاب الرئتين أيضًا، ولكني ما زلت أشعر بالوهن، ولم يتوقف السعال. حاولت ألا أعير الإنتباه لصحتي، ولكن بحلول المساء شعرت بتعب فظيع، وبين الحين والآخر كنت أستلقي على الأريكة في القاعة. كنت أحيانا أستيقظ في الليل، وأنا غارقة في العرق. أصر دوشان بتروفيتش على أن أقيس درجة حرارتي، فكانت ثماني وثلاثين درجة، لكنني ما زلت أحاول ألا أستسلم للمرض.

أتذكر أنني بالذات كنت مستلقية في القاعة بعد الغداء. ولم يكن في الغرفة أحدا سوى فارفارا ميخائيلوفنا. شعرتُ بضعف فظيع، وكان العرق يتصبب من أدنى حركة.

وقال دوشان بتروفيتش بحزم:

ـ الكسندرا لفوفنا! لا تخافوا! لديكم تدرن!

نظرت إليه بدهشة:.

ـ ما أنتم، دوشان بتروفيتش؟

وسألته مرة أخرى على أمل أنه كان يمزح:

ـ ما تقولون؟

ـ لا شي. لا تقلقوا. أرسلنا أنا وفارفارا ميخائيلوفنا بلغمكم خفية إلى تولا للفحص، اتضح أن لديكم الكثير من عصيات التدرن.

قال دوشان بتروفيتش هذا وفجأة انفجر في ضحك لا يمكن السيطرة عليه.

وفي الوقت الذي نظرت إليه، تمكنت بصعوبة كبح جماح الضحك أو النحيب الذي صعد إلى حلقي. وأخيرًا ، وبعد أن سيطرت على نفسي، تركت دوشان الضاحك في القاعة وذهبت إلى والدي.

قال وهو يبتعد وكأنه يتجنب نظري عن عمد:

ـ أعرف، لنأمل في الرب.

لم يستطع الكلام، واستطعت بصعوبة حبس دموعي. وغادرت الغرفة على عجل.

وفي اليوم التالي اتصلوا بطبيب من تولا، ونقرَ مع دوشان بتروفيتش، واستمعا إلي، ووجدا عملية نشطة في كلتا الرئتين.

قال لي طبيب تولا:

ـ غدا تسافرون إلى شبه جزيرة القرم.

ـ لا أستطيع، لن أذهب يا دكتور، هل يمكنكم علاجي هنا؟

ـ لا يمكن. إذا بقيتم هنا، سيكون الأمر سيئًا. تحتاجون إلى الهواء والشمس. في القرم تستردون عافيتكم في غضون شهرين.

جهزت حالي على الفور. كان والدي جالسًا في المكتب عندما جئت لأودعه.

قال وطفق في البكاء:

ـ وداعا يا عزيزتي.

جلستُ على ركبتى أمامه، وأنشأت فى تقبيل يديه.

ـ حسنًا، حسبك، حسبك، عزيزتي، ـ قال. ـ ان شاء الرب سنلتقي قريبا.

ركضتُ خارج الغرفة. وانتابني الرعب: فجأة لن أراه مرة أخرى! ذهبت مرة أخرى. كان لا يزال جالسًا في نفس الوضع... مرة أخرى جلستُ على ركبتي أمامه، وأمسكت بيديه.

ـ اذهبي يا ساشا! صرخ في وجهي بقسوة تقريبا.

سأل الطبيب ألتشولر، الذي عالج والدي ذات مرة في شبه جزيرة القرم بدهشة عندما رآني بدينة، وبصحة جيدة على ما يبدو:

ـ لماذا أتيتِ إلى القرم؟

ـ افحصوني، كما يقولون، لدي مرض السل.

قال الطبيب:

غير ممكن.

لكن بعد الاستماع أخذ الأمر على محمل الجد:

ـ اتبعوا كل تعليماتي وفي غضون شهرين لن يأكلكم السل بل انتم وجسمكم ستنتصرون عليه...

ذهبت معي إلى شبه جزيرة القرم السكرتيرة فارفارا ميخائيلوفنا، التي كان تعرف علم الاختزال جيدًا، وقررتُ عدم إضاعة الوقت، وإنما تحسين طريقة الكتابة بالاختزال، وهو ما كنت أقوم به منذ فترة طويلة. قلت لنفسي «ستكون هذه مفاجأة لوالدي». ودرست عدة ساعات كل يوم، أكتب بشكل حاسم للجميع: لفارفارا ميخائيلوفنا، التي تتجاذب أطراف الحديث باستمرار، والمرضى في البنسيون، الذين تحدثوا إلى ما لا نهاية عن درجة الحرارة والوزن وزيادة التغذية.

لقد جعلتني طريقة الكتابة بالاختزال سعيدة، ومنحت معنى وهدفا لإقامتي في شبه جزيرة القرم، لكن كان هناك ظرف واحد، غير مهم دفعني إلى اليأس. فذات مرة، عندما غسلتُ رأسي، بقي شعري، القصير أصلا، في يدي. تشكلت بقعة صلعاء على رأسي، واضطررت لقص شعري. كان والدي يكره حلاقة الشعر.

فكرت:

ـ سوف يتأوه عندما يرانى، ومرة أخرى سيقول كم أنت دميمة، كم أنت دميمة!

فعلتُ كل شيء لكي أتماثل للشفاء، واتبعت جميع وصفات ألتشولر، حتى بدأت في أكل اللحوم(73)، واستعدت قوتي بسرعة.

(73) كانت الكسندرا تولستايا على غرار أبيها نباتية لا تتناول اللحوم.

تلقيت كل يوم الرسائل من أبي، وانا كتبت له كل يوم.

«أود أن أكتب لك، صديقي العزيز ساشا، ولا أعرف ماذا أكتب. أعلم انك ترغبين معرفة كل شيء عني، لكن من غير اللائق أن يكتب المرء عن نفسه. ولا ينبغي علي الكتابة الى أي حد أنت غالية، والحب الحصري الذي يشكل خطيئة. ولكن مع ذلك أكتب لأنني أفكر الآن. كانت حالتي الداخلية في الأيام الأخيرة، وخاصة في اليوم الذي غادرت فيه، صراعًا مع الحالة الجسدية الصفراوية. هذه الحالة مفيدة لأنها توفر الكثير من المواد للعمل، ولكن الشيء السيئ هو أنها تعيق التفكير بوضوح والتعبير عن أفكاري، وأنا معتاد على ذلك. اليوم هو أول يوم اشعر بتحسن حالتي، ولكني لم اكتب شيء سوى الرسائل: كتبت لبرنارد شو عن المجتمع العالمي، ولم اكتب إلى بعض الاشخاص. جي(74) مشغول بالكتب المطوية في رزم، وهذا يسعدني، وكان هنا أيضا سولوماخين(75) كذلك يسعدني بتدينه الجاد. لماذا يولدون ويموتون كأطفال، ولماذا البعض متعلمون، ويعيشون طيلة حياتهم في فقر، والبعض الآخر جاهل ومترف، ولماذا بعض الناس، مثل سولوماخين، يتحرقون أن يكرس كل حياته للدين، والآخر، والأخرى، مثل ملعقة ليس بميسورها أن تفهم مذاق الطعام الذي تستحم فيه؟

(74) نيكولاي نيكولايفيتش جي (1831 ـ 1894)، رسام ونحات روسي. في عام 1882 التقى جي في موسكو مع ليو

تولستوي وارتبط به بعلاقات صداقة وتعاون طويلة، وفي عام 1884 رسم صورته وصور افراد العائلة الآخرين.

(75) سيميون ميخائيلوفتش سولوماخين ـ فلاح، يشاطر تولستوي بوجهات نظره.

بالأمس ذهبت مع بولجاكوف واليوم مع دوشان. بلدة ديلير هادئة، والطقس رائع، وورود البنفسج من لينكا (76) تفوح عليّ بالعطر، والآن هي أمامي. كيف حالكم؟ يكتبون بان الطقس بارد هناك. اكتبي كل يوم أنت أو فرفار.ل.ت»

(76) صاحب ضيعة زارها تولستوي لينكا ـ الكسي سيدوركوف

كانت الرسالة الأخيرة من أبي، المؤرخة في 17 مايو، بشكل خاص مرحة ومبهجة. كنت أعد الأيام وانتظرت بنفاذ الصبر، بأن أكون قريبا جدا معه مرة أخرى، وسأعمل له مرة أخرى.

وكتب ابي: «...الجميع ينتظرك بفرح، ولكني سأحزن جدا لو انك عدت قبل أن تسمح صحتك بذلك.. ما مدى سعادتي اليوم من رسالتك المبهجة. سيكون من الجيد أن نكون معا مرة أخرى. والأهم من ذلك، إنه لأمر جيد ان نكون معا، على الرغم من أننا لسنا راضين تمامًا عن أنفسنا، اليوم أنا في حالة أسوءً مما كنت عليه بالأمس. حسنًا، لن أثقلَ عليك بالنقاشات...»

في 27 مايو، كنت مرة أخرى مع أبي.

مرر يده عبر شعري القصير المجعد، وقال بمرح:

ـ ظننت أنك حليقة...

عند عائلة تشيرتكوف في ميشيرسكي

بعد المرض الخطير والحالة غير العادية من الخمول الذي ألم بي، شعرت فجأة مرة أخرى بالصحة والقوة. صحيح، في بعض الأحيان مرضت وظهر السعال مرة أخرى، وارتفعت درجة حرارتي، لكن هذا كان نسبيًا من سفاسف الامور. كنت سعيدة. وكنت مرة أخرى في ياسنايا ـ بوليانا ، ومرة أخرى اقوم بمساعدة والدي. يمكنني الآن كتابة ملاحظاته باختصار، وبدأت تدريجياً اقدم خدماتي. أتذكر المرة الأولى التي أملى فيها الرسائل، كنت خائفة جدًا من أنني قد لا أفهم النص الذي كتبته بالاختزال وتضيع كلماته. كتبت ببطء، محاولةً كتابة علامات الإختزال بعناية. وفي بعض الأحيان، عندما يتوقف والدي، كنت أكتب الكلمات الصعبة بالحروف العادية. وكان والدي مندهشاً من السرعة التي اكتب بها بالاختزال، ولم يستطيع التعود على الكلام دون توقف. يقول جملة ويصمت، لكنني قد كتبت ما قاله أنتظر.

ـ إنه مدهش، ـ قال، ـ هل كتبته بالفعل؟ غير ممكن!

كانت عيناه تتألقان، وفي صدري كل شيء غنى وفرح بسعادة.

نصحتني أمي والأطباء في الخريف بالذهاب إلى القرم مرة أخرى، سخرت منهم. الآن بعد أن تمكنت من مساعدته، وعندما شعرت بأنني مفعمة بالحيوية، لا شيء يمكن أن يجعلني أتركه مرة أخرى!

أتذكر كيف شعرت بقوة في ربيع هذا العام، حتى ليس في الربيع، بل في بداية الصيف. وبعد القرم، بدت ياسنايا ـ بوليانا جميلة وعزيزة للغاية.

أخذت الحياة مجراها الطبيعي. ممارسة نفس العمل، ومجيء الزوار، والقيام بالنزهات، وتبادل الحديث، أو القراءة بصوت عالٍ في المساء. الشيء الوحيد الذي سمم الفرح هو حالة الأم المضطربة. كان هناك

شعور بأنها تفقد مرة أخرى رابطة جأشها لأدنى ذريعة، وتعذب والدي بلا انقطاع.

«عدت ووجدت الشركسي الذي جاء بالفلاح بروكوفي. غدا الأمر صعبًا للغاية. فكرت على الفور في المغادرة. والآن، في الخامس صباحا. لا أعتقد أن هذا مستحيل» (5 يونيو/حزيران 1910).

كنت في ذات الروح المعنوية العالية والسعيدة عندما أعلن والدي قراره بالسفر لزيارة عائلة تشيرتكوف فإلى محطة ستولبوفا بالقرب من موسكو، ذهب معنا دوشان بتروفيتش وفالنتين بولجاكوف وإيليا فاسيليفيتش.

استقبلنا فلاديمير جريجوريفيتش في المحطة فرِحا ومبتهجا. هنا في منطقة مشيورسكي كان الجو يتسم بالبساطة والراحة، اكثر مما في كيركشين، ربما لأن عدد الناس هنا أقل، أو ربما كنت في مزاج طيب ولاح لي كل شيء مبتهجاً. الجميع كانوا لطفاء، مزحوا، لم يكن تشيرتكوف كالعادة في مزاج ممل ومتحفظ.

بالإضافة إلى تشيرتكوف كان هناك العديد من الشباب التولستيون. وفي وقت لاحق، جاء الفنان أورلينيف، الذي اهتم فلاديمير جريجوريفيتش بمشروعه المسرحي الشعبي. يشعر المرء بخيبة امل بالفنان عندما يتعامل معه عن قرب. فاجأ والدي بمظهره، وسأل والدي فلاديمير غريجوريفيتش.

ـ كلا، أمر مدهش، حذاء بكعوب وديكولتيه، مفتوح الصدر كما لدى النساء، هل لاحظتم؟

اجتمع الجميع في المساء، في الطابق السفلي في غرفة الطعام.

قال الأب:

ـ هيا، يا فالنتين فيدوروفيتش، غنِّ لنا شيئًا ما.

كان لدى بولجاكوف صوت تينور، غير مصقول للنهاية، لكنه ممتع.

ـ حسنا، غنِّ، غنِّ احدى الأغاني الروسية.

رافقته في الغناء، وترنم الشباب الكئيب.

بدا لي دائمًا أن شيئا ما ينقص التولستويين. كما لو أن التولستوية أجبرتهم على أن يكون مظهرهم كئيبا ومملا: ارتداء بلوزة، والامتناع عن الهزل والمرح. بالضبط لم يفهموا أنه من المستحيل التخلي عن الفرح، وأن الفرح ليس خطيئة، بل إنه ضروري، إنه مثل الهواء، مثل الفكر، مثل الطعام. تدريجياً، بدأت الابتسامة تشع في الوجوه الشابة، بتأثير فرح الشيوخ ـ الأب، وتشيرتكوف. وليس لدي ما أقوله عن بولجاكوف، لقد ضحكنا لأدنى سبب.

كان تشيرتكوف يمزح أحيانًا، لكنه دائمًا يقوم بذلك بجدية شديدة، بحيث كان من الصعب فهم ما إذا كان يمزح أم لا. كان أنفه المحدب يتغضن، ويقطب حاجبيه، ويمكن ان يلتقط المرء أحيانا، فقط في عينيه، ضوءاً ماكراً.

دائما ما يقول والدي يمكن التعرف على الشخص من خلال الضحك. الضحك يرسم الشخص الطيب ويشوه الشخص السيئ. ضحك تشيرتكوف ـ ما أضفى الجمال على وجهه القاسي والمتسلط، واتخذ تعبيرًا طفوليًا وديعا، ساذجًا تقريبًا، وضحك بصوت عالٍ، من صميم القلب.

الشيء الوحيد الذي لم يعجبني في بلدة ميشورسك هم المجانين. ليس بعيدًا عن الضيعة كانت هناك عدة مستشفيات للمرضى المختلين عقليا. كان الأب دائمًا يولي الإهتمام بهم، والآن يريد أن ينتهز الفرصة لمراقبة المرضى والتحدث معهم. ذهب إلى المستشفيات عدة مرات، وفي كل مرة شعرت بالرعب عندما كان والدي يتجول وهو محاطاً بأناس مجانين.

لقد تهيج بعض المرضى بشدة من المحادثات، واشتكوا من الأطباء، وقالوا إنهم يعالجوهم بشكل غير صحيح، ويعذبوهم، ويسببون الألم لهم. لقد تركت مدرّسة مريضة بشكل خاص انطباعًا صعبًا على والدي. حذرنا الأطباء من عدم معارضتها في أي شيء. لكن والدي، نسي، فاعترض عليها. وبدأت تتحدث بهياج وعصبية شديدة، لقد شعرت بالإهانة من والدي، لدرجة أنه لم يعرف كيف يتخلص منها.

مرة أو مرتين ذهب والدي إلى السينما الخاصة بالمرضى. غرفة مظلمة، عُرضت بعض افلام الميلودراما السخيفة على الشاشة، وبرزت في الظلام بلوزته ولحيته البيضاء، وشعرت أن القاعة بأكملها مصابة بلوثة عقلية، وأردت أن أهرب من هنا في أسرع وقت ممكن، والأب يتبادل الملاحظات مع تشيرتكوف، ومن الواضح أنه لم يخطر بباله الخوف من أي شيء.

أتذكر أن والدي عبّر أكثر من مرة عن فكرة مفادها أن الجنون ليس أكثر من أنانية مفرطة ـ عندما يركز الشخص كل أفكاره، كل اهتماماته على نفسه.

ـ كلما نظرت إليهم أكثر، كلما اقتنعت أن الناس باسرهم غير طبيعيين في الجوهر ـ والمسألة كلها تنحصر فقط في درجة الجنون.

وقال إن الشخص المؤمن حقًا، الذي ثمة أساس لحياته تستند عليه، لن يصاب بالجنون أبدًا، وكان أحد الأسئلة المستمرة التي طرحها على المريض:

ـ هل تؤمن بالله؟

أجاب البعض:

ـ اللهّ شرير، لو كان طيباً لما سمح لهم بتعذيبي هكذا.

أجاب أحد المرضى بشكل مهم:

ـ إلهي ـ العلم.

وكان الجانب غير المريح في هذه الزيارات هو الاستقبالات الحافلة التي نظمتها إدارة المستشفى: حفاوة الاستقبال والتوديع مع باقات، والمصورون.

في الواقع، أن الإقامة في ميشيرسكي كانت آخر فترة بهيجة لوالدي. ارتاح، ولم يعذبه شيء سوى فكرة العودة إلى ياسنايا ـ بوليانا. حتى أنه كتب قصتين هنا: «بالصدفة» و«حديث مع فلاح». لم يعمل منذ وقت طويل بمثل هذا الحماس، ولم يكن سعيدًا على هذا النحو بما كتبه. صرخ، ملوحًا بالمخطوطة بمرح:

ـ ساشا، مُؤَلَّف، مُؤَلَّف

وكان هناك صندوق في الزاوية.

الكاتب لا يرى

تعثر وسقط!

خذي، واستنسخي النص!

صرخت في مساعد ابي بولجاكوف،

ـ أورا أبي؟! لن أسمح لكم بإستنساخ هذا النص.

نزلت بالسلم النقال إلى النافذة وبيدي المخطوطة.

ـ حسنًا، وأنا سوف أنزل أيضا ـ قال الأب ـ بماذا أنا أسوأ منك؟

ـ لا يمكنك النزول ـ أجبت ـ بسبب العمر...

ـ ومع ذلك سأتسلق.

صرخ خلفي بتحد، ولكن لا بد أنه خجل من إيليا فاسيليفيتش، الذي كان هناك، ونزل بالطريقة المعتادة.

عادة ما كنا نصعد بالسلم النقال عندما كانت آنا كستنتينوفنا تأخذ قيلولة، حتى لا نزعجها بخبط أقدامنا في المنزل.

وعندما ورد خبر السماح لتشيرتكوف بالعودة إلى مقاطعة تولا، زاد شعورنا بالبهجة.

ولكن... ليس من قبيل الصدف ان الكثير من الفرح يسبق الترح الكبير.

تلقيت في 22 يونيو/حزيران(77) الساعة الخامسة بعد الظهر، عندما كان والدي في طريقه للقيلولة، برقية مفادها: «انهيار عصبي شديد لدى الوالدة، أرق، وبكاء، مائة نبضة، اكتبوا برقية. فاريا».

(77) اعتبارا من 17 يونيو/ حزيران حتى نهاية حياة والدي، بدأت أدون يوميات دقيقة، في بعض الأحيان اكتب الكلمات والعبارات بالاختزال. أنا أستخدم هذه اليوميات كمادة وثائقية لكتابة الأحداث اللاحقة.

عندما استيقظ والدي، سلمته البرقية، اضطرب جدًا، لكنني لفتت انتباهه إلى الكلمات: «يطلب الرد». من الواضح أن فارفارا ميخائيلوفنا كتبت هذه الكلمات لإظهار أن الوضع ليس خطيرًا للغاية. كما اتضح في الواقع. كتبت والدتي البرقية، التي طلبت من فارفارا ميخائيلوفنا التوقيع عليها نيابة عنها. لقد تشاورنا لفترة طويلة وقررنا إرسال برقية تتضمن السؤال عن الصحة، وتلقينا الرد من أمي. «أتوسل بالعودة على جناح السرعة. تولستايا».

لكن لم يستطع والدي المغادرة في ذلك اليوم. كان ينتظر وصول مولوتشنيكوف، الذي سُجن مؤخرًا بسبب مؤلفات والدي. بالإضافة إلى ذلك، انتظرنا اردينكو. وإذ كنا على قناعة تامة بأن الأم لم تكن تعاني من مرض خطير، وأنها كانت تعاني مرة أخرى من نوبة هستيريا،

أرسل والدي برقية أخرى يسأل عن إن كانت عودته ضرورية أم لا. وتلقى ردا على ذلك السؤال ببرقية عاجلة بتوقيع فارفارا ميخائيلوفنا: «أعتقد أنه ضروري». (هذه البرقية، مثل السابقة، أرسلتها الأم).

بعد ذلك قرر الأب عدم التأجيل. وفي الساعة السادسة مساءً في نفس اليوم غادرنا عائدين إلى المنزل.

لم يبقَ أثر لمزاجنا البهيج. كنا طيلة الوقت صامتين في العربة، وكل منا يفكر في ذاته بما سيأتي. كان بولجاكوف فقط، كما هو الحال دائمًا، غير مبالٍ.

حينما وصلنا مدينة تولا، ذهب والدي إلى المحطة لكتابة رسالة إلى تانيا، لكن لم يُتمكن القيام بذلك، حيث احتشد طلاب وتلميذات المدارس، والسيدات، والشابات حوله وطلبوا منه التوقيع لهم على صورته التي اشتروها من كشك المحطة. في البداية اقترب أحدهم بخجل، وعندما وافق والدي على التوقيع له، اقترب الثاني، والثالث ـ واصبح محاطًا بحلقة ضيقة. لم تعد هناك صور لوالدي في كشك المحطة، فقدموا له صور المناظر الطبيعة، وصور رؤوس سيدات عاريات الصدور. رفض الأب التوقيع على هذه الصور، فقام وذهب إلى العربة. وجرت إحاطته مرة أخرى، وبالكاد شق طريقه إلى القطار. وعندما دخل العربة، اندفعت خلفه بعض الفتيات الأكثر لجاجة على وجه الخصوص.

وصلنا إلى المنزل الساعة الحادية عشر ليلا.

كانت أمي راقدة في السرير وتئنّ بصوت عالٍ. في هذه التأوهات ما يشي بانها تأوهات مبالغ فيها، ومصطنعة، لدرجة أنني بالكاد أجبرت نفسي على السلام عليها بلطف، والاستفسار عن صحتها. لكن ما أن دخل والدي الغرفة، حتى تحول الأنين إلى صراخ.

ـ انكَ عديم الشفقة ـ صرخت والدتي به ـ لديك قلب من حجر، لا تحب أحدا غير تشيرتكوف. سوف انتحر، سترى، سأتناول السم!

وبّخت والدي لأنه مكث طويلا عند تشيرتكوف.

طلب والدي منها بهدوء وبصوت رقيق مرتجف أن تهدأ. لكن كلما توسل إليها، كلما زادت أنينها ونوحها.

تذكرتُ بشكل غير إرادي المعلمة مختلة العقل في ميشورسكي، التي اشتكت لوالدي من قسوة الأطباء.

حاولت أيضًا تهدئة والدتي. ذكّرتها بحالة والدي الصحية، وتحدثت عن تعبه على الطريق، وكيف عذبه الفضوليون!

صرخت بهستيريا «نعم، إنه فوق كل شيء، فوق الجميع، ولا أحد يحتاجني! كل شيء أهم مني!»

ـ اذهبي، ـ قال لي والدي بهدوء ـ اذهبي!

بارحت غرفة أمي. وترددت بارسكوفيا افاناسيفنا على غرفتي عدة مرات. وقالت لي:

ـ تعالي، الكسندرا لفوفنا، لقد عذبت الكونتيسة الكونت!

وهكذا استمر الحال حتى الرابعة صباحًا! لكنني لم أجرؤ على الذهاب إلى والدي.

مرت أيام صعبة، لم ير الأب الراحة فيها لا ليلا ولا نهارا. وإذا ما هدأت الأم، فنعرف جميعًا أن هذا كان مجرد هدوء يسبق العاصفة. كانت أدنى ذريعة كافية لاستفزاز الدموع والشكاوى والملامة، مرة أخرى، كنا خائفين من تبادل الحديث، وخائفين من المزاح والضحك، وكنت خائفةً من الدخول إلى غرفة والدي.

مهما تحلى والدي بضبط النفس، كان يفقد صبره أحيانًا، ويبحث عن الدعم مني.

ذات صباح كنت أكتب في غرفة العمل. خرج الأب في الساعة الثانية عشرة من مكتبه شاحبًا مثل ورقة.

ـ مرة أخرى، الرب يعرف ما تتحدث عنه ـ قال وقد تغضنت ملامح وجهه كما لو من ألم لا يطاق ـ فظيع، فظيع!

ولوح بيده، واستدار فجأة وغادر الغرفة.

واصلتُ الكتابة. وفجأة ترامى من القاعة صوت فظيع:

ـ من هناك؟ من هناك؟

اندفعت أمي، وهي تمشي بطريقة غير طبيعية، تتحكم بخطواتها، وتتنفس بصعوبة، وذهبت الى القاعة.

ـ لا أحد ـ قلت بهدوء ـ لا أحد، خُيّل لك بذلك.

دخل الأب، وتهاوت الأم على الأرض، وقال لها شيئا، وراحت تركض في جميع أرجاء الغرف وتصرخ وتئن. وصرخ والدي في رعب:

ـ أين هي، أين؟.

واندفعنا جميعًا، الأب، ودوشان بتروفيتش وأنا، وراءها، ولم نعثر عليها في أي مكان. وأخيرًا لمحها الأب. استلقت على الأرض خلف خزانات

المكتبة، وهي تزحف، وفي يدها زجاجة أفيون وتصرخ:

ـ رشفة واحدة فقط.

رفعت زجاجة الأفيون حول فمها لكنها لم تشرب. في البداية أردت انتزاع الزجاجة من يديها لكنني فجأة شعرت بالاشمئزاز والتقزز.

قلت لها:

ـ هل تعرفين يا أمي، بات من الصعب علينا، أنا ووالدي التعامل معك. سأرسل على الفور برقية إلى سيريوجا وتانيا حتى يأتوا. دعهم، كأكبر الأبناء سنا، يعملون شيئًا لإنقاذ والدهم.

تركت كلماتي انطباعا قويا عليها. نهضت أمي، وسرعان ما استكانت، وحتى أنها طلبت القهوة.

بعد مرور خمس دقائق، عندما كنت جالسة ازاء الآلة الكاتبة مرة أخرى، جاءت أمي إليّ وقالت:

ـ بحق الرب، لا ترسلوا برقيات إلى سيريوجا وتانيا. أنا بصحة جيدة، ولن افعل شيئا... وإذا جاء سيريوجا وتانيا، فسوف ينظران لي بعيون غاضبة مثلك، لأنني أعذب الوالد.

قالت هذا بطريقة طفولية رقيقة. شعرت بالشفقة الشديدة عليها، وكنت على ثقة بانها ستتحلى بضبط النفس، وتتوقف عن تعذيب نفسها، وأبي، وكل واحد منا...

بعد أيام قليلة، تجدد نفس الشيء مرة أخرى. كانت الساعة السادسة، ساعة قيلولة والدي. دعاني وذهبت إليه. لم يستطع النوم، كان مستاءً جدا، وكانت أمي مرة أخرى في نفس حالة الهياج. سألته هذه المرة عن مكان دفاتر يومياته وطالبته بإعطائها لها. أجاب الأب أنها في منزل تشيرتكوف. ثم أرادت التوصل الى أين احتفظ تشيرتكوف بها. أجاب

الأب أنه لا يعرف. بدأت أمي بتوبيخه على الكذب، وطالبته بآخر اليوميات.

ـ دعني أقرأ ما كتبته عني هناك!

وعندما سمح لها والدي بقراءتها ورأت العبارة: «سونيا مرة أخرى مهتاجة للغاية وهستيرية، وقررت كفاحها بالحب» لسبب ما غضبت بشدة، وهربت من المنزل، وتجولت على مدى ساعة في الحديقة تحت المطر الغزير، وتبللت دون أن تغيير ملابسها، وجلست لكتابة يومياتها.

شعرت بالعجز التام. كان من الضروري القيام بشيء ما. فقَدَ والدي أمام عيني آخر قواه، ولم أكن أعرف ما العمل. فكرت: «قرر الأب أن يحاربها بالحب، يجب أن نأخذ منه مثالاً، يجب أن نتحلى بالصبر، ونعاملها بلطف كمريض». لم تتركني أمي وشأني. عندما لم تستطع التحدث مع الأب، جاءت إليّ. ارتجف كل شيء بداخلي، بينما كانت والدتي تنقر بعصبية على كعبها، وتتحدث.

ـ ليس لدى ليف نيكولايفيتش قلب، فهو لا يحب أي شخص، إنه بارد كالصقيع... عندما غادرتِ للعلاج إلى القرم، لم يفتقدك أيضًا، كان مبتهجًا للغاية...

توسلتُ إليها أن تصمت. بيد أنها واصلت، من دون أن تستمع لي:

ـ ماذا يعني كفاحي بالحب؟. الكفاح مع ماذا؟ سيقرؤون يومياته ويقولون عني إنني شريرة! ماذا فعلتْ به؟»

حاولت بكل جهدي تهدئتها، وحاولت أن أثبت لها أنها كانت تعذب والدي. وانها استاءت منه بغير حق. أخبرتها كيف كان الوالد يتذكرها في ميشورسكي، وكيف كان سعيدًا للقاء بها، وكيف إنه تألم بشدة عندما تلقى برقيات تطالبه بإلحاح بالعودة، واكثر عسراً عليه كان اللوم الذي لا يستحقه. لم تؤثر عليها براهيني، ورأيت برعب أنها توجهت مرة أخرى إلى الوالد. وبعد بضع دقائق، جاءني الأب والأم في غرفة العمل.

ـ ساشا، ـ قال الأب ـ هل تعرفين أين توجد اليوميات ـ أخبري أمك!

ـ كلا! لا أعرف.

ـ آ! ـ صرخت الأم. ـ أسرقهم تشيرتكوف وأخذهم بمكر! أين هي الآن؟

ـ لا أعرف، سونيا، هذا غير مهم على الإطلاق.

ـ غير مهم بالنسبة لك على الإطلاق، لكنه مهم بالنسبة لشيرتكوف! ـ بكت الأم ـ لماذا هي غير مهمة لي أنا الزوجة، ومهمة بالنسبة لهذا الشيطان تشيرتكوف؟

ـ لأنه كرّس حياته كلها لي، ويشتغل على كتاباتي، وليس هناك شخص أقرب منه إلي!. وغادر الأب الغرفة.

صرخت خلفه:

ـ اقتلوني، أعطني الأفيون.

توقف الأب.

ـ سونيا ـ قال بصوت باكٍ ـ أحاول بكل طريقة ممكنة أن أكون طيبا معك، كتبت في مذكراتي أنني أريد أن أكافحك بالحب، وأنت ترين شيئًا آخر في هذه الكلمات، أنت تدينين الجميع، الجميع، ونحن نعيش تمامًا...

ـ ولكني أعاني، وأتألم.

ـ أنا مستعد للركوع أمامك والدموع في مقلتي، لأطلب منك أن تهدئي.
ـ صعدت العبرات إلى حلقه، وأضاف ـ لن أقول لكِ اكثر من هذا، ولن أوجه أي لوم.

وتوجه إلى غرفته.

عندما آويت إلى غرفتي في المساء فكرتُ في ذاتي «لابد أنها مريضة»، وتأملت في الوضع القائم مرارًا وتكرارًا.

سارت أمي على دروب الحديقة لفترة طويلة وتوصلت إلى قرار جديد. إذا لامها والدي على أنها تعيش في رفاهية، فإنها ستوافق على الذهاب معه للعيش في عِزبة بسيطة. ولن تسمح لشيرتكوف بالدخول لها. تشيرتكوف هو الشيطان، على حد قولها، الذي فصلها عن الوالد. من الضروري استدعاء كاهن، وأداء الصلاة، ورش الماء المقدس لطرد الروح الشيطانية التي غرسها تشيرتكوف في ليف نيكولايفيتش.

«ما مدى صعوبة ذلك! ولكن ما هذا؟ ماذا؟» ـ طرحتُ على نفسي سؤالاً ـ من ناحية، كأنها غيرة مؤلمة من تشيرتكوف، ومن ناحية أخرى، رغبة في تبرئة نفسها أمام جيل المستقبل، وحديث مستدام بصدد أي ضوء رهيب ستسلطه على الوالد وتشيرتكوف لفضحهما، وأخيراً الاهتمام المادي: بصدد المخطوطات، وحقوق النشر.... كان رأسي يدور، ولم أستطع التعامل مع الموقف بمفردي، وتوسلت لوالدي أن يدعو أختي تانيا. أرسلنا لها برقية عاجلة.

كانوا ينتظرون وصول تشيرتكوف بين دقيقة وأخرى. وكانت أمي قلقة، ولا تزال تريد الذهاب مع والدي إلى مكان ما، حتى لا يجده تشيرتكوف في ياسنايا ـ بوليانا. وتوسلت إلى والدي لفترة طويلة للذهاب معها إلى الأخ سيرجي في منطقة نيكولسكوي ـ فيازيمسكوي، وبالتالي وافق الوالد. ولسبب ما، لم تأت تانيا لنا، تأخرت. وفي مساء يوم 27، جاء فالنتين بولجاكوف من قرية تيلاتينكي، وبسذاجة، ومن دون أن يعرف مدى تأثير كلماته، قال إن تشيرتكوف قد وصل. وطفقت أمي حالا بشكل محموم بالاستعداد للسفر إلى أخي سيريوجا، وحزمت أمتعتها، وأعطت الأوامر. أمرت البستاني بإحضار البطيخ من الدفيئة. وقالت سيعد سيميون نيكولايفيتش الفطائر في الطريق. كما أنني قررت الذهاب مع والديّ.

فاعترضت أمي:

ـ لا داعي لسفرك معنا إلى هناك، ولن يكون سيريوجا فرحا بك، ولن يرسل لك زلاجات.

لكني أصررت. ذهب معي نيكولاي نيكولايفيتش جي، الذي كان يزور ياسنايا ـ بوليانا في ذلك الوقت.

كانت رحلة صعبة. بدا أنه لم يكن مكان لي في العربة، وفي القطار، ولم تكن الأم راضية عن أي شيء، وقالت إنها لم تحظَ باهتمام كبير. وإذا غادر أحد المقصورة، فإنها تشكو من أنهم تركوها مثل الكلب.

دعاني والدي في العربة، وأملى عليّ الفكرة التالية:

«يا للعجب إن الناس يخجلون من نجاساتهم، ومن جبنهم، ورتبهم المتدنية، ولكنهم لا يخجلون من الغضب وحسب، بل يفرحون لانهم غضبوا، ويطرون أنفسهم عليه، ويشددونه، معتبرين أنه أمر حسن».

في الوقت الذي لم نعقد الأمل على أنهم سيرسلون زلاجة لنا لتوصلنا من المحطة إلى منزل سيريوجا، نزلنا أنا ونيكولاي نيكولايفيتش في المحطة السابقة، حيث كان من الممكن استئجار عربة، وانطلقنا إلى منزل سيريوجا. وواصل الولدان السفر إلى المحطة التالية. وعندما وصلنا إلى نيكولسكوي، اتضح أن أخي لم يتلق برقية العائلة، وأن الوالدين جالسان في محطة باستييفو وينتظران عربة منه. تم إرسال الخيول على الفور لهما، لكن تعين عليهما الانتظار حوالي خمس ساعات. لم يشعر الأب بالملل. أكل العصيدة التي قامت الوالدة بتسخينها، وذهب في نزهة على الأقدام. في الطريق، التقى بمجموعة من عمال السكك الحديدية وتحدث معهم من الثانية عشرة إلى الثالثة والنصف. وفي الساعة الثانية، كان على العمال استئناف عملهم، لكنهم لم يتمكنوا من انتزاع أنفسهم منه، وتحدث الجميع إلى الوالد، متناسين فترة الإستراحة بعد الظهر.

وبينما كنا ننتظر الوالدين في نيكولسكوي، رويت لتانيا، ولزوجة أخي، بما كان يحدث في المنزل. طلبت مساعدتهما، وقلت إن أبي وأنا نحمل

صليبًا لا يطاق، وإن على الأخ الأكبر والأخت مساعدتنا.

نصحتني تانيا أن أحب أمي وأسامحها. ولأول مرة في حياتي أخبرتها عن طفولتي الصعبة، وكيف كانت طفولة صعبة مع والدتي. كانت تانيا أكبر مني بعشرين عامًا، وتذكرت أمًا أخرى ـ شابة وهادئة.

وعندما وصل الوالدان، تحدثت تانيا إلى والدتها لفترة طويلة، لكن جهدها بالإقناع ذهب أدراج الرياح، وبررت أمي تصرفها، واتهمت الوالد وكل من حولها. كان والدي مرهقًا من هذه الرحلة، والحق يُقال، شعرت أنا أيضًا بأنني محطمة تماما. ولكن الأب وكالسابق كان وديعًا وصبورًا مع الوالدة.

في اليوم السابق لرحلتنا، طلب مني أن أحضر له قصته الأخيرة «بالصدفة» التي كتبها في منزل عائلة تشيرتكوف في ميشورسكي، حيث صور البطلة في مظهر سيء، ووصفها بأنها امرأة سمراء نشطة ذات عيون سوداء. وعندما أعاد القصة إليّ، لاحظت أنه حذف كلمة «امرأة سمراء»، وبدلاً من ذلك تمت كتابتها: «شقراء ذات عيون زرقاء». وقال:

ـ ربما الأم سوف تعتقد إنها المقصودة.

في 27 يوليو، كتب والدي في مذكراته: «المجانين دائمًا يحققون أهدافهم أفضل من الأشخاص الأصحاء. يحدث هذا لأنه لا تواجه المجانين حواجز أخلاقية: لا خجل، ولا صدق، ولا ضمير، ولا حتى خوف».

عقدت الأمل الكبير على زيارتنا للأخ سيريوجا، واعتقدت أنه وأختي سيساعداننا. ولكننا أبي وأنا عدنا إلى ياسنايا ـ بوليانا مرة أخرى بلا حول له ولا قوة، ووحيدَين.

في الطريق، ذهب والدي في نزهة على الأقدام في المحطات، وتبعته والدتي.

قالت:

ـ كلا، سأخرج معك في كل مرة، وإلا ستبقى في المحطة عن قصد.

قال والدي بمرارة:

ـ أوه، سونيا، إنه أمر مخجل.

ـ لا، لا، سأراقبك فقط، أينما تذهب، سأذهب أنا.

في سكوراتوفو، حيث توقف القطار لمدة عشر دقائق، نزل الأب وتبعته الأم. وفجأة تنبهت إلى أنه لم تكن الحقيبة معها.

صرخت بعصبية:

ـ لقد سرقوا، سرقوا الحقيبة. لقد ضغطوا علينا عمدا وسرقونا.

كان هناك الكثير من الناس على رصيف المحطة يتزاحمون لمشاهدة تولستوي. نظر الجميع إلى والدتي باستغراب. كانت الحقيبة في القطار، في المقصورة.

وصلنا إلى ياسنايا ـ بوليانا في الساعة الواحدة صباحا، ونام والدي في الساعة الثانية. ذهبت والدتي إلى غرفة نومه وأيقظته. وفي حوالي الساعة الخامسة صباحًا، نام مرة أخرى. وفي الصباح أيقظته من جديد.

سألتها بعد أن علمت من والدي أنها لم تدعه ينام:

ـ يا أمي ما تفعلين، سوف تهلكيه!

كانت محرجة.

قالت:

ـ نعم، أنا بنفسي مكروبة، لم أعتقد أنه كان نائمًا.

ترك اللقاء مع تانيا انطباعات مريرة على الأم، كانت تخشى من مجيئها، وقالت لها إن هناك أمراضًا معوية خطيرة في ياسنايا ـ بوليانا، ولا يجوز المجيء بتانيا الصغيرة إلى هنا.

ـ وكيف أصبحت تانيشكا المسكينة غبية ـ قالت أمي لفارفارا ميخائيلوفنا. ـ تركت احاديثها لدي انطباعا مروعا.

وعلى هذا النحو تعاقبت الأيام. في بداية الأمر كانت مطالب الأم وتوبيخها غير واضحة، إلى حد ما، ثم أصبحت أكثر تحديدًا. كان مطلبها الأول أن يعطيها الوالد اليوميات، وثانيا، أن يتوقف عن الالتقاء بتشيرتكوف.

كان الوضع مع اليوميات صعبًا. فبعد أن وقّع الوالد وصية في كريكشين، قدم بموجبها جميع أعماله للاستخدام العام، سجل هذا الحدث في يومياته، متناسيًا تمامًا أن والدتي قد تقرأ ما كتبه. والآن، لو استلمت اليوميات، لن تهدأ، وستشرع مرة أخرى في تعذيب والدي بطلب تصفية الوصية. كنت أنا وتشيرتكوف خائفين للغاية من أن يوافق والدي إعطاء اليوميات لأمي.

في الثاني من يوليو/ تموز، وما أن جاء والدي لتناول الإفطار، جاءت له والدتي بخطاب كتبته إلى تشيرتكوف، تطلب منه إعطاءها اليوميات. وكتبت «افعلوا هذا حتى يعيش ليف نيكولايفيتش بسلام».

ـ هل من الحسن اني كتبت لوفيتشكا؟

ـ لا، هذا سيء جدا.

ـ لماذا هو سيء؟

ـ لأنك تطلبين من تشيرتكوف اليوميات التي أعطيته إياها بمحض إرادتي.

ـ آه، ساشا ـ استدارت أمي إليَّ فجأة بحدة ـ اذهبي من هنا، عندما نتحدث أنا والأب بجدّ

غادرتُ. وفي الساعة السادسة، دعاني والدي. فذهبت إليه.

ـ كيف تشعر؟

ـ ضعف، وضيق في الصدر، لم أنم. سوف تقضي عليّ! علاوة على ذلك، يؤلمني أنني وعدت أن أريها اليوميات.

تأوه وتحسر.

ـ نعم، نعم، والآن لا أعرف ما الحل، سأخبرها على الأرجح أنني كنت مخطئًا، وأنني لا أستطيع القيام بذلك، وأن هناك أشياء لا أريد أن تعرفها. لكن فقط تخيلي ما سيسفر عن ذلك!

تصورت هذا بوضوح. إذا أخبرها الأب الوالدة بأنه وعدها بالخطأ بتسليم اليوميات، فستحدث عاصفة لن يتحملها الأب. وإذا عرض عليها اليوميات وقرأت عن الوصية، فسيكون الأمر أسوأ!

عندما وصل تشيرتكوف، في المساء، ذهبت إلى مكتب والدي، وتناقشنا بشأن ما يجب فعله في اليوميات. بدا لي خلال المحادثة، أنني سمعت خطى في غرفة الضيوف. ذهبت وأغلقت الباب بإحكام. بعد دقائق قليلة سمعت حفيفًا خلف باب الشرفة. قفزت، فرأيت ان أمي تقف في الجوارب فقط، وهي تمد رقبتها، متكئة على دعامة الشرفة.

خفق قلبي، وانحبس تنفسي. لم اردّ فورًا على سؤال والدي:

ـ من هناك؟

وأبلغته أخيرا:

ـ أمي!

صرخت وهي تهرب.

ـ لقد سمعتُ كل شيء!

بعد دقيقة دخلت الغرفة مندفعة بعيون متوهجة وبقع حمراء على وجهها. وصرخت:

ـ فلاديمير جريجوريفيتش! لقد سمعت كل شيء، أنا قلقة جدًا، لديكم مرة أخرى مؤامرات ضدي، علينا الحديث بصراحة!

قال فلاديمير جريجوريفيتش بهدوء:

ـ كلا، صوفيا أندريفنا، سأعيد لكم كل ما تحدثنا به.

خرجت أنا وأبي إلى القاعة لرؤية الأخ ميشا، الذي عاد لتوه من سهول أستراخان، حيث ذهب لشراء الخيول. تحدث ميشا للوالد عن إيمان ابناء قومية الكالميك، وكيف يصلون لآلهتهم.

ـ كم هو غريب، ـ قال الأب، ـ لقد حولوا واحدة من أعظم الديانات وأعمقها (الإسلام) إلى مثل هذه الوثنية الفجة.

لكن الحديث لم يجد موضوعا مشتركا، وجرى الانتقال من موضوع إلى آخر. وتحدث الجميع فيما تركزت مشاعر والدي على المحادثة في المكتب.

بدأنا نتحدث عن قانون الإصلاح الزراعي:

وسأل الوالد ميشا:

ـ حسنًا، هل تم عندكم تطبيق هذا القانون الرهيب والمثير للاشمئزاز الصادر في 9 نوفمبر؟(78).

(78) الحديث يدور عن مرسوم وزير الداخلية ستوليبين. بتاريخ 8 نوفمبر 1906.. الذي سمح للفلاحين بمغادرة

المُشاعية الفلاحية، وشراء وبيع المخصصات، وزرع الأراضي الخاصة. وعارض تولستوي هذا المرسوم الذي برايه يتسبب في إفقار الفلاحين وخرابهم، وزاد من محنتهم وأدانها ووجد عواقبها كارثية وخطيرة.

ـ نعم، الآن أشعر بخيبة أمل فيه أيضًا أجاب ميشا ـ أجّج الخلافات والنزاعات بين الفلاحين.

أردف الأب، وشرع كالعادة في التعبير عن موقفه السلبي من قانون ستوليبين.

ـ نعم، هذا ما تحتاجه الحكومة.

ترامت من المكتب أصوات تشيرتكوف ووالدتي صعودا وهبوطا، وكان والدي قلقًا، ينصتُ إليهما، ونهض في منتصف المحادثة، وذهب إلى المكتب، وعاد مرة أخرى.

وأخيرًا خرجت أمي وفلاديمير جريجوريفيتش إلى القاعة، واستعد تشيرتكوف بعد أن توادع مع والدي، حالا إلى المغادرة. رافقته لتوديعه لمعرفة كيف انتهت المحادثة. اتضح أن فلاديمير جريجوريفيتش أبلغ والدتي بصراحة أن اليوميات لديه، لأن الوالد عهد إليه بالعمل عليها. وأكد الأب هذا. ثم طلبت الأم من تشيرتكوف أن يعطيها إيصالًا يتعهد فيه بأنه سيعيد اليوميات عند الطلب.

وقال تشيرتكوف:

ـ لكن لن اسلمها لكم يا صوفيا أندريفنا، بل لليف نيكولايفيتش.

قالت الأم.

ـ والآن دع ليف نيكولايفيتش يعطيني إيصالًا يتعهد به بأنه سيسلمها لي.

لكن والدي رفض بحزم.

وقال:

ـ لا يعوزنا إلاً أن يعطي الزوج إيصالاً لزوجته.

حاول تشيرتكوف إقناع والدتي بعدم تعذيب الأب، وقال لها ستشعر بالندم والذنب إذا مات والدي وأدركت أنها سبب وفاته. لثم تشيرتكوف عدة مرات يد الوالدة، طالبًا منها أن تهدأ، شفقة على الوالد.

في مثل هذا اليوم وصلت العزيزة «السيدة شميت». كانت يائسة مما كان يحدث، واستجوبتني لفترة طويلة. وفي الوقت الذي رويت لها كل شيء، انزعجتُ تمامًا وركضتُ إلى الحديقة. لقد استحوذ عليّ اليأس الكامل، وبدا لي إن الوضع ميؤوس منه، ولم أستطع النظر إلى معاناة والدي...

جلست على مقعد في الحديقة تحت ثلاث أشجار زيزفون. كان كلبي الأسود ماركيز معي. كان دائمًا يشعر عندما أكون مستاءة. في البداية، فكر في أن يسليني، فأمسك بعصا في أسنانه، وألقى بها في الهواء وأمسك بها ببراعة، لكن بما أنه لم يكن لدي وقت للعب معه، قفز بجواري على المقعد، وبدأ في فرك خطمه بي، ويلعق يدي.

وعند وصولي إلى المنزل، شعرتُ فجأة بضعف شديد لدرجة أنني استلقيت، لكن لم تكن هناك سكينة. جاءت والدتي وتحدثت معي لوقت طويل، ووبّختني لأني أحاول فصلها عن أبي، وأنني وشيت بها عندما كانت تسترق السمع عند الباب. كان الأمر صعبًا بالنسبة لي، لكن بالتفكير في والدي، حاولت بكل ما في وسعي ألا أهتاج، وأجيب عليها بهدوء.

وأنهت كلامها:

ـ نعم، أنت صليبي، لقد مات فانيشكا، وبقيتِ على ويلتي...

كان رأيي في حالة والدتي يتغير باستمرار. كانت هناك لحظات لم يكن لدي فيها شك في أنها طبيعية.

أصبتُ بنزلة برد واستلقيت على السرير حتى الساعة الثانية عشرة، وجاء الأب، وكالعادة دائمًا حنونًا، وسأل عن صحتي. وبعد فترة وجيزة من مغادرته، جاءت أمي. كانت منتبهة للغاية، وطيبة، أعطتني نصيحة. لقد تأثرت وشكرتها.

لكن الحديث تطرق إلى تشيرتكوف. لم تستطع أمي أن تغفر له عبارته: «لقد كنت صديقكم لسنوات طويلة، يا صوفيا أندريفنا، وإذا أردت أن أضر بكم وبعائلتكم وأسيء إليها، كان بإمكاني القيام بذلك منذ فترة طويلة، لكنني لم أفعل ذلك، ولن أفعله أبدًا». فهمت أمي هذه العبارة كما لو أن تشيرتكوف يريد استخدام علاقاته بالإساءة لها. لقد تحدثتْ كثيرًا عن أن تشيرتكوف شخص فظ ومثير للاشمئزاز، وبالطبع، من المفيد له أن يكون «صديق تولستوي» من أن يكون ضابطا بليدا، وما إلى ذلك، وقالت إنها كانت تكتب يوميات، وأنها ستودع هذه اليوميات في المتحف، حتى لا يتيسر لأحد من الأبناء ـ التفتت إلي ـ مثلك،على سبيل المثال تصفيتها.

وبادرتها بالسؤال:

ـ لماذا تصفيتها، وهل فيها شيء سيء؟

لم تجب أمي، واستمرت في التفوه بأشياء سيئة عن تشيرتكوف وعن أبي، حتى طلبت منها أن تصمت

في نفس اليوم، ذهب والدي بعد الإفطار إلى قرية تيلاتينك، وكانت أمي قلقة للغاية. قفزت إلى الفناء، وأرسلت عربة لتعود به، ويبدو أنها كانت غاضبة لأن والدي ذهب إلى تشيرتكوف. وعندما عاد أبي انقضت عليه أمي وشرعت بالصراخ. أردت أن اذهب. لكن والدي أخذ يدي، وفي كل مرة حاولت الخروج، كان يمسك بي.

ـ لقد نسيتَ كل شيء، تطير إلى تشيرتكوف، تتبلل تحت المطر، وأنا هنا قلقة ـ صرخت أمي ـ تذهب، لاستقبال الرجل الذي يريد أن يسيء لزوجتك! يجب أن تخبره بأنه إذا أراد أن يأتي إلينا، فعليه أن يعتذر ويعطيني اليوميات.

حاولت أن آخذها بعيدا. وصَرختْ:

ـ أنتم جميعًا تريدون قتلي، تريدون أن أتعرض لنوبة عصبية!.

لقد سامته العذاب لفترة طويلة، وأخيراً خرجت بعد أن أخبرها أنه يريد النوم، وتبعتها، وأغلقتُ بعدها الباب بإحكام، حتى لا تقتحم غرفة والدي مرة أخرى.

بعد ثوانٍ قليلة جاءت مسرعة إلى غرفة العمل.

ـ تريدون قتلي، أيها الأوغاد، سوف أتعرض الآن لنوبة عصبية!

قلت لها:

ـ ليس معكِ النوبة، ولكن مع الوالد، إذا واصلتِ التصرف معه على هذا النحو، فلن يعيش شهرًا.

بالكاد تحدثتُ، فقد خنقتني العبرات.

ـ وأنا، مرهقة، انظري كيف فقدتُ وزني!

ـ بذنبكِ، لا أحد يعذبك وأنتِ، ماذا تفعلين مع الوالد! لقد قمتِ بعذيبه!

خرجت أمي، ولكن قبل أن يتاح لي أن أهدأ، رجعت لي مرة أخرى.

ـ ساشا، أنت تقولين إنني سأقتل الوالد، إنه مات روحيا بالنسبة لي، وجسديا على حد السواء بالنسبة لي.

ـ بالنسبة لك على حد السواء، لكن ليس لنا، دعي تانيا والآخرين يرون ويعرفون ما تفعلين به!

ـ أنا لا أهتم بكم!

صرختُ، وقد نسيتُ نفسي من الرعب، والأذى، والغضب.

ـ لذا اعلمي ان الأمر ليس على حد السواء لنا! نحن الأبناء لن ندعك تعذبين الأب حتى الموت!

وردت علي بسخرية خبيثة، وغادرت الغرفة.

ـ إنكم ضعفاء وعاجزون.

الوصية

كما توقعت، وجد المحلف مورافيوف الذي أُخذت إليه وصية والدي لفحصها أنها غير صحيحة من الناحية القانونية ولا قيمة لها. فمن الضروري منح شخص محدد حقوق النشر حتى يتمكن هذا الوصي من تنفيذ إرادة الأب بالتخلي عن حقوق المؤلف. كان من غير المريح تذكير والدي بهذا الأمر مرة أخرى، وجعله ثانية يعاني من الشكوك.

عندما أخبرنا تشيرتكوف وأنا والدي عن تقرير مورافيوف، لم يقل أبي شيئًا، ولم نعد نذكره، مع العلم أنه كان يفكر في الأمر طوال الوقت. ولكن بعد بضعة أيام، أبلغ الوالد تشيرتكوف أنه قرر إبقاء جميع مؤلفاته لثلاثة من أبناءه: سيرجي وتاتيانا وأنا. كان يعرف أننا سننفذ مشيئته.

لكن ذات مرة، عندما أتيت إلى مكتبه في الصباح، قال فجأة:

ـ ساشا، قررت أن تكون حقوق المؤلف في الوصية باسمك وحدك. ونظر إلي بتساؤل.

كنت صامتة. تخيلت إن مسؤولية جسيمة تقع على عاتقي، وستهجم العائلة عليّ، ويستاء أخي الأكبر وأختي، وفي نفس الوقت نما في روحي شعور بالفخر والسعادة حيث عهد إليّ بمثل هذا العمل الضخم. وسألني:

ـ لماذا أنتِ صامتة؟.

أعربت له عن شكوكي.

ـ لا، لقد قررت ذلك، ـ قال بحزم ـ أنتِ الوحيدة من الأبناء التي بقيت الآن للعيش معي، ومن الطبيعي أن أعهد إليك بهذا الأمر. في حالة وفاتك ـ وضحك بلطف ـ ستنتقل الحقوق إلى تانيا.

بدا أن شيئًا ما قد انكسر في داخلي، وخفق قلبي بعنف، وشعرتُ أن ثقلا ضخمًا لا يطاق إنهال على كاهلي. وفكرت بذاتي: «أو ربما على هذا النحو يكون الأمر أفضل، أتحمله مع تشيرتكوف، الذي لا يزال الناشر والمحرر الرئيسي لأعمال والدي».

وجرى في 22 يوليو/ حزيران، توقيع الوصية في غابة، تقع على بعد أميال قليلة من المنزل. دبج أبي وهو جالس على بقايا جذع شجرة، الوصية من البداية إلى النهاية، بقلمه. وشهد على توقيع والدي الشهود: رادينسكي وسيرجييينكو وجولدينفييزير.

كنت أعرف كم كان من الصعب على والدي اتخاذ قرار بشأن هذا الأمر، وكيف كان يتذبذب لفترة طويلة. لقد تعذب لأنه لا يستطيع إعلان ذلك للأسرة، وأنه كان مُرغما على كتابة الوصية في السر، ومن الصعب عليه كتابة وثيقة تحمل قوة قانونية فقط بعد موافقة المحكمة.

لكن والدي قرر بحزم التخلي، على الأقل بعد وفاته، عن التنازلات التي قدمها خلال حياته.

ذات مرة، عندما ذهب إلى الفراش، وكنت قريبًا منه في المكتب، نادى عليّ من خلال الباب المغلق.

ـ ساشا!

ـ نعم يا أبي؟

ـ أردت أن أقول عن الوصية... إذا كان تبقت أي أموال من الطبعة الأولى من الأعمال، فسيكون من الجيد شراء اراضي ياسنايا ـ بوليانا من الأم والإخوة ومنحها للفلاحين...

ـ حسنا يا أبي.

لم يعد للموضوع معي مرة أخرى.

هل فعلا أن أمي خمنت بما حدث، وهل كانت مريضة، لكنها لم تتوقف عن تعذيب الوالد؟. كانت قاسية، بل وقحة مع تشيرتكوف، تلمح له أنه يزورنا كثيرًا. قالت، وهي تلمح بوضوح إلى تشيرتكوف: «اعتقد أننا نرى بعضنا البعض بما في الكفاية، تقريبا مرتين في اليوم» أو «اقتحام الغرباء المنزل أسوأ من الشرطة».

وقالت الأم علنا أنها اتخذت إجراءات لطرد تشيرتكوف مرة أخرى من مقاطعة تولا.

وليلا لم تسمح للوالد بالنوم، وهرعت إلى غرفته، وتظاهرت بالانتحار عدة مرات. حاولت أن أنصح والدتي، وحاولت أقناعها بالشفقة على الوالد، فصرخت في وجهي، وهددت بطردي من المنزل. باتت الحياة مع كل يوم لا تطاق أكثر فأكثر.

تبعتني أمي فور ما ذهبت إلى والدي في المكتب، ولم تتح لنا الفرصة للحديث عن العمل، وقاطعتني، وتدخلت، وحاولت بكل طريقة ممكنة إبعادي عن والدي. غدا الأب ضعيفا ونحيلا مع كل يوم، ولم أستطع النظر إليه من دون دموع.

وذات مرة استدعاني والدي، ودخلت عليه، وحالاً دخلت والدتي من باب آخر.

ـ سونيا، اذهبي، سأشرح لساشا عن الرسائل.

لكنها لم تغادر. عندما قمت بفرز الحروف في غرفة العمل، وجدت ملاحظة:

«بحق الرب، لا احد يلوم الأم، كونوا ودعاء وطيبين معها.»

من الواضح أن الأب قرر الاستسلام لها في كل شيء. في ذلك اليوم، طلب من فالنتين بولجاكوف أن يخبر تشيرتكوف بأن لا يزوره في المنزل.

تعجبت من صبره ووداعته. كيف يمكن أن يتحمل كل هذه المشاق دون أن يتضايق، يفكر باستمرار في الوالدة، في هدوئها، وعدم القيام بأي شيء غير سار لها. لم يكن بوسعي ان أقوم بذلك. بدأ صبري ينفد، كنت غاضبة، والأهم من ذلك، بدا لي أنه وضع غير عادل، فظيع جدًا لدرجة أن والدي كان يذوب مع كل يوم، مع كل ساعة بسبب والدتي، وامتعضت روحي. وبكيت، وشعرت بالغم، ولم أعرف ما العمل، وكيف أتصرف. حسنًا، أن الأب لا يريد أن يقف ضد أمي، إنه يريد محاربتها بالحب حتى النهاية، لكن نحن الأبناء، كيف بوسعنا أن ننظر كيف تقتل الأم الأب ولا نفعل شيئًا حاسما، ولكن ما يمكنني أن أعمل وحدي؟ ما؟.

كان من السهل علي ألا أغضب من والدتي عندما شعرت بأنها مريضة، لكن عندما رأيت أن لديها دوافع مادية، ورأيت كيف كانت تخشى الوصية، كان من الصعب عليّ معاملتها بلطف مثل والدي.

كنت أحسد أختي تانيا. كانت أسعد مني. لم يكن بوسعها ان تصدق بأن دوافع مغرضة تحفز أمي، بينما رأت هي فيها أمًا متوترة ومرهقة، كانت تحبها وتشفق عليها. يا رب! إذا استطعت ان أكون مثلها، فكم سيكون الأمر أسهل بالنسبة لي.

قلت:

ـ ولكن إذا كانت مريضة، يجب أن نرسلها إلى مصحة. من غير المقبول أن يتصرف المريض في مصير الكثير من الناس، وأن ينظر الأبناء الأكبر سنًا بهدوء إلى معاناة والدهم. إن كل يوم من هذه المعاناة يقصر من عمره أشهراً وربما سنوات! شعرت، وعرفت أنه يجب أن أفعل شيئًا. كتبت لأختي، وأصررت على استدعاء أطباء، وإذا كانت أمي مريضة حقًا، فيجب ان تمكث لفترة في مصحة. لكن ماذا أفعل بمفردي، أنا أصغر الأولاد، غير المحبوبة التي اعتادت العائلة النظر إليها كفتاة لا تحتسب.

أصبح الوضع أكثر صعوبة. فقدنا الراحة ليلا أو نهارا. كان الأم تهتاج لأدنى حجة بشدة.

وأخيرًا، وصلت تانيا مع زوجها ميخائيل سيرجيفيتش، وعلى الفور شاركت هي وزوجها في الدراما التي تجري عندنا. لم ننم طوال الليل ـ كانت هناك محادثات لا تنتهي.

أثبتت تانيا وميخائيل سيرجيفيتش للأم كل عبثية مطالبها، وأخبراها أن روح الوالد لم تعد ملكًا لها ـ صوفيا أندريفنا، منذ فترة طويلة، وأن الأب حر في إعطاء حقوق مؤلفاته لمن يشاء، وأنه لا أحد ـ ولا حتى هي، زوجته ـ له الحق في التدخل فيه. لكن لم تساعد أي حجج. صاحت أمي: «سأقتل نفسي، أتسمم، إذا لم يأمر الوالد بإعطائي اليوميات! اليوميات أو حياتي!»

ظلت تكرر: «أنا منهكة، ومريضة، لقد أتعبوني للغاية!»

لم تستطع تانيا ضبط نفسها، فقالت لها:

ـ كلكم تقولون: أنا، أنا! أنتم تعذبون نفسكم، ولكن هل فكرتم بالآخرين: بالولد، بي، بساشا! كلنا مرهقين!

لأول مرة على الإطلاق، كان والدي يتنفس بحرية. حتى أنه ضحك عند العشاء، عندما روت تانيا كيف جاء مصور سينمائي إلى منطقة كوتشتي حيث تسكن، وصوّر حفل زفاف فلاح. كان حفل الزفاف في منزل مربي الماشية. وكان هذا مخمورًا تمامًا، وشاكس الجميع، وفي كل مرة رفض الضيوف الشرب معه، صرخ مربي الماشية بأعلى صوته «من أجل صحتك» وشرب كوبًا من الفودكا في جرعة واحدة، ثم أقسم وحلف باسم الرب أنه يشرب للمرة الأخيرة، وانه مستعدً للذهاب إلى الكنيسة على الفور، ويقسم أنه لن يشرب بعد الآن.

ـ فلماذا لم تذهبي معه؟ قال الأب. كان عليه ان يفي بوعده، أنتِ قرأتِ وصفي للقائي مع الفلاح الشاب، وهو وعدني بعدم الشرب.

كم كان من دواعي سروري أن أنظر إلى والدي! كيف شعر بالنشوة، وكيف نظر إلى تانيا بود!

في الصباح قالت لي تانيا:

ـ ما يفعله والدي الآن هو مأثرة حب، إنها أفضل من كل الثلاثين مجلدًا من أعماله. حتى لو مات، وتحمل ما يتحمله وفعل ما يفعله، أقول إنه لم يكن ليفعل غير ذلك! ـ واجهشت في البكاء.

عندما أعدت كلمات تانيا على مسمع والدي، قال وانفجر في البكاء:

ـ تانيشكا ذكية.

في المساء استراح مرة أخرى تحت حماية تانيا. قرأت قصة الكاتب الفرنسي ميل «ظبية الغاب» واستمتع بها كثيرًا. كان يجلس على كرسي «فولتير» عندما مررت به، وبدا لي أنه قال شيئًا:

ـ ما تقول يا أبي؟

قال مبتسماً بسعادة:

ـ بناتي طيبات.

لكن فترة الراحة لم تدم طويلا. كان علينا أنا وتانيا وميخائيل سيرجيفيتش الذهاب إلى تولا. تم تسريج الخيول. وفجأة دخل والدي وبيده خطاب.

ـ الرب يعرف ما الأمر، الرب يعرف، ليذهب احدكم إلى صوفيا أندريفنا! لقد كتبت لها رسالة مفادها أنني سأقدم لها كل أشكال التنازلات، وأنني أحبها، ولم تقرأها، وتصرخ أنها ستقتل نفسها!

لم أر والدي من قبل في مثل هذه الحالة. كان شاحبًا، وكان صوته متقطعًا، وكان من الواضح أنه بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه.

ركضت تانيا إلى الوالدة، وذهبت أنا وميخائيل سيرجيفيتش خلف الوالد. طلب مني أبي أن أعطي الخطاب لأمي، عندما تطلب ذلك، سارعنا أنا وفارفارا ميخائيلوفنا لاستنساخه.

لم تعر أمي اهتماما للرسالة عندما جئت بها لها، وواصلت تؤكد لتانيا أنه ستبقى «مريضة» ما دام لن يعطيها الوالد اليوميات.

ذهبت تانيا وميخائيل سيرجيفيتش في اليوم التالي مع اليوميات إلى تولا. كان الأب، كما كتب إلى الوالدة مصممًا على إعطاء جميع اليوميات للبنك لحفظها.

ولكن قبل أن يتاح لعائلة تانيا ان تتحرك، وصلت الحالة العصبية للأم مرة أخرى إلى أقصى حدودها. ذهبت إلى مكتب والدي، وتوسلت إليه أن يعطيها مفاتيح الصندوق المقاوم للنار حيث سيتم حفظ اليوميات، وخرت على ركبتيها أمامه وهي تبكي. رفض الوالد طلبها، ومن أجل إنهاء المشهد الصعب بطريقة ما، خرج إلى الحديقة. وبينما كان يمر من تحت نافذتها، صرخت الوالدة به من فوق:

ـ لوفيتشكا، لقد شربت زجاجة أفيون!

اندفع الأب في نفس واحد إلى الطابق الثاني. واستقبلته بالكلمات:

ـ قلت عن قصد، إني لم أشرب.

عندما روى لي هذا المشهد، وهو يلهث، اعتقدت أنه سيموت. كان شاحبًا كالورقة، يشكو من ضيق في صدره. فحصت نبضه. كان النبض أكثر من مائة، مع انقطاعات شديدة...

ركضت إلى والدتي وأخبرتها مرارًا وتكرارًا أنها ستقتل والدنا إذا استمرت على هذا النحو. ومنها هرعت إلى الحديقة إلى أبي. سار في دروب الحديقة مضطربا للغاية، وقال لي:

ـ اذهبي وأخبري أمك أن ما تقوم به سيجعلني أغادر المنزل، وسأغادر بالتأكيد إذا استمرت. وبما يتعلق باليوميات، أخبريها بأني سأعطي المفتاح لميخائيل سيرجيفيتش، وهذه هي رغبتي، وسأعمل على هذا النحو.

نقلتُ كلمات والدي إلى والدتي وأضفت بنفسي أنها بحاجة إلى العلاج، وأنني لا أستطيع أن أصدق لو أنها كانت بصحة جيدة، يمكنها تعذيب والدي عمداً بهذه الطريقة.

ـ حسنًا، ـ قالت ـ أوافق على العلاج، ولكن ليس عند نيكيتين، دعهم يستدعون طبيباً نفسانياً من ميشيرسكي.

وعندما عادت تانيا وميخائيل سيرجيفيتش من تولا في المساء، جلست أنا وأختي نتحدث. جاء الأب، وتحدثنا عن الأم وقررنا الاتصال بالأطباء.

قال والدي:

ـ أعلم أن من الخطأ تقديم تنازلات لها، لكن الأمر صعب علي، وأشعر بسوء حالي، لكوني لا أستطيع إبداء الحزم اللازم في بعض الأحيان. ولكن للقوة الجسدية حدودا!

قام الأب، وأضاف بحزن:

ـ ألا نرتكب جريمة الآن؟ ستفكر مرة أخرى أننا نحوك مؤامرة ضدها.

فقلنا له:

ـ لا، لا، الأم تتجول الآن مع ميخائيل سيرجيفيتش.

لكنه ذهب على نفس المنوال وتوقف فجأة عند الباب:

ـ ماذا، ألا تشعرن بالملل معا؟

ـ لا ـ أجبنا بصوت واحد ـ وماذا؟

قال:

ـ إنكن تشبهن بعضكن البعض إلى حد كبير ـ ثم غادر.

غادرت تانيا وميخائيل سيرجيفيتش، وتركونا مرة أخرى بمفردنا مع والدتي والأخ ليف، الذي كان يصب الوقود على النار فقط، مما أدى من دون قصد منه، إلى تأليب والدتي ضد الأب. واعتبرها محقة في كل شيء وألقى باللوم على الوالد.

ـ كيف يمكنك الجلوس هنا وهي تقتل نفسها! هذة قسوة وقرف!

خُيل لوالدي حتى أن ليف وصفه بالرديء! اجهش والدي بالبكاء عندما حدثني عن ذلك!

عندما غادرت تانيا، سألني ليف:

ـ ماذا قال لك والدك عن حديثي معه؟

أجبته:

ـ هذا شأني.

ـ أخبرتني تانيا أن والدي قال إنني وصفته بالرديء. أخبري والدك أنني آسف. لم أقل ذلك. من الجيد أنه لم يسمع ما قلته بالفعل... لكن هذا شائن! إنه مع مغفرته وعدم مقاومة العنف يجلس بهدوء على كنبة، وأمي مستلقية على الأرض وهي مستعدة لقتل نفسها!

لم يخف ليوفا حقيقة أنه لم يحب والده، وأن هناك لحظات يبغضه فيها حتى!

في البداية حاولت إقناعه بالتاثير على الوالدة لمساعدة الوالد، لكن كل هذا، بالطبع، كان بلا فائدة! ماذا تتوقع من شخص لم يتردد في

معارضة والده علانية!

شعرت بنفسي محطمة من المحادثات والأذى. ذهبت إلى غرفتي واستلقيت حتى قبل تناول الشاي. في بعض الأحيان كان والدي يأتي لرؤيتي. ذات مرة، وبعد محادثة شاقة مع الأخ ليف، ذهبت إلى الفراش، لكن جاء جولدينفيزير لتوديعي، ثم جاء والدي. وتحدثنا عن تانيا وميخائيل سيرجيفيتش.

قال والدي:

ـ أريد أن أتفاخر، يرى الأشخاص الأذكياء مجموعة كبيرة ومتنوعة من الطبائع. على سبيل المثال، ميخائيل سيرجيفيتش، إنه موهوب تمامًا. من ناحية، التصرف كسيّد، أرستقراطي، ومن ناحية أخرى، العمق الروحي، والمبادئ الدينية الراسخة، ونزيه وصادق. إنه لا يريد ولا يسعى إلى تغيير الجانب الخارجي القائم، يحاول أن يعيش بشكل جيد.

وقال جولدينفيزير، وعلى ما يبدو لم يفهم فكر الوالد:

ـ نعم، هذا أفضل من إنكار كل شيء ـ نعم نعم.

أجاب الأب:

ـ نعم وهو يفعل الكثير من الخير.

تحدثنا عن الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال الذي كان الوالد مشغولا بكتابه الخواطر، وتحدثنا عن الخيول والكلاب. مزحنا. لقد استمتعت للغاية، لدرجة عندما غادر والدي وألكسندر بوريسوفيتش، ارتديت ملابسي وذهبت إلى القاعة.

قال الأب عندما رآني.

ـ هكذا الوضع جيد!

جلس الجميع إلى طاولة الشاي وتحدثوا بمرح، بلا كلفة. كانت أمي تستحم. رويت كيف أن التاجر بلاتونوف أرسل حصاناً وعربة لزوجته إلى موسكو حتى لا تركب عربة أجرة من المحطة.

ـ هل هذا ـ قال الأب ـ التاجر في بلدة يليتس، الذي لم يسافر قط بالقطار، قائلاً إنه ليس كلبًا ليسافر على وقع صافرة!

ضحك الجميع، والأب ضحك اكثر من الآخرين. ثم طار خفاش إلى داخل القاعة، وقفزنا، وطاردناه، وصرخنا وضحكنا مرة أخرى. قبل أن أنام، ذهبت إلى والدي.

وسألته

ـ كيف هو قلبك؟

ـ كل هذا هراء! ـ أجابني. ـ الأهم ليس في هذا بل في حقيقة أنه لا يجب الموت اليوم أو غدًا.

قلت

ـ ولا يمكنني أن أكون غير مبالية بهذا.

ـ نعم، نعم، أفهم ذلك، لكن حان وقت موتي.

ـ يقول تشيرتكوف أنك ستعيش مائة عام.

ـ كلا، كلا، أريد ذلك، ولا أريد...

قالها بحزن شديد لدرجة أنني كدت أن اجهش في البكاء.

وأضاف، بعد صمت قصير:

ـ رغم أنني من جهة أريد ذلك، بالرغم من اصبحت الحالة أفضل وأفضل، ولو بنزر.

قلت:

ـ حسنًا، عندما تكون في حالة جيدة، أكون سعيدة.

ـ سأذهب لأكتب يومياتي!

جرى استدعاء الأطباء لوالدتي، الدكتور نيكيتين، وبروفيسور الأمراض العصبية روسوليمو، وكانت تانيا وميخائيل سيرجيفيتش قد رحلا، وكان ليف الأخ متشكك بجدوى استدعائمها.

قال:

ـ سأقول للأطباء، لاتحتاج الأم إلى العلاج، إنها بصحة جيدة تمامًا، لكن الأب هو الذي فقد عقله!

لم يجد الأطباء علامات مرض عقلي لدى الأم، بل وجدوا لديها هستيريا شديدة، «ذهان كبريائي». نصحوا بفصل الأب عن الأم بأي ثمن. لكن بمجرد أن أبلغوا أمي بهذا، هبت عاصفة رهيبة، ولم ترغب أبدًا في الموافقة عليه. رأى ديمتري فاسيليفيتش المعاناة النفسية للوالد، ولم يعرف كيف يساعدنا. استمع لقلب الأب ووجده في حالة سيئة للغاية. وقال بحزن:

ـ سأخبركم سراً: أمامكم الكثير والكثير من المتاعب.

لم تسفر زيارة الأطباء عن أية نتائج. كنت آمل أن يجتمع جميع أفراد العائلة، على الأقل كبار السن، ويناقشوا مع الأطباء كيفية حماية والدي من الهموم المستمرة. فكان من المستحيل ترك الرجل البالغ من العمر اثني وثمانين عاما وشأنه، تحت رحمة القدر مع معاناته!

لكن الأطباء غادروا، وشعرتُ مرة أخرى بالوحدة الكاملة والعجز!

لابد أن الأم قد شككت بوجود الوصية، واستدعت أخي أندريه، وكنا ننتظر وصوله بخوف.

قال لي والدي ذات مرة:

ـ أنت تشعرين بالكدر طيلة الوقت، وأنا أريد الموت، هذا هو الخلاص الوحيد. اشعر بالعسر! والآن، بالإضافة إلى ليف لفوفيتش، سيأتي أندريه لفوفيتش... أريد أيضًا أن أخبرك أنه يتبادرالى ذهني أكثر فأكثر بأن عليّ أن اغادر معك إلى مكان ما. هناك مثل هذه الأفكار الجادة، والشعور باقتراب الموت، ليس هناك وقت للمجاملة والتظاهر. إن هذا نوع من الزيف، نوع من الزيف! هتف الأب.

قال الأب في مرة أخرى، لزوجة ابنه أولغا:

ـ إنه لأمر غريب، بل إنه من المضحك القول: لو تدرك صوفيا أندريفنا ذنبها لدقيقة واحدة، فسيكون كل شيء على ما يرام وترتاح. لكن اتضح، على العكس من ذلك أن كل جهودها على مدى ثلاثين عامًا، تستهدف تبرير وتبييض نفسها وإدانة الآخرين.

سألت أولغا:

ـ ما هذا يا أبي، هل هو مرض أم تهور؟

قال الأب:

ـ تهور، تهور، غياب أي رادع ما عدا الرأي العام.

جاء الأخ ميشا مع عائلته حتى وسرعان ما غادر، لكن عائلته بقيت. لقد تحدثت كثيرا مع زوجته، فهي عاقلة وتفهمت كل شيء. ما أروع زوجات إخوتي! لا عجب أن الأخ ميشا قال ذات مرة بتمعن: «في شيء واحد نحن بلا شك أفضل من نسائنا». سألته «بماذا؟» «لدينا ذوق أفضل بكثير».

لقد فوجئت بموقف ميشا من إرادة والده. هل يهم ما إذا كانت هناك وصية قانونية أم لا، إذا كنا جميعًا نعرف جيدًا رغبة الأب، والتي عبّر

عنها أكثر من مرة شفهيًا وكتابيًا؟ هل يمكن أن يُطرح سؤال: هل يجب الوفاء بإرادة الأب أم لا؟

وافقت زوجة أخي تمامًا معي، وقالت إن ميشا تصرّف تحت تأثير والدته.

بعد أيام قليلة، وصل الأخ أندريه. كان قد تلقى للتو رسالة من تانيا، كتبت إليه عن الوضع في ياسنايا بوليانا وأقنعته بعدم صب الوقود على النار، ليتذكر أن والدته كانت مريضة، وعليه أن يشفق على والده.

عندما جئت إلى المكتب، كان أندريه جالسًا هناك غاضبًا.

وقال:

ـ يا لها من رسالة غبية من تانيا، أنا لا أتفق معها من البداية إلى النهاية.

وسألته:

ـ لما لا؟

ـ بادئ ذي بدء، أنا لا أعتقد ان أمي مريضة، استدعيتم بعض اليهود، والشيطان وحده عرف أية طبخة أعدوا، وانتم مسرورون لذلك فهذا يصب بمصلحتكم. واستشهد بعبارة من الرسالة «الكراهية ليست من طبع البشر» حتى وأبي مع فلسفته بعدم المقاومة، يمارس فقط البغض والشر للناس.

قلت بسخط:

ـ ما تقول يا أندريوشا! متى أساء ولمن؟!

ـ هذا ما يقوم به فقط! لا عجب أنه حرض جميع أبنائه ليقفوا ضده، وفي كل مرة آتي فيها لياسنيا بوليانيا يغضب مني.

ـ هذا غير صحيح! إذا لم يوافق على تصرفاتك، فأنت المُخطىء!

ـ لا يهمني رأي رجل عجوز فقد عقله! جميع الناس المحترمين يباركون تصرفي. وهو، مثل كلب شرير، يكشر في الجميع!

قلت، وبالكاد أنطق الكلمات، انحبس نفسي.

ـ أندريوشا أنا أعمل هنا، هذه غرفة عملي، من فضلك أخرج. أنت تقول أشياء لا أستطيع الاستماع إليها!

ـ اخرسي! ـ زأر ـ لا تجرأي على إبداء ملاحظات لي! لقد فقدتم جميعا هنا عقولكم، لذلك لا تحبون أحكام الشخص العاقل.

لقد شعرت بخفقان قلبي بسرعة، حتى بعد فترة طويلة من مغادرته.

تحدثت الأم على مائدة الغداء مع أبنائها. في البداية، كان الحديث يدور حول توزيع البذور على الفلاحين. قالت أمي من الصعب اختيار أفقر الناس.

قال ليف:

ـ أنا الأفقر، وأود أن أحصل على تسعة أكياس من الجاودار.

ثم تحول الحديث إلى المسارح والباليه والسيرك والفساتين وطريقة القضاء على التجاعيد. جلس الأب دون أن ينبس ببنت شفة.

كان يوم 27 يوليو/ حزيران يومًا لا يُنسى وشاقا للغاية بالنسبة لي. قبل ان انهي شرب القهوة في الصباح، دعاني أندريه، وعندما وصلت إلى منتصف الدرج، دعاني ليف.

ـ حسنًا، اذهبي، اذهبي إلى ليف ـ قال اندريه ـ سأتحدث معك لاحقا.

ذهبت إلى ليف.وشرع بالحديث:

ـ أترين، إن أمي سمعت بالأمس أن فالنتين بولجاكوف كان يتحدث عن وثيقة، وقررت أنها كانت وصية، ومرة أخرى أصبحت مضطربة للغاية. قولي لي، هل لدى الآب وصية؟

قبل أن يتاح له الوقت لإنهاء جمله، دخل أندريه وقاموا بتعذيبي لمدة طويلة، هل لدى والدي أي وصية؟

قلت إنه من غير المعقول بالنسبة لي خلال حياة والدي أن أفكر في موته، وأتحدث عن وصيته، وبالتالي أرفض الإجابة.

ـ قولي لنا فقط: هل توجد وصية أم لا؟ ـ قاما بتعذيبي.

عذباني لفترة طويلة ولم يتركاني. وأخيرًا ، أعلنت بحزم أنني لا أريد أن أتحدث عن هذا أكثر ولن أفعل.

ذهبت إلى مكتب والدي لتحذيره والتوصل إلى اتفاق حول الرد على الإخوة. وبينما كنت أخبره عن حديثي مع الأخوين، سمعت خطى خارج الباب. فتحت باب غرفة الضيوف ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع أندريه. دخل.

ـ أبي، أنا بحاجة للتحدث معك.

ـ قل ما هو؟

ـ أود بدون ساشا!

قال والدي:

ـ لا ، دعها تبقى، ليس لدي أي أسرار عنها.

ـ إذن، هل ترى يا أبي ـ بدأ أندريه مترددا ـ لدينا مشاكل مختلفة في عائلتنا ، أمي قلقة، وأردنا أن نسألك إذا كانت لديك وصية؟

قال والدي بحزم غير معهود:

ـ أنا لا أعتبر نفسي ملزما بالرد عليك.

ـ آه آه! إذن أنت لا تريد الإجابة؟

ـ لا أريد.

نهض أندريه.

ـ هذه مسألة أخرى! ـ وغادر، وغلق الباب.

ـ ووه! اوه اوه اوه اوه! ـ اشتكى الأب. ـ يا إلهي! يا إلهي!

بعد أن قابلني على الدرج، صرخ بي أندريه:

ـ لماذا أنت عالقة هناك مع والدك المجنون!

في صباح اليوم التالي عذبني الأخوان مرة أخرى. ورفضت بعناد على نفس النحو الرد عليهما. وفي المساء واجهت اختبارًا جديدًا. اقتربت الأم مني، وسألتني ووقد ثبتت نظرها إلي:

ـ ساشا، هل كذبتِ في يومًا ما؟

ـ أحاول ألا أكذب.

ـ إذن قولي لي: هل لدى الآب وصية؟ أم لا؟

قلت:

ـ لقد أجبت أبناءك هذا الصباح، الذين أزعجوني بنفس السؤال، وسأجيب عليه بالمثل: لا أستطيع ولا أريد التحدث عن موت والدي خلال حياته. أعتقد أنه مريع! وإذا كنت تتذكرين يا أمي، عندما أتيت إلي لقراءة وصيتكِ، رفضت الاستماع إليها. أجد أنه من الدناءة، والبشاعة أن يسأل الأبناء والدهم عن وصيته!

قالت الأم:

ـ آخ، كم أنت غبية! إن الأمر لا يتعلق بالمال على الإطلاق، ولكن ليف نيكولايفيتش قد حرمني من ثقته. أحبه ويؤلمني أنني لا أعرف شيئًا...

ـ غير صحيح! ـ قلت بسخط ـ غير صحيح! لو كنتم تحبونه، فلن تسألوا أبدًا عن وصاياه بعد الموت، وتسببوا له مثل هذا الألم الروحي، بل لكنتم قد خضعتم بهدوء لإرادته.

جاء بافل إيفانوفيتش بيريوكوف. كان والدي سعيدًا به كشخص قريب، تحدث معه كثيرًا وقرر أن يخبره عن وصيته وما يحدث في الأسرة. وتوقع الأب الدعم من بافل إيفانوفيتش و... واجه الرفض. قال بيريوكوف لوالدي من العبث انه قام بذلك، وكان عليه دعوة العائلة بأكملها وإعلان إرادته، وستفي العائلة بالتأكيد بذلك فقط ولم يوافق الأب على كتابة وصية قانونية رسمية.

ما مدى سوء تخيل بافل إيفانوفيتش للوضع؟ وإلى أي مدى أخذ في الاعتبار قوة الوالد؟!

كنت اكثر فتوة ومفعمة بالقوة، لكنني مع ذلك شعرت أيضًا بأني مرهقة الأعصاب تماما. عندما بدأ والدي في هذا اليوم يعاني مرة أخرى من الوصية، ويدين نفسه على ما فعله، شعرت باليأس لدرجة أنني بكيت طوال اليوم. تلقيت رسالة لطيفة من تانيا ـ بكيت، ورحت أقول شيئًا لوالدي ـ وأجهشت بالبكاء.

شرع والدي في مواساتي وسألني عما حدث.

ـ لكن، لا يمكنك حتى أن تتخيل عدد الشتائم والإهانات الموجهة لك التي سمعتها خلال هذه الأيام ـ أخبرته من خلال البكاء ـ ولا يمكنني فعل أي شيء، لا شيء، لا يمكنني حتى لجم افواه الناس...

ـ حسنًا، عزيزتي ـ قال الأب ـ سنحاول بذل قصارى جهدنا، وسندعم بعضنا البعض.

بدأ مرة أخرى في التفكير في مسألة الوصية، ليقرر ما إذا كان قد عمل بشكل جيد. عندما عرف تشيرتكوف بشكوك والدي، ارسل له خطابا طويلا ذكّره فيها بتاريخ الوصية بأكمله. وتوصل الأب مرة أخرى إلى قرار: إبقاء الوصية سارية المفعول.

«فلاديمير تشيرتكوف.

أكتب على قطعة من الورق لأنني أكتب خلال نزهة اقوم فيها في الغابة. ومنذ مساء أمس وأنا أفكر في رسالتكم التي استلمتها الأمس. أثارت رسالتكم هذه شعورين رئيسيين في داخلي: الاشمئزاز من جميع مظاهر المصلحة الذاتية الفظة وانعدام الحساسية، وهو ما لم أره في السابق، أو رأيته ونسيته، والحزن والندم لأنني آذيتكم برسالتي التي أعربت فيها عن الأسف عما تم إنجازه. الاستنتاج الذي توصلت إليه من الرسالة هو أن بافل إيفانوفيتش (بيريوكوف) كان مخطئًا، وأنني كنت مخطئًا، إذ اتفقت معه، وأنني تمامًا استحسن أنشطتكم، لكنني ما زلت غير راضٍ عن أنشطتي: أشعر بأنه كان بالإمكان التحرك بشكل افضل، رغم أنني لا أعرف كيف. الآن انا غير نادم على ما فعلته، أي، أنني كتبت الوصية التي كُتبت، ولا يسعني إلا أن أكون ممتنًا لكم على مشاركتكم في هذه القضية.

والأن سأخبر تانيا عن كل شيء، وسيطيب لي هذا، للغاية».

عندما طلبت من والدي، قبل أيام قليلة، إبلاغ تانيا عن الوصية، أجابني أنه سيتشاور مع تشيرتكوف. قلت إن تشيرتكوف كان يرغب في هذا منذ فترة طويلة.

ـ ليس لدي ما اضيف، إلى اي درجة أريد ذلك ـ قال الأب ـ فليس ثمة من هو أقرب إلي من تانيا!

في صباح اليوم التالي، لم أرتدِ ملابسي بعد، دخلت أختي غرفتي.

ـ أبي قال كل شيء!

ـ كم أنا سعيدة ـ قلت ـ وإلا كان لدي شعور بأن الجميع يعرف، وأنت أقرب شخص له، لم تعرفي!

ـ شيء واحد أود قوله ـ اكتبي بدورك وصية لي ـ قالت تانيا ـ فإذا ما فارقتِ الحياة بعد والدك بقليل، فسيبقى كل شيء للأخوة.

ـ تم هذا بالفعل. ألست منزعجة ـ سألتها ـ أن الوصية مكتوبة باسمي؟
ـ وأضفت ـ على الرغم من أنها ستكون عبئًا كبيرًا، والشيء الرئيسي هو أنه سيتعين إنهاء العلاقة بالعائلة!

ـ أنا سعيدة للغاية ـ قالت تانيا ـ الشيء الرئيسي هو أن علاقتي بأمي لن تنهار تمامًا، رغم أنها، ربما، حتى على الرغم من ذلك، لن تتخلى عني.

ـ حسنا، أليس أمي لم تتخل عنك لدرجة ما، لأنك لم توافقي على تصرفاتها في هذه القصة كلها؟

قالت بحزن:

ـ نعم، هذا صحيح، آخ، ما مدى رداءة ودناءة هؤلاء الذين يريدون أن يتصرف الوالد بشكل مختلف، وماذا سيكون دورهم في التاريخ؟!

بعد انتهاء العمل، طرقت باب أبي. صرخ وكأنه ينتظر مجيئي.

ـ حتما، ادخلي!

ـ أبي، أنا مسرور للغاية بما قلته لتانيا وبسبب رد فعلها عليه!

ـ نعم، نعم، وأنا سعيد جدًا. سألتها إذا كان بإمكانها إخفاء السرعن زوجها، فقالت نعم، وأخبرتها بكل شيء. وعندما أخبرتها بكل شيء،

سمحت لها بإخبار زوجها، لكنها هي نفسها تعتقد أنه من الأفضل عدم القيام بذلك.

لكن، على ما يبدو، ان الانطباع الأول لدينا أنا وأبي عن موقف تانيا من الوصية كان انطباعا خاطئا. فبعد بضعة أيام، أخبرتني تانيا أنه، ربما، ما كان يتوجب كتابة وصية، وعلى أي حال ما كان يتوجب منح المؤلفات للاستخدام العام حتى الثمانينات.

ذهبت مرة إلى مكتب والدي.

في اليوم السابق قررنا الذهاب معه إلى تانيا.

ـ الرب يعرف ما قالت الأم لي، إنها مريضة، يجب الإشفاق عليها، أشعر بالاستعداد لفعل ما تشاء، وليس الذهاب إلى تانيا، وأن أكون أخت الرحمة لها في بقية حياتي.

قلت بغضب وغادرت الغرفة:

ـ لم أعد أشعر في نفسي الإمكانية لأكون أخت رحمة.

لكني في قرارة نفسي كنت قلقة لأني أجبته بوقاحة وأزعجته، وبعد معاناة ساعتين، ذهبت إلى مكتبه. كان مستلقيًا على الأريكة ومعه كتاب. دنوت منه وقبلت رأسه.

ـ سامحني!

انفجر كلانا بالبكاء وكرر عدة مرات:

ـ كم أنا سعيد، كم أنا سعيد! كان الأمر شاقا علي!

في كوتشيتكي

سألت أبي

ـ يبدو أنك تحدثت مع الأخ ليوفا؟.

ـ نعم نعم. قلت بما كنت أنوي أن اقول له منذ فترة طويلة. أعتقد أن ليوفا سبب لي الكثير من الأذى في هذه القصة بأكملها. فقد قال ذات مرة هذه الأيام وبصراحة أنه لا يحبني وأحيانًا، عندما يعتبرني مخطئًا، يبغضني، فقلت له إن أفعاله كانت نتيجة لموقفه تجاهي.

ـ وماذا ردّ عليك؟

ـ ماذا؟ ما بوسعه أن يجيبني... ـ وأشار إلى غرفة أمي؟ ـ نفس الشيء، هم دائما على حق، والجميع مذنبون. بالأمس أخبرت صوفيا أندريفنا أنني أعطيت كل الممتلكات لعائلتي، وأعتقد أن إعطاء المزيد من الدخل من المقالات لميشا على سبيل المثال، مجرد خطيئة!

أخبرت والدي أنني لست على ما يرام، لكنني لم أستطع حتى التفكير في السفر إلى شبه جزيرة القرم مرة أخرى وتركه وشأنه.

وقال:

ـ سأذهب معك!

ـ لا، أبي؟ لا يمكنك السفر! ثم ماذا سيكون أفضل!

ـ حسنًا، سنرى هناك!

ـ ولكنك يا أبي تقول إنك لا تحتاج شيء، لكني بحاجة إلى الكثير! ما زلت أفكر لماذا تسير الامور على على هذا النحو، وليس غيره!

ـ نعم، ما زلت شابة، ومن الواضح أن رغباتنا، نحن كبار السن تختفي، لكن الأمر شاق على الشباب!

بعد أيام قليلة أحضرت رسائل إلى والدي وانتظرت ما يقول بشأنها. فأمسكها بيديه ووضعها جانبا قائلًا:

ـ لا لاحقا. يجب أن أعد نفسي.

وعندما نظرت إليه مستفسرة، أضاف:

ـ نعم، نعم، اتضح أن ليوفا يريد العيش هنا، وهو أمر شاق جدًا علي. يجب أن أعد نفسي للتعامل مع هذا الوضع بشكل صحيح. علينا الصبر...

ذات مرة طلب ديما تشيرتكوف من والدي أن يشرح له بعض الأقوال المأثورة.

سألت أمي:

ـ ما الذي أثار اهتمامه بالضبط؟

رد الأب:

ـ احد الأقوال، قول جدي لا أتذكره، وآخر أقل أهمية.

ـ سألت أمي بإصرار.

ـ ما هو؟

ـ سأل عن القول الوارد في مجموعة «حلقة القراءة»: «يسقط إبريق على حجر ـ بلاء على الإبريق، الحجر يسقط على الإبريق ـ ثانية بلاء على الإبريق». وهذا يعني، في رأيي، أنه كلما كان الأنسان صلبا في الكفاح، كلما كان اكثر قوة وجبروتا، وكلما كان الفوز أكثر ثقة.

قالت أمي:

ـ ولكن هذا خاطئ تمامًا، قول من هذا؟

ـ صيني.

قالت:

ناس دنيئون.

وفي المساء، عندما ذهبت إلى والدي لتوديعه كالمعتاد، قال لي:

ـ ساشا، إن امك فهمت تمامًا القول المأثورعن الإبريق، وأخذته على محمل شخصي.

ضحك الأب.

كانت صحة الأب تضعف من يوم إلى آخر. شعرت أنه بالكاد يتماسك. كان لابد أن ينكسر الإبريق.

وفقًا لتوصيات الأطباء، كان من الضروري فصل الوالدين، وقررت أنا وتانيا اصطحاب والدي إلى كوتشتي. بيد أن الوالدة شرعت في البكاء، وتوسلت أن نأخذها معنا، وقالت إنها مريضة تمامًا. وحتى حلول الظلام، كانت تسوم والدي العذاب، وتسأله عما إذا كان يريد أن تذهب معه.

أجاب:

ـ افعلي ما تشائين، يا سونيا.

في الصباح تهيأت للسفر معنا.

ـ يا له من غباء ـ قال الأب بصوت حزين ضعيف ـ لماذا السفر إذا ستذهب الأم معنا. لم أحصل على قسط كافٍ من النوم ولا أشعر أنني

بحالة جيدة...

كان واضحًا لي لو كان الأب حازمًا ومصرًا ، فإن حالة الأم، سواء كانت مريضة أم لا ، ستتحسن بلا شك. في كل مرة يرفض بشكل حاسم الامتثال لمطالبها ، كانت تخضع وتهدأ. لكن ما يبعث على الحزن، أن الأب بطبعه كان دمثا ، يستسلم على الدوام، وكلما استسلم وتنازل لها ، زادت مطالبتها.

كم مرة حدثت لي الحكاية الخيالية «عن الصياد والسمكة». حتى أنني أخبرت والدي ذات مرة عن ذلك.

قال لي بحزن:

ـ هذا صحيح، صحيح.

عشية ذلك اليوم، تلقى تشيرتكوف أنباءًا من وزارة الداخلية تفيد بالسماح له الإقامة في مقاطعة تولا. كان الجميع في قرية تيلاتينكا ، حيث يقيم تشيرتكوف، مبتهجين ـ الجدة، وآنا كونستانتينوفنا ، وأولغا مع الأطفال وفلاديمير جريجورفيتش نفسه، وجرى إخفاء هذا الخبر عن الأم، حتى لا تحدث عاصفة قبل المغادرة، ولا تسمم السفرة على الأب.

كانت هذه الأخبار بالنسبة لي وتانيا ، مصدر راحة كبير. إن معرفتنا بأن الأم والإخوة يخططون لإلحاق الأذى بتشيرتكوف مرة أخرى أمر لا يطاق! وقبل ذلك بوقت قصير، كتبنا إلى صديق عائلتنا ، «و».، طلبنا منه التحدث عن تشيرتكوف مع وزير الداخلية ستوليبين وتحذيره من أنه إذا كانت هناك أي طلبات من الوالدة بطرد تشيرتكوف، فيجب اعتبارها نتيجة لحالة مرضية. نقل «و». طلبنا إلى ستوليبين.

بالإضافة إلى ذلك، كتبت والدة فلاديمير جريجوريفتش، التي كانت قريبة من القصر، رسالة إلى الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا. وقبل أسبوع من مغادرتنا إلى كوتشيتي، أجريت المحادثة التالية مع العجوز تشيرتكوفا.

قلت لإليزافيتا إيفانوفنا:

ـ أعتقد أنكم ستساعدون لكي تبرِّئ الحكومة ساحته، والبقاء للإقامة هنا. وإذا انتم وأنا وأختي بذلنا كل ما في وسعنا للدفاع عن ابنكم، فربما سيحالفنا النجاح.

قالت إليزافيتا إيفانوفنا:

ـ سأكون صريحة معكم أيضًا. شرعت هذه الأيام بكتابة رسالة إلى الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا، ولكن عندما بلغت إلى هجمات والدتكم غير العادلة، لم أستطع الاستمرار، فقد بدا لي أن هذا مريع! والآن، بما أنكم شجعتموني، سأنهي هذه الرسالة، وسأنتهي منها اليوم!

سافرنا إلى كوتشيتي بصورة جيدة. كانت هناك مقصورتان في العربة، أحدهما مخصصة لأبي والأخرى للجميع. قرأ الأب الرسائل وشرب القهوة ونام. كان ضعيفًا جدًا لدرجة ساورني الخوف عليه.

وصلنا عند الساعة السابعة مساء. كان الأب متعبا جدا.

في الليل عندما ذهب للنوم وغادرت أمي غرفته. ذهبت لتسليمه اليوميات السرية في الدفتر الصغير، والأخرى في الدفتر الكبير. وتوجه لي:

ـ أعطني اليوميات!

أخذها مني وأعادها. كانت أمي تقف ورائه، عندما رآها، أعطاني اليوميات في الدفترالكبير، لكنه عاد على الفور وأخذها. وتبعته أمي. سمعتها تسأله:

ـ هل تخفي اليوميات عني؟

قال والدي:

ـ نعم منك.

ـ ما زلت زوجة...

لم أسمع المزيد.

أدى هذا الحادث إلى إثارة القلق طوال اليوم، لكن تانيا أصرت بشدة على أن لا تتحدث أمي مع أي شخص عن القضايا التي تقلقها، ما أدى إلى أن الأم بدأت تهدأ تدريجيًا، واذا بالصدفة تقع بيدها صحيفة تتضمن نبأ عن السماح لتشيرتكوف بالبقاء في مقاطعة تولا.

صرخت أمي بصوت عال:

ـ هذا هو حكم الإعدام!

واعتراها القلق طوال بقية اليوم، وكتبت رسالة إلى سوليبين، حسب قول ميخائيل سيرجيفيتش كانت فظيعة.

وصرخت:

ـ سأقتل تشيرتكوف! سأكلف احداً لكي يسممه! إما هو أو أنا!

ثم وصلت سيريوجا مع الكونت ديمتري أداموفيتش أولسوفييف، وهدأت بعض الشيء.

وفي اليوم التالي لوصوله، تحدث والدي على العشاء عن نهب فلاحي قرية أوزيروك حمولة عربة. تركت هذه القصة انطباعًا مروعا على والدي. سارت عربة وعلى متنها صناديق فودكا، وتعطلت العربة في الطريق بالقرب من قرية أوزيروك وتوقف السائق فتجمع الفلاحون حوله. استغل الفلاحون أن السائق كان مخمورا، فانتشلوا الفودكا تدريجيا، وفي النهاية نهبوا كل شيء وسكروا. يواجه الفلاحون عقوبة قاسية، وأثار هذا قلق الوالد بشكل خاص وراح يلتمس الشفاعة لهم، وكتب إلى المحامي في القانون جولدينبلات الذي وافق دائمًا على الدفاع عن الفلاحين بناءً على طلب والدي.

لعب الجميع في المساء مختلف الألعاب مع الأطفال ـ تانيشكا وميكا، نجل ليوفا سوخوتين، ثم غنى الأطفال ورقصوا، وضحك الجد والجدة ليس بأقل منا.

أحببت ضحك أمي. ضحكت بخفوت من دون صوت، وهزت جسدها بالكامل، وغطت فمها بيدها وكأنها محرجة من ضحكها. كانت في ذلك المساء بائسة للغاية ووديعة ولطيفة. كم كنا نحبها لو كان بإمكانها دائمًا أن تكون هكذا.

ذهبنا في اليوم التالي في المساء إلى المدرسة في جماعة كبيرة لمشاهدة عرض مسرحية تشيخوف «شخص سيء النية» واسطورة «الفانوس السحري». خيم الظلام على الفناء، هنا الظلام دامس، وتحت الأقدام أوساخ لا يمكن عبورها، أضاءت تانيا الطريق بفانوس، وتأبطت الأم ذراع الوالد، لكنه سار بنفسه بقوة، وتعثر، وترك يدها وذهب وحده.

كانت المدرسة مكتظة بالأطفال. أدى الأولاد أدوارهم بشكل جيد، وضحك الأب حتى البكاء. ثم جاءت الاستعدادات طويلة ومملة «للفانوس السحري».

عرضوا حياة القديس سيرجي رادونيجسكي. وقف معلم بالقرب من اللوحة متلعثماً وخجولاً بسبب وجود الضيوف وبصورة رئيسية وجود الوالد، وروى كيف أن القديس سيرجي رادونيجسكي، بعد دعوة الملاك الذي ظهر له على هيئة راهب عجوز، تعلم بأعجوبة القراءة والكتابة.

قام الأب.

قال:

ـ سأذهب الآن ـ لكنه غيّر رأيه وجلس مرة أخرى ـ، وبعد بضع دقائق قام بحزم وذهب إلى الخارج.

ـ بأي هراء وسفاسف يملئون الرأس! رهيب! رهيب!

تبعته أمي وتانيا ودوشان بيتروفيتش وأنا.

في أحد الأيام، وجدني والدي وأنا أتجادل مع المعلم إيفان ميخائيلوفيتش، ولم يقل شيئًا، لكنه سألني اليوم:

ـ ما الذي تجادلت به بحمية مع إيفان ميخائيلوفيتش؟

قلت:

ـ بخصوص الإيمان الأرثوذكسي، أخبرني أن الكنيسة تقدس فقط الخير. وسألته: وماذا عن الحرب؟ وعقوبة الإعدام؟ من يقدسهما إن لم تكن الكنيسة؟

ـ هل يدافع عن عقوبة الإعدام؟

ـ يعتبرها ضرورة محزنة.

شرع الأب يئن:

ـ آي، آي، أي، آي، آي، آي!

ولفترة طويلة لم يستطع أن يهدأ، وظل يهز رأسه ويئن.

ولكن على الرغم من أن حياتنا مرت بهدوء افضل مما كانت عليه في ياسنايا بوليانا، إلا أن والدي كان حزينًا طوال الوقت. لقد شعر أن والدتي كانت في ذات الحالة العصبية، ولكن ضبطت نفسها فقط لوجودها في منزل غريب. واصلت إخبار الجميع بأن تشيرتكوف أراد فصلها عن ليف نيكولايفتش، وأن ليف نيكولايفتش كان واقعا تحت تأثيره وأنه يريد جعل نشر جميع كتاباته مجانا للمنفعة العامة، ويحرمه من أتعاب المؤلف. استمع الكونت «و» إلى شكاوى والدتي، لكنه عاملها كمريضة، ولم يعلق أهمية على كلامها.

ـ ماذا يا ليف نيكولايفيتش، ألا توجد ليكم رغبة في اللسفر إلى الخارج؟ ـ سأل ديمتري أداموفيتش فجأة.

ـ لا، لا أريد الذهاب إلى أي مكان. ولكن في كثير من الأحيان ارغب في السفر الى حدود كبيرة حقيقية! وابتسم بحزن.

فكرت برعب في العودة إلى ياسنايا بوليانا. كما هو الحال دائمًا، عندما خفت من تفاقم الأجواء، بدأ والدي العمل بجد. ذات مرة عندما أتيت إليه برسائل قال:

ـ حسنًا، ساشا، ما زلت تطلبين العمل، سأعطيك إياه قريبًا... وها أنا اتمشى وأفكر فيه.

في نفس اليوم، بعد الغداء، دعا الطفلين ميكا وتانيا، إلى غرفته وروى لهما حكاية. كتبتها وأنا جالسة تحت النافذة حتى لا أزعجه بوجودي.

«كانت هناك شقيقتان، ولديهما طفلان: إحداهما لديها فتاة: سونيا، والأخرى لديها ولد: بيتيا. ذات مرة ذهبت الأخوات لزيارة احدى العوائل، وتم إرسال الأطفال قبلهما مع مربية، ووقع حادث سيئ في الطريق. انكسرت عجلة العربة، وبات من المستحيل الذهاب إلى أبعد من ذلك. وكانت هناك قرية: وجاء الفلاحون ووعدوا بإصلاحها، وليس هناك حل آخر، فذهب الأطفال مع المربية إلى كوخ قريب، وشاهدا هناك فتاة وامرأة في الكوخ. كانت الفتاة نحيفة، وفستانها ممزق، وتبكي. وسالت سونيا وبيتيا المرأة: لماذا تبكي؟ تبكي لأنها تريد حليبا، ولكن ليس لدينا حليب! وقالت المربية لسونيا وبيتيا: سأطعمكما، اشربا الحليب! فقالت سونيا: لن أشرب الحليب، أعطه للفتاة. بدأت المربية تقول: هذا غير ممكن، اشربا الحليب! ـ وقالت سونيا وبيتيا مرة أخرى: لن نشرب، إذا لم تعطه للفتاة! حينها أعطته المربية للفتاة، ثم جاء صبي آخر. ومرة أخرى تقول سونيا وبيتيا: لن نشرب، وأعطت المربية الحليب للصبي! وسأل بيتيا: لماذا لدينا الكثير من كل شيء، ولكن ليس لديهم شيء؟ فأوضحت لهم المربية: هذه هي مشيئة الرب! وتقول سونيا: ليس

صحيحًا! إذا فعل الرب ذلك، فهو رب شرير ولن أصلي له. وقال بيتيا: إذا فعل الرب ذلك، فلا نريد أن نصلي لمثل هذا الإله! وفجأة سمعا صوتًا من الموقد. كان هناك رجل عجوز يرقد ـ ذكي: أنت تقول إن الرب شرير. إنه أَمرَ بحب كل الناس. ولكن الناس أقاموا نظاما على هذا النحو! ـ لماذا أقاموا مثل هذا النظام ـ سألت سونيا ـ البعض يمتلك الكثير وليس لدى البعض الآخر شيئا؟ ـ وقال بيتيا: عندما أكبر، سأقيم نظاماً يحصل الجميع فيه على حصة متساوية. ـ وقال العجوز: حسنًا، انظروا وأقيموا هذا النظام، يا أولاد، الرب يوفقكم!

ولا أعرف فيما إذا كانوا قد أقاموا ذلك النظام ام لا.»

سأل الأب:

ـ هل تفهمون يا أطفال؟.

ـ نعم نعم!

ـ حسنا، غنوا الآن!

وشرع الجميع ابتداء من الجد بغناء «لا يعرف عصفور الرب...»

ـ حسنا، هل يسمح لكما بتناول الحلوى؟ ـ سأل الجد.

ـ سأسأل أمي! ـ وركضا.

عندما التقى والدي ليوفا سوخوتين، قال له ضاحكًا:

ـ حسنًا، لوفيتشكا، لقد رويت لابنك حكاية اشتراكية!

كان الأب مهتمًا دائمًا بالسؤال عن الشكل الذي يمكن فيه أن نغرس في الأطفال الاهتمام بالقضايا الأخلاقية. في صباح اليوم التالي سأل عما إذا كان الأطفال قد فهموا قصته. لم يفهم ميكا، لكن تانيا روت الحكاية من البداية إلى النهاية، وعندما وصلت إلى المكان الذي رفض فيه

الأطفال الحليب تحدثت بخفوت وخيل لي انها ستجهش بالبكاء. روت وظهر بشكل واضح انه تأثر بها.

استدعى الأخ ليف والدته إلى ياسنايا بوليانا. هذا جعلها متوترة مرة أخرى، وأجهشت بالبكاء، وأدانت والدي على أنانيته، واشتكت أنه يتركها تذهب بمفردها. ولتهدئة والدي، تطوعت لمرافقة والدتي إلى ياسنايا بوليانا. شكرني والدي، وأكدت لي تانيا أنني أنجز عملاً فذًا.

قضينا عدة أيام في ياسنايا بوليانا. من دون الوالد. كانت أمي أكثر هدوءً. ولكن بمجرد أن عدنا إلى كوتشيتي، وقعت مرة أخرى في حالة عصبية. إنّ أبسط سبب جعلها تفقد توازنها. جاء مصور أفلام من شركة درانكوف، وسعى للحصول على فرصة لتصوير والدي. كان ذلك كافياً لإثارة هياجها، أرادت بأي ثمن أن تتصور مع والدي، وصبت الكثير من الانفعالات والقلق في هذه الرغبة، كما لو كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة لها.

قالت:

ـ نشرت بعض الصحف أنّ تولستوي طلّق زوجته! لذا دع الجميع يرون الآن أن هذا ليس صحيحًا!

وتوسلت أثناء التصوير إلى الوالد عدة مرات أن ينظر إليها.

كل يوم طالبت بإلحاح أكثر فأكثر أن يعود الوالد إلى ياسنايا بوليانا، وعانت من ألم عصبي، ورفضت الأكل. بمجرد أن يدخل الوالد الغرفة، شرعت في التقلب على السرير، وإرسال أنين، وتأوه. شكّ دوسان بتروفيتش، وعلى الرغم من وداعته، في أن والدتي كانت تبالغ في معاناتها.

استمر هذا لمدة أسبوع تقريبًا كان وذات مرة، عندما ذهب والدي على متن حصان، ركضت الأم إلى الحديقة، وهي في حالة هياج شديد.
وعندما عاد، لم يذهب الأب لأخذ قسط من الراحة، بل ذهب للبحث عنها،

لكنه لم يعثر عليها، وطلب من دوشان بتروفيتش البحث عنها. وجدها ميخائيل سيرجيفيتش على مقعد بالقرب من الترعة، واتضح أن دوشان بتروفيتش كان شاهدًا غير مقصود على محادثتهما. صرخت بشكل بوسع القرية أن تسمعها.

قال دوشان بتروفيتش:

ـ لم أر هذا الشخص الهادئ في مثل حالة الغضب هذه!.صرخ ميخائيل سيرجيفيتش أنه إذا لم توقف والدتي مهزلتها على الفور، فمن المؤكد أن ليف نيكولايفيتش سيتركها، وسيصر هو ميخائيل سيرجيفيتش وتانيا، والجميع على ذلك.

ـ إن مجدكِ، كزوجة تولستوي، سينهار! وسيقال هرب تولستوي من زوجته التي سممت حياته!

اعترضت الأم.

ـ سأكتب إلى الصحف، سأبرأ ساحتي!

ـ لا، لا يمكن التبرئة هنا. ذهب وذهب. في السنة الثانية والثمانين من عمره، من يعيشون جيدا لا يتركون زوجاتهم!

قال ميخائيل سيرجيفيتش الآن لا أحد يصدق مرضها النفسي.

ودافعت الأم عن نفسها:

ـ لا، أنا مريضة حقًا!

ـ إذا كنت مريضًة، فاتبعي تعليمات الأطباء، وانفصلي عن ليف نيكولايفتش، وإلا فسيتعين عليه تركك، وسترين!

ـ وحينها سوف اترك رسالة انتحار حول ما قام به لنشرها في الصحف، وسأسمم نفسي وألحق العار به في جميع أنحاء روسيا.

وصرخ ميخائيل سيرجيفيتش وقد خرج عن طوره:

ـ لن يصدقك أحد، لن يصدقك أحد!

وأخيرًا، استكانت الأم وعادت إلى المنزل. ولكن في المساء بدأت مرة أخرى في مطالبة والدي بالعودة معها إلى المنزل، أو على الأقل تحديد يوم المغادرة. لكن الأب رد بأنه ليس صبياً وأنه نادم على أنه أعطاها أي وعود في السابق، لكنه الآن لن يخضع لها في أي شيء.

وخففت الأم من حدتها، وبدأت تطلب منه المغفرة، وقالت إنها سترد له كل وعوده.

ذهبت أمي في الثاني عشر من سبتمبر بمفردها إلى ياسنايا بوليانا. عشنا عشرة أيام في كوتشيتي بهدوء. أخذنا استراحة من كل ما عشناه. عمل والدي خلال هذه الأيام، وتلقى العديد من الأخبار الشيقة التي أثارت قلقه بشدة: كتاب لكوبشينسكي ضد الحرب، ورسالة من نيكولاييف عن ابنه الذي سيرفض الخدمة العسكرية، ورسالة من بولجاكوف، الذي قرر مع سيريوجا بوليجين أيضًا عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية، وأخيرً وصف معاناة الرافضين للخدمة العسكرية.

فكرت في ذاتي «هل يعرف كل هؤلاء الناس أن والدي نفسه يعاني من عذاب ليس أقل مما يعانون منه؟ إنه يحمل أعظم ماثرة حب، كما قالت تانيا؟»

لم تكن في قلبي استكانة، بل كان هناك رعب ويأس. ذهب سيريوجا إلى منزله في نيكولسكويه ـ فيازيمكويه، وستبقى تانيا في كوتشيتكي، ولم نعول على مساعدة بقية الإخوة، وسنعود أنا وأبي إلى ياسنايا بوليانا مرة أخرى. فكرت بكآبة: «أبي لن يتحمل، سيموت».

الشهر الأخير في ياسنايا بوليانا

أرسلَت عربتان إلينا إلى المحطة. لاذ الأب بالصمت طوال الطريق. وفجأة ظهرت صورة شبح فارس في الظلام.

ـ إيفان، ما هذا؟

ـ أُرسلت الكونتيسة هذا الشركسي مع شعلة.

كانت السماء المظلمة مليئةً بالنجوم المشرقة، وكان الطريق مرئيًا بوضوح بدون شعلة.

ـ لا حاجة للضوء! ـ صرخ إيفان ـ هيا، امضِ للأمام واجعل الفلاحين يفسحون لنا الطريق!

امتدت عربات لا نهاية لها في السوق بمدينة تولا. سار الشركسي إلى الأمام وهو يخب سريعا.

ـ إلى اليمين، إلى اليمين، أيها الشياطين، أو لا تسمعوا! ـ صرخ بصوت وحشي، على الرجال.

استقبلتنا أمي في الدرج بنظرة مفعمة بالمعاناة. خلال تناول الشاي تنهدت، وتأوهت، كالسابق.

همس والدي لي عندما كنا بمفردنا لمدة دقيقة.

ـ إن حالتها سيئة للغاية.

نعم، لقد كانت سيئة للغاية: لقد اتهمت والدي بأنه لم يأت إلى يوم عيد اسمها، ووبخته باعتباره عجوزا أنانيا، وابيقوريا(79) يعيش حيث هناك حيث المتعة، دون أن يفكربها.

(79) الأبيقورية أو المذهب الأبيقوري يُنسب إلى الفيلسوف اليوناني (340 ق.م ـ 270 ق.م)، الذي أنشأه وقد ساد لستة

قرون، وهو مذهب فلسفي مؤداه أن هي وحدها الخير الأسمى، هو وحده الشر الأقصى.

وقالت لي:

ـ لا أستطيع رؤية قامته المنحنية العجوزة، إنه مقرف جدا لي، مقرف جدا...

خنقتني العبرات.

كان يوم 23 سبتمبر يوم ذكرى زواج الوالدين عام 1862. خرجت أمي من غرفتها متأنقة، مرتدية فستانًا من الحرير الأبيض، وقدمت الشوكولاتة على الإفطار، وكان كل شيء احتفاليًا، فقط في أرواحنا كان ظلام وكآبة. وعندما دخلت مكتب والدي، لاحظت عدم وجود صورتي مع والدي، ولا صورة تشيرتكوف مع حفيده إليوشا، على جدران المكتب. اتضح أن أمي انتزعتها وعلقت صورتها في مكانها.

بعد الإفطار شرعت أمي في تجهيز الشاشة لالتقاط الصور مع والدي. كانت قلقة للغاية، ولم تكن تعرف ما إذا كان سيوافق، لأنه كان قد وعدها مؤخرًا بأنه لن يصور بعد الآن لتشيرتكوف. كان الأمر صعبًا على والدي، ولكنه وافق من أجل تجنب الدموع والمشاحنات. لم تخرج الصورة. طلبت أمي من الوالد في اليوم التالي التقاط صورة معها في الفناء. كان الطقس باردا، والرياح عاتية، وارتدت أمي ثوباً أبيض من الحرير ودعت أبي، وطلبتُ منه أن يرتدي معطفاً وقبعة، لكنه ابعدني ملوحا بيده، وذهب من دون معطف وحاسر الرأس. كان يقف بجانب والدتي، ويداه مطويتان في حزامه. تابعت العجوزة شميدت هذا المشهد من النافذة، تأوهت وكانت مستاءة. أرادت الأم أن تحول وجه والدي نحوها، لكنها فشلت. وقف الأب كالعمود.

كان كل شيء يغلي بداخلي من السخط، وانتابني الخوف من أن يصاب والدي بنزلة برد، ولم أستطع تحمل ذلك وبدأت في الإفصاح عن

مشاعري بصوت عالٍ. لم أتذكر ما قلته، لكن ماريا ألكساندروفنا بذلت قصارى جهدها لتهدئتي.

ـ ما بك يا ساشا، تصرخين هكذا؟

لم ألاحظ دخول والدي. كررت له كل ما قلته للتو.

صرخت قائلة:

ـ انكَ من أجل الوالدة، التي تسبب لك الكثير من الأذى، ضحيت بصديق، وابنة. لم أعلق صورتي بنفسي في غرفتك، لقد علقتها بنفسك، والآن لا تجرؤ على استعادتها!

عندما أتذكر سورة الغضب المتهور الشنيع هذه، يساورني الألم وحتى الرغبة ذرف الدموع! مستعدة لمنح الغالي والنفيس لدي حتى تمّحي هذه السورة من ذاكرتي للأبد!

هز الأب رأسه.

قال لي:

ـ لقد أصبحتِ مثلها!

ثم غادر.

لم أزره طوال اليوم. لقد شعرت بالخجل، والخزي...

قالت والدتي خلال الغداء إنها سترسل الصور اليوم إلى جريدة «الكلمة الروسية». لاذ الجميع بالصمت.

جلست كعادتي في المساء وكتبت في غرفة العمل. كان على قلبي حجر ثقيل للغاية. رن الجرس. كنت أشعر بالخجل من الذهاب إلى والدي، لقد أرسلت بولجاكوف. بعد دقيقة رن الجرس مرة أخرى. لم أذهب مرة أخرى. عاد بولجاكوف وقال إن والدي يسأل: لماذا لم تحضر ساشا؟

فذهبتُ اليه.

ـ ساشا، أريد أن أملي عليك رسالة.

ـ حسنا.

أخذت قلم رصاص وورقة وتهيأت للكتابة. وكان في داخلي رغبة في الاندفاع لتقبيل يديه وطلب المغفرة. كانت هناك عبرات تتصاعد في حلقي، ولم أستطع أن أتفوه بكلمة.

ـ لست بحاجة إلى اختزالك، لا احتاج له!

قال الأب فجأة، بصوت خافت، والدموع في صوته، وسقط ووجهه للأسفل على ذراع الكرسي، وهو يبكي.

هرعت لتقبيل جبهته وكتفيه ويديه:

ـ اغفر لي، سامحني!. اغفر لي!

كلانا بكى لفترة طويلة. عندما بدأ يملي عليّ، بالكاد استطعت من خلال الدموع أن أرسم علامات الاختزال. أخيرًا، انتهينا.

جددت مرة أخرى.

ـ أنا آسفة، سامحني!

قال:

ـ لقد نسيت كل شيء.

في صباح اليوم التالي، عندما أتيت إلى والدي، لفت انتباهي أن صورتي كانت معلقة في نفس المكان. وكنت خائفة من أن يؤدي هذا مرة اخرى الى مواجهة. لقد تغلبت على كل ما كان أمس مؤلمًا للغاية، ولم يسبب معاناة، فكرت فقط في هدوئه.

قلت:

ـ أبي، أردت أن أطلب منك انتزاع صورتي. حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه. لا اهتم الآن!

ـ لا، لا، أنا لا أفعل هذا من أجلك، ولكن لنفسي. ارجوكِ ساعديني في تعليق الصور كما كانت سابقا! أين كانت صورة تشيرتكوف، هنا؟

أظهرت. عندما علقنا الصور في الأماكن القديمة قال:

ـ الآن جيد!

قررت أن أذهب إلى قرية تابتيكوفو لرؤية أولغا مع الأطفال. وذهبت فارفارا ميخائيلوفنا معي. تواعدتُ ووالدي وأخذت كلمة من ماريا ألكساندروفنا، التي كانت تقيم لدينا، لإخطاري إذا حدث شيء ما. لقد أمضيت اليوم كله مع أولغا. وفي حوالي الساعة التاسعة صباحًا جلسنا نشرب الشاي. وجاءت الخادمة.

ـ الكسندرا لفوفنا! رسالة إليكم من ياسنايا بوليانا!

انقبض قلبي. قمت بفض المظروف ـ رسالة من ماريا ألكساندروفنا. تطلب مني أن آتي على الفور. أمي في حالة مريعة، ماريا الكسندروفنا خائفة على صحة والدي.

أرتجفت اوصالي كما لو كنت في حمى. طلبت دعوة الحوذي بأسرع ما يمكن.

قال الحوذي إيفان:

ـ من المستحيل السفر الآن، قذارة، وظلام، سنكسر الطاقم! ربما فقط على الطريق الحجري عبر تولا.

من خلال تولا خمسة وعشرون فيرستا.

ـ جهز العربة بسرعة! دعنا نذهب إلى تولا!

وصلنا حوالي الساعة الثانية عشرة ليلا. قابلتنا ماريا الكسندروفنا على الشرفة وأخبرتنا أنه بعد رحيلنا، ذهبت الأم إلى المكتب ورأت الصور معلقة في أماكنها السابقة، وأطلقت النار على الصور بفزاعة، ومزقت صورة تشيرتكوف إلى نتف صغيرة. وخافت ماريا الكسندروفنا وأرسلت إلينا.

صرخت فينا أمي:

ـ حمقى مجانين، لماذا رجعتم!

لقد وبختنا، وانهالت علينا بالشتائم، وعلى العجوزالمسكينة شميت لأنها أخبرتنا بالحدث بذلك، وقالت لفارفارا ميخائيلوفنا يمكنها الذهاب صباح الغد إلى أي مكان تريده.

صرخت بي:

ـ سأطردك من المنزل، كما طردت تشيرتكوف!

ارتجف كل شيء بداخلي، ولكن لحسن الحظ كانت لدي القوة لكبح جماح نفسي.

لقد وصلت بالفعل إلى اليأس الكامل. لم يكن هناك مخرج! ذهبتُ إلى مكتب والدي، كان ذلك في بداية الساعة الواحدة. لم يكن قد خلع ملابسه بعد، وكان جالسا على كرسيه.

«يا رب، إلى متى سيحتمل هذا؟» سألت نفسي وأنا أنظر إلى وجهه المعذب.

قلت:

ـ أبي؟، ألا تعتقد أن من الأفضل أن اذهب للإقامة في منزلي في قرية تيلاتينكا؟

فكرت «ربما سيعطي هذا دفعة لرحيله».

لدهشتي، وافق والدي معي.

قال:

ـ نعم، ارحلي.

في الصباح التالي انتقلنا إلى منزل بارد وقذر في تيلاتينكا. جاءت عرابتي أنوشكا من ياسنايا بوليانا، ومكثت وفارفارا ميخائيلوفنا معي لترتيب المنزل، وذهبتُ إلى ياسنايا بوليانا. استقبلني والدي بفرح. سألته مرة أخرى عن شعوره بمغادرتي.

ـ لعلمك ـ قال ـ أنا على العموم غير موافق على نفاذ صبرك من الوضع الذي لا يطاق ومغادرتك المنزل...تعرفين كيف ارد دائما في الرسائل على مثل هذه الأسئلة، في رأيي، ليس من الضروري تغير الظروف الخارجية، هذا مع من ناحية، ومن ناحية أخرى، وبسبب ضعفي، أنا سعيد برحيلك. أقرب إلى الخاتمة! أن الوضع لا يمكن يستمر على هذا المنوال أكثر من ذلك! لقد عزلت صوفيا اندريفنا تشيرتكوف، وصرخت في وجه ماريا الكسندرفنا، وطردت فرفارا، وطردتكِ تقريبًا. لا تكتئبي، وتماسكي، كل هذا للأفضل!

عملت في ياسنايا بوليانا طوال الصباح وحتى الإفطار، وغادرت إلى تيلاتينكي. غشى الغموض روحي، وانتابتني الشكوك فيما إذا كنت قد قمت بالشيء الصحيح. لقد تعذبت أيضًا من أنني كنت بعيدة عن والدي، وليس بميسوري أن أكون معه كل دقيقة، وأصون سلامته.

كل هذه الفترة كنت أذهب إلى ياسنايا بوليانا كل يوم، وأحيانًا مرتين، كما هو الحال دائمًا، لأعمل من أجل والدي. بدا أن رحيلي كان له تأثير

جيد على والدتي! لابد أنها أدركت أنها تمادت بتصرفاتها، وغدت خائفة من قساوتها، وأصبحت أكثر ليونة مع والدي. حاولت إقناعي أنا وفارفارا ميخائيلوفنا بالعودة، لكنني قررت الانتظار.

جاءت تانيا وسيريوجا. أخبرا الأم أنها بحاجة إلى العيش في مصحة بعيدًا عن والدي، لكنها لن توافق أبدًا.

في 3 أكتوبر، في الوقت الذي عدت فيه إلى تيلاتينكي، شرعت بفرز الأوراق، وفجأة جاء رسول من ياسنايا بوليانا ومعه رسالة من بولجاكوف: «ألكسندرا لفوفنا، إن حالة ليف نيكولايفيتش سيئة. تعالوا بسرعة!»

ركبتُ إلى ياسنايا بوليانا. وعندما دخلت القاعة الأمامية، تأرجحت قدماي من شدة الاضطراب. قابلني إيليا فاسيليفيتش.

ـ على قيد الحياة؟

ـ نعم على قيد الحياة. لكنه سيء جدا!

ـ إغماء؟

ـ نعم.

جاء دوشان بتروفيتش راكضا مع حقنة. جلست تانيا في المكتب بعيون مبللة بالدموع. قفزت والدتي من غرفة النوم للقائي، وخرت على ركبتيها عند الشرفة وبدأت بالصلاة: «فقط ليس في هذه المرة، فقط ليس في هذه المرة!» كررت كما لو كانت مجنونة. شعرت بالشفقة عليها!

دلفت غرفة النوم. اهتز السرير كله من التشنجات المروعة. حاولت أن أمسك ساقيه، لكن اتضح أن ذلك مستحيل. كان الأب فاقدًا للوعي. روت لي تانيا كيف حدث ذلك. ذهب الأب، كالعادة، إلى الفراش للقيلولة في الخامسة بعد الظهر. ولم يستيقظ حينما حان وقت الغداء، وفي الساعة السادسة والنصف جاءت والدتي إلى الباب لتسمع ما إذا كان

قد استيقظ. سمعت أنه ضرب عود ثقاب وعاد إلى الصالة. ولكن مرت نصف ساعة أخرى، ولم يظهر والدي. ثم دخلت عليه. كانت الشمعة مضيئة. وخط بإصبعه على البطانية، مكررًا الكلمات: الإيمان، والعقل، والدين، والدولة. من الواضح أن هذه كانت كلمات من مقال عن الاشتراكية كتبه في الصباح.

استدعوا طبيبا من تولا. وأصررتُ أنا على أن يبعثوا برسالة تلغراف إلى نيكيتين أو بيركينهايم.

تكررت التشنجات كل نصف ساعة تقريبًا. وفي احدى المرات غدت قوية لدرجة أنها ألقت بوالدي عبر السرير. لم يستعد وعيه.

جلست وتانيا في المكتب بجوار غرفة النوم. دخلت الأم عدة مرات، وخرت على ركبتيها، وصلت، وجددت: «فقط ليس هذه المرة، فقط ليس هذه المرة»!

لقد عانت كثيرا.

وصل تشيرتكوف، ولم يجرؤ على الصعود إلى الطابق العلوي، جلس في الطابق السفلي في غرفة دوشان بتروفيتش. كنت على يقين من أن والدي كان يحتضر. وكان هناك يأس ممل في روحي. لكن بحلول الليل شعر بتحسن.

ذهبت أمي بسرعة إلى غرفة الضيوف، وفتحت القفل، وأخرجت شيئًا، وحملته خلفها، وحملته إلى المكتب. وضعت هذا «الشيء» في الحقيبة على المكتب وغادرت. تبعتها تانيا وسألت عما تخفيه.

قالت أمي:

ـ اخذت اليوميات، وإلا لكان من المؤكد أنها ستُسرق إذا مات الوالد.

لقد ترك هذا انطباعًا فظيعا على تانيا. وشعرت على الفور بالاحباط والكئابة.

عندما شعر والدي بالتحسن، دخلتُ عليه وقبلتُ يده. كان مسرورا.

قال سيريوجا، الذي كان واقفا في الجوار:

ـ لقد وصلت.

سأل والدي بقلق.

ـ من أين أتيت؟ قلت

ـ لا، لا، يا أبي؟ أنا لم أذهب إلى أي مكان، كنت هنا معك طوال الوقت.

ـ آها! ـ تنهد بارتياح.

بالكاد نمنا في تلك الليلة.، ثم نهضت تانيا واقتربت من الباب. في الساعة الرابعة صباحًا سمعت أن والدي كان مستيقظًا ودخلتُ عليه. لقد كان بالفعل واعيًا تمامًا وسألني كيف حدث كل هذا. أخبرته أنني سأروي لك في الصباح وغادرت.

في صباح اليوم التالي، كان والدي قوي عقليًا ومنتعشاً كما هو الحال دائمًا، لكنه ضعيف جسديًا لدرجة أنه بالكاد يستطيع أن يتحول من جانب إلى آخر. فقد من وزنه في ليلة واحدة، كما لو أنه مرض لمدة شهر.

مرة أخرى تحدثت سريوجا وتانيا مع الوالدة حول عقد مجلس الأسرة، لاجبارها على الإنفصال عن الوالد. قدمت والدتي الأعذار، وشكت لسيريوجا مني، وأني صرخت عليها، وزعمت انها لا تعرف سبب خروجي من المنزل.

قررت أن افصح لأخي الأكبر عن كل ما كان يغلي في روحي. قلت إنني منذ عدة أشهر أشاهد والدتي تعذّب والدي، وكيف فرّقت الجميع، معتقدة أن كل الناس متهمون، فهم سيئون باستثنائها، وكيف حصلت

على الحقوق، واليوميات، وكيف أجبرت الوالد على التعامل معها، وأنها كانت مدفوعة بأهداف منفعية، وأنانية...

كان سيريوجا وتانيا غير راضين عن نبرة صوتي القاسية، لكنني أخبرتهما:

ـ ليس بوسعكم المكوث حتى ثلاثة أيام في منزل الوالدين، وتشرعون بالقول إن لدينا أعمالا وأُسرا، بينما أنا أعاني طوال حياتي، من النظر إلى معاناة والدي. من فضلكم لا تحكموا علي!

في الواحدة والنصف، دعاني والدي وطلب مني قراءة الرسائل بصوت عالٍ عليه. لقد أملى الإجابات على رسالتين واحدة إلى كراشينيكوف، نجل رئيس المحكمة، واخرى إلى عامل. كان صوته ضعيفًا ومريضًا، لكن الأفكار كانت واضحة وقوية. وعندما اتممت قراءة جميع الرسائل والرد عليها، قبّلت والدي، وقلت إنني سأعود في المساء مرة أخرى وسأقضي الليل. وفي الوقت الذي نزلت فيه إلى القاعة، عرفت أن والدتي كانت تبحث عني.

ـ أين هي؟

ـ على الشرفة.

دخلت، واذا أمي تقف بالثوب وحده.

ـ هل تريدين التحدث معي؟

ـ نعم. أردت أن أخطو خطوة أخرى نحو المصالحة. سامحيني!

وطفقت تقبّلني، وهي تكرر: أنا آسفة، أنا آسفة! أنا أيضا قبلتها وطلبت منها أن تهدأ.

ـ سامحيني، سامحني، أعطيك كلمة الشرف بأنني لن أسيء إليك مرة أخرى ـ كررت، وهي ترسم علامة الصليب على نفسها وتقبلني ـ انقلي

لفرفارا أنني أعتذر منها. عشنا معها اربع سنوات وبمشيئة الرب سنعيش أكثر. لا أعلم ما حدث لي، وما حدث لنا.

قلت لها وأنا أغرق في البكاء:

ـ لا تسيئي إلي، ولا تغضبي الوالد، لا أستطيع أن أرى مدى عذابه!

ـ لن أفعل، أعطيك كلمة شرف، لن أعذبه! لا تعرفي كم عانيت هذه الليلة. أعلم أنه مريض مني. لن أسامح نفسي أبدًا إذا مات.

تحدثنا ونحن نقف في الفناء. نظر إلينا بعض المارة بدهشة. طلبت من والدتي أن تدخل إلى المنزل. لكن ظهر بافل بييريوكوف وشخص آخر في المدخل. توقفنا في الدهليز بين بابي المدخل وواصلنا الحديث هنا. طلبت مني أمي العودة وطلبت مني أن أغفر وأنسى.

كررت مرات عديدة بأنها تعد بعدم تعذيبي وأبي بعد الآن.

قالت:

ـ لن تصدقي، كم أنا اغار، لم أشعر أبدًا في حياتي، حتى في شبابي، بمثل هذه الغيرة القوية كما هو الحال الآن من تشيرتكوف. لقد صدقتها، وتلاشى الشعور بالمرارة والاستياء وانعدام الثقة التي تراكمت في روحي ومزقتها بألم حاد. كانت أمامي أما غير سعيدة، تعاني بشدة، ربما ليس أقل من أبي.

لأول مرة منذ فترة طويلة، قبلتها بصدق، وهدأتها، وطمأنتها كطفل.

قالت:

ـ وستتحسن العلاقة بتشيرتكوف، سأحاول ضبط نفسي. وسأدع الأب يلتقي به. فقط ان تكون حالته جيدة! أن يكون هادئا ومبهجا! ـ بكت طوال الوقت ورسمت اشارة الصليب.

في المساء وصلتُ أنا وفارفارا ميخائيلوفنا مرة أخرى إلى ياسنايا بوليانا. عندما أخبرت والدي عن المصالحة مع والدتي، كانت غرفة النوم الغرفة مظلمة، لكن بدا لي أنه يبكي.

غادرت تانيا وسيريوجا.

ساد الهدوء لعدة أيام. وافقت الأم على أن يأتي تشيرتكوف. ولكن بمجرد دخوله المنزل، شعرت بالتوتر مرة أخرى، وراحت تسترق السمع.

في 10 أكتوبر، كان ناجيفين في ضيافتنا. جرى الحديث عن وفاة ابنته. وكيف تم دفنها من دون طقوس الكنيسة. تحدث ناجيفين عن مدى صعوبة الأمر بالنسبة له، شعر بان هناك شيئًا مفقودا.

ـ ما المهم هنا، ـ قال الأب، ـ هذا لا يتعلق بالحياة، لقد ماتت، ودُفنت، مغطاة بالأرض. وهذا غير مبالٍ تمامًا، مثله مثل الأحذية التي يجب ارتداؤها أو الصابون الذي يجب غسله. المهم هو ذكرى الإنسان، الذكرى التي تبقى منه، لكن هذه الطقوس لا علاقة لها بالحياة، وهذا ليس ضروريًا بالنسبة لي وليس مهمًا. المرأة العجوز تصلي لملكة السماء، أنا أحترمها، لكني لست بحاجة إليها. لقد ولدتُ بالفعل من جديد. ماتت ابنتي ماشا، أتذكر شخصيتها الروحية، وهي قريبة مني، أحبها، لن أنساها، لكني لا أتذكر كيف دفنت، لا يهمني!

لسبب ما، تذكر ناجيفين وفاة سقراط.

ـ قال الأب، إنها سعادة ـ أن أموت مثل سقراط. أنا لن أقتل نفسي في هذه الحالة، بل فُرض علي أن أشرب السم، وأشربهُ، لا يسعني إلا أن أشربه. يا لها من سعادة! ارتجف صوته.

وعندما حدثه ناجيفين عن لا عدالة الحزن الذي أرسل له، قال والدي:

ـ القضية تكمن هنا في حبك الحصري لابنتك. هذه خطيئتك وخطيئتي، العلاقة الحصرية ببناتنا. إنني اشعر بالأسى إذا دفنوا ابنتي ماشا،

لكن إذا دفنوا ماتريوشكا، لا أهتم بها. يجب أن أسعى إلى أن أشعر بالأسى على ماتريوشكا كما أشعر بالأسى على ماشا. وهذا المثل الذي اقتدي به، وكلما اقترب منه أكثر، كان ذلك أفضل.

في 12 أكتوبر، بدأ كل شيء من جديد. لقد نسيت أمي الوعود، ومرض الأب. وتوسلت الوالد القضاء على الوصية، وركعت على ركبتيها وقبلت يديه. أخبرت الجميع أنه إذا مات الوالد، وترك وصية، فستكون قادرة على إثبات إنه مخرف وبليد.

وعندما دخلت غرفة والدي في صباح اليوم السابع عشر، أظهر لي رسالة من والدتي بابتسامة مريرة.

ـ انظري، لدي هدية، اقرئي!

فتحت الرسالة.

«تسالني كل يوم، كما لو كنت متعاطفًا، عن صحتي ـ وعن كيف نمت، بينما توجه لي كل يوم ضربات جديدة تحرق قلب وتقصر أجل حياتي وتعذبني بشكل لا يطاق، ولا تستطيع وضع حد لمعاناتي. هذه ضربة جديدة، وفيما يتعلق بالحرمان من حقوق التأليف والنشر للكثير من ذريتك فإنه عمل شرير، وبمشية القدر اكتشفت هذا، على الرغم من أن شريكك في هذا الأمر لم يطلب منك أن تخبر عائلتك. لقد هدد بالحاق الضرر بي وبعائلتي، ونفذ تهديده ببراعة، حيث نال منك ورقة الرفض بتضليلك بطرق احتيالية. إن الحكومة، التي ترفضونها وتنتقدونها في جميع الكتيبات، ستصادر بموجب القانون آخر قطعة خبز من الورثة، وتعطيها للناشر ناتان سيتين ومختلف أصحاب دور الطباعة الأغنياء والمحتالين، بينما سيموت أحفاد تولستوي، وبمشيئته الشريرة، من الجوع. أما الحكومة، وبنك الدولة فيحرس اليوميات عن زوجة تولستوي. إن الحب المسيحي يقتل دائمًا بمختلف التصرفات (ليس كما ترى، ولكن من وجهة نظري) الشخص الأقرب ـ الزوجة، التي لم تركب أي أعمال شريرة طوال الوقت، ولم ترتكبها الآن أيضًا، باستثناء المعاناة

الشديدة. تخيم علي، وستظل مخيمة علي لاحقا التهديدات المختلفة. ولكن يا ليوفتشكا عندما تذهب للصلاة خلال نزهتك، صلِّ، وفكر جيدًا فيما تفعله تحت ضغط هذا الشرير، أطفئ الشر، وأوقظ الحب والخير في قلبك، وليس الشر والأفعال الدنيئة، وانسَ الغرور والكبرياء (حول حقوق النشر)، اخمد الكراهية التي تكنها لي، لمن أعطاك كل حياته وحبه.

وإذا ما قيل لك أن المصلحة الشخصية تتحكم بي، فأنا شخصياً مستعدة رسميًا، كأبنتي تانيا، التخلي عن حقوق ميراث زوجي. ماذا احتاج؟ من الواضح أنني سأموت قريبًا بطريقة أو بأخرى، لكن الرعب يأخذني إذا عشت أكثر منك، فأي شر يمكن أن ينشأ على قبرك، وفي ذاكرة أطفالك وأحفادك.

لوفيتشكا أخمده، وأنت على قيد الحياة، ايقظ قلبك الفخور واجعله رقيقا، وأيقظ فيه الرب والحب، الذي تتحدث عنه بصوت عالٍ للناس.

ص. ت»

اجتمع في هذا الوقت في ياسنايا بوليانا، العديد من الضيوف الذين لم يزورنا منذ فترة طويلة: ستاخوفيتش، دولغوروكوف، جوربونوف. لقد تعين على المسكين إيفان إيفانوفيتش الاستماع إلى كل شيء: عن حماقة الوالد، وعن الشرير تشيرتكوف، وعن أحفاده الذين تركوا بدون قطعة خبز...

كان الوضع يزداد سوءًا كل يوم. بدأت الهستيريا مرة أخرى، ومطالبة الوالد بعدم رؤية تشيرتكوف، وتصفية الوصية. لكن والدي كان مصمماً على عدم تقديم أي وعود.

صرخت أمي:

«لقد تبرعت بكل شيء لك، لقد تزوجتني، فتاة طاهرة ونقية تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وأنت...

ـ نعم، نعم، أنا شرير، قبيح. لقد ضحيت بالفعل بكل شيء من اجلي، والآن دعيني من فضلك!

وشرعت مرة أخرى في الاندفا ع إليه، ليس فقط أثناء النهار ولكن أيضًا إبان الليل.

اندفعت إليه وهو نائم وصرخت به:

ـ مرة أخرى تحاك مؤامرات ضدي!.

سألها الأب بصوت مرهق.

ـ أي مؤامرات؟ ما تقولين يا سونيا؟

ـ يوميات أين اليوميات؟ هل أعطيتها لشيرتكوف؟

ـ لم أفكر حتى...

ـ لا انت تكذب! لقد تلمست الحقيبة، لا توجد فيها اليومات. أين وضعتها؟

ـ عند ساشا.

غادرت، وعندما استغرق الوالد في النوم توا ، أيقظته مرة أخرى، جاءت لتعتذر عن لومه عبثًا.

جاء ممثل من شركة «التنوير». قالت أمي بمظهر غامض سيتيسر لها تجاوز الوالد، وإنها لن تسمح بوضع المؤلفات تحت الاستخدام العام، وقالت أن «التنوير» عرض عليها مليونًا مقابل حقوق المؤلفات.

وعندما عرف الوالد بذلك، انزعج. ونصح تشيرتكوف بكتابة بيان للصحف يحذر فيه الناشرين من شراء المؤلفات. تم كتابة البيان لكن الأب قرر إرجاء نشره.

في 20 أكتوبر، وصل الفلاح ميخائيل بتروفيتش نوفيكوف الذي يشاطر الوالد وجهات نظره. وترك انطباعًا كبيرًا على والدي.

ـ يا له من ذكي، يا له من ذكي! ـ كرر الأب.

عندما جئت إليه لأخذ الرسائل في القاعة، ابتسم بمرح وبقليل من المكر، أخذني إلى المكتب، ومن هناك إلى غرفة النوم.

ـ تعالي، دعينا نذهب، سأخبرك بسر كبير! سر كبير!

تبعته، ونظرت إليه، أصبح الأمر أسهل بالنسبة لي.

ـ هذا ما توصلت إليه. رويت لنوفيكوف قليلاً عن وضعنا ومدى صعوبة الأمر بالنسبة لي هنا. سوف أذهب إليه. لن يجدوني هناك. أخبرني نوفيكوف كيف كانت زوجة شقيقه مدمنة على الكحول، لذلك إذا بدأت في إساءة التصرف، يضربها شقيقه على ظهرها، حتى تتحسن حالتها، هذا يساعد. وضحك والدي بلطف ـ وتصوري، ما هي التناقضات الموجودة في العالم!

أنا أيضًا انطلقت من الضحك وأخبرت والدي كيف اوصل الحوذي إيفان، أولغا ذات مرة، وسألته عما يحدث في ياسنايا بوليانا. فأجابها بأنها سيئة، ثم التفت إليها فقال:

ـ وماذا يا صاحبة السعادة، سامحيني إذا قلت لك. لدينا على الطريقة الريفية، إذا ما أساءت المرأة، فيعاقبها زوجها بالسوط! تصبح ناعمة مثل الحرير!

بدأ الأب يضحك أكثر.

ـ نعم، نعم، تصوري كيف...

ـ نعم، في رأيي، هذه ليست تناقضات ـ قاطعته ـ فقط لديهم سوط من الحبال، ولابد أن يكون لدينا سوط أخلاقي.

ـ بلى، بلى، يتعين علي أن اغادر من هذا المنزل ـ كرر الأب مرة أخرى
-.

وكتب الأب في الرابع والعشرين، رسالة إلى ميخائيل بتروفيتش:
«ميخائيل بتروفيتش، فيما يتعلق بما قلته لكم قبل مغادرتكم، أتوجه اليكم بالرجاء التالي: إذا ما حدث بالفعل أنني أتيت إليكم، فهل بوسعكم أن تجدوا لي في قريتكم ولو كوخا صغيرا جدا، ولكنه منفصل ودافئ، حتى أضايقكم وعائلتكم لفترة قصيرة جدا. كما أعلمكم بأنه إذا اضطررت إلى إرسال تلغراف لكم، فالبرقية تكون من، ت. نيكولايف(80) نيابة عني».

(80) ابتكرنا أسماء مستعارة لأنفسنا. الأب ـ ت. نيكولاييف وأنا ـ فرولوفا حتى لا يعرف الأصدقاء مكاننا. (المؤلفة).

سأنتظر جوابكم، وأصافحكم بود. ليف تولستوي.

ضعوا في اعتباركم بأنه يجب أن تعرفوا أنتم فقط بكل هذا».

عندما ذهبت لرؤية والدي في 25 أكتوبر، كان جالسًا على كنبة، ولا يفعل شيئًا. كان من الغريب رؤيته بدون قلم وورقة، وبدون كتاب، وحتى بدون سوليتير.

ـ أجلس وأحلم ـ قال لي ـ أحلم كيف سأرحل. سترغبين بالتأكيد الذهاب معي، أليس كذلك؟

ـ نعم. لكنني لا أريد أن أضايقك. ربما في البداية، لا يتوجب ان اغادر معك، لكن بشكل عام أعيش بعيدًا عنك...

ـ نعم، نعم، لكن ما زلت أعتقد أنك لست بصحة جيدة بما يكفي لهذا، سيبدأ السعال وسيلان الأنف...

ـ لا، لا، لا شيء، ـ صرخت بحيوية، ـ سأكون أفضل بكثير في بيئة بسيطة.

كان من الغريب بالنسبة لي أنه كان يتحدث عني.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فوجودك بالقرب مني كمساعدة، ممتع وطبيعي للغاية لي. أنا أفكر بالعمل على هذا النحو. أخذ تذكرة إلى موسكو. أرسلُ شخصًا لنقل الحاجيات الى محطة «لابتيفو» القريبة من قرية ميخائل بتروفيتش، وانزلْ هناك. وإذا عثروا عليّ هناك، سأذهب إلى مكان آخر. حسنًا، ربما هذا كل هذه أحلام! سوف أعاني، إذا تركتها، سوف تعذبني حالتها. ومن ناحية أخرى، الوضع يصبح شاقا، مع كل يوم يزداد صعوبة. أعترف لك، أنا فقط أنتظر ذريعة ما لأغادر.

في 26، جاءنا الأخ سيريوجا، وكان الأب سعيدًا جدًا بوصوله، كما لو كان كان سيريوجا يشعر بعمق بمعاناة والده، كان لطيفًا وحنونًا معه بشكل خاص.

في نفس اليوم تلقينا برقية عن وصول أندريه.

همس والدي:

ـ ساعدنا، يا رب، ساعدنا، يا رب! غدوت أخاف أيضا من أندريه، بعد آخر زيارة له.

لكن أندريه حياني بالكلمات:

ـ حسنا كيف تستقبلني أختي؟

أجبته:

ـ تقبل الأخت إخوتها دائمًا على قدم المساواة.

ـ كل هذا يتوقف على الأخوة أنفسهم.

لقد سررت بكلماته. مهما كان، فهو لا يزال يشعر بمدى قبح سلوكه في زيارته الأخيرة، ويريد التعويض.

كان أندريه في مزاج جيد حقًا وحاول إقناع والدتي بالتصالح مع تشيرتكوف.

عندما استيقظ والدي في فترة ما بعد الظهر، سارعت إلى إخباره، يبدو أن أندريه نادم على سلوكه السابق، وأنه في مزاج جيد وسلمي.

همس والدي:

ـ الحمد للرب، الحمد للرب.

سأل الأب أندريه خلال الغداء، عن خدمته في «بنك الفلاحين»، وتحدثا بهدوء، من دون انزعاج، وهو نادرا ما يحدث بين الأب والأبناء.

في 28 أكتوبر، عندما ذهبت إلى والدي لأخذ العمل، أعطاني رسالة.

قال:

ـ خذي هذه، اقرئيها، من الأفضل أعيدي كتابتها إذا بوسعك قراءتها. هذه رسالة إلى الأم، التي سأتركها لها إذا غادرت. وأنا أفكر في الأمر أكثر فأكثر. ان الوضع شاق جدا. لقد جاءت الليلة الماضية وسألتني عما يكتبه تشيرتكوف. أجبتها بأن الرسالة كانت بصدد الشئون العملية، ولا توجد فيها أسرار، لكنني من حيث المبدأ لم أرغب في السماح لها بقراءتها. طفقت باللوم. إن هذا الشك المستمر صعب، واختلاس النظر من خلال الأبواب، والتفتيش في الأوراق، والتنصت شاق، ويجري هذا في الأيام الأخيرة من العمر، آخر ساعات الحياة، التي يجب أن تستخدم لغرض آخر.

عندما أحضرت الخطاب الذي أعدت كتابته، قلت له:

ـ أبي، لن أبقى وحدي، سأرحل معك.

ـ أطلب منك البقاء معها في الفترة الأولى!

أخذ الخطاب الذي أعدت كتابته، ووضعه في دفتر ملاحظاته.

المغادرة

في مساء يوم 27، كان الجو متوترا بشكل خاص. في البداية، لم تشاركنا أمي في شرب الشاي، وكانت تقوم بالتدقيق اللغوي. جلسنا أربعة إلى الطاولة: أبي، دوشان بتروفيتش، وفارفارا ميخائيلوفنا وأنا. شرب والدي شاي الفراولة الجافة. وجاءت أمي بعد فترة. فنهضتُ وأخذتُ فنجان وغادرتُ القاعة. وسرعان ما جاءت فارفارا ميخائيلوفنا وأخبرتني بأنه بمجرد مغادرتي، أخذ والدي كأسه من شاي الفراولة وذهب أيضًا إلى غرفته. لم أنم أنا وفاريا في تلك الليلة لوقت طويل. خُيل لنا أن شخصًا ما كان يسير ويتحدث في الطابق العلوي في مكتب والدي. قبيل الصباح سمعنا طرقا على الباب.

ـ من هناك؟

ـ أنا، ليف نيكولايفيتش. سأرحل الآن... للنهاية... تعالوا، ساعدوني في حزم الأمتعة.

سألته بخوف:

ـ هل سترحل وحدك؟

ـ لا، سآخذ معي دوشان بتروفيتش.

كنت اتوقع مغادرته، توقعتها كل يوم، وكل ساعة، ولكن مع ذلك، عندما قال: «سأرحل تمامًا»، صدمني الخبر كشيء جديد غير متوقع. لن أنسى أبدًا قامته عند الباب، في بلوزة، بيده شمعة، ووجه مشرق، وجميل ومليء بالإصرار.

عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، كان دوشان بتروفيتش موجودًا هناك. اعتكف الصمت، ولكن بدا واضحًا من حركاته العصبية المتوترة، أنه قلق للغاية. بدأت أساعد والدي على حزم أمتعته، لكن قلبي كان

يخفق، ويداي ترتجفان، ومن شدة الارتباك قمت بكل شيء بشكل أخرق، تعجلت، وسقطت الحاجات من يدي...

من ناحية أخرى، لاح الأب هادئًا تمامًا. لقد وضع شيئًا ما بدقة في الصناديق، وربطها بخيوط. توجه لي وهو يشير إلى حزمة من المخطوطات ملقاة على كنبة، بجانب طاولة الكتابة.

ـ هنا، ساشا، اخترت من الصناديق، جميع مخطوطاتي. من فضلك خذيهم واحفظيهم، وكتبت لأمك أنني أعطيتك إياها لحفظها.

كان وجهه ورديًا، وحركاته متسقة، ولم تكن هناك أي علامة على التسرع، وصوته المتقطع فقط كان يشي بقلقه.

أخذت المخطوطات معي، وسألته إذا كان قد أخذ اليوميات. فأجاب أنه أخذها، وطلب مني أن أضع أقلام الرصاص والأقلام الأخرى. أردت أن أحزم بعض الإمدادات الطبية اللازمة لصحته، لكنه قال إنها غير ضرورية على الإطلاق. لم يأخذ الأب معه إلا الأشياء الضرورية. وبالكاد تمكنت من إقناعه بأخذ بعض الأدوية، ومصباح كهربائي، ومعطف من الفرو.

تحركنا بشكل غير مسموع تقريبًا، وواصلنا إيقاف بعضنا البعض: «اصمت، اسكت، لا تصدر ضوضاءً!» كانت الأبواب موصده، وعندما سألت من أغلقها، قال والدي إنه ذهب بهدوء، وبالكاد تقدم، إلى غرفة نوم الوالدة، وأغلق بابها، وباب الممر.

قال لي:

ـ ستبقين يا ساشا. سأتصل بك في غضون أيام قليلة، عندما أقرر أخيرًا أين سأذهب. وعلى الأرجح، سأذهب إلى اختي ماريا المقيمة في دير «شاموردينو». أخبري أمك لقد **طفح الكيل.** حينما غفوت، سمعت خطى في المكتب، نظرت من خلال الشق، ورأيت أنها كانت تفتش في أوراقي. شعرت بالاشمئزاز الشديد، مقرف جدا. استلقيت، ولم أستطع

النوم، كان قلبي يخفق، حسبت نبضي، كان 97. ثم جاءت إلي واستفسرت عن صحتي. لم أنم طوال الليل، وقررت المغادرة بحلول الصباح.

قمنا بتعبئة الأغراض على مدى نصف ساعة تقريبًا. كان والدي بالفعل قلقًا، متسرعًا، وكانت أيدينا ترتجف، والأحزمة لم تكن مشدودة، والحقائب لم تكن مغلقة. قال الأب إنه لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك، وارتدى معطفه الأزرق، ومد الخف الواقي على الحذاء، والقبعة البنية، والقفازات، ونزلت معه للمدخل وأنا أحمل الأشياء الجاهزة. وحملت فارفارا ميخائيلوفنا المؤن للطريق. وذهب هو إلى الإسطبل ليطلب من الحوذي إعداد الخيول.

كنا على وشك إخراج أغراضنا من المدخل، عندما فُتح الباب الخارجي فجأة، ودخل والدي القاعة من دون قبعة.

ـ ما حدث؟

ـ الدنيا ظلام دامس! مشيت نحو الإسطبل، وضللت الطريق، واصطدمت بشجرة السنط، وسقطت، وفقدت قبعتي، بحثت عنها، ولم أعثر عليها واضطررت للعودة! أحضري لي، ساشا، قبعة أخرى!

ركضت وجلبت اثنتين. أخذ الأب قبعة تشبه التي فقدها ـ خرج مرة أخرى حاملاً معه مصباحًا يديويا.

بعد بضع دقائق ذهبنا إلى الاسطبل حاملين رزمًا ثقيلة وحقائبَ. كانت الأرض موحلة، وانزلقت أقدامنا، وبالكاد تمكننا من التحرك في الظلام. لمحنا وميض ضوء أزرق صغير حول المبنى الخارجي. جاء الأب للقاء بنا.

قال:

ـ أوه، هؤلاء أنتم، حسنًا، هذه المرة وصلتُ إلى هناك بأمان. إنهم يسرجون الخيول. حسنًا، سأذهب أمامكم وأضيء الطريق لكم. أوه

التفت إلى فارفارا ميخائيلوفنا وهو يلومها:

ـ لماذا أعطيتم لساشا أثقل الأشياء.

آخذ الأب السلة من يديها وحملها، وساعدتني فارفارا ميخائيلوفنا في حمل الحقيبة. كان الأب يسير في المقدمة، ويضغط أحيانًا على زر المصباح اليدوي ويطفأه فورًا، مما يجعل المكان أكثر ظلاما. كان والدي يقتصد دائمًا، وهنا أيضا يقتصد بالطاقة، كما هو الحال دائمًا، كان يتأسف لإهدار طاقة البطاريات. فتحركنا في ظلام دامس، كنا نسترشد بنور الفانوس. وعندما وصلنا إلى الإسطبل، كان أدريان بافلوفيتش قد جاء بحصان ثانٍ في عريش المركبة. أخذ الأب اللجام وألبسه على الحصان، لكن يديه ارتجفتا ولم تطيعاه ولم يستطع ربط اللجام.

في البداية، طلب والدي من الحوذي ان يستعجل، ثم جلس في زاوية مربط العربات، على حقيبة وانهارت معنوياته على الفور.

ـ أشعر أنهم على وشك ان يداهموننا، وبعد ذلك يذهب كل شيء سدى. لا يمكنني المغادرة بدون فضيحة.

ولكن الخيول أصبحت خلال هذه الاثناء جاهزة، وارتدى الحوذي بدلته. وقفز فيليا على الحصان حاملا شعلة بيده.

ـ تحرك!

ـ توقف، توقف! ـ صرختُ أنا ـ مهلا: يا أبي! دعني أقبلك!

ـ وداعا عزيزتي، وداعا! حسنًا، ولكننا سنلتقي قريبًا. تحرك!

انطلقت العربة، ولم تمر بجوار المنزل، بل مضت في طريقً مستقيم، يمر عبر بستان التفاح، ويذهب إلى ما يسمى بـ«الممر».

جرى كل هذا بسرعة فائقة، وبشكل غير متوقع، ولم يكن لدي الوقت لأدرك ما حدث. وبعد ذلك، وقفت في الظلام بالقرب من الإسطبل، وأدركت بوضوح لأول مرة، أن والدي قد غادر ياسنايا بوليانا نهائيا، ربما إلى الأبد، وربما لن أراه مرة أخرى.

كانت الساعة حوالي الخامسة صباحًا عندما عدت أنا وفارفارا ميخائيلوفنا إلى المنزل. دخلت غرفتي وانا استمع إلى دقات قلبي السِّراع، وإذ رحت اعد الساعات هنا، جلست حتى الثامنة. في الساعة الثامنة، تنفست الصعداء: القطار الذي كان من المفترض أن يغادر والدي به قد تحرك. ذهبت إلى إيليا فاسيليفيتش.

ـ أين ليف نيكولايفيتش؟

غض إيليا فاسيليفيتش من بصره، واعتصم بالصمت.

ـ هل تعرفون، أن ليف نيكولايفيتش غادر نهائيا؟

ـ أعرف، أنهم قالوا لي إنهم يريدون المغادرة، واليوم خمنت من اختفاء المعطف، أنهم ليسوا هنا.

انتشر خبر رحيل الوالد تدريجيا، في جميع أرجاء المنزل.لاذ معظم الخدم بالصمت، ولم يجرؤوا على التعبيرعن آرائهم، فقط النساء المسنات ـ المربية دونيتشكا، تحسرت بصوت عالٍ، وعلى الرغم من إشفاقها على الكونتيسة، بيد أنها القت اللوم عليها.

جاء لي أدريان بافلوفيتش، الذي أخذ والدي إلى المحطة، برسالة:

«وصلنا جيدًا. ربما نذهب إلى محطة» اوبتينا:. اقرأي رسائلي. ابلغي تشيرتكوف أن يرسل بيانًا إلى الصحف إذا لم اطلب منه إلغاء ذلك في بحر أسبوع، حتى اليوم الرابع. من فضلك، عزيزتي، حالما تعرفي أين أتواجد، وستعرفين ذلك قريبًا جدًا، ابلغيني بكل شيء. كيف كان وقع مغادرتي وكل شيء، وكلما كان بالتفصيل كلما كان أفضل.

28 أكتوبر/ تشرين الأول. محطة شيكينو.»

من شدة القلق الفظيع ضاقت الدنيا بي، انتظرتُ حتى الساعة الحادية عشرة. وكان من الصعب علي للغاية أن ابلغ الأم عن مغادرة الوالد.
ولكن بعد ذلك سمعت خطى في غرفة النوم. دخلتُ القاعة، وعقب بضع دقائق هرعت والدتي إلى هناك.

ـ أين الأب؟؟ سألت بخوف.

ـ الأب غادر.

ـ إلى أين؟

ـ لا اعرف.

ـ كيف لا تعرفين أين ذهب؟ هل ذهبت نهائيا؟

ـ ترك لك رسالة. ها هي.

سلمتها الرسالة. أمسكت بها على عجل. ومرت عيناها بسرعة فوق الخطوط.

إليكم ما كتبه والدي:

«4:00 صباحًا في 28 أكتوبر 1910.

رحيلي سيحزنك، وأنا آسف لذلك، لكنني أفهم وأعتقد أنه لم يكن بإمكاني القيام بشيء آخر. أصبح وضعي في المنزل لا يطاق. بصرف النظر عن كل شيء آخر، لم يعد بإمكاني العيش في ظروف البذخ والرفاهية التي عشت فيها، وأقدمت على ما يقوم به عادة كبار السن في مثل عمري: يتركون الحياة الدنيوية، ليعيشوا الأيام الأخيرة من حياتهم في عزلة، في هدوء.

من فضلك تفَهّمي هذا، ولا تتبعني إذا عرفتِ مكاني. إن وصولك لن يؤدي إلا إلى تفاقم وضعك وحالتي، لكنه لن يغير قراري.

أشكرك على حياتك الصادقة معي، التي استمرت ثمانية وأربعين عامًا، وأطلب منك أن تسامحيني على كل ما كنت مذنبًا به بحقك، تمامًا كما أسامحك بصدق على كل ما يمكن أن تكوني مُذنبةً به بحقي. أنصحك بالاستسلام للوضع الجديد، الذي يضعك فيه رحيلي، وألا تضمري لي شرا. إذا أردت أن تخبرني بشيء ما، أخبري به ساشا، ستعرف مكاني وسترسل لي ما هو ضروري، ليس بوسعها ان تقول أين أنا، لأنني أخذت منها وعدًا بعدم إخبار أحد بذلك.

ليف تولستوي.

أكلف ساشا أن تجمع أغراضي ومخطوطاتي وترسلها إلي».

وصرخت الأم:

ـ لقد ذهب، ذهب نهائيا! سأودعكم، لا أستطيع العيش من دونه! سوف انتحر غرقا!

رمت الرسالة على الأرض ووواندفعت راكضة. دعوتُ فالنتين بولجاكوف، الذي وصل لتوه من آل تشيرتكوف، وطلبت منه مساعدتي في اللحاق بأمي. ركض بولجاكوف خلفها على الفور. وهي، كما كانت، بدون خف حذاء، فقط في ثوب، ركضت على درب الحديقة، ومضت أبعد، نحو الترعة. نظرت إليها من نافذة الصالة. لكن بعد ذلك رأيت أنها كانت تقترب من الترعة. اندفعتُ بأسرع ما يمكن هابطة من الدرج. رأت أمي في تلك اللحظة بولجاكوف يجري خلفها فاندفعت إلى الجانب. ركضت عبر الطريق، وتجاوزت بولجاكوف، ووصلتُ أنا في الوقت المناسب، عندما ركضت أمي إلى الترعة، على ألواح الطوافة، التي كان يجري شطف البيضات عليها، لكنها انزلقت وسقطت إلى الوراء. هرعت إليها، لكنها انزلقت على الطوافة إلى الجانب، وسقطت في الماء. لم ألحق بالإمساك بها. بدأت تغوص في الماء، لكنني ارتميت بنفسي خلفها،

وتبعني بولجاكوف، في الوقت المناسب. وفي الوقت الذي وقفت حتى الصدر في الماء، أخرجت والدتي وسلمتها إلى بولجاكوف والخادم فانيا، الذي جاء مسرعا للمساعدة. أمسكا بها وحملاها. ووصل سيميون نيكولايفيتش حالا، الذي ركض على الطوافة، وانزلق وسقط بكل قوته.

قالت الأم:

ـ أنا انزلقت وسقطت أيضًا.

أخذوها من ذراعيها واقتادوها بعيدًا.

ـ ساشا! ـ صرخت بي ـ الآن أرسلي إلى والدك برقية بأنني غرقت!

لم أرد على والدتي بشيء. من الجري السريع والماء البارد والاضطراب الذي عشته، تقطعت أنفاسي، وكان قلبي ينبض في صدري وبالكاد أستطيع تحريك ساقي.

عند وصولي إلى المنزل، استبدلت ملابسي، وصعدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى. تجولت في الغرف، وأنا قلقة ولا أعرف ما اعمل. والآن أرى من النافذة أن والدتي ترتدي ثوبًا فقط وتسير في الزقاق إلى الترعة. صرخت إلى بولجاكوف وفانيا، اللذين ركضا خلفها مرة أخرى، وأعاداها إلى المنزل بالقوة. وعلى هذا النحو استمر هذا اليوم الكابوسي بأكمله، الذي بدا لي بلا نهاية. بكت الأم بلا انقطاع، وضربت نفسها على صدرها بثقالة الورق، والآن بمطرقة، ووخزت نفسها بالسكاكين والمقص والدبابيس. وعندما أخذت كل هذه الأشياء منها، أرادت أن تلقي بنفسها من النافذة، في البئر.

قررت أن أراقبها ليلًا ونهارًا، حتى وصول باقي أفراد العائلة، الذين أرسلت إليهم على الفور برقيات عاجلة. كان الأخ أندريه في كرابينفا في ضواحي مدينة تولا، وكان من الممكن أن يصل إلى في ياسنايا

بوليانا في نفس اليوم. بالإضافة إلى ذلك، استدعيت طبيب الآمراض العصبية من تولا.

توسلت إلي أمي عدة مرات لإخبارها أين ذهب والدي، وعندما رأت أنها لن تحصل على أي شيء مني، أرسلت إلى المحطة لمعرفة المكان الذي تم أخذ التذاكر إليه. وعندما عرفت ان التذاكر كانت للسفر في القطار رقم 9، أرسلت برقية على اسم والدي:

«ارجع على الفور. ساشا».

جاء لي الخادم ايفان الذي كلفته بهذه البرقية، محرجا وسلمني إياها، وهو لا يعرف ما إذا كان يجب أن ينفذ أمر الوالدة.

لم أقم بتأخير البرقية، لكن في نفس الوقت أرسلت برقية أخرى: «لا تقلق، فقط البرقيات الموقعة من الكسندرا صالحة». علمت لاحقًا أنه لم يتم استلام هاتين البرقيتين، حيث استقل والدي قطارًا آخر.

وصل الأخ أندريه في المساء. وبعده بساعة، جاء الطبيب من تولا. ذهب الطبيب على الفور إلى الوالدة، وتحدث معها لفترة طويلة، وحدد حالتها بالهستيريا، لكنه لم يجد أي علامات لوثة عقلية. ورغم ذلك حذرنا من أنه لا يستبعد إمكانية الانتحار.

قال:

ـ هناك حالات ينتحر فيها الهستيرون عن غير قصد، عندما يريدون تخويف الآخرين.

وطالبنا بالإشراف المستمر والدقيق على الأم.

تناوبت العجوز شميت وبولجاكوف ليلا الإخفار بالقرب من الأم.
استيقظتُ عدة مرات لأعرف ما يجري. ذهبت الأم طوال الليل من غرفة إلى أخرى، انتحبت بصوت عالٍ، ثم هدأت. لم تعد تحاول الانتحار.
وراحت تردد:

ـ سأجده، سأهرب. مهما تقيمون حراسة علي. اقفز من النافذة، اذهب إلى المحطة. ماذا ستفعلون بي؟ أوه، فقط لمعرفة مكانه! عندها لن أدعه يخرج، سأحرسه ليل نهار، سأنام عند بابه...

في مساء يوم 28 أكتوبر/ تشرين الثاني، تلقيت برقية مرسلة إلى تشيرتكوف: «سنقضي الليلة في أوبتينا ونكون غدًا في دير شاموردينو. العنوان بودبوركي. في حالة صحية جيدة. نيكولاييف.»

لم تتحسن حالة الأم في اليوم التالي. أحيانًا كانت تبكي بشكل هيستيري، وهي تصرخ:

ـ لوفيتشكا، لوفيتشكا ماذا فعلت بي! ارجع يا عزيزي لوفيتشكا!

في بعض الأحيان بدأت في لوم الوالد، وكانت غاضبة منه، ولسبب ما في مثل هذه اللحظات بدا لي أنها لن تفعل أي شيء بنفسها.

وصلت تانيا وجميع الإخوة، باستثناء ليف، الذي كان في خارج البلاد. اجتمعوا في المساء في غرفتي وبدأوا في مناقشة ما يجب القيام به. اعتقد الجميع، باستثناء الأخ الأكبر سيرجي، أن على الوالد أن يعود. قال إيليا بحدة أن والده، الذي كان يبشر بالمسيحية طوال حياته، في هذه الحالة ارتكب عملاً شريرًا غير مسيحي ـ بدلاً من مسامحة والدته وتحملها، غادر. دعمه الآخرون. وعندما اعترضتُ صاح إيليا بغضب:

ـ تقصد ساشا أن ترك الوالد للوالدة المريضة عمل مسيحي؟ لا، أنت تعيشين معها، عليك أن تتحمليها، وتكوني لطيفةً معها ـ ستكون هذه هي المسيحية الحقيقية.

شدد إيليا على كلمة «المسيحية».

ـ أتفقُ مع إيليا ـ قالت تانيا، ـ سيكون والدي أكثر ثباتًا إذا بقي مع الوالدة.

ـ لكن ما العمل الآن؟ ـ سأل ميشا. ـ ولا يجوز تركها وحدها!

ـ نعم، ـ قال أندريه ـ لكن لا يمكنني التسكع هنا، لدي وظيفة.

ـ ولدي خدمة! ـ قال ايليا.

ـ ولدي تانيشكا وميخائيل سيرجيفيتش ـ قالت تانيا ـ وأنتِ، ساشا، من المحتمل ستذهبين إلى والدك؟

قلت:

ـ نعم. أعتبر أني وفيتُ بواجبي تجاه والدتي.

وبدأت أتحدث عن توسلي لهم عدة مرات خلال هذه المعناة المستمرة منذ خمسة اشهر، للمساعدة على الفصل بين الوالدين، على الأقل لفترة من الوقت، بوضع والدتهم في مصحة، وفي كل مرة يسارعون للمغادرة، بعضهم لعائلاتهم، والبعض الآخر للعمل. والآن رحل الأب، وبدلاً من الابتهاج لأنه حرر نفسه أخيرًا من المعاناة، يلومونه ويفكرون فقط في كيفية جعله يعود ويتحمل المشاق مرة أخرى.

شعرت بالمرارة وشعرت أنه لا يوجد ما يمكن توقعه من دعم خاص من العائلة. قال سريوجا لوحده فقط:

ـ ساشا على حق. لا أريد عودة والدي واليوم سأكتب له عن ذلك.

وكتب لوالده رسالة قصيرة لكنها رقيقة ومتعاطفة، أعرب فيها عن رأي مفاده أنه مهما كان الأمر صعبًا، كان على الأب أن يفترق عن والدته منذ ستة وعشرين عامًا، وأنه يفهم والده ولم يدينه، وبغض النظر عما حدث. لا ينبغي للأب أن يؤنب نفسه. حث الآخرون جميعا، في رسائلهم، الوالد على العودة إلى ياسنيا بوليانا. وكتبت الأم أيضًا رسالة:

«29 أكتوبر 1910.

حبيبي لوفيتشكا، عد إلى المنزل، عزيزي، أنقذني من انتحار ثانٍ.
لوفيتشكا صديق حياتي كلها، سأفعل كل ما تريد، سأتخلى عن كل الرفاهية والبذخ تمامًا، سأكون صديقة لأصدقائك، وسأتعالج، وسأكون وديعة، يا عزيزي، ارجع، لأنه يجب انقاذي، فوفقًا للإنجيل قيل لا يجب أن تترك زوجتك تحت أي ذريعة. عزيزي، عزيزي، صديق روحي، انقذني، ارجع، عد على الأقل لتودعني قبل انفصالنا الأبدي.

أين أنت؟ أين؟ هل أنت بصحة جيدة؟، لوفيتشكا لا تعذبني يا عزيزي، سأخدمك بالحب وبكل كياني وروحي، عد إلي، ارجع من أجل الرب، من أجل حب الرب، الذي تدعو الجميع له، سأمنحك نفس الحب، المتواضع، غير الأناني! أعدك بصدق وحزم يا عزيزي، وسوف نجعل كل شيء بسيطًا بشكل ودي، دعنا نذهب حيثما تريد، سنعيش كما تريد.

حسنًا، وداعًا، وداعًا، ربما إلى الأبد.

سونياك.

يا ترى هل تركتني إلى الأبد؟ من كل بد لن أجتاز هذه المحنة، لأنك تقتلني. عزيزي، خلصني من الخطيئة، لأنه ليس بميسورك أن تكون سعيدًا وهادئًا إذا قتلتني.

لوفيتشكا صديقي العزيز، لا تختبئ عني حيث أنت، ودعني آتي لرؤيتك يا عزيزي، لن أزعجك، أعطيك كلمة، سأعاملك بوداعة، وبحب.

جميع الأبناء هنا، لكنهم لم يساعدوني في استبدادهم، والثقة بأنفسهم، لأني بحاجة لشيء واحد، أحتاج لحبك، أحتاج لرؤيتك. صديقي، اسمح لي على الأقل أن أقول لك وداعًا، وأقول للمرة الأخيرة كم أحبك.
ادعوني، أو تعال بنفسك. وداعا لوفيتشكا، بكل وجداني أبحث عنك وادعوك. يا له من عذاب لروحي».

غادرتُ مع فارفارا ميخائيلوفنا في ليلة 29 إلى 30. ذهبنا إلى تولا ـ كالوغا ـ سوخينيتشي ـ كوزيلسك. في كوزيلسك أخذنا عربتين،

أحدهما لأنفسنا والأخرى للأشياء، وتوجهنا إلى دير شاموردينو. كانت الطريق فظيعة، مظلمة وموحلة، وبالكاد تتحرك الخيول. سافرنا لمدة ساعتين ونصف. ولكن سرعان ما لاحت الأضواء تومض أمامنا.
ساورني الخوف. وطفق قلبي يخفق بشدة: ماذا لو لم نجد الأب في دير شاموردينو، ويكون قد غادر، ولا أحد يعرف إلى أين؟ ذهبنا بالعربة إلى فندق الدير.

سألتُ راهبة مسنة وسيمة خرجت لإستقبالنا:

ـ من ينزل لديكم؟

أجابت بفخر:

ـ ليف نيكولايفيتش تولستوي.

ـ هل في غرفته؟

ـ لا، لقد ذهبوا إلى أخته، إلى ماريا نيكولاييفنا.

طلبت من الراهبة أن تأخذني على الفور إلى العمة ماشا، من دون أن أخلع معطفي. مررنا بساحة دير كبيرة وكنيسة وبعض المباني الأخرى، وأخيراً أرتني الراهبة منزلاً صغيراً. طرقتُ الباب. فتحه راهبة فتية.

ـ من تريدون؟

ـ اسمحوا لي بالدخول! ـ قلت، والقلق ينتابني أكثر وأكثر مع كل دقيقة

ـ دعوني أمر، أنا ابنة أخ ماريا نيكولاييفنا!

ـ حسنا تفضلوا.

دخلت المنزل بهدوء، ومررت بغرفة، وأخرى، وكان كل شيء هادئًا. ناديت العمة ماشا. فسألت بخوف:

ـ من هذا؟ مَن؟

ـ أنا ساشا. أين أبي؟؟

ـ اه هذه انتِ! ـ كانت مستلقية على السرير في غرفتها. تعانقنا وقبلنا بعضنا البعض بقوة. ـ بابا؟ خرج للتو.

ـ هل هو بصحة جيدة؟

ـ نعم، بصحة جيدة.

قلت لها:

ـ الحمد للرب. اذن سأجلس معك لبعض الوقت، وبعد ذلك سأذهب إلى فندقه.

ـ لكن كيف لم تلتقيا؟ انه غادر للتو. (كما اتضح لاحقًا، اصطحب دوشان بتروفيتش الوالد في طريق قصير، فلم نلتق بهما).

دخلت ابنة العمة ليزا أوبولينسكايا، التي كانت تقيم مع العمة ماشا في ذلك الوقت. لقد كانوا قلقين للغاية، واستفسروا مني، وأخبروني بدورهم عن الانطباع الفظيع الذي تركه عليهم وضع الأب. بعد التحدث معهم، كنت على وشك المغادرة، وفجأة فتح الباب وواجهنا والدي وجهاً لوجه. قبلني وسألني على الفور:

ـ كيف الحال هناك؟

ـ الآن كل شيء على ما يرام، هناك الآن الأخوة، وانتقلت تانيا للعيش معنا، أمي هدأت قليلا ـ أجبت. ـ أحضرت لك رسائل منهم.

ـ هيا.

جلس على الطاولة وبدأ في القراءة بعناية. جاءت فارفارا ميخائيلوفنا. شرعت العمة ماشا وإليزافيتا فاليريانوفنا في توجيه الأسئلة لهما عما

يحدث في ياسنايا بوليانا. وأجابت فارفارا ميخائيلوفنا بصوت خافت خوفا من ان تشوش على الوالد. لكنه قال:

ـ من فضلكم تحدثوا بصوت عال، انتم لا تشوشون عليّ بأيّ شكل من الأشكال،ان كل هذا مثير جدا للإهتمام.

سألني، وهو مستغرق في تفكير عميق بعد ان انهى قراءة الرسائل:

ـ بلى، مهما كان الأمر مروعا بالنسبة لي، ولكن ليس بوسعي العودة... كلا، لن أعود، ـ قال هو بحزم ـ رسالة لطيفة من سيريوجا: مختصرة وطيبة، وذكية. شكرا له! ولكن اروي لي كل شيء بالتفصيل!

وأنشأت اروي عن ما حدث من دونه، وكيف تلقت امي نبأ مغادرته، وما قالته ومن كان بالقرب منها، وما قال الطبيب.

ـ إذن أنت تقولين أن الطبيب لا يجدها غير طبيعية؟

ـ لا، لم يجده.

قال وهو يلوح بيده:

ـ بلى، ولكن ما يعرفون، لقد كتبت لكِ، ولكن لم تصلك رسائلي في الوقت المناسب. أردت أن تخبري تانيا وسريوجا بأن من المستحيل أن أعود إليها.

ما يلي النص الكامل لهاتين الرسالتين التي أرسلهما الأب لي. لقد استلسمتهما في محطة أستابوف للسكك الحديدية.

«28 أكتوبر 1910. محطة كوزلسك.

وصلنا، يا عزيزتي ساشا، بأمان ـ آه، فقط ان لا يكون الوضع لديكم سيء للغاية. الآن الساعة السابعة والنصف. سنقضي الليل وإذا بقيت على قيد حياة سنذهب غدًا إلى دير شاموردينو. أحاول أن أكون هادئًا،

ويجب أن أعترف بأنني أشعر بنفس القلق الذي أشعر به دائمًا، وأتوقع أن كل شيء سيكون شاقا، ولكن لا ينتابني الشعور بالخزي ولا بذلك الإحراج، وبالافتقار إلى الحرية التي كنت أشعر بها دائمًا في المنزل. كان علي السفر من محطة جورباتشوف في عربة الدرجة الثالثة. وكان الأمر غير مريح، ولكنه ممتع روحيا للغاية ووعظي. أكلت جيدًا على الطريق، والآن سنشرب الشاي في محطة بيليف، وننام، نحاول النوم. تقريبا غير متعب، حتى أقل من المعتاد. أنا لا أقرر شيئاً بشأنك حتى أسمع منك الأخبار. ارسلي رسائلك إلى دير شارموردينو، وإذا كان أي شيء عاجل، أرسلي البرقيات إلى هناك. أخبري باتا (فلاديمير تشيرتكوف) أن يكتب لي، وأنني قرأت المقطع المحدد في مقالته، ولكن على عجل، وأريد إعادة قراءته ـ دعيه يرسلها. أخبري فاريا أنني أشكرها، كما هو الحال دائمًا، على حبها لك، وأرجو وآمل أن تعتني بك وتحد من انفعالاتك. من فضلك يا عزيزتي قليلا من الكلمات، ولكن الوديعة والحازمة.

أرسلي لي أو أحضري لي شيئًا صغيرًا لتعبئة الريشة (بالحبر)، الكتب التي بدأتها: مونتين، نيكولاييف، دوستويفسكي المجلد الثاني... اقرأي جميع الرسائل وارسلي لي ما يلزم: مختارات، دير شاموردينو.

أخبري فلاديمير جريجورييفتش أنني سعيد جدًا، وخائف جدًا مما فعلته. سأحاول كتابة مضامين الأحلام التي تتطلب كتابة فنية. أعتقد أنه من الأفضل الامتناع لفترة عن مقابلته. هو، كالعادة، سيفهمني. وداعا يا عزيزتي، أقبلك، على الرغم من انك مصابة بالزكام.

وارسلي أيضا مقص صغير وأقلام رصاص، ورداء».

«29 أكتوبر، 10. أوبتينا بوستين.

سيخبرك الكسي سيرجينكو تشيرتكوف، كل شيء عني، صديقتي العزيز ساشا. اشعر بصعوبة. لا يسعني إلا أن أشعر بالكثير من المشقة. الشيء الرئيسي هو عدم ارتكاب خطيئة، في هذا يكمن العمل.

بالطبع، لقد أخطأت وسأخطئ، ولكن باقل قدر. هذا ما أتمناه لك في المقام الأول، وهو الشيء الرئيسي. علاوة على ذلك، أعلم ان مهمة فظيعة وقعت على عاتقك، تفوق قوتك لكونك شابة.

لم أقرر أي شيء ولا أريد أن أقرر. أحاول أن أفعل ما لا أستطيع إلا أن أفعله، ولا أفعل ما لا أستطيع فعله. سترين في خطابي كيف إنني لا أرى، بل أشعر. اعقد الأمل على تاثير تانيا وسيريوجا والطيب. الشيء الرئيسي هو أنهما يتفهمان ويحاولان إقناعها أنه مع استراق السمع هذا والتنصت، واللوم الأبدي، والتحكم بي كما يحلو لها، والرقابة المستدامة عليّ، والكراهية لأقرب شخص، ضروري لي، ومع هذه الكراهية الواضحة لي، وتصنع الحب، أن مثل هذه الحياة ليست مزعجة بالنسبة لي، ولكنها مستحيلة تمامًا ـ وإذا على احد ما الانتحار غرقا، فبالتأكيد ليس عليها، ولكن علي أنا ـ أنني أريد شيئًا واحدًا: التحرر منها، من هذه الكذبة، والتصنع والكراهية والبغض، الذي يتخلل كيانها كله...

بالطبع، لا يمكن ان يجعلوها تفهم هذا، لكن يمكنهم أن يفهموها أن افعالها تجاهي لا تنطوي على الحب فحسب، بل يبدو كما لو أنها تستهدف بوضوح قتلي، وهو ما ستحققه، حيث اعقد الأمل على أنني في النوبة الثالثة التي تهددني، سأخلصها ونفسي من هذا الوضع الرهيب الذي عشناه، ولا أريد العودة إليه.

أترين يا عزيزتي كم أنا سيئ. أنا لا أختبئ منك. أنا لم اطلب منك القدوم، ولكني سأطلب منك المجيء في أقرب وقت ممكن وقريباً. اكتبي كيف صحتك. أقبلك. ليف تولستوي.

نحن ذاهبون إلى شاموردينو. دوشان متوزع، وأنا أتمتع، بحالة جسدية جيدة».

كما يتضح من هذه الرسائل، ليس بميسور والدي العودة إلى ياسنايا بوليانيا، ولم يرغب في ذلك، ولهذا فان الرسائل الواردة من المنزل، والتي

شعر فيها بعدم رضا الأخوة عليه لأنه ترك الوالدة، كانت صعبة عليه بشكل خاص.

ـ لا أستطيع العودة ولن أعود إليها، ـ كرر، ـ أردت البقاء هنا، حتى أنني أردت إستئجار كوخ، حسنًا، لا يمكن التخمين بشيء.

بدا لي حزينًا ومتوعكا. كان من الواضح أنه منزعج من قصصي ورسائلي. لقد أدرك أن مكان وجوده، إن لم يكن معروفا، كان على وشك أن ينفضح ولن يتركوه وشأنه.

جلسنا مع العمة ماشا وشربنا الشاي في صمت، يغمرنا القلق والخوف.

وسألته.

ـ يا ترى هل ستندم على ما فعلته، أو تلوم نفسك إذا حدث شيء لأمي؟

قال:

ـ بالطبع لا، يا ترى هل بميسور الإنسان الندم على تصرف ما، حينما لم يكن بمقدوره أن يتصرف بطريقة أخرى. ولكن إذا حدث لها شيء ما، فسيكون ذلك شاقا جدًا لي.

لقد تفهمت العمة تمامًا موقف والدي، وتعاطفت معه بعمق. وقالت بحزم وصلابة:

ـ دع لوفيتشكا يغادر. وإذا جاءت سونيا إلى هنا، فسوف أستقبلها.

لم يجلس الأب لوقت طويل، فقام وودع العمة، وتهيأ للخروج.

ـ لوفيتشكا لن تغادر دون أن تقول وداعًا لي، أليس كذلك؟ ـ سألته العمة ماشا.

قال الأب:

ـ بالطبع، بالطبع، الصباح رباح، سنلتقي غدًا.

جددت العمة مرة أخرى:

ـ من فضلك لا تغادر دون أن تقول لي وداعا!.

قال الأب، ومن الواضح أنه كان يفكر في شيء آخر وهو يذهب إلى الفندق.

ـ لا، لا، يجب أن نفكر في الأمر مرة أخرى.

وودعتني العمة ماشا ودوشان بتروفيتش وطلبت منا، إذا كان ليف نيكولايفيتش سيغادر في الصباح، فعلينا أن نخطرها بكل الوسائل بذلك، ودون أن نشعر بالحرج بشأن الوقت. ووعدنا بتلبية طلبها، وذهبنا مع والدي إلى الفندق. جاءت إليزافيتا فاليريانوفنا أوبولينسكايا معنا.

عند وصوله إلى المنزل، قال الأب إنه يريد أن يعتكف بمفرده. كانت الغرفة خانقة. فتح النافذة وجلس على الطاولة لكتابة الرسائل.

ذهبنا إلى غرفة دوشان بتروفيتش، وأخذنا كتيباً إرشادياً، وفتحنا خريطة، وشرعنا لكل احتمال في مناقشة أين نذهب. شعرت أن الأخبار التي جئت بها قد أزعجت والدي لدرجة أنه يمكنه ان يتأهب في أي لحظة ويواصل رحلته.

أزعجتني النافذة المفتوحة في غرفته، فذهبت إليه مرتين، وسألته عما إذا كان سيسمح لي بإغلاقها.

ـ لا، الجو حار، اتركيها.

كان يجيبني في كل مرة. كان يكتب شيئًا، وكان من الواضح أنني كنت اشوش على سلسلة أفكاره.

بعد فترة، طلبت من دوشان بتروفيتش أن يذهب إليه، لكن والدي قال له أن يتركه وحده. بعد نصف ساعة جاء إلينا حاملاً رسالة في يديه، قائلا:

ـ لقد كتبت للأم أرسلوها بالبريد التالي.

هذه هي الرسالة:

«31 أكتوبر 1910.

ان لقاءنا، ناهيك عن عودتي، أصبح الآن مستحيلًا تمامًا. وكما يقول الجميع سيكون هذا ضارًا لك للغاية، وسيكون أمرا فظيعًا لي، وذلك لأن وضعي المؤلم الناجم عن اضطرابك وهياجك، سيصبح أسوأ مما يمكن أن يكون عليه. أنصحك بأن تستسلمي لما حدث، وأن تستقري في وضعك الجديد لفترة، والأهم من ذلك ـ أن تتم معالجتك. لو إنكِ على الأقل لا تكرهيني، دعك من أن تحبيني، فعليكِ على الأقل أن تتفهمي موقفي قليلاً، وإذا قمتُ بخطوتي هذه، فلا تدينيني فحسب، بل حاولي مساعدتي في العثور على هذا الهدوء، وإمكانية أن أعيش شكلاً من اشكال الحياة البشرية، ساعديني ببذل الجهود لضبط نفس، وعدم تمني عودتي الآن. إن مزاجك الآن، ورغبتك، ومحاولاتك في الانتحار، وفقدانك السلطة على نفسك تتجلى أكثر من أي شيء آخر، وتجعل عودتي أمرًا لا يمكن تصوره. ليس بميسور احد، بما في ذلك جميع الأقرباء وانا، أن يخلصك من معاناتك، الأهم هي ذاتك، لا تستطيعين التحكم بما يجري من خارجك، لكنك تستطيعين أن تتحكمي بما يدور في داخلك. حاولي توجيه كل طاقتك، ليس للحصول على كل ما تريدينه الذي يتمثل الآن بعودتي، ولكن لتهدئة ذاتك، وروحك، وستحصلين على ما ترغبين فيه.

قضيت يومين في شاموردين وأوبتينا وسأغادر. سأرسل رسالتي ونحن في الطريق. لن اخبرك إلى أين أنا ذاهب، لأنني أعتبر الانفصال ضروريًا لك ولي. ولا أعتقد أنني غادرت لأنني لا أحبك. أحبك وأشفق عليك من كل قلبي، لكني لا أستطيع أن أتصرف بخلاف ما قمت به.

رسالتك لي ـ أعرف أنها كتبت بصدق، ولكن ليس بوسعك تنفيذ ما ترغبين به. ولا يتعلق الأمر بتحقيق أي من رغباتي ومطالبي، ولكن فقط بتوازنك وبهدوئك وبالموقف العقلاني من الحياة. ولحد الآن لا وجود لهذا، إنني لا أطيق الحياة معك. والعودة إليك وأنتِ في مثل هذه الحالة، تعني لي التخلي عن الحياة، واعتقد بانه لا يحق لي القيام بذلك.

وداعا عزيزتي سونيا. ليساعدك الرب. الحياة ليست مزحة، ولا يحق لنا أن ان نقلع عنها بمحض إرادتنا. كما أنه ليس من الحكمة قياسها بطول الزمن. وربما تكون الأشهر الأخيرة التي بقيت لي للعيش، أكثر أهمية من كل السنوات التي عشناها، وعلينا أن نعيشها بشكل جيد.
ليف تولستوي»

جلسنا على الطاولة ونظرنا إلى الخارطة امامنا. كانت النافذة مفتوحة. أردت أن اغلقها لها.

ـ اتركيها! ـ قال الأب ـ الجو حار. بما تنظرون؟

ـ خريطة ـ قال دوشان بتروفيتش ـ إذا سافرنا، فمن الضروري ان نعرف إلى أين.

ـ حسنًا، أرني.

وبدأنا جميعًا، ونحن ننحني على الطاولة، في تحديد إلى أين نذهب. استغليت الفرصة وأغلقت النافذة بيد واحدة، دون أن يلاحظ والدي. كان منفعلا ويمكن أن يصاب بنزلة برد بسهولة.

افترضنا أن نسافر إلى نوفوتشيركاسك. في نوفوتشيركاسك، نقيم عند ابنة أخت ابي يلينا سيرجييفنا دينيسينكو، ونحاول أن نحصل على جوازات سفر خارجي، بمساعدة زوجها ايفان فاسيلوفيتش، وإذا أمكننا، فنسافر إلى بلغاريا. وإذا فشلنا فنتوجه إلى القوقاز، إلى شركاء والدي في الرأي.

وبالحديث على هذا النحو، شغفنا بشكل غير ملحوظ أكثر فأكثر بخطتنا وناقشناها بحمية.

قال والدي:

ـ حسنًا، هذا يكفي ـ لست بحاجة إلى وضع أي خطط، سنرى غدًا.

لقد شعر فجأة بعدم الارتياح عند الحديث عن ذلك، وكان منزعجًا أنه انجرف معنا وبدأ في وضع الخطط، متناسيًا قاعدته المفضلة: العيش فقط في الوقت الحاضر.

قال:

ـ أنا اشعر بالجوع. ما يجب أن آكل؟

أحضرنا أنا وفارفارا ميخائيلوفنا الشوفان والفطر المجفف والبيض والمصباح الكحولي، وأعددنا له بسرعة عصيدة الشوفان. أكل بشهية، ومدح طهينا. لم يعد هناك حديث عن المغادرة. تنهد أبي بشدة عدة مرات ورد على نظرتي المتسائلة:

ـ مشقة.

انقبض قلبي وأنا أنظر إليه: كان حزينًا ومذعورًا للغاية. تكلم قليلا، وتنهد وذهب إلى الفراش مبكرا.

تفرقنا على الفور إلى غرفنا، ولأننا كنا متعبين جدًا من الطريق، فقد نمنا كالموتى.

في حوالي الساعة الرابعة صباحًا، سمعت أحدهم يطرق بابنا. قفزت وفتحته. كان يقف أمامي، كما كان الحال قبل أيام قليلة، ابي وبيده شمعة. كان يرتدي ملابسه بالكامل.

ـ ارتدي ملابسك، سنذهب قريبًا، الآن! ـ قال ـ لقد بدأت في تجهيز الاشياء، تعالي لمساعدتي.

نام بشكل سيئ، وتألم لأن مكان وجوده سيكون معروفا. ايقظ دوشان بتروفيتش في الساعة الرابعة صباحًا، وأرسلهم للحوذيين، الذين أبقيناهم، لكل احتمال، لقضاء الليل في القرية. ولم ينس أن يوصي بخيول لنا، وأرسل عامل فندق الدير لأصحاب العربات المحليين.

وتذكرت الوعد الذي قطعته لعمتي ماشا، أرسلت لها على الفور. كان الظلام دامسا. فحزمت على ضوء الشمعة أشيائي على عجل، وربطت الحقائب. وجاء دوشان بتروفيتش. أحضر سواق العربات، لكن سائقنا الذي امضى ليلته في القرية لم يأت بعد. طلبت من والدي المغادرة دون انتظارنا. لقد كان قلقًا للغاية، وأرسل عدة مرات إلى القرية للمجئ بالخيول، وأخيراً قرر الذهاب دون انتظار العمة ماشا وابنتها ليزا، وكتب لهما الرسالة التالية:

«دير شموردين. 31 أكتوبر 1910 في الساعة الرابعة صباحًا.

أصدقائي الأعزاء، ماشينكا وليزانكا. لا تتفاجآ ولا تلومانني على المغادرة دون أن اودعكما. لا أستطيع أن أعبر لكلّ منكما، وخاصة لكِ، عزيزتي ماشينكا، عن امتناني لحبكما ومشاركتكما في تجربتي. لا أتذكر أنني، طيلة حبك لي، شعرت منك باللطف الذي شعرت به هذه الأيام، والذي سأغادر به. نحن نغادر بشكل غير متوقع، لأنني أخشى أن تداهمني صوفيا أندرييفنا هنا. ولا يوجد سوى قطار واحد عند الساعة الثامنة. سامحيني إذا أخذت كتبك وكتاب «دائرة القراءة» سأكتب إلي تشيرتكوف ليرسل إليكم «دائرة القراءة» و«حكم لكل يوم». سأعيد الكتب. أقبلكما، أصدقائي الأعزاء، أحبكم بفرح شديد. ليف تولستوي»

بعد حوالي عشر دقائق من رحيل الأب ودوشان بتروفيتش، جاءت العمة ماشا

ـ أين لوفيتشكا؟

ـ سافر.

ـ يا إلهي يا إلهي ولما نتودع! حسنًا، ما العمل، ما العمل، فقط ان يكون بحالة جيدة!

جلست على مقعد في الشرفة. ولاذ الجميع بالصمت.

قالت بحسرة:

ـ دع سونيا تأتي إلى هنا، سأكون قادرة على لقائها.

كانت حزينة للغاية، لكن معنوياتها قوية، ولم تفكر إلا في ان يكون أبي في حالة حسنة.

في غضون ذلك، لم تأت العربة من القرية. ساورني وفارفارا ميخائيلوفنا القلق الشديد، ولم نعد نأمل اللحاق بالقطار. ولكن جاء الحوذي في هذه الأثناء مشيا على الأقدام بدون عربة.

ـ أين العربة؟

ـ لقد انكسرت العربة يا سيدتي

ـ يا إلهي ما العمل؟

وفكرت بذاتي «بقيت ساعتان على تحرك القطار، الطريق على بعد خمسة عشر فيرستاً ـ يا للفظاعة. سنتأخر!».

ـ ما لديك؟ هل لديك عربة اخرى؟

ـ كيف لا تكون؟ هناك عربة، وعربة خفيفة، ولكن ليس على زنبرك.

ـ أوه، على حد السواء، فقط اسرع، اسرع بتسريجها، عزيزي، عزيزي... أسرع، أسرع، في سبيل الرب أسرع!

لا أعرف ما إذا كان هذا الشخص العزيز قد فهم موقفي، وما إذا كان قد لاحظ يأسي، ولكن لم تمر اكثر من خمس عشرة دقيقة حتى كانت يقف عند المدخل فرسان صغيران أشعثان متخمتان. حث الفلاح خيوله طوال الطريق. لم يلجأ إلى ضربهما بالسوط، ولكن حثها بشفقة وصوت يائس:

ـ هيا، أعزائي، هيا، هيا! من فضلكن هيا!

عند الاقتراب من محطة كوزلسك، رأينا أمامنا عربتينا، وفي نفس الوقت كان القطار يقترب من المحطة.

ركبنا القطار بدون تذاكر، وبالكاد سنح الوقت لسحب أمتعتنا. كان والدي قلقا، وفي عجلة من امره.

قال لي:

ـ لو تأخرتما، لما غادرت من دونكما، لكنت سأنتظركما في فندق كوزيلسك.

كان الفضوليون في العربة، يجلسون، بين الحين والآخر، مرة إلى فارفارا ميخائيلوفنا، وأخرى إلى دوشان بتروفيتش، ولي.

ـ من يسافر معكم؟ هل هذا ليف نيكولايفيتش تولستوي؟ الى أين هو ذاهب؟

كان في المقصورة حيث تم نقلنا، احد السادة. تعرف على والدي على الفور وبدأ في التحدث إليه. أخذته جانبًا وطلبت منه ألا يزعج والدي لأنه كان متعبًا جدًا.

ـ نعم، أعرف، اعذروني.

بعد بضع دقائق، أخذ أمتعته، وذهب إلى العربة العامة، تاركا لنا كل المقصورة.

ـ أعرف الكثير من الصحف ـ قال لي ـ أنا معجب حقيقي بـ ليف نيكولايفتش. انا تحت تصرفكم. إذا وافق ليف نيكولايفيتش، يمكنني أن أعرض منزلي في بيليف في ضواحي مدينة تولا، ولن يزعجه أحد هناك.

كذب الأب علينا، عندما سألناه عن صحته، قال إنه متعب، ولكنه في حالة جيدة. طلب جريدة. اشتريت له بعض الصحف في المحطة الكبيرة التالية. وكان مستاءً بعد قراءتها.

ـ كل شيء معروف، كل الصحف مليئة بمغادرتي.

طلب أن نغطيه ببطانية، وقال إنه سيحاول النوم. ذهبت إلى العربة العامة.

قرأ الركاب الصحف، ودار الحديث بينهم عن رحيل ليف نيكولايفيتش تولستوي من ياسنايا بوليانا. كان أمامي شابان، يرتديان أزياء أنيقة، والسجائر في أسنانهما.

قال أحدهما:

ـ هكذا تصرف الرجل العجوز. أفترضُ أن صوفيا أندريفنا على وجه الخصوص لم يعجبها هذا التصرف ـ وضحك بغباء ـ قام وهرب ليلا.

قال الآخر:

ـ لذلك اعتنت به طوال حياتها، يبدو ان اعتناءها به لم يكن مسليا للغاية...

ولكن سرعان ما علموا أن تولستوي يسافر في المقصورة التالية، ونظروا إلينا في حرج وصمتوا. انتشر الخبر القائل بأن تولستوي كان مسافرًا على هذا القطار عبر جميع العربات، بسرعة البرق. اقتحم الفضوليون

عدة مرات مقصورة والدي، لكنني رفضت بشدة مثل هذه الزيارات، وبقدر الإمكان، قمت بحمايته من الفضوليين.

سرعان ما دعمني مفتشو القطار، الذين كانوا جميعًا متعاطفين معنا. وقال أحد المفتشين لبعض الركاب، وهو رجل ذو شعر أشيب، ومظهر محترم، وله وجه ذكي، ومدرك.

ـ لماذا تلحون عليّ؟ لماذا تضايقوني؟ بعد كل شيء، لقد قلت لكم أن تولستوي نزل في المحطة قبل الأخيرة!

عندما استيقظ والدي، طلب الطعام. التفت إلى المفتشين، وطلبت منهم أن يشيروا لي إلى المكان حيث يمكنني فيه طهي دقيق الشوفان على المصباح الكحولي، وأظهروا حالا تعاطفا كبيرا معي. وأخذوني إلى قسم الخدمة، حيث كان هناك خمسة مفتشين. ساعدوني بكل ما في وسعهم، واستفسروا بتعاطف. وخرجت عصيدة دقيق الشوفان لذيذًة، وأكل الأب بسرور عظيم، ومدحها، واكل كل ما في الصحن. ثم نام.

المرض والموت

في الساعة الرابعة صباحًا، دعاني والدي وطلب مني تغطيته قائلاً إنه يرتجف.

ـ دثري ظهري بشكل أفضل، اشعر بالبرد القارس.

لم نكن قلقين للغاية، فقد كان الجو باردًا في العربة، شعر الجميع بالبرد، ولف كل واحد منا نفسه بملابس دافئة. دثرنا والدي بمعطف طويل وبطانية وقفطان، ولكنه شعر بالبرد أكثر فأكثر. وضع دوشان بتروفيتش مقياس حرارة، وعندما تم استله، أظهر 38.1.

لم ينتبني من قبل بمثل هذا الشعور بالقلق! تخاذلت ركبتاي، وجلستُ على الأريكة المقابلة لوالدي وبطريقة ما بدأت أكرر:

«يا رب، ساعدنا، خلصنا، ساعدنا...»

كان أبي يدرك الحالة التي كنت فيها، مد يده إلي، وضغط عليها بقوة وقال:

ـ من دون شجن يا ساشا، كل شيء على ما يرام، حسنا جدًا.

في محطة جورباتشوف، ذهبت إلى المنصة. سأل رجل نبيل يرتدي نظارات سائق القطار عما إذا كان تولستوي موجودًا، وعندما اكتشف أنه كان هناك، قفز في قطارنا. بالإضافة إلى ذلك، وعلى مدى الرحلة، كان رجل بشارب أشقر يتجول في عربتنا. لسبب ما، لفت وجهه انتباهنا. وسرعان ما لاحظنا أنه كان يظهر بملابس مختلفة: مرة بزي موظف سكة حديد، ومرة بملابس مدنية. أخبرني أحد القائمين بطريقة غامضة أن الرجل، بعد أن عرف أن تولستوي كان في هذا القطار، أرسل برقية من محطة جورباتشوف إلى حاكم تولا. فأدركتُ أن الشرطة كانت تلاحقنا.

في هذه الأثناء، ارتفعت حمى والدي أقوى وأقوى. اعددنا الشاي وأعطيناه شرابًا من النبيذ الأحمر، لكن هذا لم يساعده، واستمرت القشعريرة.

لا أستطيع أن أصف حالة الرعب التي عشناها. وللمرة الأولى شعرت بأنه ليس لدينا مكان للمكوث فيه، ولا منزل، وغمر الدخان عربة الدرجة الثانية، وأحاطنا ناس غرباء ودخلاء، ولا يوجد ركن يمكن لرجل عجوز مريض أن يأوي إليه.

عبرنا محطة دانكوف ووصلنا إلى محطة كبيرة. كانت هذه محطة «أستابوفو». اندفع دوشان بتروفيتش، وبعد ربع ساعة عاد مع سيد يرتدي زي سكة حديد. كان هذا مدير المحطة. وعد بتوفيرغرفة في شقته حيث يمكن أن يرقد المريض في الفراش، وقررنا البقاء هنا. نهض الأب، وارتدى ملابسه، وخرج من العربة، وهو يستند على دوشان بتروفيتش ومدير المحطة، بينما رحت أنا وفارفارا ميخائيلوفنا نحزم أغراضنا.

عندما دخلنا إلى مبنى المحطة، كان والدي يجلس في غرفة السيدات على الأريكة مرتديًا معطفه البني وبيده عصا. كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدمه، وشفتاه تتحركان بضعف. دعوته إلى الاستلقاء على الأريكة، لكنه رفض. تم إغلاق باب غرفة السيدات المطل على القاعة، الذي وقف بالقرب منه حشد من الناس الفضوليين، في انتظار مرور تولستوي. وبين الحين والآخر اندفعت سيدات إلى الغرفة، واعتذرن، وقمن بترتيب تسريحات شعرهن وقبعاتهن أمام المرآة، وغادرن.

ذهب دوشان بتروفيتش وفارفارا ميخائيلوفنا ورئيس المحطة لإعداد الغرفة، وجلست مع والدي، ننتظر.

وجاءوا بعد ذلك لنا. أخذوا والدي مرة أخرى من ذراعيه واقتادوه. عندما مروا بجوار الجمهور الذي احتشد في القاعة، خلع الجميع قبعاتهم، رد الأب على انحناءات التحية بلمس قبعته. رأيته يمشي بصعوبة بالغة:

كان يترنح بين الحين والآخر، وتقريبا تعلق على ذراعَي أولئك الذين قادوه.

وضع في غرفة رئيس المحطة التي تستخدم كغرفة ضيوف، كان هناك سرير زنبركي مقابل الحائط، وشرعت أنا وفارفارا ميخائيلوفنا في ترتيب السرير. كان والدي يرتدي معطفًا من الفرو ولا يزال يشعر بالبرد. وعندما أصبح السرير جاهزًا، طلبنا منه خلع ملابسه والاستلقاء، لكنه رفض قائلاً إنه لا يمكنه الاستلقاء حتى يتم تجهيز كل شيء للمبيتً كالمعتاد. وعندما تحدث، أدركت بدء حالة الإغماء لديه. من الواضح خُيل له أنه يتواجد في المنزل، وتفاجأ بأن كل شيء لم يكن على ما يرام، وليس كما اعتاد عليه...

ـ لا استطيع الاستلقاء. اعملوا كالعادة دائما. ضعوا الطاولة الليلية بجانب السرير، والكرسي.

عندما تم ذلك، طلب وضع شمعة، وعلبة ثقاب، ودفتر ملاحظات، ومصباح يدوي، وكل شيء على الطاولة، كما لو كان في المنزل. وعندما قمنا بذلك، شرعنا مرة أخرى نطلب منه الاستلقاء، لكنه ما زال يرفض. أدركنا أن الموقف كان خطيرًا للغاية وأنه، وكما حدث من قبل يمكن أن يقع في أي دقيقة في حالة إغماء كاملة. شرعت أنا ودوشان بتروفيتش، وفارفارا ميخائيلوفنا في خلع ملابسه شيئًا فشيئًا، دون أن نساله اكثر، وتقريبا قمنا بحمله إلى السرير.

جلست بجانبه، وفي أقل من خمس عشرة دقيقة لاحظت أن ذراعه اليسرى وساقه اليسرى بدأتا ترتعشان بشكل متشنج، وجرى احيانا الشيء نفسه في النصف الأيسر من الوجه.

طلبنا من المدير استدعاء طبيب المحطة الذي بميسوره مساعدة دوشان بتروفيتش. أعطوا والدي نبيذًا قويًا وحقنة شرجية. لم ينبس بكلمة واحدة، وراح يئن، كان وجهه شاحبًا، واستمرت التشنجات، رغم إنها أصبحت خفيفة.

بحلول الساعة التاسعة، تحسنت حالته. كان تنفسه هادئًا. وراح يئن بهدوء.

لم يستطع طبيب المحطة، وهو نفسه رجل مريض تمامًا، ان يقدم اي مساعدة لنا. لكن من الواضح أن وجوده قد اراح دوشان بتروفيتش، وخفف من وضعه،. وجاءت مع الطبيب زوجته. لقد أثقلت كاهلنا، لأنها أرادت الجلوس في غرفة المريض، وشعرنا بالملل من نصائحها واستفساراتها، وعرقلت الجميع.

استيقظ والدي واعيًا تمامًا. دعاني له، وابتسم وسأل بتعاطف:

ـ ماذا يا ساشا؟

ـ لكن الحالة سيئة. كانت الدموع تترقرق في عيني وصوتي متشنج.

ـ لا تكربي، ما أفضل من ذلك: ألسنا معًا؟.

أصبح الأمر أفضل مع حلول الليل. قاسوا درجة الحرارة حرارة، وانخفضت الحمى بسرعة، ونام والدي جيدًا أثناء الليل.

بالطبع، لم يخلع أحد منا ملابسه، وتناوبنا على الجلوس بجانب سرير الوالد، كنا نراقب كل حركاته. دعاني في منتصف الليل بي وقال:

ـ هل تعتقدين أن من الممكن لنا السفر غدا؟

قلت، في رأيي، هذا مستحيل، في أحسن الأحوال، يجب أن ننتظر يومًا آخر. تنهد بشدة ولم يقل شيئا.

التفت الينا عدة مرات خلال الليل:

ـ أوه، لماذا أنتم جالسون؟ يجب أن تذهبوا للنوم!

أحيانا يهذي في نومه:

ـ اهرب... اهرب... اقبض...

طلب عدم إبلاغ الصحف عن مرضه، وعدم إخبار أحد بأي شيء عنه. فطمأنته.

بعد قياس درجة الحرارة في اليوم التالي، شعرنا بنشوة: أظهر مقياس الحرارة 36.2. والوالد نشط. وتحدث طوال الوقت عن المضي قدمًا. لقد كان قلقًا للغاية من أنهم قد يكتشفون مكانه، واستدعاني، وأملى البرقية التالية على تشيرتكوف: «أمس مرضت، وقد شاهدني الركاب، ونزلتُ من القطار وانا اشعر بالضعف، وأخشى شيوع النبأ، والآن أصبحت حالتي أفضل، ونحن سنواصل السفر، اتخذوا الإجراءات، وأبلغوني».

واستغليت تحسن حالة والدي، وقررت أن أسأله عما عليّ أن اعرفه، في حال أنه لن يشفى بسرعة، واصبح مرضه خطيرًا ، وطال أمده. فقد شعرت أن مسؤولية كبيرة على عاتقي. ورأيت اني وكما وعدت، ملزمة بإبلاغ عائلتي في حالة مرض والدي. لهذا سألته عما إذا كان يود أن أخبر العائلة إذا طال اجل مرضه، واصبح خطيرًا. اضطرب والدي جدًا وطلب مني عدة مرات وبإصرار عدم إخبار العائلة بمكان وجوده ومرضه.

وأضاف:

ـ أود أن أرى تشيرتكوف.

أرسلت على الفور برقية إلى تشيرتكوف بالمحتوى التالي: «بالأمس نزلنا في محطة أستابوفو، حمى شديدة، فقدان ذاكرة، وفي الصباح كانت درجة الحرارة طبيعية، والآن قشعريرة مرة أخرى. لا يمكنني تصور مواصلة السفر، أعرب عن رغبته في رؤيتكم. فرولوفا» (اسمي المستعار). بعد ساعات قليلة تلقيت ردا مفاده أن تشيرتكوف سيكون في أستابوفو في صباح اليوم التالي.

في ذلك الصباح بالذات، أملى والدي عليّ الأفكار التالية في دفتر ملاحظاته: «إن الرب وكل شيء بلا حدود، والإنسان مجرد مظهر محدود من مظاهر الرب». لقد كتبتها وانتظرت أن يملي عليه المزيد.

ـ لا شيء آخر.

استلقى في صمت لفترة من الوقت، كما لو كان يفكر في شيء ما، ثم دعاني مرة أخرى.

ـ خذي دفترا وقلما واكتبي: «أو حتى أفضل: الرب هو غير المحدود باسره، والإنسان يعي انه جزء محدود منه. ان الحقيقة هي وجود الرب، ولا حقيقة سواها. الإنسان هو تجلٍّ له «في المادة والزمن والفضاءً.

وكلما كان توحد تجلي الرب في الأنسان (الحياة) اكبر، مع تجلي (حيوات) الكائنات الأخرى، كلما كان وجوده اكثر ثراءً. ان توحيد حياته هذه مع حيوات الكائنات الأخرى يتحقق بالحب. اللهّ ليس الحب، ولكن كلما ازداد الحب، كلما تجلى الرب في الإنسان، وكلما كانت هناك حقيقة اكبر.

نحن ندرك الرب فقط من خلال الوعي. ومن خلال تجليه فينا. وجميع الاستنتاجات النابعة من وعي إدراكنا للرب، والقواعد التي نضعها للعيش في الحياة القائمة على أساسها، دائمًا ترضي الإنسان تمامًا، سواء من حيث معرفة الرب ذاته، أو قواعد العيش في الحياة، القائمة على أساس إدراك الرب».

بعد فترة، استدعاني مرة أخرى وقال:

ـ الآن أريد أن أكتب إلى تانيا وسيريوجا.

ومن الواضح أنه تأثر من طلبه مني عدم الاتصال بهم بإرسال برقية، وأراد أن يشرح لهم سبب تردده في رؤيتهم.

اضطر عدة مرات إلى التوقف عن الإملاء بسبب العبرات التي تصاعدت إلى حلقه، ولدقائق كنت بالكاد أسمع صوته، تحدث برقة متناهية، وهدوء. وقمت بتدوين النص، ثم قمت بنسخه وأحضرته للتوقيع.

«أطفالي الأعزاء تانيا وسيريوجا!

آمل، وأنا على ثقة، من أنكما لن تلوماني على عدم دعوتي لكما. ان دعوتكما وحدكما من دون الأم سيسبب حزنًا عميقا لها، وكذلك للإخوة الآخرين. وستفهمان كلاكما أن تشيرتكوف، الذي دعوته، حالة استثنائية بالنسبة لي. لقد كرس حياته لخدمة القضية التي خدمتها طوال الأربعين عامًا الماضية من حياتي. والمسالة ليس في أن هذه القضية عزيزة عليّ كثيرًا، ولكن كما أعترف ـ سواء كنت مخطئًا أم لا ـ أنها تنطوي على أهمية قصوى لجميع الناس، بمن فيهم أنتما.

شكرا لكما على علاقتكما الطيبة تجاهي. لا أعرف ما إذا كنت أقول وداعًا أم لا، لكنني شعرت بالحاجة إلى التعبير عما قلته.

أردت أيضا أن أضيف بعض النصائح لك سيريوجا، في أن تفكر في حياتك، عن من أنت، وما أنت، وما مغزى الحياة البشرية، وكيف يجب أن يعيشها كل شخص لبيب عاقل. إن وجهات نظر الداروينية والتطور، والصراع من أجل البقاء التي استوعبتها، لا تفسر لك مغزى حياتك، ولا تعطي مرشدا وقواعد للعمل، وأن الحياة من دون تفسير جوهرها ومغزاها، ومن دون مرشد عمل ثابت نابع منها، هي وجود بائس. فكر بهذا. أحبك، ربما أقول هذا عشية الموت.

وداعا، حاولا تهدئة الأم، التي أكن لها شعور الرأفة والحب الخالص. والدكما المحب ليف تولستوي»

وقال:

ـ سلميهما هذه الرسالة عقب موتي، وطفقت في البكاء مرة أخرى.

من الساعة التاسعة، بدأت القشعريرة مرة أخرى وارتفعت الحمى. وتقلب، واشتكى من صداع الرأس. وقبل الساعة الرابعة، بلغت درجة الحرارة 39.8.

جاء طبيب السكك الحديدية عدة مرات، لكننا لم نثق به كثيرا ، والأهم من ذلك، أنه جاء دائما مع زوجته المملة والثرثارة وعديمة اللباقة، أرهقتنا للغاية، وفي نهاية المطاف حاولنا رفض تكرار زياراته.

ساعدنا طوال الوقت بين واجباته الرسمية إيفان إيفانوفيتش أوزولين، مدير المحطة، وهو رجل لطيف للغاية، الذي لن أنسى أبدا مساعدته ولطفه الودي. وضع أوزولين أطفاله الثلاثة الصغار في غرفة صغيرة، ومع ذلك، لم يضايقهم هذا كثيرا. كان يمكن سماع أصواتهم المرحة وضحكهم طيلة الوقت، وكانت اصغر الفتيات تغني شيئا ما بصوت حقيقي ورنان. لقد استمعت إلى أصوات هذه النغمة الساذجة المبهجة، وأصبحت أكثر حزنا: كان التناقض كبيرا بين الأصوات الخالية من الهموم والمبهجة، والمزاج المكتئب الذي كنا فيه.

في هذا اليوم، دعا الأب إيفان إيفانوفيتش أوزولين وزوجته إليه، وشكرهم على كرم ضيافتهم، وسألهما عن الأطفال، كم عددهم، في أي عمر، وخرج أوزولين وزوجته من الغرفة بوجوه متأثرة وسعيدة.

في المساء، وقعت كارثة كان يمكن أن يكون لها عواقب سيئة للغاية. شممنا رائحة غاز الفحم، وشعر الجميع بالصداع. عندما نظرت فارفارا ميخائيلوفنا إلى الفرن، رأت قطعة حطب كبير مشتعلة فيه كانت وضعتها الفتاة التي خدمتنا على شظية طويلة ضعيفة لتجف. وكان انبوب المدخنة مغلقاً. فتحناه على الفور، وفتحنا النافذة في الغرفة المجاورة وحتى في غرفة والدي، وحجبنا السرير بالشاشات وغطيناه حتى رأسه.

عندما فحص دوشان بتروفيتش، مع طبيب المحطة صدر الوالد بسماعة الطبيب، وجدا صفيرا في رئتيه. بدأ الالتهاب. بالإضافة إلى ذلك، كنا

نشعر بالقلق الشديد من السعال وخروج البلغم الصديئ مع الدم.

بعد التشاور، قررنا إرسال برقية إلى الأخ الأكبر سيريوجا مع طلب للاتصال بالدكتور نيكيتين ليأتي إلينا. كان من الصعب عليّ أتخاذ هذه الخطوة، فقد وعدت والدي بعدم استدعاء أي شخص له. لكن من ناحية أخرى، لم أستطع تحمل مسؤولية عدم استدعاء طبيب جيد وذي خبرة رفيعة. بعد كثير من التردد، أرسلت برقية عاجلة إلى الأخ سيرجي لجلب الطبيب.

في وقت لاحق في المساء، انخفضت درجة الحرارة قليلا ـ 37.3 على الرغم من أن والدي واصل الأنين، وطلب الشراب.

يبدو أنه في مزاج مكتئب جدا.

في ليلة 1 إلى 2 نوفمبر، ارتفعت الحمى وبحلول الساعة الخامسة من صباح اليوم الثاني وصلت إلى 39.1.وكان القلب يعمل بشكل ضعيف، والنبض 90 بشكل غير منتظم، والتنفس 38 ـ 40. كان العطش الشديد يعذب والدي طوال الوقت. طلب كوبا من الشاي مع الليمون، شربه بسرور كبير وقال:

ـ هذه هي الطريقة الجيدة، ربما ستصبح حالتي أسهل.

أعطيته شرابا مع ملعقة صغيرة، وطلب مني أن أحضر ملعقة أكبر:

ـ إنها صغيرة جدا ، اجرع قليلا.

أحضرت فارفارا ميخائيلوفنا ملعقة كبيرة، ورفع رأسه، وسقيته.

وقال بصوت حازم إلى حد ما:

ـ هذا جيد، ولم نسكب منه على الفراش.

كما لو أن الشراب جعله يشعر بتحسن.

وفي كل مرة لاحظنا في ابتسامته مؤشرا على أنه يتحسن، بدأنا نعتقد أنه سيتعافى. ولكن بمجرد أن بدأ الأنين بصوت عال ويشتكي، انهارت معنوياتنا مرة أخرى، وبدا لنا أن كل شيء قد انتهى. كان الوضع على هذا النحو طيلة هذه الأيام.

كان والدي يئن بصوت عال طوال الصباح. وأضيفت إلى كل معاناته حرقة مؤلمة.

في الساعة السابعة تم قياس درجة الحرارة مرة أخرى. بلغت 39.2. نظر الأب بنفسه إلى مقياس الحرارة وقال:

ـ بلى، إنها غير جيدة، لقد ارتفعت.

بشكل عام، في الأيام الأولى من مرضه، كان في كثير من الأحيان يضع بناء على رغبته ميزان الحرارة، وبنفسه يرى النتيجة، وعندما سادت العتمة، طلب الضوء.

سأل دوشان بتروفيتش.

ـ ما تشخيصكم لهذا؟ ما هو هذا المرض؟

وقال دوشان بتروفيتش:

ـ أعتقد أنه نزلة في الرئتين.

ـ هل يصاحبه ارتفاع شديد في الحرارة؟

ـ نعم.

ولكن كان من الواضح جدا لنا جميعا أنها لم تكن نزلة، وإنما التهاب زاحف في الرئتين.

في الساعة التاسعة صباحا وصل فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف مع سكرتيره سيرجينكو. كان لقاءهما مع الوالد مؤثرا للغاية، بعد عدة

أشهر من الافتراق. اجهش كلاهما بالبكاء. لم أستطع إلا أن أبكي وأنا أنظر إليهم، وبكيت في الغرفة المجاورة.

من الواضح أن والدي كان مسرورا جدا بشيرتكوف، وجمع قوته الأخيرة، وسأله لفترة طويلة عن صوفيا أندرييفنا، وعما بها، وما سمع فلاديمير جريجوريفيتش، وسأله عن صحة زوجة فلاديمير جريجوريفيتش، ووالدته.

أصبح الوضع أكثر وأكثر خطورة. سعل والدي عدة مرات مع البلغم الصدئ المصحوب بالدم، واستمرت الحمى في الارتفاع.، بلغت درجة الحرارة في الساعة الحادية عشرة صباحا 39.6، وعمل القلب بشكل ضعيف، وبعدم انتظام. أعطوه الشمبانيا، التي شربها بتردد كبير، خوفا من أن تسبب له حرقة في المعدة. لم يكن مزاج والدي في هذا اليوم مكتئبا، حتى أنه مزح، على الرغم من ارتفاع الحرارة الشديدة، وربما كان هذا بتأثير لقائه المفرح مع فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف. تذكر طريقة دوشان بتروفيتش المضحكة في نطق بعض الكلمات الروسية: وقلد بعضها، وضحك والدي بلطف وبهجة، لدرجة أنه على الرغم من مزاجنا الثقيل والمكتئب، لم نتمالك أنفسنا عن الابتسام.

عند الساعة الثالثة تقريبًا، انخفضت درجة الحرارة قليلاً، لكن والدي اشتكى من الألم في جنبه. سألته إذا كان الأمر صعبًا عليه؟ أجاب والدي معتقدًا أنني لا أسأل عن المعاناة الجسدية، بل عن المعاناة المعنوية:

ـ بالطبع، هذا شاق، لا توجد حياة طبيعية حتى الآن.

تألمت طيلة ذلك اليوم لأنني استدعت أخي سيرجي والدكتور نيكيتين خلافاً لإرادة والدي. وقررت، وخاصةً أنه بدا لي أن حالة والدي تتحسن نوعًا ما، أن أرسل برقية لسيريوجا حتى لا يأتي. ونظرًا لأنني لم أكن أعرف مكان شقيقي، فقد أرسلت برقية عبر آنا كونستانتينوفنا تشيرتكوفا: «طلب الأب منك ألا تحضر، تتبع رسالته، ولا يوجد خطر

مباشر، وإذا سيكون فسوف أبلغكم». وبنفس البريد أرسلت خطابًا إلى سيريوجا وتانيا.

جرى تنظيم رعاية صحيحة بهذا القدر أو ذاك. يراقب واحد أو اثنان من المتواجدين في الغرفة باستمرار النبض، ويعطون أدوية تقوية القلب، والنبيذ، في البداية بناءً على طلب الأب، ويقيسون درجة الحرارة. حصل الجميع على أحذية خفيفة، حتى لا يزعجوا المريض بضربات الكعب. كنا ندرك أن الوضع خطير للغاية، وفعلنا ما في وسعنا لتخفيف المعاناة ومساعدة الجسم على التكيف مع المرض. كان الجميع باستثناء الوافدين الجدد منهكين من السهر في الليالي الطوال والإثارة التي لم أشهدها من قبل.

في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، دخل رئيس المحطة إيفان إيفانوفيتش أوزولين. بدا قلقا ومنزعجا. وقال إنه تم تلقي برقية من محطة «شيكين» تفيد بمغادرة القطار الخاص من المحطة، ومن المقرر أن يصل إلى «اوستوبافو» في حوالي الساعة التاسعة مساءً، وعلى متن هذا القطار من ياسنايا بوليانا، والدتي مع العائلة بأسرها.

كان من الواضح للجميع أن لقاء الأب والأم مضر بصحته.

سيطر الرعب علينا جميعا. ما العمل؟ تقرر الطلب من دوشان بتروفيتش التحدث إلى الأخوة والأم وإقناعهم بعدم الدخول على الوالد. لكن كان من الواضح لي ما دام أن والدي قطع العلاقة بوالدتي وتركها طواعية، لم يكن لأحد الحق في فرض إرادته عليه. قررت عدم السماح لأمي بالدخول، إلى أن يرغب والدي في ذلك، حتى لو وجد الأطباء والعائلة أنه من الممكن القيام بذلك.

وضع الوالد أثناء النهار ميزان الحرارة عدة مرات وراقب درجة الحرارة. وعندما سألته إذا كان جنبه يؤلمه، أجاب بالنفي، وساءت الحالة في الساعة الرابعة. اشتكى بصوت عالٍ، كان تنفسه سريعًا وثقيلًا. سألته فارفارا ميخائيلوفنا إذا كان يشعر بصعوبة؟

ـ نعم، اشعر بصعوبة.

ـ حمى؟

ـ نعم، حمى.

طلب مرة أخرى مقياس حرارة، وعندما وضعته فارفارا ميخائيلوفنا، قالت بصوت عالٍ:

ـ خمسة إلى أربعة.

أضاف الأب على الفور:

ـ إذن، خذ عشر دقائق بعد خمس دقائق.

لم أكن في الغرفة عندما أخرج والدي الترمومتر ورأى أنه 39.2، فقال بصوت عال:

ـ حسنًا لا تغضبوا الأم!

وعندما سأل فارفارا ميخائيلوفنا مرة أخرى، كرر مرة أخرى:

ـ حسنا، لا تغضبوا الأم.

وصل الاخ سيرجي الساعة الثامنة مساء. لقد كان منفعلاً للغاية، وأراد من كل بد أن يرى الوالد، وفي نفس الوقت كان يدرك أن اللقاء يكدره ويقلقه. لقد ترددنا لفترة طويلة. وقف الأخ في الغرفة المجاورة ونظر إلى والده، ثم فجأة قال بحزم:

ـ لا، سأذهب. سأخبره أنني في محطة غورباتشوف وعرفت بالصدفة من مفتش القطار أنه كان هنا وها أنا جئت.

اضطرب الأب للغاية عندما رآه وسأله بالتفصيل كيف عرف الأخ مكانه، وماذا يعرف عن والدته، واين هي، ومع من. ورد سيريوجا بأنه جاء من

موسكو، وأن والدته في ياسنايا بوليانا، معها طبيب، وأخت رحمة والأخ الأصغر.

ـ أرى أنه لا يجوز السماح للأم الدخول عليه. ـ قال الأخ، وهو يغادر الغرفة، ـ سوف يقلق كثيرًا.

دعاني والدي.

ـ كيف يبدو سيريوجا!

ـ ماذا يا أبي؟

ـ قال الأب بصعوبة من خلال النحيب:

ـ كيف وجدني! أنا سعيد جدًا به، انا أوده... لقد قبل يدي.

في المساء، وصل الطبيب سيميونوفسكي الذي استدعيناه من بلدة دانكوف. استمع إلى والدي، مع دوشان بتروفيتش وطبيب السكك الحديدية، وشخّص مثلهما، أن الأب يعاني من إلتهاب رئوي. سمح الأب بلطف للأطباء بالتنصت والاستماع له، وعندما انتهوا، سأل الطبيب سيمينوفسكي إذا كان بإمكانه المغادرة في غضون يومين؟ أجاب سيمينوفسكي أنه من الصعب عليه المغادرة في غضون أسبوعين. وحزن الأب للغاية، ولم يقل شيئًا، واستدار نحو الجدار.

وصل القطار الخاص عند الساعة التاسعة. ذهب دوشان بتروفيتش لاستقباله. وكما يحدث دائمًا، كان الناس يتراكضون على الرصيف، وبعد بضع دقائق رأيت من خلال النافذة قوام أمي، وأحدهم يتأبط ذراعها، وإخوتي. وطلبتْ أن يروها المنزل الذي يرقد فيه الوالد.

أخبرنا دوسان بتروفيتش، بعد عودته، أن الأسرة بأكملها وافقت على انه يجب على الأم ان لا تدخل على الأب، ويعتقدون ان ذلك سيسبب له صدمة قد تذهب بحياته.

وصل الدكتور نيكيتين في صباح اليوم الثالث. وحالما رآه، طفق الوالد يستفسر منه من الذي استدعاه. قال نيكيتين أنني اتصلت به. وعلى ما يبدو، أثار وصول ديمتري فاسيليفيتش غمّ الوالد، وشعر بأن مكان تواجده اصبح تدريجياً معروفا.

كنا جميعًا سعداء للغاية بوصول نيكيتين. وعلى أي حال، كان المزاج هذا الصباح مبتهجًا ومليئًا بالأمل. انخفضت درجة الحرارة إلى 36.8. لكن القلب لم يكن يعمل بشكل جيد، وكان النبض حوالي مائة، مع عدم انتظام متكرر.

سمح الأب عن طيب خاطر بأن يسمعه الدكتور وشخّص نيكيتين، مثل الأطباء الآخرين مرض والدي بانه التهاب في الفص السفلي من الرئة اليسرى. وأجاب نيكيتين على جميع أسئلتنا، وقال بأنه على الرغم من أن حالته كانت خطيرة للغاية، إلا أنه كان هناك أمل.

جاء الإخوة عدة مرات في اليوم للإسستفسارعن صحته. أحيانًا دخلوا المنزل بهدوء، وأحيانًا كانوا يأتون إلى النافذة، ويطرقون عليها، وفتحت النافذة وأخبرتهم عن مسار المرض. حاول جميع الإخوة أن يكونوا بالقرب من الأم بالتناوب، وأن يراقبوها ويقنعوها بعدم الذهاب إلى الوالد. بالإضافة إلى ذلك، كانت مع الأم ممرضة، وطبيب نفساني، لكنه سرعان ما غادر.

احتشد المراسلون من جميع أنحاء روسيا في المحطة. لقد حاولوا اصطياد كل من يغادر منزلنا، ومعرفة آخر الأخبار وإبلاغ محرريهم. قالوا إن الأم تتحدث عن طيب خاطر مع المراسلين، مما أدى إلى ظهور معلومات غير دقيقة في العديد من الصحف. في هذا اليوم، وبناءً على طلب ملحّ من الممرضة ذهبت إلى عربة القطار الخاص، حيث أرادت الأم التحدث معي.

لم أرَ على ملامحها الندم، بل على العكس رأيت رغبتها في إدانة الجميع. تحدثت عن التعاطف الصحافة معها، وعن ذنب تشيرتكوف.

استفسرت عن رحلتنا، وأكدت ان من المستحيل علينا الاختباء، لأن لديها صديقين سريين وهما اللذان أخبراها عن مكان ليف نيكولايفيتش، وأن وزير الداخلية ستوليبين يرسل الآن ضابطي شرطة لمراقبة والده بشكل دائم.

لم تتصور مدى سوء حالة الوالد، وقالت إنها بالتأكيد لن تسمح له بالذهاب عندما يتعافى، ستقتفي اثره أينما ذهب.

كررت:

ـ أين سيكون، سأكون هناك.

في نهاية الحديث سألت إذا كان والدي يذكرها؟

أجبتها أنه ذكرها، لكنه كان خائفا جدًا، والآن يخشى من أن تجيء.

ـ ربما تحدث عني بضغينة وحقد؟

ـ لا بغير حقد بل بشفقة.

ـ هل يعلم أنني أردت الانتحار غرقا؟

ـ نعم يعرف.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ قال إنك إذا قتلت نفسك فسيشق عليه ذلك، لكنه لن يشعر بالذنب على ذلك، لأنه لم يستطع أن يتصرف بشكل آخر.

وطفقت الأم تتحدث عن كيف أن الوالد غادر ليعيش حياة كما لو حياة بسيطة، والآن يحيط نفسه مرة أخرى بالأطباء، والبذخ.

ـ كان علي أن أهرع إلى هنا في قطار خاص كلفته خمسمائة روبل!

وبدأت تتحدث بشكل سيء عن الوالد، لدرجة أنني قاطعتها فجأة وغادرت.

أراد دوشان بتروفيتش في هذا اليوم وضع تحت رأس الوالد، وسادة كانت والدتي قد أتت بها. كانت هي نفسها تخيط له مثل هذه الوسائد، وكان ينام عليها دائمًا في المنزل. وطلبت الوالدة من دوشان بتروفيتش أن يضعها تحت رأسه، لكن لم يخطر بباله أن هذا قد يثير استياء الوالد. سأل الأب على الفور:

ـ من أين هذه؟

كان دوشان بتروفيتش في حيرة من أمره، ولم يعرف ماذا يجيب، قال:

ـ أحضرتها تاتيانا لفوفنا.

عندما عرف أن أختي كانت في أستابوفو، اضطرب والدي وفرح بها. واستدعى فلاديمير جريجوريفيتش، وسأله كيف وصلت تانيا.

قال:

ـ ربما تاتيانا لفوفنا أخبرت صوفيا أندريفنا أنها ستذهب إلى كوتشتي، لكنها جاءت نفسها إلى هنا.

كان والدي يشعر بالقلق طوال الوقت من اكتشاف مكانه. حتى لم يخطر بباله أن جميع الصحف نشرت تقارير مفصلة عن مرضه في أستابوفو، وأن المحطة كانت مكتظة بالمراسلين.

دخلت الأخت عليه. استقبلها بفرح وأنشأ على الفور يسألها عن والدتها. أجابته تانيا، لكن عندما سألها عما إذا كان من الممكن أن تأتي صوفيا أندريفنا إلى هنا، أرادت أختي تحويل المحادثة، وقالت إنها لا تريد التحدث معه عن والدتها، لأن الحديث عنها يقلقه كثيرًا. لكنه سأل والدموع في عينيه:

ـ لماذا لا تريدين أن تجيبني؟ ألا تفهمين كيف أحتاج إلى معرفة هذا من أجل روحي؟

كانت الأخت في حيرة من أمرها، وتمتمت بشيء ما، وغادرت الغرفة على عجل.

لم يستطع الأب أن يهدأ لفترة طويلة، ولم يفهم سبب عدم رغبة تانيا في الرد عليه.

في الساعة الرابعة صباحًا، وعندما علم أن جوربونوف وغولدنفايزر قد وصلا، اعرب والدي عن رغبته برؤيتهما. اعترض دوشان بتروفيتش، قائلاً إنه سيتعب، لكن والدي طلب بإلحاح الاجتماع معهما، قائلاً:

ـ عندما أتعب، سيرون ذلك ويتركاني بأنفسهما.

لم احضر هذا اللقاء.

بعد ذلك، أخبرني أحدهم أن إيفان إيفانوفيتش جوربونوف تحدث لفترة طويلة مع الوالد عن كتيبات «مسار الحياة» التي نشرها في دار نشر «الوسيط»، وعندما غادر قال لوالدي:

ـ سنقاتل، ليف نيكولايفيتش؟

ـ ستقاتلون، لكنني حينها لن اكون على قيد الحياة ـ أجاب الأب ـ.

عند الساعة الخامسة، طلب والدي استدعاء سيريوجا. لكنه لم يكن موجدا. ثم طلب دعوة تشيرتكوف. دخل تشيرتكوف ونيكيتين، وبدأ والدي يملي عليهما برقية إلى اخوتي، الذين، كما كان يعتقد، كانوا في ياسنايا بوليانا مع والدتهم: «حالتي أفضل، لكن قلبي ضعيف جدًا لدرجة أن اللقاء بالأم سيكون مميتا بالنسبة لي».

ـ أنت تفهم؟ ـ سأل فلاديمير جريجوريفيتش. ـ إذا أرادت رؤيتي، فلن أتمكن من رفضها، ومع ذلك فإن اللقاء معها سيكون مميتا بالنسبة لي،

ـ جدد القول مرة أخرى، وأجهش في البكاء ـ.

بعد نصف ساعة دعا فارفا ميخائيلفنا وسألها عما إذا كانوا قد أرسلوا البرقية ومن دفع عنها. قالت فارفارا ميخائيلوفنا ربما كان ساشا.

ـ لماذا ينفق فلاديمير جريجوريفيتش نقوده عليّ. لدي نقودي الخاصة. خذوا محفظة النقود في الدرج، هناك عشرة روبل، وخمسين روبلا أخرى في دفتر الملاحظات، أنفقوها. أعطها لساشا.

كنت مندهشًة طوال فترة مرضه، كان وعي والدي واضحا، على الرغم من الحمى وضعف القلب الشديد، ومشقة المعاناة الجسدية. لقد لاحظ كل ما يجري حوله بأدق التفاصيل. لذلك، على سبيل المثال، عندما تركه الجميع، شرع في احصاء عدد الأشخاص الذين وصلوا إلى أستابوفو، واعتبر أن تسعة أشخاص قد وصلوا.

ذات مرة سأل الفتاة التي تمسح كل صباح الأرضية في غرفته، هل هي متزوجة، وكم عمرها، وهل ان حياتها هنا حسنة؟ أجابت عليه بخجل.

في فترة ما بعد الظهر، قرأ تشيرتكوف عليه الصحف، وتلا عليه أربع رسائل وردت باسمه، أحضروها من ياسنايا بوليانا. كان الأب يستمع إليها باهتمام، وكما كان يفعل دائمًا في المنزل، طلب منه أن يضع علامة على المظاريف وبما يجب عليه القيام به.

وبلغت درجة الحرارة في المساء 37.7. لم يعد والدي يطلب وضع مقياس الحرارة، رغم أنه لم يعارض عندما قمنا بذلك. ظهر لديه فواق رهيب. قدمنا له ماءً سكراً وصودا وحليبًا ليشرب، لكن لم يساعده بشي. اصبح الأب يشهق بصوت عالٍ، وعلى ما يبدو مؤلمًا. كان القلب ضعيفا. وبشكل عام، ساءت حالته بشكل ملحوظ. شعر الجميع بالإحباط. لكن الأمل ما زال يساور نيكيتين ودوشان بتروفيتش. في ذلك اليوم، انتقلت عائلة أوزولين إلى غرفة صغيرة مع الحارس، وتركوا لنا الشقة بأكملها. بقي إيفان إيفانوفيتش معنا.

كانت ليلة 3 على 4 نوفمبر/ تشرين من أصعب الليالي. لاح الأب هادئا في المساء. ووعيه واضح. وأتذكر ذلك المساء، قال والدي، حينما كان أحدهم يعدل سريره:

ـ والفلاحون، الفلاحون، كيف يموتون! ـ وأجهش في البكاء.

في حوالي الساعة الحادية عشرة بدأ الهذيان. طلب منا الأب أن نكتب من بعده، لكن هذا كان مستحيلًا، لأنه تحدث بكلمات مجزأة وغير مفهومة. وعندما طلب أن نقرأ ما هو مكتوب، احترنا، فلم نعرف ماذا نقرأ. وظل يسأل:

ـ نعم، اقرأها، اقرأها!

حاولنا أن نكتب هذيانه، لكننا شعرنا أن ما كتب لا معنى له، لم يكن راضيًا، وطلب منا مرة أخرى قراءته. لم أعرف ما العمل، أيقظت فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف. وعندما التفت إليه والدي بنفس الطلب، خطر لي فجأة أن أقرأ له من كتابه «دائرة القراءة» ساعد ذلك. هدأ الأب.

طوال الليل تقريبًا، كنا نقرأ له بالتناوب «دائرة القراءة»، فكان الأب صامتًا واستمع بانتباه، وكان أحيانًا يوقف القارئ، ويطلب منه تكرار الكلمات التي لم يسمعها، وأحيانًا يسأل لمن تعود الأفكار التي تمت قراءتها. كان الصباح مُقلقا أيضًا. قال الأب شيئًا لم يتيسر للأخرين فهمه، وكان يئن بصوت عالٍ، ويتأوه، ويطلب منا أن نفهم فكره، وأن نساعده.

وبدا لي أننا لم نفهم، ليس لأن أفكاره ليس لها معنى. ـ لقد رأيت بوضوح في وجهه أن لها معنى عميقًا ومهمًا بالنسبة له، ولم نفهمها فقط لأنه لم تعد لديه القوة على تجسيدها في الكلمات.

لدقائق تحدث بحزم ووضوح. لذلك قال لفلاديمير جريجوريفيتش:

ـ يبدو أنني أموت، وربما لا.

ثم قال شيئًا لم نفهمه، وأضاف:

ـ لكن لا بد من السعي قليلاً.

بعد الظهر قاموا بتهوية غرفة النوم ونقلوا والدي إلى غرفة أخرى. وعندما نقلوه مرة أخرى، حدّق باهتمام في الباب الزجاجي المقابل لسريره، وسأل فارفارا ميخائيلوفنا، التي كانت في المناوبة:

ـ إلى أين يقود هذا الباب الزجاجي؟

ـ الى الممر.

ـ ماذا خلف الممر؟

ـ المدخل والشرفة.

في هذه الأثناء دخلتُ إلى الغرفة.

فالتفت الأب إلي متسائلا:

ـ هل هذا الباب مغلق؟

قلت إنه مقفل.

ـ غريب، لكنني رأيت بوضوح وجهين نسائيين ينظران إليّ من هذا الباب.

قلنا إن هذا غير ممكن، لأن الباب من الممر إلى المدخل مغلق كذلك.

من الواضح أنه لم يهدأ، واستمر في النظر بقلق إلى الباب الزجاجي.

أخذتُ وفارفارا ميخائيلوفنا بطانية وعلقناها.

ـ آه، هذا جيد الآن ـ قال الأب بارتياح. واستدار إلى الحائط وسكت لفترة.

ظهرت علامة أخرى مشؤومة. كان والدي يعبث بأصابعه باستمرار. أخذ أحد طرفي البطانية بيديه ووضع أصابعه على الطرف الآخر، ثم عاد، وهكذا إلى ما لا نهاية. لقد أزعجني هذا بشكل رهيب. تذكرت ماشا...

في بعض الأحيان كان الأب يرقد بلا حراك تمامًا، وكان صامتًا، ولم يئن حتى وحدق أمامه. رأيت في هذه النظرة شيئا جديدا وبعيدا، ومضُ في رأسي: «النهاية».

حاول أحيانًا إثبات شيء ما للتعبير عن بعض أفكاره الملحاحة. وحاول أن يتكلم، لكنه شعر أنه كان يقول شيئا آخر، ويئن بصوت عالٍ.

قلت له:

ـ لا تفكر!

ـ أوه، كيف لا نفكر، يجب علينا، يجب أن نفكر.

وحاول مرة أخرى أن يقول شيئًا ما، وتقلب وعانى.

نام مرهقا. استيقظ في حوالي الساعة الثالثة، كما لو كان في حالة هدوء أكثر، وطلب شرابًا. أحضرت له فارفارا ميخائيلوفنا الشاي بالليمون. وعندما غادرت الغرفة التفت إلي وقال:

ـ يا لها من ممرضة جيدة فاريتشكا، فقط النساء وحدهن يعرفن كيف يعتنين على هذا النحو!

اقترحتُ عليه الاغتسال. فوافق. أخذت ماءً دافئًا وأضفت إليه الكولونيا وشرعت في غسل وجهه بقطعة قطن. ابتسم، وضيّق عينيه، وكان وجهه لطيفًا وهادئًا، ويبدو أنه كان سعيدًا جدًا بهذا التدليك. وعندما انتهيت من مسح أحد الجانبين، ادار نحوي الآخر وقال بلطف:

ـ حسنًا، الآن الجانب الآخر، ولا تنسي غسل الآذان.

أمضى عدة ساعات بهدوء. لقد انعشنا مرة أخرى وبعث الأمل فينا.

نظرًا إلى إن وضع الوالد تطلب وجود طبيب بصورة مستمرة، ولأن سيمينوفسكي لم يستطع الحضور دائما، ودوشان بتروفيتش كان مرهقًا من الاضطرابات، وسهر الليالي، فقد اقترحت على نيكيتين دعوة الدكتور مويس بيركينهايم للمساعدة. وافق على الفور.

بدأ الهذيان من جديد بحلول المساء، وطلب والدي متوسلاً إلينا أن نفهم فكرته ونساعده.

قال لي:

ـ ساشا، اذهبي، وانظري كيف سينتهي الأمر.

حاولتُ صرف انتباهه.

ـ ربما أنت عطشان؟

ـ أوه، لا، لا... كيف لا يمكن فهم هذا... الأمر بسيط للغاية.

وطلب مرة أخرى:

ـ تعالوا هنا، ما الذي تخافون منه، لا تريدون مساعدتي، أرجو الجميع...

ما الذي لم اقدمه، لكي افهمه وأساعده!

لكن مهما عصرت ذهني، لم يتيسر لي أن أفهم ما يريد قوله. وواصل في قول شيء غير مفهوم.

ـ البحث، البحث طوال الوقت...

دخلت فارفارا ميخائيلوفنا الغرفة. فنهض الأب على السرير، ومد يديه وقال بصوت عالٍ وبهيج، وهو يتفرس في وجهها، صرخ:

ـ ماشا! ماشا!

اندفعت فارفارا ميخائيلوفنا خارج الغرفة، خائفةً، ومصدومة.

لم ابتعد عن والدي طوال الليل. كان يتقلب طوال الوقت، ويأن، ويتأوه. وطلب مرة أخرى مني أن أدوّن ما يقوله. أخذت قلمًا وورقة، لكن لم يكن هناك شيء أكتبه، وطلب مني قراءة كلماته. ـ إقرئي ما كتبتِ. لماذا أنتِ صامتة؟ ماذا كتبت؟ ـ كرر، وإهتاج أكثر فأكثر ـ.

في هذا الوقت حاولنا أن يتواجد شخصان بالقرب منه في الإخفار. واتفق اني بقيت وحدي عند سرير والدي،. وخُيل لي انه كان غارقا في النوم. ولكن بغتة وبحركة قوية، قام على الوسائد، وراح ينزل ساقيه من على السرير. اقتربت منه.

ـ ما تريد يا أبي؟

ـ دعيني أذهب! ـ وقام بحركة للنهوض من الفراش.

كنت أعلم أنه إذا قام، فلن أتمكن من دعمه، وسيسقط، وحاولت بكل طريقة ممكنة تهدئته، لكنه اندفع مني.

ـ دعيني، دعيني، لا تستطيعين الإمساك بي، دعيني!

بعد أن أدركت أنني لا أستطيع ايقاف والدي، لأن تحذيراتي وطلباتي لم تؤثر عليه، ولم يكن لدي الشجاعة لردعه، بدأت أصرخ:

ـ دكتور، دكتور، تعال بسرعة إلى هنا!

يبدو أنه في هذا الوقت كان الدكتور سيمينوفسكي في المناوبة. دخل مع فارفارا ميخائيلوفنا، وتمكنا من تهدئة والدي. من الواضح أنه كان

يعاني بشدة.

ايقظت فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف، الذي أنشأ يقرأ للوالد، كما في الليلة السابقة، من كتاب «دائرة القراءة»، وسكت. فقط في بعض الأحيان كان يئن وينفخ. قال في الصباح بصوت مرهق متعب:

ـ أنا متعب، جدا والأهم أنكم تعذبوني.

وصل الدكتور بيركينهايم من موسكو في ذلك اليوم، وأحضر معه، كما طلبنا منه في البرقية، سريرًا جديدًا. كان السرير الذي يستلقي عليه والدي قديمًا جدًا، وسيئًا، ذو زنبركات تالفة، ناتئة. اقترح نيكيتين أن ينتقل والدي إلى السرير الجديد، لكنه رفض. كان في الأيام الأخيرة عموما ينفذ ما يطلبه الأطباء على مضض. ولم يعد يطلب قياس درجة الحرارة، ويوافق بصعوبة على وضعه. أراد الهدوء التام، وكان ينزعج عندما يقلقونه.

بعد فترة، سمح بنقله إلى سرير آخر، قائلاً لنيكيتين بصوت لطيف:

ـ حسنًا، انقلوني، إذا كان ذلك يرضيكم.

كان بيركينهايم في الغرفة عندما تم تجهيز السرير. راقب الأب بعينيه ما يقومون به، ثم سأل فجأة:

ـ من منكم لم يتبادل التحية معي؟

ولما أخبروه أن الجميع سلموا عليه قال:

ـ كلا، إن أحدا لم يتبادل معي التحية.

ثم اقترب منه غريغوري مويسيفيتش، الذي لم يجرؤ على إزعاج والدي. وقال الأب بصوت رقيق:

ـ شكرا لك، يا عزيزي.

قام بيركينهايم بتقبيل يد أبي وغادر الغرفة وهو ينتحب. وعلى الرغم من أن غريغوري مويسيفيتش كان يعقد أملا أقل من نيكيتين والأطباء الآخرين على شفاء أبي من المرض، إلا أنه سعى وجدّ أكثر منهم، وطالب بإزالة جميع اللوحات والأثاث المنجد المتبقي من غرفة الوالد. أمرني على الفور بغلي دقيق الشوفان وحاول تغذية والدي بجرعات قليلة منه. جاء معه باللبن من موسكو، وعندما عرف الوالد بذلك، طلب ان يناولوه منه، وشرب نصف كوب. بعد أن طهيت دقيق الشوفان وخلطته مع صفار البيض، كما كان يفعل والدي دائمًا في المنزل، قدمته له. وكنا جميعًا سعداء للغاية ومرتاحين عندما أكل والدي قليلاً. وبينما كنا منغمسين في رعاية والدي، ونراقب أدنى تدهور وتحسن في صحته، ومرة تنهار معنوياتنا، وأخرى ترتفع، احتشد مراسلو الصحف خارج جدران منزلنا، ملتقطين كل كلمة، ولم يلحقوا في بعث البرقيات المرسلة. كان عددها كثيرا لدرجة أنه تم إرسال البرقيات العاجلة كالمعتاد. التقط المصورون باستمرار كل ما في وسعهم: أمي، إخوتي، منزلنا، المحطة. وجاء كبير الكهنة الأب فارسانوفي من دير أوبتينا بوستين، وطلب من جميع أقاربي السماح له للدخول على الوالد لإعادته قبل وفاته «إلى حضن الكنيسة الأرثوذكسية».

ترامى لي كل هذا من الاحاديث التي دارت حولي، وذات مرة كادوا يلتقطون صورتي في فيلم سينمائي. فقد دعاني جولدينيفيرز، الذي كان يناوب في حراسة المدخل، قائلا إن والدتي تقف في الشرفة، وتطلب مني الخروج إليها لمدة دقيقة للاستفسار عن صحة والدي. خرجت إلى الشرفة وأنشأت بالرد على أسئلتها، لكنها طلبت مني أن أسمح لها بالدخول إلى المدخل، وأَقسمتْ أنها لن تدخل المنزل. كنت على وشك فتح الباب، عندما سمعت فجأة قرقعة، واستدرت، فرأيت اثنين من المصورين يديران مقبض الجهاز. لوحت بيدي وصرخت، وطلبت منهما التوقف عن التقاط الصور، والتفتُ إلى والدتي وطلبت منها المغادرة على الفور.

وردت على ملامتي لها:

ـ لن تسمحوا لي برؤيته، ولكن دعوا الناس على الأقل يعتقدون أنني كنت عنده!

عدتُ إلى منزلنا، وانا اشعر بحجر ثقيل يجثم على صدري.

وكتب دوشان بتروفيتش إلى العمة ماريا نيكولاييفنا في دير شاموردينو: بالأمس أخبرتني صوفيا اندريفنا أنها لن تترك ليف نيكولايفيتش بعد الآن. وإذا تعافى ليف نيكولايفيتش، ولاتشك صوفيا اندريفنا بذلك، واذا سافر إلى الجنوب، والى الخارج فانها لن تبخل بمنح 5000 روبل لجاسوس ليتبع اثر ليف نكولاليفتش إلى اين ما سيذهب. اخبركم بهذا هذا ليس من أجل إدانة صوفيا أندريفنا، ولكن من أجل التوصيف».

كتب خمسة مراسلين (روسيان و3 يهود) ذهبوا إلى عربتها بالأمس واليوم، كلامها، بأن صوفيا أندريفنا اخبرتهم بأن ليف نيكولايفيتش غادر المنزل لغرض الدعاية لنفسه».

كنت أنا والأخت تانيا جالستين بجانب والدي. وكان طوال الوقت يشهق. سألتني تانيا إذا كان بإمكاني إعطاؤه شيئًا ليشربه.

وأضافت:

ـ لابد أن هذا الفواق يؤلمه للغاية.

قال وهو يستمع إلى حديثنا:

ـ لا، هذا غير مؤلم على الإطلاق.

خلال النهار جلسنا جميعًا في غرفة الطعام. كانت تانيا والطبيب سيمينوفسكي بقرب والدي. لاح لأختي أن الأب، وسط الهذيان، قال كلمة: «سونيا» أو «سودا» (إلى هنا. المترجم). لم تدرك ما سمعته، وسألته مرة أخرى:

ـ هل تريد رؤية سونيا؟

لم يقل الأب شيئًا واستدار نحو الجدار.

وعندما استخدم الأطباء الكمادة، قال الأخ سيرجي، يبدو أن الكمادة وضعت بشكل سيء. سأل الأب:

ـ ما السيء؟

ـ ليس الحالة سيئة، وإنما الكمادة وضعت بشكل سيء وتضغط ـ أجاب الأخ.

ـ اه اه اه!

في ذلك اليوم تغير الوضع بشكل كبير نحو الأسوأ. كان الجميع يعي بأنه لم يعد هناك أمل تقريبًا. بدا لي أن العلاج ـ بالحقن، والأكسجين، والحقن الشرجية، لا طائل منه، وسوى إنها تزعج هدوء الأب، وتشوش على العمل الداخلي الذي استغرقه تمامًا، وهو يتهيأ للموت.

في المساء، نام والدي بهدوء. وعندما استيقظ، اقترحت عليه ان يغتسل. فقال:

ـ أنتِ على حق، اغتسل.

وعندما مسحت شاربه ولحيته، أمسك القطن بشفتيه وحاول أن يدخله في فمه. ربما كان فمه جافًا جدًا. عندما انتهيت، طلبت منه أن يأكل. في البداية رفض، لكنه وافق بعد ذلك وأكل نصف كوب من دقيق الشوفان، وشرب حليب اللوز.

مرت الليلة من اليوم الخامس على السادس بهدوء نسبي. وبحلول الصباح كانت درجة الحرارة 37.3، والقلب ينبض بضعف، ولكنه أفضل من اليوم السابق. انتعش جميع الأطباء، باستثناء بيركينهايم، الذي

نظر طوال الوقت بيأس إلى تداعيات المرض، وانتعشوا وأجابوا على أسئلتنا بأنه على الرغم من خطورة الوضع، فلا يزال هناك بصيص أمل.

في الساعة العاشرة صباحًا، وصل الأطباء شكوروفسكي وأوسوف، الذين استدعتهما عائلتي وألأطباء من موسكو.

قال الأب عند رؤيتهم:

ـ أتذكرهم.

ثم بعد فترة، أضاف بصوت رقيق:

ـ اشخاص أعزاء.

عندما فحص الأطباء والدي، من الواضح أنه ظن أن الدكتور أوسوف هو دوشان بتروفيتش، فعانقه وقبله، لكنه بعد ذلك، اقتنع بخطئه، قال:

ـ لا، ليس ذلك، ليس ذاك.

وجد شكوروفسكي وأوسوف أن الوضع ميؤوس منه تقريبا.

بلى، كنت أعرف ذلك من دونهما، على الرغم من ابتهاج الجميع في الصباح، لكنني تقريبًا لم افقد الأمل. لقد فقدت على الفور كل القوة العقلية والجسدية. وبالكاد أجبرت نفسي على القيام بما هو مطلوب، ولم أعد أستطيع كبح جماح نفسي من العبرات التي صعدت إلى حلقي...

اندمج كل شيء في ذاكرتي في ضرب من المعاناة المستمرة (81).

(81) لقد تيسر لي كتابة بعض التفاصيل بفضل الملاحظات التي كتبتها فيرا ميخائلوفنا فيوكريتوفا، والكسي بيتروفتش سيرجينكو، اللذان دونا اعتمادنا على، كلماتنا كل الأحداث وكلام الأب.

في هذا اليوم، بالضبط توادع معنا جميعًا. كان الأطباء مشغولين بشيء ما بالقرب منه. نظر الأب بمودة إلى دوشان بتروفيتش، وقال بحنان عميق:

ـ عزيزي دوشان، حبيبي دوشان!

مرة أخرى قمنا بتغيير البياضات، ودعمت ظهر والدي. ولذا شعرت أن يده كانت تبحث عن يدي. اعتقدت أنه يريد أن يتكئ علي، لكنه صافحني بقوة مرة، ثم أخرى. ضغطت على يده وضغطت عليها شفتي، محاولة كبح النحيب الذي انحبس في حلقي.

في هذا اليوم قال والدي لي ولأختي كلمات جعلتني أستيقظ من اليأس الذي وقعت فيه، جعلتني أتذكر أن الحياة مُنحت لنا، لرسالة ما، وأننا ملزمون مهما كانت الظروف بمواصلة هذه الحياة، ساعين، على قدر قوانا الضعيفة، في خدمة من «أرسلنا» وأرسل الناس.

كان السرير في منتصف الغرفة. جلستُ أنا وأختي. وبغتة نهض الأب بحركة قوية وكاد يجلس. ذهبت إليه.

ـ اترغب بتعديل الوسائد؟

قال وهو ينطق كلمة بحزم ووضوح:

ـ كلا، لا. تذكروا نصيحة واحدة فقط، أن في الدنيا كثير من البشر ما عدا ليف تولستوي، وأنتم تنظرون فقط إلى ليف وحده.

ومرة أخرى نكس رأسه على الوسائد.

كانت هذه الكلمات الأخيرة الموجهة إلينا.

تدهور الوضع على الفور. ضعف نشاط القلب بشدة، كان بالكاد يُجس النبض، وازرقت الشفاه والأنف واليدان، ونحف الوجه على الفور، كما لو

كان قد تقلص. وبالكاد يُسمع التنفس. واعتقد الجميع أنها كانت النهاية.

لكن الأطباء لم يفقدوا، أو تظاهروا بعدم فقدان الأمل. لقد حقنوا شيئًا ما، وأعطوه الأكسجين، ووضعوا أكياسًا ساخنة على الأطراف، وبدأت الحياة تعود مرة أخرى. أصبح النبض أقوى، والتنفس أعمق.

كان نيكيتين يحمل كيس أكسجين. دفعه والده جانبًا.

قال:

ـ إنه غير مجد على الإطلاق.

أخبرني أحدهم في المساء أن الأب فارسانوفي يريد رؤيتي. رفض جميع أقاربه وأطباء الأب بشكل قاطع طلبه بمقابلة والدي، لكنه مع ذلك وجد أنه من الضروري التوجه لي بنفس الطلب. كتبت له الرسالة التالية:

«سامحني يا أبي، إنني لا انفذ طلبكم ولا آتي للتحدث معكم. فليس بميسوري في هذا الوقت ترك والدي المريض، الذي قد يحتاجني في كل دقيقة. وبالإضافة إلى ما سمعته من عائلتنا بأسرها، لا يمكنني إضافة أي شيء.

قرر ـ جميع أفراد الأسرة ـ بالإجماع، قبل كل الاعتبارات، طاعة إرادة ورغبات الأب، مهما كانت. وبعد إرادته نطيع أوامر الأطباء الذين يجدون في هذا الوقت أن تقديم أي شيء له أو قهر إرادته، يضر بصحته. مع خالص التقدير لكم، الكسندرا تولستايا. 6 نوفمبر 1910 أستابوفو».

تلقيت إجابة على هذه الرسالة من الأب فارسانوفي، والتي اسوقها هنا:

«معالي الكونتيسة الكسندرا لفوفنا المحترمة.

أتمنى لكم السلام والفرح من الرب يسوع المسيح.

لفرفارا أنني أعتذر منها. عشنا معها اربع سنوات وبمشيئة الرب سنعيش أكثر. لا أعلم ما حدث لي، وما حدث لنا.

قلت لها وأنا أغرق في البكاء:

ـ لا تسيئي إلي، ولا تغضبي الوالد، لا أستطيع أن أرى مدى عذابه!

ـ لن أفعل، أعطيك كلمة شرف، لن أعذبه! لا تعرفي كم عانيت هذه الليلة. أعلم أنه مريض مني. لن أسامح نفسي أبدًا إذا مات.

تحدثنا ونحن نقف في الفناء. نظر إلينا بعض المارة بدهشة. طلبت من والدتي أن تدخل إلى المنزل. لكن ظهر بافل بييريوكوف وشخص آخر في المدخل. توقفنا في الدهليز بين بابي المدخل وواصلنا الحديث هنا. طلبت مني أمي العودة وطلبت مني أن أغفر وأنسى.

كررت مرات عديدة بأنها تعد بعدم تعذيبي وأبي بعد الآن.

قالت:

ـ لن تصدقي، كم أنا اغار، لم أشعر أبدًا في حياتي، حتى في شبابي، بمثل هذه الغيرة القوية كما هو الحال الآن من تشيرتكوف. لقد صدقتها، وتلاشى الشعور بالمرارة والاستياء وانعدام الثقة التي تراكمت في روحي ومزقتها بألم حاد. كانت أمامي أما غير سعيدة، تعاني بشدة، ربما ليس أقل من أبي.

لأول مرة منذ فترة طويلة، قبلتها بصدق، وهدأتها، وطمأنتها كطفل.

قالت:

ـ وستتحسن العلاقة بتشيرتكوف، سأحاول ضبط نفسي. وسأدع الأب يلتقي به. فقط ان تكون حالته جيدة! أن يكون هادئا ومبهجا! ـ بكت طوال الوقت ورسمت اشارة الصليب.

في المساء وصلتُ أنا وفارفارا ميخائيلوفنا مرة أخرى إلى ياسنايا بوليانا. عندما أخبرت والدي عن المصالحة مع والدتي، كانت غرفة النوم الغرفة مظلمة، لكن بدا لي أنه يبكي.

غادرت تانيا وسيريوجا.

ساد الهدوء لعدة أيام. وافقت الأم على أن يأتي تشيرتكوف. ولكن بمجرد دخوله المنزل، شعرت بالتوتر مرة أخرى، وراحت تسترق السمع.

في 10 أكتوبر، كان ناجيفين في ضيافتنا. جرى الحديث عن وفاة ابنته. وكيف تم دفنها من دون طقوس الكنيسة. تحدث ناجيفين عن مدى صعوبة الأمر بالنسبة له، شعر بان هناك شيئًا مفقودا.

ـ ما المهم هنا، ـ قال الأب، ـ هذا لا يتعلق بالحياة، لقد ماتت، ودُفنت، مغطاة بالأرض. وهذا غير مبالٍ تمامًا، مثله مثل الأحذية التي يجب ارتداؤها أو الصابون الذي يجب غسله. المهم هو ذكرى الإنسان، الذكرى التي تبقى منه، لكن هذه الطقوس لا علاقة لها بالحياة، وهذا ليس ضروريًا بالنسبة لي وليس مهمًا. المرأة العجوز تصلي لملكة السماء، أنا أحترمها، لكني لست بحاجة إليها. لقد ولدتُ بالفعل من جديد. ماتت ابنتي ماشا، أتذكر شخصيتها الروحية، وهي قريبة مني، أحبها، لن أنساها، لكني لا أتذكر كيف دفنت، لا يهمني!

لسبب ما، تذكر ناجيفين وفاة سقراط.

ـ قال الأب، إنها سعادة ـ أن أموت مثل سقراط. أنا لن أقتل نفسي في هذه الحالة، بل فُرض علي أن أشرب السم، وأشربهُ، لا يسعني إلا أن أشربه. يا لها من سعادة! ارتجف صوته.

وعندما حدثه ناجيفين عن لا عدالة الحزن الذي أرسل له، قال والدي:

ـ القضية تكمن هنا في حبك الحصري لابنتك. هذه خطيئتك وخطيئتي، العلاقة الحصرية ببناتنا. إنني اشعر بالأسى إذا دفنوا ابنتي ماشا،

لكن إذا دفنوا ماتريوشكا، لا أهتم بها. يجب أن أسعى إلى أن أشعر بالأسى على ماتريوشكا كما أشعر بالأسى على ماشا. وهذا المثل الذي اقتدي به، وكلما اقترب منه أكثر، كان ذلك أفضل.

في 12 أكتوبر، بدأ كل شيء من جديد. لقد نسيت أمي الوعود، ومرض الأب. وتوسلت الوالد القضاء على الوصية، وركعت على ركبتيها وقبلت يديه. أخبرت الجميع أنه إذا مات الوالد، وترك وصية، فستكون قادرة على إثبات إنه مخرف وبليد.

وعندما دخلت غرفة والدي في صباح اليوم السابع عشر، أظهر لي رسالة من والدتي بابتسامة مريرة.

ـ انظري، لدي هدية، اقرئي!

فتحت الرسالة.

«تسالني كل يوم، كما لو كنت متعاطفًا، عن صحتي ـ وعن كيف نمت، بينما توجه لي كل يوم ضربات جديدة تحرق قلب وتقصر أجل حياتي وتعذبني بشكل لا يطاق، ولا تستطيع وضع حد لمعاناتي. هذه ضربة جديدة، وفيما يتعلق بالحرمان من حقوق التأليف والنشر للكثير من ذريتك فإنه عمل شرير، وبمشية القدر اكتشفت هذا، على الرغم من أن شريكك في هذا الأمر لم يطلب منك أن تخبر عائلتك. لقد هدد بالحاق الضرر بي وبعائلتي، ونفذ تهديده ببراعة، حيث نال منك ورقة الرفض بتضليلك بطرق احتيالية. إن الحكومة، التي ترفضونها وتنتقدونها في جميع الكتيبات، ستصادر بموجب القانون آخر قطعة خبز من الورثة، وتعطيها للناشر ناتان سيتين ومختلف أصحاب دور الطباعة الأغنياء والمحتالين، بينما سيموت أحفاد تولستوي، وبمشيئته الشريرة، من الجوع. أما الحكومة، وبنك الدولة فيحرس اليوميات عن زوجة تولستوي. إن الحب المسيحي يقتل دائمًا بمختلف التصرفات (ليس كما ترى، ولكن من وجهة نظري) الشخص الأقرب ـ الزوجة، التي لم تركب أي أعمال شريرة طوال الوقت، ولم ترتكبها الآن أيضًا، باستثناء المعاناة

الشديدة. تخيم علي، وستظل مخيمة علي لاحقا التهديدات المختلفة. ولكن يا ليوفتشكا عندما تذهب للصلاة خلال نزهتك، صلِّ، وفكر جيدًا فيما تفعله تحت ضغط هذا الشرير، أطفئ الشر، وأوقظ الحب والخير في قلبك، وليس الشر والأفعال الدنيئة، وانسَ الغرور والكبرياء (حول حقوق النشر)، اخمد الكراهية التي تكنها لي، لمن أعطاك كل حياته وحبه.

وإذا ما قيل لك أن المصلحة الشخصية تتحكم بي، فأنا شخصياً مستعدة رسميًا، كأبنتي تانيا، التخلي عن حقوق ميراث زوجي. ماذا احتاج؟ من الواضح أنني سأموت قريبًا بطريقة أو بأخرى، لكن الرعب يأخذني إذا عشت أكثر منك، فأي شر يمكن أن ينشأ على قبرك، وفي ذاكرة أطفالك وأحفادك.

لوفيتشكا أخمده، وأنت على قيد الحياة، ايقظ قلبك الفخور واجعله رقيقا، وأيقظ فيه الرب والحب، الذي تتحدث عنه بصوت عالٍ للناس.

ص. ت»

اجتمع في هذا الوقت في ياسنايا بوليانا، العديد من الضيوف الذين لم يزورنا منذ فترة طويلة: ستاخوفيتش، دولغوروكوف، جوربونوف. لقد تعين على المسكين إيفان إيفانوفيتش الاستماع إلى كل شيء: عن حماقة الوالد، وعن الشرير تشيرتكوف، وعن أحفاده الذين تركوا بدون قطعة خبز...

كان الوضع يزداد سوءًا كل يوم. بدأت الهستيريا مرة أخرى، ومطالبة الوالد بعدم رؤية تشيرتكوف، وتصفية الوصية. لكن والدي كان مصمماً على عدم تقديم أي وعود.

صرخت أمي:

«لقد تبرعت بكل شيء لك، لقد تزوجتني، فتاة طاهرة ونقية تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وأنت...

ـ نعم، نعم، أنا شرير، قبيح. لقد ضحيت بالفعل بكل شيء من اجلي، والآن دعيني من فضلك!

وشرعت مرة أخرى في الاندفا ع إليه، ليس فقط أثناء النهار ولكن أيضًا إبان الليل.

اندفعت إليه وهو نائم وصرخت به:

ـ مرة أخرى تحاك مؤامرات ضدي!.

سألها الأب بصوت مرهق.

ـ أي مؤامرات؟ ما تقولين يا سونيا؟

ـ يوميات أين اليوميات؟ هل أعطيتها لشيرتكوف؟

ـ لم أفكر حتى...

ـ لا انت تكذب! لقد تلمست الحقيبة، لا توجد فيها اليومات. أين وضعتها؟

ـ عند ساشا.

غادرت، وعندما استغرق الوالد في النوم توا ، أيقظته مرة أخرى، جاءت لتعتذر عن لومه عبثًا.

جاء ممثل من شركة «التنوير». قالت أمي بمظهر غامض سيتيسر لها تجاوز الوالد، وإنها لن تسمح بوضع المؤلفات تحت الاستخدام العام، وقالت أن «التنوير» عرض عليها مليونًا مقابل حقوق المؤلفات.

وعندما عرف الوالد بذلك، انزعج. ونصح تشيرتكوف بكتابة بيان للصحف يحذر فيه الناشرين من شراء المؤلفات. تم كتابة البيان لكن الأب قرر إرجاء نشره.

في 20 أكتوبر، وصل الفلاح ميخائيل بتروفيتش نوفيكوف الذي يشاطر الوالد وجهات نظره. وترك انطباعًا كبيرًا على والدي.

ـ يا له من ذكي، يا له من ذكي! ـ كرر الأب.

عندما جئت إليه لأخذ الرسائل في القاعة، ابتسم بمرح وبقليل من المكر، أخذني إلى المكتب، ومن هناك إلى غرفة النوم.

ـ تعالي، دعينا نذهب، سأخبرك بسر كبير! سر كبير!

تبعته، ونظرت إليه، أصبح الأمر أسهل بالنسبة لي.

ـ هذا ما توصلت إليه. رويت لنوفيكوف قليلاً عن وضعنا ومدى صعوبة الأمر بالنسبة لي هنا. سوف أذهب إليه. لن يجدوني هناك. أخبرني نوفيكوف كيف كانت زوجة شقيقه مدمنة على الكحول، لذلك إذا بدأت في إساءة التصرف، يضربها شقيقه على ظهرها، حتى تتحسن حالتها، هذا يساعد. وضحك والدي بلطف ـ وتصوري، ما هي التناقضات الموجودة في العالم!

أنا أيضًا انطلقت من الضحك وأخبرت والدي كيف اوصل الحوذي إيفان، أولغا ذات مرة، وسألته عما يحدث في ياسنايا بوليانا. فأجابها بأنها سيئة، ثم التفت إليها فقال:

ـ وماذا يا صاحبة السعادة، سامحيني إذا قلت لك. لدينا على الطريقة الريفية، إذا ما أساءت المرأة، فيعاقبها زوجها بالسوط! تصبح ناعمة مثل الحرير!

بدأ الأب يضحك أكثر.

ـ نعم، نعم، تصوري كيف...

ـ نعم، في رأيي، هذه ليست تناقضات ـ قاطعته ـ فقط لديهم سوط من الحبال، ولابد أن يكون لدينا سوط أخلاقي.

ـ بلى، بلى، يتعين علي أن اغادر من هذا المنزل ـ كرر الأب مرة أخرى
-.

وكتب الأب في الرابع والعشرين، رسالة إلى ميخائيل بتروفيتش:
«ميخائيل بتروفيتش، فيما يتعلق بما قلته لكم قبل مغادرتكم، أتوجه اليكم بالرجاء التالي: إذا ما حدث بالفعل أنني أتيت إليكم، فهل بوسعكم أن تجدوا لي في قريتكم ولو كوخا صغيرا جدا، ولكنه منفصل ودافئ، حتى أضايقكم وعائلتكم لفترة قصيرة جدا. كما أعلمكم بأنه إذا اضطررت إلى إرسال تلغراف لكم، فالبرقية تكون من، ت. نيكولايف(80) نيابة عني».

(80) ابتكرنا أسماء مستعارة لأنفسنا. الأب ـ ت. نيكولاييف وأنا ـ فرولوفا حتى لا يعرف الأصدقاء مكاننا. (المؤلفة).

سأنتظر جوابكم، وأصافحكم بود. ليف تولستوي.

ضعوا في اعتباركم بأنه يجب أن تعرفوا أنتم فقط بكل هذا».

عندما ذهبت لرؤية والدي في 25 أكتوبر، كان جالسًا على كنبة، ولا يفعل شيئًا. كان من الغريب رؤيته بدون قلم وورقة، وبدون كتاب، وحتى بدون سوليتير.

ـ أجلس وأحلم ـ قال لي ـ أحلم كيف سأرحل. سترغبين بالتأكيد الذهاب معي، أليس كذلك؟

ـ نعم. لكنني لا أريد أن أضايقك. ربما في البداية، لا يتوجب ان اغادر معك، لكن بشكل عام أعيش بعيدًا عنك...

ـ نعم، نعم، لكن ما زلت أعتقد أنك لست بصحة جيدة بما يكفي لهذا، سيبدأ السعال وسيلان الأنف...

ـ لا، لا، لا شيء، ـ صرخت بحيوية، ـ سأكون أفضل بكثير في بيئة بسيطة.

كان من الغريب بالنسبة لي أنه كان يتحدث عني.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فوجودك بالقرب مني كمساعدة، ممتع وطبيعي للغاية لي. أنا أفكر بالعمل على هذا النحو. أخذ تذكرة إلى موسكو. أرسلُ شخصًا لنقل الحاجيات الى محطة «لابتيفو» القريبة من قرية ميخائل بتروفيتش، وانزلْ هناك. وإذا عثروا عليّ هناك، سأذهب إلى مكان آخر. حسنًا، ربما هذا كل هذه أحلام! سوف أعاني، إذا تركتها، سوف تعذبني حالتها. ومن ناحية أخرى، الوضع يصبح شاقا، مع كل يوم يزداد صعوبة. أعترف لك، أنا فقط أنتظر ذريعة ما لأغادر.

في 26، جاءنا الأخ سيريوجا، وكان الأب سعيدًا جدًا بوصوله، كما لو كان كان سيريوجا يشعر بعمق بمعاناة والده، كان لطيفًا وحنونًا معه بشكل خاص.

في نفس اليوم تلقينا برقية عن وصول أندريه.

همس والدي:

ـ ساعدنا، يا رب، ساعدنا، يا رب! غدوت أخاف أيضا من أندريه، بعد آخر زيارة له.

لكن أندريه حياني بالكلمات:

ـ حسنا كيف تستقبلني أختي؟

أجبته:

ـ تقبل الأخت إخوتها دائمًا على قدم المساواة.

ـ كل هذا يتوقف على الأخوة أنفسهم.

لقد سررت بكلماته. مهما كان، فهو لا يزال يشعر بمدى قبح سلوكه في زيارته الأخيرة، ويريد التعويض.

كان أندريه في مزاج جيد حقًا وحاول إقناع والدتي بالتصالح مع تشيرتكوف.

عندما استيقظ والدي في فترة ما بعد الظهر، سارعت إلى إخباره، يبدو أن أندريه نادم على سلوكه السابق، وأنه في مزاج جيد وسلمي.

همس والدي:

ـ الحمد للرب، الحمد للرب.

سأل الأب أندريه خلال الغداء، عن خدمته في «بنك الفلاحين»، وتحدثا بهدوء، من دون انزعاج، وهو نادرا ما يحدث بين الأب والأبناء.

في 28 أكتوبر، عندما ذهبت إلى والدي لأخذ العمل، أعطاني رسالة.

قال:

ـ خذي هذه، اقرئيها، من الأفضل أعيدي كتابتها إذا بوسعك قراءتها. هذه رسالة إلى الأم، التي سأتركها لها إذا غادرت. وأنا أفكر في الأمر أكثر فأكثر. ان الوضع شاق جدا. لقد جاءت الليلة الماضية وسألتني عما يكتبه تشيرتكوف. أجبتها بأن الرسالة كانت بصدد الشئون العملية، ولا توجد فيها أسرار، لكنني من حيث المبدأ لم أرغب في السماح لها بقراءتها. طفقت باللوم. إن هذا الشك المستمر صعب، واختلاس النظر من خلال الأبواب، والتفتيش في الأوراق، والتنصت شاق، ويجري هذا في الأيام الأخيرة من العمر، آخر ساعات الحياة، التي يجب أن تستخدم لغرض آخر.

عندما أحضرت الخطاب الذي أعدت كتابته، قلت له:

ـ أبي، لن أبقى وحدي، سأرحل معك.

ـ أطلب منك البقاء معها في الفترة الأولى!

أخذ الخطاب الذي أعدت كتابته، ووضعه في دفتر ملاحظاته.

المغادرة

في مساء يوم 27، كان الجو متوترا بشكل خاص. في البداية، لم تشاركنا أمي في شرب الشاي، وكانت تقوم بالتدقيق اللغوي. جلسنا أربعة إلى الطاولة: أبي، دوشان بتروفيتش، وفارفارا ميخائيلوفنا وأنا. شرب والدي شاي الفراولة الجافة. وجاءت أمي بعد فترة. فنهضتُ وأخذتُ فنجان وغادرتُ القاعة. وسرعان ما جاءت فارفارا ميخائيلوفنا وأخبرتني بأنه بمجرد مغادرتي، أخذ والدي كأسه من شاي الفراولة وذهب أيضًا إلى غرفته. لم أنم أنا وفاريا في تلك الليلة لوقت طويل. خُيل لنا أن شخصًا ما كان يسير ويتحدث في الطابق العلوي في مكتب والدي. قبيل الصباح سمعنا طرقا على الباب.

ـ من هناك؟

ـ أنا، ليف نيكولايفيتش. سأرحل الآن... للنهاية... تعالوا، ساعدوني في حزم الأمتعة.

سألته بخوف:

ـ هل سترحل وحدك؟

ـ لا، سآخذ معي دوشان بتروفيتش.

كنت اتوقع مغادرته، توقعتها كل يوم، وكل ساعة، ولكن مع ذلك، عندما قال: «سأرحل تمامًا»، صدمني الخبر كشيء جديد غير متوقع. لن أنسى أبدًا قامته عند الباب، في بلوزة، بيده شمعة، ووجه مشرق، وجميل ومليء بالإصرار.

عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، كان دوشان بتروفيتش موجودًا هناك. اعتكف الصمت، ولكن بدا واضحًا من حركاته العصبية المتوترة، أنه قلق للغاية. بدأت أساعد والدي على حزم أمتعته، لكن قلبي كان

يخفق، ويداي ترتجفان، ومن شدة الارتباك قمت بكل شيء بشكل أخرق، تعجلت، وسقطت الحاجات من يدي...

من ناحية أخرى، لاح الأب هادئًا تمامًا. لقد وضع شيئًا ما بدقة في الصناديق، وربطها بخيوط. توجه لي وهو يشير إلى حزمة من المخطوطات ملقاة على كنبة، بجانب طاولة الكتابة.

ـ هنا، ساشا، اخترت من الصناديق، جميع مخطوطاتي. من فضلك خذيهم واحفظيهم، وكتبت لأمك أنني أعطيتك إياها لحفظها.

كان وجهه ورديًا، وحركاته متسقة، ولم تكن هناك أي علامة على التسرع، وصوته المتقطع فقط كان يشي بقلقه.

أخذت المخطوطات معي، وسألته إذا كان قد أخذ اليوميات. فأجاب أنه أخذها، وطلب مني أن أضع أقلام الرصاص والأقلام الأخرى. أردت أن أحزم بعض الإمدادات الطبية اللازمة لصحته، لكنه قال إنها غير ضرورية على الإطلاق. لم يأخذ الأب معه إلا الأشياء الضرورية. وبالكاد تمكنت من إقناعه بأخذ بعض الأدوية، ومصباح كهربائي، ومعطف من الفرو.

تحركنا بشكل غير مسموع تقريبًا، وواصلنا إيقاف بعضنا البعض: «اصمت، اسكت، لا تصدر ضوضاءً!» كانت الأبواب موصده، وعندما سألت من أغلقها، قال والدي إنه ذهب بهدوء، وبالكاد تقدم، إلى غرفة نوم الوالدة، وأغلق بابها، وباب الممر.

قال لي:

ـ ستبقين يا ساشا. سأتصل بك في غضون أيام قليلة، عندما أقرر أخيرًا أين سأذهب. وعلى الأرجح، سأذهب إلى اختي ماريا المقيمة في دير «شاموردينو». أخبري أمك لقد **طفح الكيل.** حينما غفوت، سمعت خطى في المكتب، نظرت من خلال الشق، ورأيت أنها كانت تفتش في أوراقي. شعرت بالاشمئزاز الشديد، مقرف جدا. استلقيت، ولم أستطع

النوم، كان قلبي يخفق، حسبت نبضي، كان 97. ثم جاءت إلي واستفسرت عن صحتي. لم أنم طوال الليل، وقررت المغادرة بحلول الصباح.

قمنا بتعبئة الأغراض على مدى نصف ساعة تقريبًا. كان والدي بالفعل قلقًا، متسرعًا، وكانت أيدينا ترتجف، والأحزمة لم تكن مشدودة، والحقائب لم تكن مغلقة. قال الأب إنه لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك، وارتدى معطفه الأزرق، ومد الخف الواقي على الحذاء، والقبعة البنية، والقفازات، ونزلت معه للمدخل وأنا أحمل الأشياء الجاهزة. وحملت فارفارا ميخائيلوفنا المؤن للطريق. وذهب هو إلى الإسطبل ليطلب من الحوذي إعداد الخيول.

كنا على وشك إخراج أغراضنا من المدخل، عندما فُتح الباب الخارجي فجأة، ودخل والدي القاعة من دون قبعة.

ـ ما حدث؟

ـ الدنيا ظلام دامس! مشيت نحو الإسطبل، وضللت الطريق، واصطدمت بشجرة السنط، وسقطت، وفقدت قبعتي، بحثت عنها، ولم أعثر عليها واضطررت للعودة! أحضري لي، ساشا، قبعة أخرى!

ركضت وجلبت اثنتين. أخذ الأب قبعة تشبه التي فقدها ـ خرج مرة أخرى حاملاً معه مصباحًا يديويا.

بعد بضع دقائق ذهبنا إلى الاسطبل حاملين رزمًا ثقيلة وحقائبَ. كانت الأرض موحلة، وانزلقت أقدامنا، وبالكاد تمكننا من التحرك في الظلام. لمحنا وميض ضوء أزرق صغير حول المبنى الخارجي. جاء الأب للقاء بنا.

قال:

ـ أوه، هؤلاء أنتم، حسنًا، هذه المرة وصلتُ إلى هناك بأمان. إنهم يسرجون الخيول. حسنًا، سأذهب أمامكم وأضيء الطريق لكم. أوه

التفت إلى فارفارا ميخائيلوفنا وهو يلومها:

ـ لماذا أعطيتم لساشا أثقل الأشياء.

آخذ الأب السلة من يديها وحملها، وساعدتني فارفارا ميخائيلوفنا في حمل الحقيبة. كان الأب يسير في المقدمة، ويضغط أحيانًا على زر المصباح اليدوي ويطفأه فورًا، مما يجعل المكان أكثر ظلاما. كان والدي يقتصد دائمًا، وهنا أيضا يقتصد بالطاقة، كما هو الحال دائمًا، كان يتأسف لإهدار طاقة البطاريات. فتحركنا في ظلام دامس، كنا نسترشد بنور الفانوس. وعندما وصلنا إلى الإسطبل، كان أدريان بافلوفيتش قد جاء بحصان ثانٍ في عريش المركبة. أخذ الأب اللجام وألبسه على الحصان، لكن يديه ارتجفتا ولم تطيعاه ولم يستطع ربط اللجام.

في البداية، طلب والدي من الحوذي ان يستعجل، ثم جلس في زاوية مربط العربات، على حقيبة وانهارت معنوياته على الفور.

ـ أشعر أنهم على وشك ان يداهموننا، وبعد ذلك يذهب كل شيء سدى. لا يمكنني المغادرة بدون فضيحة.

ولكن الخيول أصبحت خلال هذه الاثناء جاهزة، وارتدى الحوذي بدلته. وقفز فيليا على الحصان حاملا شعلة بيده.

ـ تحرك!

ـ توقف، توقف! ـ صرختُ أنا ـ مهلا: يا أبي! دعني أقبلك!

ـ وداعا عزيزتي، وداعا! حسنًا، ولكننا سنلتقي قريبًا. تحرك!

انطلقت العربة، ولم تمر بجوار المنزل، بل مضت في طريقً مستقيم، يمر عبر بستان التفاح، ويذهب إلى ما يسمى بـ«الممر».

جرى كل هذا بسرعة فائقة، وبشكل غير متوقع، ولم يكن لدي الوقت لأدرك ما حدث. وبعد ذلك، وقفت في الظلام بالقرب من الإسطبل، وأدركت بوضوح لأول مرة، أن والدي قد غادر ياسنايا بوليانا نهائيا، ربما إلى الأبد، وربما لن أراه مرة أخرى.

كانت الساعة حوالي الخامسة صباحًا عندما عدت أنا وفارفارا ميخائيلوفنا إلى المنزل. دخلت غرفتي وانا استمع إلى دقات قلبي السِّراع، وإذ رحت اعد الساعات هنا، جلست حتى الثامنة. في الساعة الثامنة، تنفست الصعداء: القطار الذي كان من المفترض أن يغادر والدي به قد تحرك. ذهبت إلى إيليا فاسيليفيتش.

ـ أين ليف نيكولايفيتش؟

غض إيليا فاسيليفيتش من بصره، واعتصم بالصمت.

ـ هل تعرفون، أن ليف نيكولايفيتش غادر نهائيا؟

ـ أعرف، أنهم قالوا لي إنهم يريدون المغادرة، واليوم خمنت من اختفاء المعطف، أنهم ليسوا هنا.

انتشر خبر رحيل الوالد تدريجيا، في جميع أرجاء المنزل.لاذ معظم الخدم بالصمت، ولم يجرؤوا على التعبيرعن آرائهم، فقط النساء المسنات ـ المربية دونيتشكا، تحسرت بصوت عالٍ، وعلى الرغم من إشفاقها على الكونتيسة، بيد أنها القت اللوم عليها.

جاء لي أدريان بافلوفيتش، الذي أخذ والدي إلى المحطة، برسالة:

«وصلنا جيدًا. ربما نذهب إلى محطة» اوبتينا:. اقرأي رسائلي. ابلغي تشيرتكوف أن يرسل بيانًا إلى الصحف إذا لم اطلب منه إلغاء ذلك في بحر أسبوع، حتى اليوم الرابع. من فضلك، عزيزتي، حالما تعرفي أين أتواجد، وستعرفين ذلك قريبًا جدًا، ابلغيني بكل شيء. كيف كان وقع مغادرتي وكل شيء، وكلما كان بالتفصيل كلما كان أفضل.

28 أكتوبر/ تشرين الأول. محطة شيكينو.»

من شدة القلق الفظيع ضاقت الدنيا بي، انتظرتُ حتى الساعة الحادية عشرة. وكان من الصعب علي للغاية أن ابلغ الأم عن مغادرة الوالد.
ولكن بعد ذلك سمعت خطى في غرفة النوم. دخلتُ القاعة، وعقب بضع دقائق هرعت والدتي إلى هناك.

ـ أين الأب؟؟ سألت بخوف.

ـ الأب غادر.

ـ إلى أين؟

ـ لا اعرف.

ـ كيف لا تعرفين أين ذهب؟ هل ذهبت نهائيا؟

ـ ترك لك رسالة. ها هي.

سلمتها الرسالة. أمسكت بها على عجل. ومرت عيناها بسرعة فوق الخطوط.

إليكم ما كتبه والدي:

«4:00 صباحًا في 28 أكتوبر 1910.

رحيلي سيحزنك، وأنا آسف لذلك، لكنني أفهم وأعتقد أنه لم يكن بإمكاني القيام بشيء آخر. أصبح وضعي في المنزل لا يطاق. بصرف النظر عن كل شيء آخر، لم يعد بإمكاني العيش في ظروف البذخ والرفاهية التي عشت فيها، وأقدمت على ما يقوم به عادة كبار السن في مثل عمري: يتركون الحياة الدنيوية، ليعيشوا الأيام الأخيرة من حياتهم في عزلة، في هدوء.

من فضلك تفَهّمي هذا، ولا تتبعني إذا عرفتِ مكاني. إن وصولك لن يؤدي إلا إلى تفاقم وضعك وحالتي، لكنه لن يغير قراري.

أشكرك على حياتك الصادقة معي، التي استمرت ثمانية وأربعين عامًا، وأطلب منك أن تسامحيني على كل ما كنت مذنبًا به بحقك، تمامًا كما أسامحك بصدق على كل ما يمكن أن تكوني مُذنبةً به بحقي. أنصحك بالاستسلام للوضع الجديد، الذي يضعك فيه رحيلي، وألا تضمري لي شرا. إذا أردت أن تخبرني بشيء ما، أخبري به ساشا، ستعرف مكاني وسترسل لي ما هو ضروري، ليس بوسعها ان تقول أين أنا، لأنني أخذت منها وعدًا بعدم إخبار أحد بذلك.

ليف تولستوي.

أكلف ساشا أن تجمع أغراضي ومخطوطاتي وترسلها إلي».

وصرخت الأم:

ـ لقد ذهب، ذهب نهائيا! سأودعكم، لا أستطيع العيش من دونه! سوف انتحر غرقا!

رمت الرسالة على الأرض ووواندفعت راكضة. دعوتُ فالنتين بولجاكوف، الذي وصل لتوه من آل تشيرتكوف، وطلبت منه مساعدتي في اللحاق بأمي. ركض بولجاكوف خلفها على الفور. وهي، كما كانت، بدون خف حذاء، فقط في ثوب، ركضت على درب الحديقة، ومضت أبعد، نحو الترعة. نظرت إليها من نافذة الصالة. لكن بعد ذلك رأيت أنها كانت تقترب من الترعة. اندفعتُ بأسرع ما يمكن هابطة من الدرج. رأت أمي في تلك اللحظة بولجاكوف يجري خلفها فاندفعت إلى الجانب. ركضت عبر الطريق، وتجاوزت بولجاكوف، ووصلتُ أنا في الوقت المناسب، عندما ركضت أمي إلى الترعة، على ألواح الطوافة، التي كان يجري شطف البيضات عليها، لكنها انزلقت وسقطت إلى الوراء. هرعت إليها، لكنها انزلقت على الطوافة إلى الجانب، وسقطت في الماء. لم ألحق بالإمساك بها. بدأت تغوص في الماء، لكنني ارتميت بنفسي خلفها،

وتبعني بولجاكوف، في الوقت المناسب. وفي الوقت الذي وقفت حتى الصدر في الماء، أخرجت والدتي وسلمتها إلى بولجاكوف والخادم فانيا، الذي جاء مسرعا للمساعدة. أمسكا بها وحملاها. ووصل سيميون نيكولايفيتش حالا، الذي ركض على الطوافة، وانزلق وسقط بكل قوته.

قالت الأم:

ـ أنا انزلقت وسقطت أيضًا.

أخذوها من ذراعيها واقتادوها بعيدًا.

ـ ساشا! ـ صرخت بي ـ الآن أرسلي إلى والدك برقية بأنني غرقت!

لم أرد على والدتي بشيء. من الجري السريع والماء البارد والاضطراب الذي عشته، تقطعت أنفاسي، وكان قلبي ينبض في صدري وبالكاد أستطيع تحريك ساقي.

عند وصولي إلى المنزل، استبدلت ملابسي، وصعدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى. تجولت في الغرف، وأنا قلقة ولا أعرف ما اعمل. والآن أرى من النافذة أن والدتي ترتدي ثوبًا فقط وتسير في الزقاق إلى الترعة. صرخت إلى بولجاكوف وفانيا، اللذين ركضا خلفها مرة أخرى، وأعاداها إلى المنزل بالقوة. وعلى هذا النحو استمر هذا اليوم الكابوسي بأكمله، الذي بدا لي بلا نهاية. بكت الأم بلا انقطاع، وضربت نفسها على صدرها بثقالة الورق، والآن بمطرقة، ووخزت نفسها بالسكاكين والمقص والدبابيس. وعندما أخذت كل هذه الأشياء منها، أرادت أن تلقي بنفسها من النافذة، في البئر.

قررت أن أراقبها ليلًا ونهارًا، حتى وصول باقي أفراد العائلة، الذين أرسلت إليهم على الفور برقيات عاجلة. كان الأخ أندريه في كرابينفا في ضواحي مدينة تولا، وكان من الممكن أن يصل إلى في ياسنايا

بوليانا في نفس اليوم. بالإضافة إلى ذلك، استدعيت طبيب الآمراض العصبية من تولا.

توسلت إلي أمي عدة مرات لإخبارها أين ذهب والدي، وعندما رأت أنها لن تحصل على أي شيء مني، أرسلت إلى المحطة لمعرفة المكان الذي تم أخذ التذاكر إليه. وعندما عرفت ان التذاكر كانت للسفر في القطار رقم 9، أرسلت برقية على اسم والدي:

«ارجع على الفور. ساشا».

جاء لي الخادم ايفان الذي كلفته بهذه البرقية، محرجا وسلمني إياها، وهو لا يعرف ما إذا كان يجب أن ينفذ أمر الوالدة.

لم أقم بتأخير البرقية، لكن في نفس الوقت أرسلت برقية أخرى: «لا تقلق، فقط البرقيات الموقعة من الكسندرا صالحة». علمت لاحقًا أنه لم يتم استلام هاتين البرقيتين، حيث استقل والدي قطارًا آخر.

وصل الأخ أندريه في المساء. وبعده بساعة، جاء الطبيب من تولا. ذهب الطبيب على الفور إلى الوالدة، وتحدث معها لفترة طويلة، وحدد حالتها بالهستيريا، لكنه لم يجد أي علامات لوثة عقلية. ورغم ذلك حذرنا من أنه لا يستبعد إمكانية الانتحار.

قال:

ـ هناك حالات ينتحر فيها الهستيرون عن غير قصد، عندما يريدون تخويف الآخرين.

وطالبنا بالإشراف المستمر والدقيق على الأم.

تناوبت العجوز شميت وبولجاكوف ليلا الإخفار بالقرب من الأم.
استيقظتُ عدة مرات لأعرف ما يجري. ذهبت الأم طوال الليل من غرفة إلى أخرى، انتحبت بصوت عالٍ، ثم هدأت. لم تعد تحاول الانتحار.
وراحت تردد:

ـ سأجده، سأهرب. مهما تقيمون حراسة علي. اقفز من النافذة، اذهب إلى المحطة. ماذا ستفعلون بي؟ أوه، فقط لمعرفة مكانه! عندها لن أدعه يخرج، سأحرسه ليل نهار، سأنام عند بابه...

في مساء يوم 28 أكتوبر/ تشرين الثاني، تلقيت برقية مرسلة إلى تشيرتكوف: «سنقضي الليلة في أوبتينا ونكون غدًا في دير شاموردينو. العنوان بودبوركي. في حالة صحية جيدة. نيكولاييف.»

لم تتحسن حالة الأم في اليوم التالي. أحيانًا كانت تبكي بشكل هيستيري، وهي تصرخ:

ـ لوفيتشكا، لوفيتشكا ماذا فعلت بي! ارجع يا عزيزي لوفيتشكا!

في بعض الأحيان بدأت في لوم الوالد، وكانت غاضبة منه، ولسبب ما في مثل هذه اللحظات بدا لي أنها لن تفعل أي شيء بنفسها.

وصلت تانيا وجميع الإخوة، باستثناء ليف، الذي كان في خارج البلاد. اجتمعوا في المساء في غرفتي وبدأوا في مناقشة ما يجب القيام به. اعتقد الجميع، باستثناء الأخ الأكبر سيرجي، أن على الوالد أن يعود. قال إيليا بحدة أن والده، الذي كان يبشر بالمسيحية طوال حياته، في هذه الحالة ارتكب عملاً شريرًا غير مسيحي ـ بدلاً من مسامحة والدته وتحملها، غادر. دعمه الآخرون. وعندما اعترضتُ صاح إيليا بغضب:

ـ تقصد ساشا أن ترك الوالد للوالدة المريضة عمل مسيحي؟ لا، أنت تعيشين معها، عليك أن تتحمليها، وتكوني لطيفةً معها ـ ستكون هذه هي المسيحية الحقيقية.

شدد إيليا على كلمة «المسيحية».

ـ أتفقُ مع إيليا ـ قالت تانيا، ـ سيكون والدي أكثر ثباتًا إذا بقي مع الوالدة.

ـ لكن ما العمل الآن؟ ـ سأل ميشا. ـ ولا يجوز تركها وحدها!

ـ نعم، ـ قال أندريه ـ لكن لا يمكنني التسكع هنا، لدي وظيفة.

ـ ولدي خدمة! ـ قال ايليا.

ـ ولدي تانيشكا وميخائيل سيرجيفيتش ـ قالت تانيا ـ وأنتِ، ساشا، من المحتمل ستذهبين إلى والدك؟

قلت:

ـ نعم. أعتبر أني وفيتُ بواجبي تجاه والدتي.

وبدأت أتحدث عن توسلي لهم عدة مرات خلال هذه المعناة المستمرة منذ خمسة اشهر، للمساعدة على الفصل بين الوالدين، على الأقل لفترة من الوقت، بوضع والدتهم في مصحة، وفي كل مرة يسارعون للمغادرة، بعضهم لعائلاتهم، والبعض الآخر للعمل. والآن رحل الأب، وبدلاً من الابتهاج لأنه حرر نفسه أخيرًا من المعاناة، يلومونه ويفكرون فقط في كيفية جعله يعود ويتحمل المشاق مرة أخرى.

شعرت بالمرارة وشعرت أنه لا يوجد ما يمكن توقعه من دعم خاص من العائلة. قال سريوجا لوحده فقط:

ـ ساشا على حق. لا أريد عودة والدي واليوم سأكتب له عن ذلك.

وكتب لوالده رسالة قصيرة لكنها رقيقة ومتعاطفة، أعرب فيها عن رأي مفاده أنه مهما كان الأمر صعبًا، كان على الأب أن يفترق عن والدته منذ ستة وعشرين عامًا، وأنه يفهم والده ولم يدينه، وبغض النظر عما حدث. لا ينبغي للأب أن يؤنب نفسه. حث الآخرون جميعا، في رسائلهم، الوالد على العودة إلى ياسنيا بوليانا. وكتبت الأم أيضًا رسالة:

«29 أكتوبر 1910.

حبيبي لوفيتشكا، عد إلى المنزل، عزيزي، أنقذني من انتحار ثانٍ.
لوفيتشكا صديق حياتي كلها، سأفعل كل ما تريد، سأتخلى عن كل الرفاهية والبذخ تمامًا، سأكون صديقة لأصدقائك، وسأتعالج، وسأكون وديعة، يا عزيزي، ارجع، لأنه يجب انقاذي، فوفقًا للإنجيل قيل لا يجب أن تترك زوجتك تحت أي ذريعة. عزيزي، عزيزي، صديق روحي، انقذني، ارجع، عد على الأقل لتودعني قبل انفصالنا الأبدي.

أين أنت؟ أين؟ هل أنت بصحة جيدة؟، لوفيتشكا لا تعذبني يا عزيزي، سأخدمك بالحب وبكل كياني وروحي، عد إلي، ارجع من أجل الرب، من أجل حب الرب، الذي تدعو الجميع له، سأمنحك نفس الحب، المتواضع، غير الأناني! أعدك بصدق وحزم يا عزيزي، وسوف نجعل كل شيء بسيطًا بشكل ودي، دعنا نذهب حيثما تريد، سنعيش كما تريد.

حسنًا، وداعًا، وداعًا، ربما إلى الأبد.

سونياك.

يا ترى هل تركتني إلى الأبد؟ من كل بد لن أجتاز هذه المحنة، لأنك تقتلني. عزيزي، خلصني من الخطيئة، لأنه ليس بميسورك أن تكون سعيدًا وهادئًا إذا قتلتني.

لوفيتشكا صديقي العزيز، لا تختبئ عني حيث أنت، ودعني آتي لرؤيتك يا عزيزي، لن أزعجك، أعطيك كلمة، سأعاملك بوداعة، وبحب.

جميع الأبناء هنا، لكنهم لم يساعدوني في استبدادهم، والثقة بأنفسهم، لأني بحاجة لشيء واحد، أحتاج لحبك، أحتاج لرؤيتك. صديقي، اسمح لي على الأقل أن أقول لك وداعًا، وأقول للمرة الأخيرة كم أحبك.
ادعوني، أو تعال بنفسك. وداعا لوفيتشكا، بكل وجداني أبحث عنك وادعوك. يا له من عذاب لروحي».

غادرتُ مع فارفارا ميخائيلوفنا في ليلة 29 إلى 30. ذهبنا إلى تولا ـ كالوغا ـ سوخينيتشي ـ كوزيلسك. في كوزيلسك أخذنا عربتين،

أحدهما لأنفسنا والأخرى للأشياء، وتوجهنا إلى دير شاموردينو. كانت الطريق فظيعة، مظلمة وموحلة، وبالكاد تتحرك الخيول. سافرنا لمدة ساعتين ونصف. ولكن سرعان ما لاحت الأضواء تومض أمامنا.
ساورني الخوف. وطفق قلبي يخفق بشدة: ماذا لو لم نجد الأب في دير شاموردينو، ويكون قد غادر، ولا أحد يعرف إلى أين؟ ذهبنا بالعربة إلى فندق الدير.

سألتُ راهبة مسنة وسيمة خرجت لإستقبالنا:

ـ من ينزل لديكم؟

أجابت بفخر:

ـ ليف نيكولايفيتش تولستوي.

ـ هل في غرفته؟

ـ لا، لقد ذهبوا إلى أخته، إلى ماريا نيكولاييفنا.

طلبت من الراهبة أن تأخذني على الفور إلى العمة ماشا، من دون أن أخلع معطفي. مررنا بساحة دير كبيرة وكنيسة وبعض المباني الأخرى، وأخيراً أرتني الراهبة منزلاً صغيراً. طرقتُ الباب. فتحه راهبة فتية.

ـ من تريدون؟

ـ اسمحوا لي بالدخول! ـ قلت، والقلق ينتابني أكثر وأكثر مع كل دقيقة
ـ دعوني أمر، أنا ابنة أخ ماريا نيكولاييفنا!

ـ حسنا تفضلوا.

دخلت المنزل بهدوء، ومررت بغرفة، وأخرى، وكان كل شيء هادئًا. ناديت العمة ماشا. فسألت بخوف:

ـ من هذا؟ مَن؟

ـ أنا ساشا. أين أبي؟؟

ـ اه هذه انتِ! ـ كانت مستلقية على السرير في غرفتها. تعانقنا وقبلنا بعضنا البعض بقوة. ـ بابا؟ خرج للتو.

ـ هل هو بصحة جيدة؟

ـ نعم، بصحة جيدة.

قلت لها:

ـ الحمد للرب. اذن سأجلس معك لبعض الوقت، وبعد ذلك سأذهب إلى فندقه.

ـ لكن كيف لم تلتقيا؟ انه غادر للتو. (كما اتضح لاحقًا، اصطحب دوشان بتروفيتش الوالد في طريق قصير، فلم نلتق بهما).

دخلت ابنة العمة ليزا أوبولينسكايا، التي كانت تقيم مع العمة ماشا في ذلك الوقت. لقد كانوا قلقين للغاية، واستفسروا مني، وأخبروني بدورهم عن الانطباع الفظيع الذي تركه عليهم وضع الأب. بعد التحدث معهم، كنت على وشك المغادرة، وفجأة فتح الباب وواجهنا والدي وجهاً لوجه. قبلني وسألني على الفور:

ـ كيف الحال هناك؟

ـ الآن كل شيء على ما يرام، هناك الآن الأخوة، وانتقلت تانيا للعيش معنا، أمي هدأت قليلا ـ أجبت. ـ أحضرت لك رسائل منهم.

ـ هيا.

جلس على الطاولة وبدأ في القراءة بعناية. جاءت فارفارا ميخائيلوفنا. شرعت العمة ماشا وإليزافيتا فاليريانوفنا في توجيه الأسئلة لهما عما

يحدث في ياسنايا بوليانا. وأجابت فارفارا ميخائيلوفنا بصوت خافت خوفا من ان تشوش على الوالد. لكنه قال:

ـ من فضلكم تحدثوا بصوت عال، انتم لا تشوشون عليّ بأيّ شكل من الأشكال،ان كل هذا مثير جدا للإهتمام.

سألني، وهو مستغرق في تفكير عميق بعد ان انهى قراءة الرسائل:

ـ بلى، مهما كان الأمر مروعا بالنسبة لي، ولكن ليس بوسعي العودة... كلا، لن أعود، ـ قال هو بحزم ـ رسالة لطيفة من سيريوجا: مختصرة وطيبة، وذكية. شكرا له! ولكن اروي لي كل شيء بالتفصيل!

وأنشأت اروي عن ما حدث من دونه، وكيف تلقت امي نبأ مغادرته، وما قالته ومن كان بالقرب منها، وما قال الطبيب.

ـ إذن أنت تقولين أن الطبيب لا يجدها غير طبيعية؟

ـ لا، لم يجده.

قال وهو يلوح بيده:

ـ بلى، ولكن ما يعرفون، لقد كتبت لكِ، ولكن لم تصلك رسائلي في الوقت المناسب. أردت أن تخبري تانيا وسريوجا بأن من المستحيل أن أعود إليها.

ما يلي النص الكامل لهاتين الرسالتين التي أرسلهما الأب لي. لقد استلسمتهما في محطة أستابوف للسكك الحديدية.

«28 أكتوبر 1910. محطة كوزلسك.

وصلنا، يا عزيزتي ساشا، بأمان ـ آه، فقط ان لا يكون الوضع لديكم سيء للغاية. الآن الساعة السابعة والنصف. سنقضي الليل وإذا بقيت على قيد حياة سنذهب غدًا إلى دير شاموردينو. أحاول أن أكون هادئًا،

ويجب أن أعترف بأنني أشعر بنفس القلق الذي أشعر به دائمًا، وأتوقع أن كل شيء سيكون شاقا، ولكن لا ينتابني الشعور بالخزي ولا بذلك الإحراج، وبالافتقار إلى الحرية التي كنت أشعر بها دائمًا في المنزل. كان علي السفر من محطة جورباتشوف في عربة الدرجة الثالثة. وكان الأمر غير مريح، ولكنه ممتع روحيا للغاية ووعظي. أكلت جيدًا على الطريق، والآن سنشرب الشاي في محطة بيليف، وننام، نحاول النوم. تقريبا غير متعب، حتى أقل من المعتاد. أنا لا أقرر شيئاً بشأنك حتى أسمع منك الأخبار. ارسلي رسائلك إلى دير شارموردينو، وإذا كان أي شيء عاجل، أرسلي البرقيات إلى هناك. أخبري باتا (فلاديمير تشيرتكوف) أن يكتب لي، وأنني قرأت المقطع المحدد في مقالته، ولكن على عجل، وأريد إعادة قراءته ـ دعيه يرسلها. أخبري فاريا أنني أشكرها، كما هو الحال دائمًا، على حبها لك، وأرجو وآمل أن تعتني بك وتحد من انفعالاتك. من فضلك يا عزيزتي قليلا من الكلمات، ولكن الوديعة والحازمة.

أرسلي لي أو أحضري لي شيئًا صغيرًا لتعبئة الريشة (بالحبر)، الكتب التي بدأتها: مونتين، نيكولاييف، دوستويفسكي المجلد الثاني... اقرأي جميع الرسائل وارسلي لي ما يلزم: مختارات، دير شاموردينو.

أخبري فلاديمير جريجورييفتش أنني سعيد جدًا، وخائف جدًا مما فعلته. سأحاول كتابة مضامين الأحلام التي تتطلب كتابة فنية. أعتقد أنه من الأفضل الامتناع لفترة عن مقابلته. هو، كالعادة، سيفهمني. وداعا يا عزيزتي، أقبلك، على الرغم من انك مصابة بالزكام.

وارسلي أيضا مقص صغير وأقلام رصاص، ورداء».

«29 أكتوبر، 10. أوبتينا بوستين.

سيخبرك الكسي سيرجينكو تشيرتكوف، كل شيء عني، صديقتي العزيز ساشا. اشعر بصعوبة. لا يسعني إلا أن أشعر بالكثير من المشقة. الشيء الرئيسي هو عدم ارتكاب خطيئة، في هذا يكمن العمل.

بالطبع، لقد أخطأت وسأخطئ، ولكن باقل قدر. هذا ما أتمناه لك في المقام الأول، وهو الشيء الرئيسي. علاوة على ذلك، أعلم ان مهمة فظيعة وقعت على عاتقك، تفوق قوتك لكونك شابة.

لم أقرر أي شيء ولا أريد أن أقرر. أحاول أن أفعل ما لا أستطيع إلا أن أفعله، ولا أفعل ما لا أستطيع فعله. سترين في خطابي كيف إنني لا أرى، بل أشعر. اعقد الأمل على تاثير تانيا وسيريوجا والطيب. الشيء الرئيسي هو أنهما يتفهمان ويحاولان إقناعها أنه مع استراق السمع هذا والتنصت، واللوم الأبدي، والتحكم بي كما يحلو لها، والرقابة المستدامة عليّ، والكراهية لأقرب شخص، ضروري لي، ومع هذه الكراهية الواضحة لي، وتصنع الحب، أن مثل هذه الحياة ليست مزعجة بالنسبة لي، ولكنها مستحيلة تمامًا ـ وإذا على احد ما الانتحار غرقا، فبالتأكيد ليس عليها، ولكن علي أنا ـ أنني أريد شيئًا واحدًا: التحرر منها، من هذه الكذبة، والتصنع والكراهية والبغض، الذي يتخلل كيانها كله...

بالطبع، لا يمكن ان يجعلوها تفهم هذا، لكن يمكنهم أن يفهموها أن افعالها تجاهي لا تنطوي على الحب فحسب، بل يبدو كما لو أنها تستهدف بوضوح قتلي، وهو ما ستحققه، حيث اعقد الأمل على أنني في النوبة الثالثة التي تهددني، سأخلصها ونفسي من هذا الوضع الرهيب الذي عشناه، ولا أريد العودة إليه.

أترين يا عزيزتي كم أنا سيئ. أنا لا أختبئ منك. أنا لم اطلب منك القدوم، ولكني سأطلب منك المجيء في أقرب وقت ممكن وقريباً. اكتبي كيف صحتك. أقبلك. ليف تولستوي.

نحن ذاهبون إلى شاموردينو. دوشان متوزع، وأنا أتمتع، بحالة جسدية جيدة».

كما يتضح من هذه الرسائل، ليس بميسور والدي العودة إلى ياسنايا بوليانيا، ولم يرغب في ذلك، ولهذا فان الرسائل الواردة من المنزل، والتي

شعر فيها بعدم رضا الأخوة عليه لأنه ترك الوالدة، كانت صعبة عليه بشكل خاص.

ـ لا أستطيع العودة ولن أعود إليها، ـ كرر، ـ أردت البقاء هنا، حتى أنني أردت إستئجار كوخ، حسنًا، لا يمكن التخمين بشيء.

بدا لي حزينًا ومتوعكا. كان من الواضح أنه منزعج من قصصي ورسائلي. لقد أدرك أن مكان وجوده، إن لم يكن معروفا، كان على وشك أن ينفضح ولن يتركوه وشأنه.

جلسنا مع العمة ماشا وشربنا الشاي في صمت، يغمرنا القلق والخوف.

وسألته.

ـ يا ترى هل ستندم على ما فعلته، أو تلوم نفسك إذا حدث شيء لأمي؟

قال:

ـ بالطبع لا، يا ترى هل بميسور الإنسان الندم على تصرف ما، حينما لم يكن بمقدوره أن يتصرف بطريقة أخرى. ولكن إذا حدث لها شيء ما، فسيكون ذلك شاقا جدًا لي.

لقد تفهمت العمة تمامًا موقف والدي، وتعاطفت معه بعمق. وقالت بحزم وصلابة:

ـ دع لوفيتشكا يغادر. وإذا جاءت سونيا إلى هنا، فسوف أستقبلها.

لم يجلس الأب لوقت طويل، فقام وودع العمة، وتهيأ للخروج.

ـ لوفيتشكا لن تغادر دون أن تقول وداعًا لي، أليس كذلك؟ ـ سألته العمة ماشا.

قال الأب:

ـ بالطبع، بالطبع، الصباح رباح، سنلتقي غدًا.

جددت العمة مرة أخرى:

ـ من فضلك لا تغادر دون أن تقول لي وداعا!.

قال الأب، ومن الواضح أنه كان يفكر في شيء آخر وهو يذهب إلى الفندق.

ـ لا، لا، يجب أن نفكر في الأمر مرة أخرى.

وودعتني العمة ماشا ودوشان بتروفيتش وطلبت منا، إذا كان ليف نيكولايفيتش سيغادر في الصباح، فعلينا أن نخطرها بكل الوسائل بذلك، ودون أن نشعر بالحرج بشأن الوقت. ووعدنا بتلبية طلبها، وذهبنا مع والدي إلى الفندق. جاءت إليزافيتا فاليريانوفنا أوبولينسكايا معنا.

عند وصوله إلى المنزل، قال الأب إنه يريد أن يعتكف بمفرده. كانت الغرفة خانقة. فتح النافذة وجلس على الطاولة لكتابة الرسائل.

ذهبنا إلى غرفة دوشان بتروفيتش، وأخذنا كتيباً إرشادياً، وفتحنا خريطة، وشرعنا لكل احتمال في مناقشة أين نذهب. شعرت أن الأخبار التي جئت بها قد أزعجت والدي لدرجة أنه يمكنه ان يتأهب في أي لحظة ويواصل رحلته.

أزعجتني النافذة المفتوحة في غرفته، فذهبت إليه مرتين، وسألته عما إذا كان سيسمح لي بإغلاقها.

ـ لا، الجو حار، اتركيها.

كان يجيبني في كل مرة. كان يكتب شيئًا، وكان من الواضح أنني كنت اشوش على سلسلة أفكاره.

بعد فترة، طلبت من دوشان بتروفيتش أن يذهب إليه، لكن والدي قال له أن يتركه وحده. بعد نصف ساعة جاء إلينا حاملاً رسالة في يديه، قائلا:

ـ لقد كتبت للأم أرسلوها بالبريد التالي.

هذه هي الرسالة:

«31 أكتوبر 1910.

ان لقاءنا، ناهيك عن عودتي، أصبح الآن مستحيلًا تمامًا. وكما يقول الجميع سيكون هذا ضارًا لك للغاية، وسيكون أمرا فظيعًا لي، وذلك لأن وضعي المؤلم الناجم عن اضطرابك وهياجك، سيصبح أسوأ مما يمكن أن يكون عليه. أنصحك بأن تستسلمي لما حدث، وأن تستقري في وضعك الجديد لفترة، والأهم من ذلك ـ أن تتم معالجتك. لو إنكِ على الأقل لا تكرهيني، دعك من أن تحبيني، فعليكِ على الأقل أن تتفهمي موقفي قليلاً، وإذا قمتُ بخطوتي هذه، فلا تدينيني فحسب، بل حاولي مساعدتي في العثور على هذا الهدوء، وإمكانية أن أعيش شكلاً من اشكال الحياة البشرية، ساعديني ببذل الجهود لضبط نفس، وعدم تمني عودتي الآن. إن مزاجك الآن، ورغبتك، ومحاولاتك في الانتحار، وفقدانك السلطة على نفسك تتجلى أكثر من أي شيء آخر، وتجعل عودتي أمرًا لا يمكن تصوره. ليس بميسور احد، بما في ذلك جميع الأقرباء وانا، أن يخلصك من معاناتك، الأهم هي ذاتك، لا تستطيعين التحكم بما يجري من خارجك، لكنك تستطيعين أن تتحكمي بما يدور في داخلك. حاولي توجيه كل طاقتك، ليس للحصول على كل ما تريدينه الذي يتمثل الآن بعودتي، ولكن لتهدئة ذاتك، وروحك، وستحصلين على ما ترغبين فيه.

قضيت يومين في شاموردين وأوبتينا وسأغادر. سأرسل رسالتي ونحن في الطريق. لن اخبرك إلى أين أنا ذاهب، لأنني أعتبر الانفصال ضروريًا لك ولي. ولا أعتقد أنني غادرت لأنني لا أحبك. أحبك وأشفق عليك من كل قلبي، لكني لا أستطيع أن أتصرف بخلاف ما قمت به.

رسالتك لي ـ أعرف أنها كتبت بصدق، ولكن ليس بوسعك تنفيذ ما ترغبين به. ولا يتعلق الأمر بتحقيق أي من رغباتي ومطالبي، ولكن فقط بتوازنك وبهدوئك وبالموقف العقلاني من الحياة. ولحد الآن لا وجود لهذا، إنني لا أطيق الحياة معك. والعودة إليك وأنتِ في مثل هذه الحالة، تعني لي التخلي عن الحياة، واعتقد بانه لا يحق لي القيام بذلك.

وداعا عزيزتي سونيا. ليساعدك الرب. الحياة ليست مزحة، ولا يحق لنا أن ان نقلع عنها بمحض إرادتنا. كما أنه ليس من الحكمة قياسها بطول الزمن. وربما تكون الأشهر الأخيرة التي بقيت لي للعيش، أكثر أهمية من كل السنوات التي عشناها، وعلينا أن نعيشها بشكل جيد.
ليف تولستوي»

جلسنا على الطاولة ونظرنا إلى الخارطة امامنا. كانت النافذة مفتوحة. أردت أن اغلقها لها.

ـ اتركيها! ـ قال الأب ـ الجو حار. بما تنظرون؟

ـ خريطة ـ قال دوشان بتروفيتش ـ إذا سافرنا، فمن الضروري ان نعرف إلى أين.

ـ حسنًا، أرني.

وبدأنا جميعًا، ونحن ننحني على الطاولة، في تحديد إلى أين نذهب. استغليت الفرصة وأغلقت النافذة بيد واحدة، دون أن يلاحظ والدي. كان منفعلا ويمكن أن يصاب بنزلة برد بسهولة.

افترضنا أن نسافر إلى نوفوتشيركاسك. في نوفوتشيركاسك، نقيم عند ابنة أخت ابي يلينا سيرجييفنا دينيسينكو، ونحاول أن نحصل على جوازات سفر خارجي، بمساعدة زوجها ايفان فاسيلوفيتش، وإذا أمكننا، فنسافر إلى بلغاريا. وإذا فشلنا فنتوجه إلى القوقاز، إلى شركاء والدي في الرأي.

وبالحديث على هذا النحو، شغفنا بشكل غير ملحوظ أكثر فأكثر بخطتنا وناقشناها بحمية.

قال والدي:

ـ حسنًا، هذا يكفي ـ لست بحاجة إلى وضع أي خطط، سنرى غدًا.

لقد شعر فجأة بعدم الارتياح عند الحديث عن ذلك، وكان منزعجًا أنه انجرف معنا وبدأ في وضع الخطط، متناسيًا قاعدته المفضلة: العيش فقط في الوقت الحاضر.

قال:

ـ أنا اشعر بالجوع. ما يجب أن آكل؟

أحضرنا أنا وفارفارا ميخائيلوفنا الشوفان والفطر المجفف والبيض والمصباح الكحولي، وأعددنا له بسرعة عصيدة الشوفان. أكل بشهية، ومدح طهينا. لم يعد هناك حديث عن المغادرة. تنهد أبي بشدة عدة مرات ورد على نظرتي المتسائلة:

ـ مشقة.

انقبض قلبي وأنا أنظر إليه: كان حزينًا ومذعورًا للغاية. تكلم قليلا، وتنهد وذهب إلى الفراش مبكرا.

تفرقنا على الفور إلى غرفنا، ولأننا كنا متعبين جدًا من الطريق، فقد نمنا كالموتى.

في حوالي الساعة الرابعة صباحًا، سمعت أحدهم يطرق بابنا. قفزت وفتحته. كان يقف أمامي، كما كان الحال قبل أيام قليلة، ابي وبيده شمعة. كان يرتدي ملابسه بالكامل.

ـ ارتدي ملابسك، سنذهب قريبًا، الآن! ـ قال ـ لقد بدأت في تجهيز الاشياء، تعالي لمساعدتي.

نام بشكل سيئ، وتألم لأن مكان وجوده سيكون معروفا. ايقظ دوشان بتروفيتش في الساعة الرابعة صباحًا، وأرسلهم للحوذيين، الذين أبقيناهم، لكل احتمال، لقضاء الليل في القرية. ولم ينس أن يوصي بخيول لنا، وأرسل عامل فندق الدير لأصحاب العربات المحليين.

وتذكرت الوعد الذي قطعته لعمتي ماشا، أرسلت لها على الفور. كان الظلام دامسا. فحزمت على ضوء الشمعة أشيائي على عجل، وربطت الحقائب. وجاء دوشان بتروفيتش. أحضر سواق العربات، لكن سائقنا الذي امضى ليلته في القرية لم يأت بعد. طلبت من والدي المغادرة دون انتظارنا. لقد كان قلقًا للغاية، وأرسل عدة مرات إلى القرية للمجئ بالخيول، وأخيراً قرر الذهاب دون انتظار العمة ماشا وابنتها ليزا، وكتب لهما الرسالة التالية:

«دير شموردين. 31 أكتوبر 1910 في الساعة الرابعة صباحًا.

أصدقائي الأعزاء، ماشينكا وليزانكا. لا تتفاجآ ولا تلومانني على المغادرة دون أن اودعكما. لا أستطيع أن أعبر لكلّ منكما، وخاصة لكِ، عزيزتي ماشينكا، عن امتناني لحبكما ومشاركتكما في تجربتي. لا أتذكر أنني، طيلة حبك لي، شعرت منك باللطف الذي شعرت به هذه الأيام، والذي سأغادر به. نحن نغادر بشكل غير متوقع، لأنني أخشى أن تداهمني صوفيا أندرييفنا هنا. ولا يوجد سوى قطار واحد عند الساعة الثامنة. سامحيني إذا أخذت كتبك وكتاب «دائرة القراءة» سأكتب إلي تشيرتكوف ليرسل إليكم «دائرة القراءة» و«حكم لكل يوم». سأعيد الكتب. أقبلكما، أصدقائي الأعزاء، أحبكم بفرح شديد. ليف تولستوي»

بعد حوالي عشر دقائق من رحيل الأب ودوشان بتروفيتش، جاءت العمة ماشا

ـ أين لوفيتشكا؟

ـ سافر.

ـ يا إلهي يا إلهي ولما نتودع! حسنًا، ما العمل، ما العمل، فقط ان يكون بحالة جيدة!

جلست على مقعد في الشرفة. ولاذ الجميع بالصمت.

قالت بحسرة:

ـ دع سونيا تأتي إلى هنا، سأكون قادرة على لقائها.

كانت حزينة للغاية، لكن معنوياتها قوية، ولم تفكر إلا في ان يكون أبي في حالة حسنة.

في غضون ذلك، لم تأت العربة من القرية. ساورني وفارفارا ميخائيلوفنا القلق الشديد، ولم نعد نأمل اللحاق بالقطار. ولكن جاء الحوذي في هذه الأثناء مشيا على الأقدام بدون عربة.

ـ أين العربة؟

ـ لقد انكسرت العربة يا سيدتي

ـ يا إلهي ما العمل؟

وفكرت بذاتي «بقيت ساعتان على تحرك القطار، الطريق على بعد خمسة عشر فيرستاً ـ يا للفظاعة. سنتأخر!».

ـ ما لديك؟ هل لديك عربة اخرى؟

ـ كيف لا تكون؟ هناك عربة، وعربة خفيفة، ولكن ليس على زنبرك.

ـ أوه، على حد السواء، فقط اسرع، اسرع بتسريجها، عزيزي، عزيزي... أسرع، أسرع، في سبيل الرب أسرع!

لا أعرف ما إذا كان هذا الشخص العزيز قد فهم موقفي، وما إذا كان قد لاحظ يأسي، ولكن لم تمر اكثر من خمس عشرة دقيقة حتى كانت يقف عند المدخل فرسان صغيران أشعثان متخمتان. حث الفلاح خيوله طوال الطريق. لم يلجأ إلى ضربهما بالسوط، ولكن حثها بشفقة وصوت يائس:

ـ هيا، أعزائي، هيا، هيا! من فضلكن هيا!

عند الاقتراب من محطة كوزلسك، رأينا أمامنا عربتينا، وفي نفس الوقت كان القطار يقترب من المحطة.

ركبنا القطار بدون تذاكر، وبالكاد سنح الوقت لسحب أمتعتنا. كان والدي قلقا، وفي عجلة من امره.

قال لي:

ـ لو تأخرتما، لما غادرت من دونكما، لكنت سأنتظركما في فندق كوزيلسك.

كان الفضوليون في العربة، يجلسون، بين الحين والآخر، مرة إلى فارفارا ميخائيلوفنا، وأخرى إلى دوشان بتروفيتش، ولي.

ـ من يسافر معكم؟ هل هذا ليف نيكولايفيتش تولستوي؟ الى أين هو ذاهب؟

كان في المقصورة حيث تم نقلنا، احد السادة. تعرف على والدي على الفور وبدأ في التحدث إليه. أخذته جانبًا وطلبت منه ألا يزعج والدي لأنه كان متعبًا جدًا.

ـ نعم، أعرف، اعذروني.

بعد بضع دقائق، أخذ أمتعته، وذهب إلى العربة العامة، تاركا لنا كل المقصورة.

ـ أعرف الكثير من الصحف ـ قال لي ـ أنا معجب حقيقي بـ ليف نيكولايفتش. انا تحت تصرفكم. إذا وافق ليف نيكولايفيتش، يمكنني أن أعرض منزلي في بيليف في ضواحي مدينة تولا، ولن يزعجه أحد هناك.

كذب الأب علينا، عندما سألناه عن صحته، قال إنه متعب، ولكنه في حالة جيدة. طلب جريدة. اشتريت له بعض الصحف في المحطة الكبيرة التالية. وكان مستاءً بعد قراءتها.

ـ كل شيء معروف، كل الصحف مليئة بمغادرتي.

طلب أن نغطيه ببطانية، وقال إنه سيحاول النوم. ذهبت إلى العربة العامة.

قرأ الركاب الصحف، ودار الحديث بينهم عن رحيل ليف نيكولايفيتش تولستوي من ياسنايا بوليانا. كان أمامي شابان، يرتديان أزياء أنيقة، والسجائر في أسنانهما.

قال أحدهما:

ـ هكذا تصرف الرجل العجوز. أفترضُ أن صوفيا أندريفنا على وجه الخصوص لم يعجبها هذا التصرف ـ وضحك بغباء ـ قام وهرب ليلا.

قال الآخر:

ـ لذلك اعتنت به طوال حياتها، يبدو ان اعتناءها به لم يكن مسليا للغاية...

ولكن سرعان ما علموا أن تولستوي يسافر في المقصورة التالية، ونظروا إلينا في حرج وصمتوا. انتشر الخبر القائل بأن تولستوي كان مسافرًا على هذا القطار عبر جميع العربات، بسرعة البرق. اقتحم الفضوليون

عدة مرات مقصورة والدي، لكنني رفضت بشدة مثل هذه الزيارات، وبقدر الإمكان، قمت بحمايته من الفضوليين.

سرعان ما دعمني مفتشو القطار، الذين كانوا جميعًا متعاطفين معنا. وقال أحد المفتشين لبعض الركاب، وهو رجل ذو شعر أشيب، ومظهر محترم، وله وجه ذكي، ومدرك.

ـ لماذا تلحون عليّ؟ لماذا تضايقوني؟ بعد كل شيء، لقد قلت لكم أن تولستوي نزل في المحطة قبل الأخيرة!

عندما استيقظ والدي، طلب الطعام. التفت إلى المفتشين، وطلبت منهم أن يشيروا لي إلى المكان حيث يمكنني فيه طهي دقيق الشوفان على المصباح الكحولي، وأظهروا حالا تعاطفا كبيرا معي. وأخذوني إلى قسم الخدمة، حيث كان هناك خمسة مفتشين. ساعدوني بكل ما في وسعهم، واستفسروا بتعاطف. وخرجت عصيدة دقيق الشوفان لذيذًة، وأكل الأب بسرور عظيم، ومدحها، واكل كل ما في الصحن. ثم نام.

المرض والموت

في الساعة الرابعة صباحًا، دعاني والدي وطلب مني تغطيته قائلاً إنه يرتجف.

ـ دثري ظهري بشكل أفضل، اشعر بالبرد القارس.

لم نكن قلقين للغاية، فقد كان الجو باردًا في العربة، شعر الجميع بالبرد، ولف كل واحد منا نفسه بملابس دافئة. دثرنا والدي بمعطف طويل وبطانية وقفطان، ولكنه شعر بالبرد أكثر فأكثر. وضع دوشان بتروفيتش مقياس حرارة، وعندما تم استله، أظهر 38.1.

لم ينتبني من قبل بمثل هذا الشعور بالقلق! تخاذلت ركبتاي، وجلستُ على الأريكة المقابلة لوالدي وبطريقة ما بدأت أكرر:

«يا رب، ساعدنا، خلصنا، ساعدنا...»

كان أبي يدرك الحالة التي كنت فيها، مد يده إلي، وضغط عليها بقوة وقال:

ـ من دون شجن يا ساشا، كل شيء على ما يرام، حسنا جدًا.

في محطة جورباتشوف، ذهبت إلى المنصة. سأل رجل نبيل يرتدي نظارات سائق القطار عما إذا كان تولستوي موجودًا، وعندما اكتشف أنه كان هناك، قفز في قطارنا. بالإضافة إلى ذلك، وعلى مدى الرحلة، كان رجل بشارب أشقر يتجول في عربتنا. لسبب ما، لفت وجهه انتباهنا. وسرعان ما لاحظنا أنه كان يظهر بملابس مختلفة: مرة بزي موظف سكة حديد، ومرة بملابس مدنية. أخبرني أحد القائمين بطريقة غامضة أن الرجل، بعد أن عرف أن تولستوي كان في هذا القطار، أرسل برقية من محطة جورباتشوف إلى حاكم تولا. فأدركتُ أن الشرطة كانت تلاحقنا.

في هذه الأثناء، ارتفعت حمى والدي أقوى وأقوى. اعددنا الشاي وأعطيناه شرابًا من النبيذ الأحمر، لكن هذا لم يساعده، واستمرت القشعريرة.

لا أستطيع أن أصف حالة الرعب التي عشناها. وللمرة الأولى شعرت بأنه ليس لدينا مكان للمكوث فيه، ولا منزل، وغمر الدخان عربة الدرجة الثانية، وأحاطنا ناس غرباء ودخلاء، ولا يوجد ركن يمكن لرجل عجوز مريض أن يأوي إليه.

عبرنا محطة دانكوف ووصلنا إلى محطة كبيرة. كانت هذه محطة «أستابوفو». اندفع دوشان بتروفيتش، وبعد ربع ساعة عاد مع سيد يرتدي زي سكة حديد. كان هذا مدير المحطة. وعد بتوفيرغرفة في شقته حيث يمكن أن يرقد المريض في الفراش، وقررنا البقاء هنا. نهض الأب، وارتدى ملابسه، وخرج من العربة، وهو يستند على دوشان بتروفيتش ومدير المحطة، بينما رحت أنا وفارفارا ميخائيلوفنا نحزم أغراضنا.

عندما دخلنا إلى مبنى المحطة، كان والدي يجلس في غرفة السيدات على الأريكة مرتديًا معطفه البني وبيده عصا. كان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدمه، وشفتاه تتحركان بضعف. دعوته إلى الاستلقاء على الأريكة، لكنه رفض. تم إغلاق باب غرفة السيدات المطل على القاعة، الذي وقف بالقرب منه حشد من الناس الفضوليين، في انتظار مرور تولستوي. وبين الحين والآخر اندفعت سيدات إلى الغرفة، واعتذرن، وقمن بترتيب تسريحات شعرهن وقبعاتهن أمام المرآة، وغادرن.

ذهب دوشان بتروفيتش وفارفارا ميخائيلوفنا ورئيس المحطة لإعداد الغرفة، وجلست مع والدي، ننتظر.

وجاءوا بعد ذلك لنا. أخذوا والدي مرة أخرى من ذراعيه واقتادوه. عندما مروا بجوار الجمهور الذي احتشد في القاعة، خلع الجميع قبعاتهم، رد الأب على انحناءات التحية بلمس قبعته. رأيته يمشي بصعوبة بالغة:

كان يترنح بين الحين والآخر، وتقريبا تعلق على ذراعَي أولئك الذين قادوه.

وضع في غرفة رئيس المحطة التي تستخدم كغرفة ضيوف، كان هناك سرير زنبركي مقابل الحائط، وشرعت أنا وفارفارا ميخائيلوفنا في ترتيب السرير. كان والدي يرتدي معطفًا من الفرو ولا يزال يشعر بالبرد. وعندما أصبح السرير جاهزًا، طلبنا منه خلع ملابسه والاستلقاء، لكنه رفض قائلاً إنه لا يمكنه الاستلقاء حتى يتم تجهيز كل شيء للمبيتً كالمعتاد. وعندما تحدث، أدركت بدء حالة الإغماء لديه. من الواضح خُيل له أنه يتواجد في المنزل، وتفاجأ بأن كل شيء لم يكن على ما يرام، وليس كما اعتاد عليه...

ـ لا استطيع الاستلقاء. اعملوا كالعادة دائما. ضعوا الطاولة الليلية بجانب السرير، والكرسي.

عندما تم ذلك، طلب وضع شمعة، وعلبة ثقاب، ودفتر ملاحظات، ومصباح يدوي، وكل شيء على الطاولة، كما لو كان في المنزل. وعندما قمنا بذلك، شرعنا مرة أخرى نطلب منه الاستلقاء، لكنه ما زال يرفض. أدركنا أن الموقف كان خطيرًا للغاية وأنه، وكما حدث من قبل يمكن أن يقع في أي دقيقة في حالة إغماء كاملة. شرعت أنا ودوشان بتروفيتش، وفارفارا ميخائيلوفنا في خلع ملابسه شيئًا فشيئًا، دون أن نساله اكثر، وتقريبا قمنا بحمله إلى السرير.

جلست بجانبه، وفي أقل من خمس عشرة دقيقة لاحظت أن ذراعه اليسرى وساقه اليسرى بدأتا ترتعشان بشكل متشنج، وجرى احيانا الشيء نفسه في النصف الأيسر من الوجه.

طلبنا من المدير استدعاء طبيب المحطة الذي بميسوره مساعدة دوشان بتروفيتش. أعطوا والدي نبيذًا قويًا وحقنة شرجية. لم ينبس بكلمة واحدة، وراح يئن، كان وجهه شاحبًا، واستمرت التشنجات، رغم إنها أصبحت خفيفة.

بحلول الساعة التاسعة، تحسنت حالته. كان تنفسه هادئًا. وراح يئن بهدوء.

لم يستطع طبيب المحطة، وهو نفسه رجل مريض تمامًا، ان يقدم اي مساعدة لنا. لكن من الواضح أن وجوده قد اراح دوشان بتروفيتش، وخفف من وضعه،. وجاءت مع الطبيب زوجته. لقد أثقلت كاهلنا، لأنها أرادت الجلوس في غرفة المريض، وشعرنا بالملل من نصائحها واستفساراتها، وعرقلت الجميع.

استيقظ والدي واعيًا تمامًا. دعاني له، وابتسم وسأل بتعاطف:

ـ ماذا يا ساشا؟

ـ لكن الحالة سيئة. كانت الدموع تترقرق في عيني وصوتي متشنج.

ـ لا تكربي، ما أفضل من ذلك: ألسنا معًا؟.

أصبح الأمر أفضل مع حلول الليل. قاسوا درجة الحرارة حرارة، وانخفضت الحمى بسرعة، ونام والدي جيدًا أثناء الليل.

بالطبع، لم يخلع أحد منا ملابسه، وتناوبنا على الجلوس بجانب سرير الوالد، كنا نراقب كل حركاته. دعاني في منتصف الليل بي وقال:

ـ هل تعتقدين أن من الممكن لنا السفر غدا؟

قلت، في رأيي، هذا مستحيل، في أحسن الأحوال، يجب أن ننتظر يومًا آخر. تنهد بشدة ولم يقل شيئا.

التفت الينا عدة مرات خلال الليل:

ـ أوه، لماذا أنتم جالسون؟ يجب أن تذهبوا للنوم!

أحيانا يهذي في نومه:

ـ اهرب... اهرب... اقبض...

طلب عدم إبلاغ الصحف عن مرضه، وعدم إخبار أحد بأي شيء عنه. فطمأنته.

بعد قياس درجة الحرارة في اليوم التالي، شعرنا بنشوة: أظهر مقياس الحرارة 36.2. والوالد نشط. وتحدث طوال الوقت عن المضي قدمًا. لقد كان قلقًا للغاية من أنهم قد يكتشفون مكانه، واستدعاني، وأملى البرقية التالية على تشيرتكوف: «أمس مرضت، وقد شاهدني الركاب، ونزلتُ من القطار وانا اشعر بالضعف، وأخشى شيوع النبأ، والآن أصبحت حالتي أفضل، ونحن سنواصل السفر، اتخذوا الإجراءات، وأبلغوني».

واستغليت تحسن حالة والدي، وقررت أن أسأله عما عليّ أن اعرفه، في حال أنه لن يشفى بسرعة، واصبح مرضه خطيرًا ، وطال أمده. فقد شعرت أن مسؤولية كبيرة على عاتقي. ورأيت اني وكما وعدت، ملزمة بإبلاغ عائلتي في حالة مرض والدي. لهذا سألته عما إذا كان يود أن أخبر العائلة إذا طال اجل مرضه، واصبح خطيرًا. اضطرب والدي جدًا وطلب مني عدة مرات وبإصرار عدم إخبار العائلة بمكان وجوده ومرضه.

وأضاف:

ـ أود أن أرى تشيرتكوف.

أرسلت على الفور برقية إلى تشيرتكوف بالمحتوى التالي: «بالأمس نزلنا في محطة أستابوفو، حمى شديدة، فقدان ذاكرة، وفي الصباح كانت درجة الحرارة طبيعية، والآن قشعريرة مرة أخرى. لا يمكنني تصور مواصلة السفر، أعرب عن رغبته في رؤيتكم. فرولوفا» (اسمي المستعار). بعد ساعات قليلة تلقيت ردا مفاده أن تشيرتكوف سيكون في أستابوفو في صباح اليوم التالي.

في ذلك الصباح بالذات، أملى والدي عليّ الأفكار التالية في دفتر ملاحظاته: «إن الرب وكل شيء بلا حدود، والإنسان مجرد مظهر محدود من مظاهر الرب». لقد كتبتها وانتظرت أن يملي عليه المزيد.

ـ لا شيء آخر.

استلقى في صمت لفترة من الوقت، كما لو كان يفكر في شيء ما، ثم دعاني مرة أخرى.

ـ خذي دفترا وقلما واكتبي: «أو حتى أفضل: الرب هو غير المحدود باسره، والإنسان يعي انه جزء محدود منه. ان الحقيقة هي وجود الرب، ولا حقيقة سواها. الإنسان هو تجلٍّ له «في المادة والزمن والفضاءً.

وكلما كان توحد تجلي الرب في الأنسان (الحياة) اكبر، مع تجلي (حيوات) الكائنات الأخرى، كلما كان وجوده اكثر ثراءً. ان توحيد حياته هذه مع حيوات الكائنات الأخرى يتحقق بالحب. اللهّ ليس الحب، ولكن كلما ازداد الحب، كلما تجلى الرب في الإنسان، وكلما كانت هناك حقيقة اكبر.

نحن ندرك الرب فقط من خلال الوعي. ومن خلال تجليه فينا. وجميع الاستنتاجات النابعة من وعي إدراكنا للرب، والقواعد التي نضعها للعيش في الحياة القائمة على أساسها، دائمًا ترضي الإنسان تمامًا، سواء من حيث معرفة الرب ذاته، أو قواعد العيش في الحياة، القائمة على أساس إدراك الرب».

بعد فترة، استدعاني مرة أخرى وقال:

ـ الآن أريد أن أكتب إلى تانيا وسيريوجا.

ومن الواضح أنه تأثر من طلبه مني عدم الاتصال بهم بإرسال برقية، وأراد أن يشرح لهم سبب تردده في رؤيتهم.

اضطر عدة مرات إلى التوقف عن الإملاء بسبب العبرات التي تصاعدت إلى حلقه، ولدقائق كنت بالكاد أسمع صوته، تحدث برقة متناهية، وهدوء. وقمت بتدوين النص، ثم قمت بنسخه وأحضرته للتوقيع.

«أطفالي الأعزاء تانيا وسيريوجا!

آمل، وأنا على ثقة، من أنكما لن تلوماني على عدم دعوتي لكما. ان دعوتكما وحدكما من دون الأم سيسبب حزنًا عميقا لها، وكذلك للإخوة الآخرين. وستفهمان كلاكما أن تشيرتكوف، الذي دعوته، حالة استثنائية بالنسبة لي. لقد كرس حياته لخدمة القضية التي خدمتها طوال الأربعين عامًا الماضية من حياتي. والمسالة ليس في أن هذه القضية عزيزة عليّ كثيرًا، ولكن كما أعترف ـ سواء كنت مخطئًا أم لا ـ أنها تنطوي على أهمية قصوى لجميع الناس، بمن فيهم أنتما.

شكرا لكما على علاقتكما الطيبة تجاهي. لا أعرف ما إذا كنت أقول وداعًا أم لا، لكنني شعرت بالحاجة إلى التعبير عما قلته.

أردت أيضا أن أضيف بعض النصائح لك سيريوجا، في أن تفكر في حياتك، عن من أنت، وما أنت، وما مغزى الحياة البشرية، وكيف يجب أن يعيشها كل شخص لبيب عاقل. إن وجهات نظر الداروينية والتطور، والصراع من أجل البقاء التي استوعبتها، لا تفسر لك مغزى حياتك، ولا تعطي مرشدا وقواعد للعمل، وأن الحياة من دون تفسير جوهرها ومغزاها، ومن دون مرشد عمل ثابت نابع منها، هي وجود بائس. فكر بهذا. أحبك، ربما أقول هذا عشية الموت.

وداعا، حاولا تهدئة الأم، التي أكن لها شعور الرأفة والحب الخالص. والدكما المحب ليف تولستوي»

وقال:

ـ سلميهما هذه الرسالة عقب موتي، وطفقت في البكاء مرة أخرى.

من الساعة التاسعة، بدأت القشعريرة مرة أخرى وارتفعت الحمى. وتقلب، واشتكى من صداع الرأس. وقبل الساعة الرابعة، بلغت درجة الحرارة 39.8.

جاء طبيب السكك الحديدية عدة مرات، لكننا لم نثق به كثيرا ، والأهم من ذلك، أنه جاء دائما مع زوجته المملة والثرثارة وعديمة اللباقة، أرهقتنا للغاية، وفي نهاية المطاف حاولنا رفض تكرار زياراته.

ساعدنا طوال الوقت بين واجباته الرسمية إيفان إيفانوفيتش أوزولين، مدير المحطة، وهو رجل لطيف للغاية، الذي لن أنسى أبدا مساعدته ولطفه الودي. وضع أوزولين أطفاله الثلاثة الصغار في غرفة صغيرة، ومع ذلك، لم يضايقهم هذا كثيرا. كان يمكن سماع أصواتهم المرحة وضحكهم طيلة الوقت، وكانت اصغر الفتيات تغني شيئا ما بصوت حقيقي ورنان. لقد استمعت إلى أصوات هذه النغمة الساذجة المبهجة، وأصبحت أكثر حزنا: كان التناقض كبيرا بين الأصوات الخالية من الهموم والمبهجة، والمزاج المكتئب الذي كنا فيه.

في هذا اليوم، دعا الأب إيفان إيفانوفيتش أوزولين وزوجته إليه، وشكرهم على كرم ضيافتهم، وسألهما عن الأطفال، كم عددهم، في أي عمر، وخرج أوزولين وزوجته من الغرفة بوجوه متأثرة وسعيدة.

في المساء، وقعت كارثة كان يمكن أن يكون لها عواقب سيئة للغاية. شممنا رائحة غاز الفحم، وشعر الجميع بالصداع. عندما نظرت فارفارا ميخائيلوفنا إلى الفرن، رأت قطعة حطب كبير مشتعلة فيه كانت وضعتها الفتاة التي خدمتنا على شظية طويلة ضعيفة لتجف. وكان انبوب المدخنة مغلقاً. فتحناه على الفور، وفتحنا النافذة في الغرفة المجاورة وحتى في غرفة والدي، وحجبنا السرير بالشاشات وغطيناه حتى رأسه.

عندما فحص دوشان بتروفيتش، مع طبيب المحطة صدر الوالد بسماعة الطبيب، وجدا صفيرا في رئتيه. بدأ الالتهاب. بالإضافة إلى ذلك، كنا

نشعر بالقلق الشديد من السعال وخروج البلغم الصديئ مع الدم.

بعد التشاور، قررنا إرسال برقية إلى الأخ الأكبر سيريوجا مع طلب للاتصال بالدكتور نيكيتين ليأتي إلينا. كان من الصعب عليّ أتخاذ هذه الخطوة، فقد وعدت والدي بعدم استدعاء أي شخص له. لكن من ناحية أخرى، لم أستطع تحمل مسؤولية عدم استدعاء طبيب جيد وذي خبرة رفيعة. بعد كثير من التردد، أرسلت برقية عاجلة إلى الأخ سيرجي لجلب الطبيب.

في وقت لاحق في المساء، انخفضت درجة الحرارة قليلا ـ 37.3 على الرغم من أن والدي واصل الأنين، وطلب الشراب.

يبدو أنه في مزاج مكتئب جدا.

في ليلة 1 إلى 2 نوفمبر، ارتفعت الحمى وبحلول الساعة الخامسة من صباح اليوم الثاني وصلت إلى 39.1.وكان القلب يعمل بشكل ضعيف، والنبض 90 بشكل غير منتظم، والتنفس 38 ـ 40. كان العطش الشديد يعذب والدي طوال الوقت. طلب كوبا من الشاي مع الليمون، شربه بسرور كبير وقال:

ـ هذه هي الطريقة الجيدة، ربما ستصبح حالتي أسهل.

أعطيته شرابا مع ملعقة صغيرة، وطلب مني أن أحضر ملعقة أكبر:

ـ إنها صغيرة جدا ، اجرع قليلا.

أحضرت فارفارا ميخائيلوفنا ملعقة كبيرة، ورفع رأسه، وسقيته.

وقال بصوت حازم إلى حد ما:

ـ هذا جيد، ولم نسكب منه على الفراش.

كما لو أن الشراب جعله يشعر بتحسن.

وفي كل مرة لاحظنا في ابتسامته مؤشرا على أنه يتحسن، بدأنا نعتقد أنه سيتعافى. ولكن بمجرد أن بدأ الأنين بصوت عال ويشتكي، انهارت معنوياتنا مرة أخرى، وبدا لنا أن كل شيء قد انتهى. كان الوضع على هذا النحو طيلة هذه الأيام.

كان والدي يئن بصوت عال طوال الصباح. وأضيفت إلى كل معاناته حرقة مؤلمة.

في الساعة السابعة تم قياس درجة الحرارة مرة أخرى. بلغت 39.2. نظر الأب بنفسه إلى مقياس الحرارة وقال:

ـ بلى، إنها غير جيدة، لقد ارتفعت.

بشكل عام، في الأيام الأولى من مرضه، كان في كثير من الأحيان يضع بناء على رغبته ميزان الحرارة، وبنفسه يرى النتيجة، وعندما سادت العتمة، طلب الضوء.

سأل دوشان بتروفيتش.

ـ ما تشخيصكم لهذا؟ ما هو هذا المرض؟

وقال دوشان بتروفيتش:

ـ أعتقد أنه نزلة في الرئتين.

ـ هل يصاحبه ارتفاع شديد في الحرارة؟

ـ نعم.

ولكن كان من الواضح جدا لنا جميعا أنها لم تكن نزلة، وإنما التهاب زاحف في الرئتين.

في الساعة التاسعة صباحا وصل فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف مع سكرتيره سيرجينكو. كان لقاءهما مع الوالد مؤثرا للغاية، بعد عدة

أشهر من الافتراق. اجهش كلاهما بالبكاء. لم أستطع إلا أن أبكي وأنا أنظر إليهم، وبكيت في الغرفة المجاورة.

من الواضح أن والدي كان مسرورا جدا بشيرتكوف، وجمع قوته الأخيرة، وسأله لفترة طويلة عن صوفيا أندرييفنا، وعما بها، وما سمع فلاديمير جريجوريفيتش، وسأله عن صحة زوجة فلاديمير جريجوريفيتش، ووالدته.

أصبح الوضع أكثر وأكثر خطورة. سعل والدي عدة مرات مع البلغم الصدئ المصحوب بالدم، واستمرت الحمى في الارتفاع.، بلغت درجة الحرارة في الساعة الحادية عشرة صباحا 39.6، وعمل القلب بشكل ضعيف، وبعدم انتظام. أعطوه الشمبانيا، التي شربها بتردد كبير، خوفا من أن تسبب له حرقة في المعدة. لم يكن مزاج والدي في هذا اليوم مكتئبا، حتى أنه مزح، على الرغم من ارتفاع الحرارة الشديدة، وربما كان هذا بتأثير لقائه المفرح مع فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف. تذكر طريقة دوشان بتروفيتش المضحكة في نطق بعض الكلمات الروسية: وقلد بعضها، وضحك والدي بلطف وبهجة، لدرجة أنه على الرغم من مزاجنا الثقيل والمكتئب، لم نتمالك أنفسنا عن الابتسام.

عند الساعة الثالثة تقريبًا، انخفضت درجة الحرارة قليلاً، لكن والدي اشتكى من الألم في جنبه. سألته إذا كان الأمر صعبًا عليه؟ أجاب والدي معتقدًا أنني لا أسأل عن المعاناة الجسدية، بل عن المعاناة المعنوية:

ـ بالطبع، هذا شاق، لا توجد حياة طبيعية حتى الآن.

تألمت طيلة ذلك اليوم لأنني استدعت أخي سيرجي والدكتور نيكيتين خلافاً لإرادة والدي. وقررت، وخاصةً أنه بدا لي أن حالة والدي تتحسن نوعًا ما، أن أرسل برقية لسيريوجا حتى لا يأتي. ونظرًا لأنني لم أكن أعرف مكان شقيقي، فقد أرسلت برقية عبر آنا كونستانتينوفنا تشيرتكوفا: «طلب الأب منك ألا تحضر، تتبع رسالته، ولا يوجد خطر

مباشر، وإذا سيكون فسوف أبلغكم». وبنفس البريد أرسلت خطابًا إلى سيريوجا وتانيا.

جرى تنظيم رعاية صحيحة بهذا القدر أو ذاك. يراقب واحد أو اثنان من المتواجدين في الغرفة باستمرار النبض، ويعطون أدوية تقوية القلب، والنبيذ، في البداية بناءً على طلب الأب، ويقيسون درجة الحرارة. حصل الجميع على أحذية خفيفة، حتى لا يزعجوا المريض بضربات الكعب. كنا ندرك أن الوضع خطير للغاية، وفعلنا ما في وسعنا لتخفيف المعاناة ومساعدة الجسم على التكيف مع المرض. كان الجميع باستثناء الوافدين الجدد منهكين من السهر في الليالي الطوال والإثارة التي لم أشهدها من قبل.

في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، دخل رئيس المحطة إيفان إيفانوفيتش أوزولين. بدا قلقا ومنزعجا. وقال إنه تم تلقي برقية من محطة «شيكين» تفيد بمغادرة القطار الخاص من المحطة، ومن المقرر أن يصل إلى «اوستوبافو» في حوالي الساعة التاسعة مساءً، وعلى متن هذا القطار من ياسنايا بوليانا، والدتي مع العائلة بأسرها.

كان من الواضح للجميع أن لقاء الأب والأم مضر بصحته.

سيطر الرعب علينا جميعا. ما العمل؟ تقرر الطلب من دوشان بتروفيتش التحدث إلى الأخوة والأم وإقناعهم بعدم الدخول على الوالد. لكن كان من الواضح لي ما دام أن والدي قطع العلاقة بوالدتي وتركها طواعية، لم يكن لأحد الحق في فرض إرادته عليه. قررت عدم السماح لأمي بالدخول، إلى أن يرغب والدي في ذلك، حتى لو وجد الأطباء والعائلة أنه من الممكن القيام بذلك.

وضع الوالد أثناء النهار ميزان الحرارة عدة مرات وراقب درجة الحرارة. وعندما سألته إذا كان جنبه يؤلمه، أجاب بالنفي، وساءت الحالة في الساعة الرابعة. اشتكى بصوت عالٍ، كان تنفسه سريعًا وثقيلًا. سألته فارفارا ميخائيلوفنا إذا كان يشعر بصعوبة؟

ـ نعم، اشعر بصعوبة.

ـ حمى؟

ـ نعم، حمى.

طلب مرة أخرى مقياس حرارة، وعندما وضعته فارفارا ميخائيلوفنا، قالت بصوت عالٍ:

ـ خمسة إلى أربعة.

أضاف الأب على الفور:

ـ إذن، خذ عشر دقائق بعد خمس دقائق.

لم أكن في الغرفة عندما أخرج والدي الترمومتر ورأى أنه 39.2، فقال بصوت عال:

ـ حسنًا لا تغضبوا الأم!

وعندما سأل فارفارا ميخائيلوفنا مرة أخرى، كرر مرة أخرى:

ـ حسنا، لا تغضبوا الأم.

وصل الاخ سيرجي الساعة الثامنة مساء. لقد كان منفعلاً للغاية، وأراد من كل بد أن يرى الوالد، وفي نفس الوقت كان يدرك أن اللقاء يكدره ويقلقه. لقد ترددنا لفترة طويلة. وقف الأخ في الغرفة المجاورة ونظر إلى والده، ثم فجأة قال بحزم:

ـ لا، سأذهب. سأخبره أنني في محطة غورباتشوف وعرفت بالصدفة من مفتش القطار أنه كان هنا وها أنا جئت.

اضطرب الأب للغاية عندما رآه وسأله بالتفصيل كيف عرف الأخ مكانه، وماذا يعرف عن والدته، واين هي، ومع من. ورد سيريوجا بأنه جاء من

موسكو، وأن والدته في ياسنايا بوليانا، معها طبيب، وأخت رحمة والأخ الأصغر.

ـ أرى أنه لا يجوز السماح للأم الدخول عليه. ـ قال الأخ، وهو يغادر الغرفة، ـ سوف يقلق كثيرًا.

دعاني والدي.

ـ كيف يبدو سيريوجا!

ـ ماذا يا أبي؟

ـ قال الأب بصعوبة من خلال النحيب:

ـ كيف وجدني! أنا سعيد جدًا به، انا أوده... لقد قبل يدي.

في المساء، وصل الطبيب سيميونوفسكي الذي استدعيناه من بلدة دانكوف. استمع إلى والدي، مع دوشان بتروفيتش وطبيب السكك الحديدية، وشخّص مثلهما، أن الأب يعاني من إلتهاب رئوي. سمح الأب بلطف للأطباء بالتنصت والاستماع له، وعندما انتهوا، سأل الطبيب سيمينوفسكي إذا كان بإمكانه المغادرة في غضون يومين؟ أجاب سيمينوفسكي أنه من الصعب عليه المغادرة في غضون أسبوعين. وحزن الأب للغاية، ولم يقل شيئًا، واستدار نحو الجدار.

وصل القطار الخاص عند الساعة التاسعة. ذهب دوشان بتروفيتش لاستقباله. وكما يحدث دائمًا، كان الناس يتراكضون على الرصيف، وبعد بضع دقائق رأيت من خلال النافذة قوام أمي، وأحدهم يتأبط ذراعها، وإخوتي. وطلبتْ أن يروها المنزل الذي يرقد فيه الوالد.

أخبرنا دوسان بتروفيتش، بعد عودته، أن الأسرة بأكملها وافقت على انه يجب على الأم ان لا تدخل على الأب، ويعتقدون ان ذلك سيسبب له صدمة قد تذهب بحياته.

وصل الدكتور نيكيتين في صباح اليوم الثالث. وحالما رآه، طفق الوالد يستفسر منه من الذي استدعاه. قال نيكيتين أنني اتصلت به. وعلى ما يبدو، أثار وصول ديمتري فاسيليفيتش غمّ الوالد، وشعر بأن مكان تواجده اصبح تدريجياً معروفا.

كنا جميعًا سعداء للغاية بوصول نيكيتين. وعلى أي حال، كان المزاج هذا الصباح مبتهجًا ومليئًا بالأمل. انخفضت درجة الحرارة إلى 36.8. لكن القلب لم يكن يعمل بشكل جيد، وكان النبض حوالي مائة، مع عدم انتظام متكرر.

سمح الأب عن طيب خاطر بأن يسمعه الدكتور وشخّص نيكيتين، مثل الأطباء الآخرين مرض والدي بانه التهاب في الفص السفلي من الرئة اليسرى. وأجاب نيكيتين على جميع أسئلتنا، وقال بأنه على الرغم من أن حالته كانت خطيرة للغاية، إلا أنه كان هناك أمل.

جاء الإخوة عدة مرات في اليوم للإسستفسارعن صحته. أحيانًا دخلوا المنزل بهدوء، وأحيانًا كانوا يأتون إلى النافذة، ويطرقون عليها، وفتحت النافذة وأخبرتهم عن مسار المرض. حاول جميع الإخوة أن يكونوا بالقرب من الأم بالتناوب، وأن يراقبوها ويقنعوها بعدم الذهاب إلى الوالد. بالإضافة إلى ذلك، كانت مع الأم ممرضة، وطبيب نفساني، لكنه سرعان ما غادر.

احتشد المراسلون من جميع أنحاء روسيا في المحطة. لقد حاولوا اصطياد كل من يغادر منزلنا، ومعرفة آخر الأخبار وإبلاغ محرريهم. قالوا إن الأم تتحدث عن طيب خاطر مع المراسلين، مما أدى إلى ظهور معلومات غير دقيقة في العديد من الصحف. في هذا اليوم، وبناءً على طلب ملحّ من الممرضة ذهبت إلى عربة القطار الخاص، حيث أرادت الأم التحدث معي.

لم أرَ على ملامحها الندم، بل على العكس رأيت رغبتها في إدانة الجميع. تحدثت عن التعاطف الصحافة معها، وعن ذنب تشيرتكوف.

استفسرت عن رحلتنا، وأكدت ان من المستحيل علينا الاختباء، لأن لديها صديقين سريين وهما اللذان أخبراها عن مكان ليف نيكولايفيتش، وأن وزير الداخلية ستوليبين يرسل الآن ضابطي شرطة لمراقبة والده بشكل دائم.

لم تتصور مدى سوء حالة الوالد، وقالت إنها بالتأكيد لن تسمح له بالذهاب عندما يتعافى، ستقتفي اثره أينما ذهب.

كررت:

ـ أين سيكون، سأكون هناك.

في نهاية الحديث سألت إذا كان والدي يذكرها؟

أجبتها أنه ذكرها، لكنه كان خائفا جدًا، والآن يخشى من أن تجيء.

ـ ربما تحدث عني بضغينة وحقد؟

ـ لا بغير حقد بل بشفقة.

ـ هل يعلم أنني أردت الانتحار غرقا؟

ـ نعم يعرف.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ قال إنك إذا قتلت نفسك فسيشق عليه ذلك، لكنه لن يشعر بالذنب على ذلك، لأنه لم يستطع أن يتصرف بشكل آخر.

وطفقت الأم تتحدث عن كيف أن الوالد غادر ليعيش حياة كما لو حياة بسيطة، والآن يحيط نفسه مرة أخرى بالأطباء، والبذخ.

ـ كان علي أن أهرع إلى هنا في قطار خاص كلفته خمسمائة روبل!

وبدأت تتحدث بشكل سيء عن الوالد، لدرجة أنني قاطعتها فجأة وغادرت.

أراد دوشان بتروفيتش في هذا اليوم وضع تحت رأس الوالد، وسادة كانت والدتي قد أتت بها. كانت هي نفسها تخيط له مثل هذه الوسائد، وكان ينام عليها دائمًا في المنزل. وطلبت الوالدة من دوشان بتروفيتش أن يضعها تحت رأسه، لكن لم يخطر بباله أن هذا قد يثير استياء الوالد. سأل الأب على الفور:

ـ من أين هذه؟

كان دوشان بتروفيتش في حيرة من أمره، ولم يعرف ماذا يجيب، قال:

ـ أحضرتها تاتيانا لفوفنا.

عندما عرف أن أختي كانت في أستابوفو، اضطرب والدي وفرح بها. واستدعى فلاديمير جريجوريفيتش، وسأله كيف وصلت تانيا.

قال:

ـ ربما تاتيانا لفوفنا أخبرت صوفيا أندريفنا أنها ستذهب إلى كوتشتي، لكنها جاءت نفسها إلى هنا.

كان والدي يشعر بالقلق طوال الوقت من اكتشاف مكانه. حتى لم يخطر بباله أن جميع الصحف نشرت تقارير مفصلة عن مرضه في أستابوفو، وأن المحطة كانت مكتظة بالمراسلين.

دخلت الأخت عليه. استقبلها بفرح وأنشأ على الفور يسألها عن والدتها. أجابته تانيا، لكن عندما سألها عما إذا كان من الممكن أن تأتي صوفيا أندريفنا إلى هنا، أرادت أختي تحويل المحادثة، وقالت إنها لا تريد التحدث معه عن والدتها، لأن الحديث عنها يقلقه كثيرًا. لكنه سأل والدموع في عينيه:

ـ لماذا لا تريدين أن تجيبني؟ ألا تفهمين كيف أحتاج إلى معرفة هذا من أجل روحي؟

كانت الأخت في حيرة من أمرها، وتمتمت بشيء ما، وغادرت الغرفة على عجل.

لم يستطع الأب أن يهدأ لفترة طويلة، ولم يفهم سبب عدم رغبة تانيا في الرد عليه.

في الساعة الرابعة صباحًا، وعندما علم أن جوربونوف وغولدنفايزر قد وصلا، اعرب والدي عن رغبته برؤيتهما. اعترض دوشان بتروفيتش، قائلاً إنه سيتعب، لكن والدي طلب بإلحاح الاجتماع معهما، قائلاً:

ـ عندما أتعب، سيرون ذلك ويتركاني بأنفسهما.

لم احضر هذا اللقاء.

بعد ذلك، أخبرني أحدهم أن إيفان إيفانوفيتش جوربونوف تحدث لفترة طويلة مع الوالد عن كتيبات «مسار الحياة» التي نشرها في دار نشر «الوسيط»، وعندما غادر قال لوالدي:

ـ سنقاتل، ليف نيكولايفيتش؟

ـ ستقاتلون، لكنني حينها لن اكون على قيد الحياة ـ أجاب الأب ـ.

عند الساعة الخامسة، طلب والدي استدعاء سيريوجا. لكنه لم يكن موجدا. ثم طلب دعوة تشيرتكوف. دخل تشيرتكوف ونيكيتين، وبدأ والدي يملي عليهما برقية إلى اخوتي، الذين، كما كان يعتقد، كانوا في ياسنايا بوليانا مع والدتهم: «حالتي أفضل، لكن قلبي ضعيف جدًا لدرجة أن اللقاء بالأم سيكون مميتا بالنسبة لي».

ـ أنت تفهم؟ ـ سأل فلاديمير جريجوريفيتش. ـ إذا أرادت رؤيتي، فلن أتمكن من رفضها، ومع ذلك فإن اللقاء معها سيكون مميتا بالنسبة لي،

ـ جدد القول مرة أخرى، وأجهش في البكاء ـ.

بعد نصف ساعة دعا فارفا ميخائيلفنا وسألها عما إذا كانوا قد أرسلوا البرقية ومن دفع عنها. قالت فارفارا ميخائيلوفنا ربما كان ساشا.

ـ لماذا ينفق فلاديمير جريجوريفيتش نقوده عليّ. لدي نقودي الخاصة. خذوا محفظة النقود في الدرج، هناك عشرة روبل، وخمسين روبلا أخرى في دفتر الملاحظات، أنفقوها. أعطها لساشا.

كنت مندهشًة طوال فترة مرضه، كان وعي والدي واضحا، على الرغم من الحمى وضعف القلب الشديد، ومشقة المعاناة الجسدية. لقد لاحظ كل ما يجري حوله بأدق التفاصيل. لذلك، على سبيل المثال، عندما تركه الجميع، شرع في احصاء عدد الأشخاص الذين وصلوا إلى أستابوفو، واعتبر أن تسعة أشخاص قد وصلوا.

ذات مرة سأل الفتاة التي تمسح كل صباح الأرضية في غرفته، هل هي متزوجة، وكم عمرها، وهل ان حياتها هنا حسنة؟ أجابت عليه بخجل.

في فترة ما بعد الظهر، قرأ تشيرتكوف عليه الصحف، وتلا عليه أربع رسائل وردت باسمه، أحضروها من ياسنايا بوليانا. كان الأب يستمع إليها باهتمام، وكما كان يفعل دائمًا في المنزل، طلب منه أن يضع علامة على المظاريف وبما يجب عليه القيام به.

وبلغت درجة الحرارة في المساء 37.7. لم يعد والدي يطلب وضع مقياس الحرارة، رغم أنه لم يعارض عندما قمنا بذلك. ظهر لديه فواق رهيب. قدمنا له ماءً سكراً وصودا وحليبًا ليشرب، لكن لم يساعده بشي. اصبح الأب يشهق بصوت عالٍ، وعلى ما يبدو مؤلمًا. كان القلب ضعيفا. وبشكل عام، ساءت حالته بشكل ملحوظ. شعر الجميع بالإحباط. لكن الأمل ما زال يساور نيكيتين ودوشان بتروفيتش. في ذلك اليوم، انتقلت عائلة أوزولين إلى غرفة صغيرة مع الحارس، وتركوا لنا الشقة بأكملها. بقي إيفان إيفانوفيتش معنا.

كانت ليلة 3 على 4 نوفمبر/ تشرين من أصعب الليالي. لاح الأب هادئا في المساء. ووعيه واضح. وأتذكر ذلك المساء، قال والدي، حينما كان أحدهم يعدل سريره:

ـ والفلاحون، الفلاحون، كيف يموتون! ـ وأجهش في البكاء.

في حوالي الساعة الحادية عشرة بدأ الهذيان. طلب منا الأب أن نكتب من بعده، لكن هذا كان مستحيلًا، لأنه تحدث بكلمات مجزأة وغير مفهومة. وعندما طلب أن نقرأ ما هو مكتوب، احترنا، فلم نعرف ماذا نقرأ. وظل يسأل:

ـ نعم، اقرأها، اقرأها!

حاولنا أن نكتب هذيانه، لكننا شعرنا أن ما كتب لا معنى له، لم يكن راضيًا، وطلب منا مرة أخرى قراءته. لم أعرف ما العمل، أيقظت فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف. وعندما التفت إليه والدي بنفس الطلب، خطر لي فجأة أن أقرأ له من كتابه «دائرة القراءة» ساعد ذلك. هدأ الأب.

طوال الليل تقريبًا، كنا نقرأ له بالتناوب «دائرة القراءة»، فكان الأب صامتًا واستمع بانتباه، وكان أحيانًا يوقف القارئ، ويطلب منه تكرار الكلمات التي لم يسمعها، وأحيانًا يسأل لمن تعود الأفكار التي تمت قراءتها. كان الصباح مُقلقا أيضًا. قال الأب شيئًا لم يتيسر للأخرين فهمه، وكان يئن بصوت عالٍ، ويتأوه، ويطلب منا أن نفهم فكره، وأن نساعده.

وبدا لي أننا لم نفهم، ليس لأن أفكاره ليس لها معنى. ـ لقد رأيت بوضوح في وجهه أن لها معنى عميقًا ومهمًا بالنسبة له، ولم نفهمها فقط لأنه لم تعد لديه القوة على تجسيدها في الكلمات.

لدقائق تحدث بحزم ووضوح. لذلك قال لفلاديمير جريجوريفيتش:

ـ يبدو أنني أموت، وربما لا.

ثم قال شيئًا لم نفهمه، وأضاف:

ـ لكن لا بد من السعي قليلاً.

بعد الظهر قاموا بتهوية غرفة النوم ونقلوا والدي إلى غرفة أخرى. وعندما نقلوه مرة أخرى، حدّق باهتمام في الباب الزجاجي المقابل لسريره، وسأل فارفارا ميخائيلوفنا، التي كانت في المناوبة:

ـ إلى أين يقود هذا الباب الزجاجي؟

ـ الى الممر.

ـ ماذا خلف الممر؟

ـ المدخل والشرفة.

في هذه الأثناء دخلتُ إلى الغرفة.

فالتفت الأب إلي متسائلا:

ـ هل هذا الباب مغلق؟

قلت إنه مقفل.

ـ غريب، لكنني رأيت بوضوح وجهين نسائيين ينظران إليّ من هذا الباب.

قلنا إن هذا غير ممكن، لأن الباب من الممر إلى المدخل مغلق كذلك.

من الواضح أنه لم يهدأ، واستمر في النظر بقلق إلى الباب الزجاجي.

أخذتُ وفارفارا ميخائيلوفنا بطانية وعلقناها.

ـ آه، هذا جيد الآن ـ قال الأب بارتياح. واستدار إلى الحائط وسكت لفترة.

ظهرت علامة أخرى مشؤومة. كان والدي يعبث بأصابعه باستمرار. أخذ أحد طرفي البطانية بيديه ووضع أصابعه على الطرف الآخر، ثم عاد، وهكذا إلى ما لا نهاية. لقد أزعجني هذا بشكل رهيب. تذكرت ماشا...

في بعض الأحيان كان الأب يرقد بلا حراك تمامًا، وكان صامتًا، ولم يئن حتى وحدق أمامه. رأيت في هذه النظرة شيئا جديدا وبعيدا، ومضُ في رأسي: «النهاية».

حاول أحيانًا إثبات شيء ما للتعبير عن بعض أفكاره الملحاحة. وحاول أن يتكلم، لكنه شعر أنه كان يقول شيئا آخر، ويئن بصوت عالٍ.

قلت له:

ـ لا تفكر!

ـ أوه، كيف لا نفكر، يجب علينا، يجب أن نفكر.

وحاول مرة أخرى أن يقول شيئًا ما، وتقلب وعانى.

نام مرهقا. استيقظ في حوالي الساعة الثالثة، كما لو كان في حالة هدوء أكثر، وطلب شرابًا. أحضرت له فارفارا ميخائيلوفنا الشاي بالليمون. وعندما غادرت الغرفة التفت إلي وقال:

ـ يا لها من ممرضة جيدة فاريتشكا، فقط النساء وحدهن يعرفن كيف يعتنين على هذا النحو!

اقترحتُ عليه الاغتسال. فوافق. أخذت ماءً دافئًا وأضفت إليه الكولونيا وشرعت في غسل وجهه بقطعة قطن. ابتسم، وضيّق عينيه، وكان وجهه لطيفًا وهادئًا، ويبدو أنه كان سعيدًا جدًا بهذا التدليك. وعندما انتهيت من مسح أحد الجانبين، ادار نحوي الآخر وقال بلطف:

ـ حسنًا، الآن الجانب الآخر، ولا تنسي غسل الآذان.

أمضى عدة ساعات بهدوء. لقد انعشنا مرة أخرى وبعث الأمل فينا.

نظرًا إلى إن وضع الوالد تطلب وجود طبيب بصورة مستمرة، ولأن سيمينوفسكي لم يستطع الحضور دائما، ودوشان بتروفيتش كان مرهقًا من الاضطرابات، وسهر الليالي، فقد اقترحت على نيكيتين دعوة الدكتور مويس بيركينهايم للمساعدة. وافق على الفور.

بدأ الهذيان من جديد بحلول المساء، وطلب والدي متوسلاً إلينا أن نفهم فكرته ونساعده.

قال لي:

ـ ساشا، اذهبي، وانظري كيف سينتهي الأمر.

حاولتُ صرف انتباهه.

ـ ربما أنت عطشان؟

ـ أوه، لا، لا... كيف لا يمكن فهم هذا... الأمر بسيط للغاية.

وطلب مرة أخرى:

ـ تعالوا هنا، ما الذي تخافون منه، لا تريدون مساعدتي، أرجو الجميع...

ما الذي لم اقدمه، لكي افهمه وأساعده!

لكن مهما عصرت ذهني، لم يتيسر لي أن أفهم ما يريد قوله. وواصل في قول شيء غير مفهوم.

ـ البحث، البحث طوال الوقت...

دخلت فارفارا ميخائيلوفنا الغرفة. فنهض الأب على السرير، ومد يديه وقال بصوت عالٍ وبهيج، وهو يتفرس في وجهها، صرخ:

ـ ماشا! ماشا!

اندفعت فارفارا ميخائيلوفنا خارج الغرفة، خائفةً، ومصدومة.

لم ابتعد عن والدي طوال الليل. كان يتقلب طوال الوقت، ويأن، ويتأوه. وطلب مرة أخرى مني أن أدوّن ما يقوله. أخذت قلمًا وورقة، لكن لم يكن هناك شيء أكتبه، وطلب مني قراءة كلماته. ـ إقرئي ما كتبتِ. لماذا أنتِ صامتة؟ ماذا كتبت؟ ـ كرر، وإهتاج أكثر فأكثر ـ.

في هذا الوقت حاولنا أن يتواجد شخصان بالقرب منه في الإخفار. واتفق اني بقيت وحدي عند سرير والدي،. وخُيل لي انه كان غارقا في النوم. ولكن بغتة وبحركة قوية، قام على الوسائد، وراح ينزل ساقيه من على السرير. اقتربت منه.

ـ ما تريد يا أبي؟

ـ دعيني أذهب! ـ وقام بحركة للنهوض من الفراش.

كنت أعلم أنه إذا قام، فلن أتمكن من دعمه، وسيسقط، وحاولت بكل طريقة ممكنة تهدئته، لكنه اندفع مني.

ـ دعيني، دعيني، لا تستطيعين الإمساك بي، دعيني!

بعد أن أدركت أنني لا أستطيع ايقاف والدي، لأن تحذيراتي وطلباتي لم تؤثر عليه، ولم يكن لدي الشجاعة لردعه، بدأت أصرخ:

ـ دكتور، دكتور، تعال بسرعة إلى هنا!

يبدو أنه في هذا الوقت كان الدكتور سيمينوفسكي في المناوبة. دخل مع فارفارا ميخائيلوفنا، وتمكنا من تهدئة والدي. من الواضح أنه كان

يعاني بشدة.

ايقظت فلاديمير جريجوريفيتش تشيرتكوف، الذي أنشأ يقرأ للوالد، كما في الليلة السابقة، من كتاب «دائرة القراءة»، وسكت. فقط في بعض الأحيان كان يئن وينفخ. قال في الصباح بصوت مرهق متعب:

ـ أنا متعب، جدا والأهم أنكم تعذبوني.

وصل الدكتور بيركينهايم من موسكو في ذلك اليوم، وأحضر معه، كما طلبنا منه في البرقية، سريرًا جديدًا. كان السرير الذي يستلقي عليه والدي قديمًا جدًا، وسيئًا، ذو زنبركات تالفة، ناتئة. اقترح نيكيتين أن ينتقل والدي إلى السرير الجديد، لكنه رفض. كان في الأيام الأخيرة عموما ينفذ ما يطلبه الأطباء على مضض. ولم يعد يطلب قياس درجة الحرارة، ويوافق بصعوبة على وضعه. أراد الهدوء التام، وكان ينزعج عندما يقلقونه.

بعد فترة، سمح بنقله إلى سرير آخر، قائلاً لنيكيتين بصوت لطيف:

ـ حسنًا، انقلوني، إذا كان ذلك يرضيكم.

كان بيركينهايم في الغرفة عندما تم تجهيز السرير. راقب الأب بعينيه ما يقومون به، ثم سأل فجأة:

ـ من منكم لم يتبادل التحية معي؟

ولما أخبروه أن الجميع سلموا عليه قال:

ـ كلا، إن أحدا لم يتبادل معي التحية.

ثم اقترب منه غريغوري مويسيفيتش، الذي لم يجرؤ على إزعاج والدي. وقال الأب بصوت رقيق:

ـ شكرا لك، يا عزيزي.

قام بيركينهايم بتقبيل يد أبي وغادر الغرفة وهو ينتحب. وعلى الرغم من أن غريغوري مويسيفيتش كان يعقد أملا أقل من نيكيتين والأطباء الآخرين على شفاء أبي من المرض، إلا أنه سعى وجدّ أكثر منهم، وطالب بإزالة جميع اللوحات والأثاث المنجد المتبقي من غرفة الوالد. أمرني على الفور بغلي دقيق الشوفان وحاول تغذية والدي بجرعات قليلة منه. جاء معه باللبن من موسكو، وعندما عرف الوالد بذلك، طلب ان يناولوه منه، وشرب نصف كوب. بعد أن طهيت دقيق الشوفان وخلطته مع صفار البيض، كما كان يفعل والدي دائمًا في المنزل، قدمته له. وكنا جميعًا سعداء للغاية ومرتاحين عندما أكل والدي قليلاً. وبينما كنا منغمسين في رعاية والدي، ونراقب أدنى تدهور وتحسن في صحته، ومرة تنهار معنوياتنا، وأخرى ترتفع، احتشد مراسلو الصحف خارج جدران منزلنا، ملتقطين كل كلمة، ولم يلحقوا في بعث البرقيات المرسلة. كان عددها كثيرا لدرجة أنه تم إرسال البرقيات العاجلة كالمعتاد. التقط المصورون باستمرار كل ما في وسعهم: أمي، إخوتي، منزلنا، المحطة. وجاء كبير الكهنة الأب فارسانوفي من دير أوبتينا بوستين، وطلب من جميع أقاربي السماح له للدخول على الوالد لإعادته قبل وفاته «إلى حضن الكنيسة الأرثوذكسية».

ترامى لي كل هذا من الاحاديث التي دارت حولي، وذات مرة كادوا يلتقطون صورتي في فيلم سينمائي. فقد دعاني جولدينيفيرز، الذي كان يناوب في حراسة المدخل، قائلا إن والدتي تقف في الشرفة، وتطلب مني الخروج إليها لمدة دقيقة للاستفسار عن صحة والدي. خرجت إلى الشرفة وأنشأت بالرد على أسئلتها، لكنها طلبت مني أن أسمح لها بالدخول إلى المدخل، وأَقسمتْ أنها لن تدخل المنزل. كنت على وشك فتح الباب، عندما سمعت فجأة قرقعة، واستدرت، فرأيت اثنين من المصورين يديران مقبض الجهاز. لوحت بيدي وصرخت، وطلبت منهما التوقف عن التقاط الصور، والتفتُ إلى والدتي وطلبت منها المغادرة على الفور.

وردت على ملامتي لها:

ـ لن تسمحوا لي برؤيته، ولكن دعوا الناس على الأقل يعتقدون أنني كنت عنده!

عدتُ إلى منزلنا، وانا اشعر بحجر ثقيل يجثم على صدري.

وكتب دوشان بتروفيتش إلى العمة ماريا نيكولاييفنا في دير شاموردينو: بالأمس أخبرتني صوفيا اندريفنا أنها لن تترك ليف نيكولايفيتش بعد الآن. وإذا تعافى ليف نيكولايفيتش، ولاتشك صوفيا اندريفنا بذلك، واذا سافر إلى الجنوب، والى الخارج فانها لن تبخل بمنح 5000 روبل لجاسوس ليتبع اثر ليف نكولاليفتش إلى اين ما سيذهب. اخبركم بهذا هذا ليس من أجل إدانة صوفيا أندريفنا، ولكن من أجل التوصيف».

كتب خمسة مراسلين (روسيان و3 يهود) ذهبوا إلى عربتها بالأمس واليوم، كلامها، بأن صوفيا أندريفنا اخبرتهم بأن ليف نيكولايفيتش غادر المنزل لغرض الدعاية لنفسه».

كنت أنا والأخت تانيا جالستين بجانب والدي. وكان طوال الوقت يشهق. سألتني تانيا إذا كان بإمكاني إعطاؤه شيئًا ليشربه.

وأضافت:

ـ لابد أن هذا الفواق يؤلمه للغاية.

قال وهو يستمع إلى حديثنا:

ـ لا، هذا غير مؤلم على الإطلاق.

خلال النهار جلسنا جميعًا في غرفة الطعام. كانت تانيا والطبيب سيمينوفسكي بقرب والدي. لاح لأختي أن الأب، وسط الهذيان، قال كلمة: «سونيا» أو «سودا» (إلى هنا. المترجم). لم تدرك ما سمعته، وسألته مرة أخرى:

ـ هل تريد رؤية سونيا؟

لم يقل الأب شيئًا واستدار نحو الجدار.

وعندما استخدم الأطباء الكمادة، قال الأخ سيرجي، يبدو أن الكمادة وضعت بشكل سيء. سأل الأب:

ـ ما السيء؟

ـ ليس الحالة سيئة، وإنما الكمادة وضعت بشكل سيء وتضغط ـ أجاب الأخ.

ـ اه اه اه!

في ذلك اليوم تغير الوضع بشكل كبير نحو الأسوأ. كان الجميع يعي بأنه لم يعد هناك أمل تقريبًا. بدا لي أن العلاج ـ بالحقن، والأكسجين، والحقن الشرجية، لا طائل منه، وسوى إنها تزعج هدوء الأب، وتشوش على العمل الداخلي الذي استغرقه تمامًا، وهو يتهيأ للموت.

في المساء، نام والدي بهدوء. وعندما استيقظ، اقترحت عليه ان يغتسل. فقال:

ـ أنتِ على حق، اغتسل.

وعندما مسحت شاربه ولحيته، أمسك القطن بشفتيه وحاول أن يدخله في فمه. ربما كان فمه جافًا جدًا. عندما انتهيت، طلبت منه أن يأكل. في البداية رفض، لكنه وافق بعد ذلك وأكل نصف كوب من دقيق الشوفان، وشرب حليب اللوز.

مرت الليلة من اليوم الخامس على السادس بهدوء نسبي. وبحلول الصباح كانت درجة الحرارة 37.3، والقلب ينبض بضعف، ولكنه أفضل من اليوم السابق. انتعش جميع الأطباء، باستثناء بيركينهايم، الذي

نظر طوال الوقت بيأس إلى تداعيات المرض، وانتعشوا وأجابوا على أسئلتنا بأنه على الرغم من خطورة الوضع، فلا يزال هناك بصيص أمل.

في الساعة العاشرة صباحًا، وصل الأطباء شكوروفسكي وأوسوف، الذين استدعتهما عائلتي وألأطباء من موسكو.

قال الأب عند رؤيتهم:

ـ أتذكرهم.

ثم بعد فترة، أضاف بصوت رقيق:

ـ اشخاص أعزاء.

عندما فحص الأطباء والدي، من الواضح أنه ظن أن الدكتور أوسوف هو دوشان بتروفيتش، فعانقه وقبله، لكنه بعد ذلك، اقتنع بخطئه، قال:

ـ لا، ليس ذلك، ليس ذاك.

وجد شكوروفسكي وأوسوف أن الوضع ميؤوس منه تقريبا.

بلى، كنت أعرف ذلك من دونهما، على الرغم من ابتهاج الجميع في الصباح، لكنني تقريبًا لم افقد الأمل. لقد فقدت على الفور كل القوة العقلية والجسدية. وبالكاد أجبرت نفسي على القيام بما هو مطلوب، ولم أعد أستطيع كبح جماح نفسي من العبرات التي صعدت إلى حلقي...

اندمج كل شيء في ذاكرتي في ضرب من المعاناة المستمرة (81).

(81) لقد تيسر لي كتابة بعض التفاصيل بفضل الملاحظات التي كتبتها فيرا ميخائلوفنا فيوكريتوفا، والكسي بيتروفتش سيرجينكو، اللذان دونا اعتمادنا على، كلماتنا كل الأحداث وكلام الأب.

في هذا اليوم، بالضبط توادع معنا جميعًا. كان الأطباء مشغولين بشيء ما بالقرب منه. نظر الأب بمودة إلى دوشان بتروفيتش، وقال بحنان عميق:

ـ عزيزي دوشان، حبيبي دوشان!

مرة أخرى قمنا بتغيير البياضات، ودعمت ظهر والدي. ولذا شعرت أن يده كانت تبحث عن يدي. اعتقدت أنه يريد أن يتكئ علي، لكنه صافحني بقوة مرة، ثم أخرى. ضغطت على يده وضغطت عليها شفتي، محاولة كبح النحيب الذي انحبس في حلقي.

في هذا اليوم قال والدي لي ولأختي كلمات جعلتني أستيقظ من اليأس الذي وقعت فيه، جعلتني أتذكر أن الحياة مُنحت لنا، لرسالة ما، وأننا ملزمون مهما كانت الظروف بمواصلة هذه الحياة، ساعين، على قدر قوانا الضعيفة، في خدمة من «أرسلنا» وأرسل الناس.

كان السرير في منتصف الغرفة. جلستُ أنا وأختي. وبغتة نهض الأب بحركة قوية وكاد يجلس. ذهبت إليه.

ـ اترغب بتعديل الوسائد؟

قال وهو ينطق كلمة بحزم ووضوح:

ـ كلا، لا. تذكروا نصيحة واحدة فقط، أن في الدنيا كثير من البشر ما عدا ليف تولستوي، وأنتم تنظرون فقط إلى ليف وحده.

ومرة أخرى نكس رأسه على الوسائد.

كانت هذه الكلمات الأخيرة الموجهة إلينا.

تدهور الوضع على الفور. ضعف نشاط القلب بشدة، كان بالكاد يُجس النبض، وازرقت الشفاه والأنف واليدان، ونحف الوجه على الفور، كما لو

كان قد تقلص. وبالكاد يُسمع التنفس. واعتقد الجميع أنها كانت النهاية.

لكن الأطباء لم يفقدوا، أو تظاهروا بعدم فقدان الأمل. لقد حقنوا شيئًا ما، وأعطوه الأكسجين، ووضعوا أكياسًا ساخنة على الأطراف، وبدأت الحياة تعود مرة أخرى. أصبح النبض أقوى، والتنفس أعمق.

كان نيكيتين يحمل كيس أكسجين. دفعه والده جانبًا.

قال:

ـ إنه غير مجد على الإطلاق.

أخبرني أحدهم في المساء أن الأب فارسانوفي يريد رؤيتي. رفض جميع أقاربه وأطباء الأب بشكل قاطع طلبه بمقابلة والدي، لكنه مع ذلك وجد أنه من الضروري التوجه لي بنفس الطلب. كتبت له الرسالة التالية:

«سامحني يا أبي، إنني لا انفذ طلبكم ولا آتي للتحدث معكم. فليس بميسوري في هذا الوقت ترك والدي المريض، الذي قد يحتاجني في كل دقيقة. وبالإضافة إلى ما سمعته من عائلتنا بأسرها، لا يمكنني إضافة أي شيء.

قرر ـ جميع أفراد الأسرة ـ بالإجماع، قبل كل الاعتبارات، طاعة إرادة ورغبات الأب، مهما كانت. وبعد إرادته نطيع أوامر الأطباء الذين يجدون في هذا الوقت أن تقديم أي شيء له أو قهر إرادته، يضر بصحته. مع خالص التقدير لكم، الكسندرا تولستايا. 6 نوفمبر 1910 أستابوفو».

تلقيت إجابة على هذه الرسالة من الأب فارسانوفي، والتي اسوقها هنا:

«معالي الكونتيسة الكسندرا لفوفنا المحترمة.

أتمنى لكم السلام والفرح من الرب يسوع المسيح.

أشكر سعادتكم بكل احترام على رسالتكم، التي كتبتم فيها أنكم وعائلتكم تضعون في المقدمة إرادة والدكم لكم. لكنكم أنتم، ايتها الكونتيسة، تعرفون أن الكونت أعرب لأخته، أي خالتكم، الراهبة الأم ماريا، عن رغبته في رؤيتنا والتحدث معنا لإيجاد السلام المنشود لروحه، وقد حزن بشدة لأن هذه الرغبة لم تتحقق. في ضوء ذلك، أطلب منكم أيتها الكونتيسة بكل احترام ألا ترفضوا إبلاغ الكونت عن وصولي إلى أستابوفو، وإذا رغب في رؤيتي حتى لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق، فسوف آتي إليه على الفور. في حالة وجود إجابة سلبية من الكونت، سأعود إلى دير اوبتينا بوستين، مسلما هذه المسألة لإرادة الرب.

رئيس الدير الخاطئ بارسانوفيوس المؤمن الذليل.

1910 يوم 6 نوفمبر. أستابوفو».

لم أردُ على هذه الرسالة. وفي الحقيقة لم يكن بميسوري القيام بذلك.

بدا لنا جميعًا أن حالة والدي كانت أفضل، وعاد الأمل مرة أخرى. وأعطوه حقنة شرجية من محلول ملحي.

كان والدي يضجر في كل مرة يقلقه الأطباء، وهو ما عبّر عنه عدة مرات. عندما اقترح عليه نيكيتين وضع حقنة شرجية، قائلًا إن الفواق سوف يختفي بعد ذلك، قال له والدي:

ـ إن الرب يرتب كل شيء.

قال مرة أخرى:

ـ كل هذا هراء، كل هذا هراء، ما نفع العلاج.

جاء الأخوة والأطباء في المساء إلى غرفة الطعام. تحدث شكوروفسكي كثيرًا مع فلاديمير جريجوريفيتش عن مرض والدي، ولكنه لم ييأس. وجد أن والدي لا يزال يتمتع بالقوة.

ومن ثم ذهبنا جميعًا إلى الفراش، وبقي بيركينهايم وأوسوف فقط.

استغرقت أنا في النوم. ايقظوني في الساعة العاشرة. تردت حالة والدي أكثر. بدأ يشعربالاختناق. رفعوه على وسائد وجلس ونحن نسنده، ورجلاه متدليتان من السرير.

وقال بصوت أجش:

ـ التنفس صعب.

ايقظوا الجميع. أعطاه الأطباء تنفس الأكسجين واقترحوا عليه حقنة من المورفين. لم يوافق الأب.

قال

ـ لا، لا، لا أريد ذلك.

وبعد التشاور فيما بينهم، قرر الأطباء حقنه بالكافور من أجل رفع نشاط القلب الضعيف.

عندما أرادوا حقنه، سحب والدي يده بعيدًا. وقيل له إنه ليس مورفين، بل كافور، ووافق.

بعد الحقن شعر والدي بتحسن. دعا سيريوجا.

ـ سيريوجا!

وعندما اقترب سريوجا قال له:

ـ في الحقيقة... أنا أحب كثيرا... مثلهم...

هذه كانت اخر كلماته. ولكن حينها بدا لنا أن الخطر قد زال. هدأ الجميع وتفرقوا مرة أخرى للنوم، ولم يبق من حوله سوى المناوبين.

لم أخلع ملابسي طوال هذه الأيام وتقريبا لم أنم، لكن في تلك المرة شعرت بالنعاس لدرجة أنني لم أستطع التغلب على نفسي. استلقيت على الأريكة وغرقت على الفور في النوم مثل امرأة ميتة.

استيقظت في حوالي الحادية عشرة. اجتمع الجميع. ساءت حالة الأب مرة أخرى. في البداية بات يئن، وتقلب، ولم يعمل قلبه تقريبًا. قام الأطباء بحقنه بالمورفين، ونام والدي حتى الرابعة والنصف صباحًا. عمل الأطباء شيئًا ما آخر، وحقنوه بشيء ما. كان يرقد على ظهره ويتنفس بصوت أجش. كان تعبير وجهه صارمًا وجادا، كما بدا لي غريبًا.

كان يحتضر بهدوء.

تحدثوا عن أنه لا بد من السماح لدخول صوفيا أندريفنا.

اقتربتُ منه، كان يتنفس بصعوبة. وطبعتُ قبلة على وجهه، ولثمت يديه لآخر مرة...

تم إحضار الأم. كان قد فقد الوعي تماما. ابتعدتُ أنا وجلستُ على الأريكة. كان تقريبًا كل المتواجدين في الغرفة يبكون بخفوت، قالت الأم شيئًا ما، وهي تندب. وطُلب منها أن تصمت. وارسلُ الأب شهيقا أخر، كان الأخير... وخيم على الغرفة صمت مرهوب. وفجأة قال شوروفسكي شيئًا ما بصوت عالٍ وحاد، وردت والدتي عليه، وتحدث الجميع بصوت عالٍ.

أدركتُ أنه لم يعد يسمع...

انتهت

الفهرس

كلمة لابد منها 7

إبنـة أبيها13

كيف ولدتُ29

عائلتنا33

شعوري بالوحدة47

في موسكو59

في ياسنايا بوليانا. «الظلاميون»71

غير مفهوم85

«البعث». زواج تانيا. الحرمان من الكنيسة99

الخالة111

اعتراف121

القرم129

مغامرات غرامية فاشلة159

العم سيريوجا183

في البيت مجددا193

النزهات211

الحرب اليابانية. سنة 1905223

ولادة تانيشكا. مدرستي. دوسان بتروفيتش239

مرض أمي، موت ماشا253

دروس للفتيان. إغماء261

الاب275

عند عائلة تشيرتكوف في ميشيرسكي289

اليوميات297

الوصية313

في كوتشيتكي333

الشهر الأخير في ياسنايا بوليانا347

المغادرة367

المرض والموت393

مؤلّفة الكتاب هي الابنة الصغرى لليف تولستوي، الكسندرا تولستايا التي عاشت إلى جانب ابيها خمسة وعشرين عاما حتى يوم وفاته، وكانت من أكثر المقربين اليه، ليس فقط بعلاقات الرحم، وإنما بالروح وعمق فهم ابداعاته، وشاطرته أفكاره ومعتقداته من صميم وجدانها. تتابع في مذكراتها نمو هذه العلاقات ولاسيما في السنوات الأخيرة من عمر الأديب، حينما كان يمر بأزمة روحيّة وعائليّة، محتاجاً إلى الحب والفهم.

إنه كتاب مذكرات حيّة ومثيرة للاهتمام تصوّر، بشكل موثوق، حياة الأسرة والعالم المحيط فيها، وتروي ملابسات السنوات الأخيرة من حياة الكاتب العظيم، حينما قرر تولستوي التخلّي عن حقوقه كمؤلف ووضع أعماله مجاناً تحت التصرف العام، فيما رفضت زوجته هذا الخيار، وصارعت من أجل أن تكون حقوق الطبع باسمها، لأنها مورد "رزق العائلة". وقفت الابنة في هذا النزاع الدرامي الى جانب والدها، ولثقته بها منحها حق التصرف بأعماله بعد رحيله، وكشف لها بدقة تفاصيل سر مغادرته ياسنايا بوليانا قبل أن يحتضر أمام عينيها.

تصوّر الصفحات نمط حياة تولستوي اليومية وهو يعكف على العمل والانتاج، والتعامل مع الآخرين، وبالخلاف عن العديد من المذكرات فالكسندرا تقدم تولستوي من دون رتوش، انساناً دنيوياً، ورجل عمل، مرحاً ويحب الحياة، ليس مفكراً عميقاً وأديباً عبقرياً وحسب، ولكن عند الحاجة يبتكر الالعاب المسلية، ويخرط فيها، يؤلّف الأغاني الخفيفة، ويرقص الرقصات الشعبية.

كما تطوف بنا المؤلّفة في جولة واسعة في روسيا، بالدرجة الأولى في المناطق ذات الصلة بتولستوي، وخاصة ضيعة العائلة في ياسنايا بوليانا التي تمثل اليوم واحدة من أهم المعالم الثقافية الروسية ويزورها سنوياً الآلاف من السواح.

إنه كتاب مثير، لا غنى عنه لمحبي صانع الحكايات الأمهر.

ISBN 978-9-9226434-3-4
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain
dar.alrafidain
dar alrafidain